انظر اول الكتاب بعد الفهرس

مقدمة الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل التاريخ لأولي الألباب تذكرة وجلا لنواظر الأفكار مرايا من صحفه المنشرة وقدم الباحثين فيه بالاستحقاق وان تأخرت أيامهم واختص بالحفظ لآثارهم طروسا أودعتها الحق على شرط الوفاء أقلامهم والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاء بالعجب العجاب وأنطق ألسنة السيوف بفصل الخطاب وعلى كافة الأنبياء والمرسلين ومن له من أتباعهم أشرف العالمين (أما بعد) فان التاريخ لسان يخبر به الزمان عن عجائب الوقائع بل أستاذ يقرر دروس الحوادث ليعيها السامع بل ما نشأت من محمود وممدوح ينفس كروب النفس ويروح الروح وله من رجال الأئمة فضلاء وسادة جلة نبلاء صرفوا فيه من نقود أعمارهم النفيس حتى كشفوا عن وجهه نقاب التلبيس فتيسر سبيله واتضح دليله وعلمت مجاهله ووردت مناهله وأصبح صراطا للمجتاز سويا فلم يخش أي سار في جادته هويا

ولما كانت الحروب الصليبية من أكبر طوارئ الزمان وأشد ما دهي به العالم من طوارق الحدثان توجهت اليها أفكار متنبهة وأنظار لم تكن لغير البحث فيه متهيئة وكنا ممن بالتدبر فيها والتنقيب عن ظواهرها وخوافيها لان أقل ما يستفاد من ذلك معرفة كيف كان شأن القوم في الاختلاط وأوربا اذ ذاك في انحطاط والشرق منبع المعارف ومنتدى الفضائل والعوارف حتى انتهى الأمر الى اتضاع المرتفع وارتفاع المتضع ضرورة أن الزمان أدوار والظلم تجليها الأنوار فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ولكن يؤاخذها بجناية يديها تلك نتيجة مساعي الأمتين الشرقية والغربية ولا نقول الاسلامية والنصرانية فان مشاحنتهما أصلها الاساسي جنسي سياسي لم يكن منظورا فيه لدين ولا مذهب وان زعم غير ذلك اليوم من لم يفرق بين السبب والمسبب وقد كان في أحد أسفارنا منذ نحو ثمانية أعوام قد اجتمعنا ببعض علماء طرابلس

الشام فجاد بنا معه أطراف الحديث وتذاكرنا في القديم والحديث واذا هو في الفضل آية بينه غنيت بالعيان عن الشهود والبينه فلزمنا الاطفه معاشرته واستدمنا في مجاورته محاورته حتى وقفنا في بعض نوادي الندانى على كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الكاتب الاصفهاني فاذا فيه العجب والمطرب مما يفيد المؤرخ والمتأدب وقد وصفه مؤلفه بما يغني اذ يقول يأخذ الفريقان منه على قدر الفراغ والعقول فادلنا عليه بطلبه علما بارقة طبعه فأنعم على شرط نشرطيه بطبعه فوعدناه بالوفاء لاقتران الشرط بالجزاء ثم لم نتمكن من مباشرة الطبع حالا لعدم تفرغنا له الا حتى دنا الاجل لحق العمل هنالك رأينا نسخة قديمة في المكتبة الليدنيه من الممالك الهولنديه وقد كتبت بعد وفاة المؤلف بأربع سنين وعارضها بأصله بعض المحصلين فأخذنا في الطبع مقابلين بين النسختين وما نقله أبو شامة عن العماد في كتاب الروضتين

وانما عمدنا فقط الى طبع هذا الكتاب مع تعدد سواه في هذا الباب لاغراض جمه وأسباب مهمه منها أن للعماد بين الشرقيين شهرة عمت الآفاق وكلهم في فضله على اتفاق فما من أديب منهم يجهل مقامه أو يحرك لسانه في أدبه بملامه وهم لم يروا له كتابا أصلا وان شئت فقل لم يقرؤا له على التمام فصلا ونحن نود لهم النفع التام كما انتفعنا بما آثرناه عن اسلافهم الكرام وان جهل حقيقة الواقع من لم يتدبر ماجريات الوقائع ومنها ان العماد قد حضر تلك الملاحم وهو لصلاح الدين أبدا ملازم فشاهد أحوالها عيانا وحدث عنها بيانا والعيان لا شاهد بعده خصوصا من مثل العماد فانه عمده ومنها ان هذا الكتاب قد اشتمل على حوادث سبعة أعوام هي اهم ما جرى في تلك الازمنة بلا كلام لوقوع الحرب في بعضها بين ملكين كبيرين شهيرين بشدة البأس خطيرين وهما السلطان الناصر صلاح الدين الايوبي صاحب مصر والشام والحجاز واليمن وريشرد ملك انكلترة الملقب بقلب الاسد عند أهل ذلك الزمن فقد امتازا بالشجاعة التي لم يصل اليها أحد من القاده حتى كادت تعد من خوارق العاده وطالما ضرب بينهما المصاف ولم ينتصف أحدهما من الآخر بكل.

الانتصاف ومنها تأدية العهد والوفاء بالوعد فالمرء أسير لفظه والحر من راعى وداد لحظه

ونحن نعلم ان مؤرخى العرب فى تلك الايام لم ينتبذوا الحق ظهريا ولم يأتوا فيما دونوه أمرا فريا فيجب علينا التصديق بما قالوا والميل عما عنه مالوا ثم لا بأس بعد ذلك بالتطبيق رعاية لتمام التحقيق ومع ذلك فكلنا بتقدم الشرق اذ ذاك مسلم عالم ان الفضل للمتقدم فالمرجوا من اخواننا الشرقيين ان ينبهوا هممهم ويوجهوا الى التعاون كلهم ويساعدونا بما يصل اليه امكانهم ويقوم به بيانهم جزاهم الله كل خير ودفع عنهم كل ضير ما تعاقب الليل والنهار وأبدت حكمها الادوار آمين

(فهرست كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي على حسب ترتيب المؤلف)

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفة

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفة

صحيفة

صحيفه

صحيفه

﴿تمت﴾

كتاب

الفتح القسي في الفتح القدسي

تأليف

الوزير المنشئ البليغ
أبي عبد الله محمد بن محمد الشهير بعماد
الدين الكاتب الاصفهاني

(الطبعة الاولى)
بالمطبعة الخيرية
سنة ١٣٢٢
هجريه

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

نسأل الله من الحمد ما يبلغ قضاء حقه وان حقه لعظيم ومن الرشد ما يكتب سلامة نياتنا فى الطريق الى كرمه وانه لكريم ونشكر بسر القلب وجهر اللسان احسانيه الينا بانهما حادث وقديم ونستزيده ونستديم نعمه ولن يخيب على الشكر والرضا مستزيد ومستديم ونستعين به على الدهر وقد فعل فاذا وهو الذى بيننا وبينه عداوة كأنه ولى حميم والحمد لله الذى بدأ بنعمه متطولا وعزيده متفضلا وعلمنا شكر فضله الموفور وقبل مناعفو خواطرنا المنزور فلا يكلفنا من الشكر فوق الطاقه ولا يطلع من النعم الطليعة الا وورا.ها من المزيد الساقه وقد وصف المشكور منه نفسه بانه شاكر عليم فرب غافل مناعن الشكر ما غفل عنه فضله العظيم فلا عدمنا يتتاب منتابه راجيا وداعيا ومستيقظا وساهيا وصامتا ومتقاضيا لنا منه على كل حال كل حال من مواهب ربما عطل عنها لسان شكرنا وضمير ذكرنا وبانت سارية الينا لا طيفا بل حقيقة على نوم فكرنا ثم ان الله سامحنا فى حقه من الشكر فقبله من عيينا وبليغنا ومتبرعنا ومسيغنا فتارة يقبله ضميرا مجمجما وتارة يحيط به قولا مترجما ومرة يعلمه نظرا من قلب ينفذ نور الذكر من ظلمات ضلوعه ومرة يسمعه همسا من لسان يناجى ملكه بنغمات مسموعه وكيف لا يعلم السر وأخفى من بعينه مسارحه وكيف لا يعلم الغيب من عنده مفاتحه ونرغب اليه فى ان يحمل عنا حق نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فانا لا نرضى بعفو استحقاقه من الوصف جهدنا فنصل اليه صلاتنا ونؤدى اليه ودنا ونعظم موقعه حين كان منه كقاب قوسين أو أدنى ونشكره على ان فتح علينا الدار التى كانت الى الله طريقه ليلة أسرى به فانبعث صلى الله عليه وسلم سهما فكان كقاب قوسين فى اقترابه ما كذب الفؤاد ولا خاب المراد ولا صدق المرتاد وأين من أخبر عنه انه رآه بالافق الاعلى ممن امتن عليه بانك بالواد فمن كان فى روض القرآن يسرح فرق بين المنزلتين من رب اشرح وألم نشرح ونصلى على آله

وأصحابه ولاة الحق وقضاة الخلق ورتقه الفتق وغرر السبق وألسنة الفرق وفصحة الغرب والشرق منهم من رد ردة العرب عن اسلامها ومنهم من استنزل أرجل العجم عن أسرتها ونحاها عن هامها وأخمد عبدة نيرانه ان يطعموها حطبا ولو وصلت اليهم لا كلتهم وأخمل عبدة أوثانه عن ان يقعوا لها سجدا ولو وقعت عليهم لقتلتهم ومنهم من أنفق فى سبيل الله وجهز ومنهم من قتل أعداء الله فأجهز ومنهم الاشداء على الكفار ومنهم الاسداء اذا زاغت الابصار ومنهم الساجدون الراكعون ومنهم السابقون ومنهم التابعون ومنهم نحن أهل الزمن الآخر وقد سلم علينا سلام الله عليه فى زمنه الحاضر وسمانا اخواننا واشتاق الى ان يلقانا فنحن الآن اغمار دعليه تحيته والبادى أكرم واغمار جو شفاعته بالمودة التى قدمها والفضل للاقدم

هذا كتاب أسهمت فيه بين الادباء الذين يتطلعون الى الغرر والمتطلبه وبين المستخبرين الذين يستشرفون الى السير المتصليه يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول ويكون حظ المستخبر أن يسمع والاديب ان يقول فان فيه من الالفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التى نولدها ومن غرائب الوقائع ما صاربه لسانا من ألسنة العجائب التى نوردها واغا بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة لان التواريخ معتادها اما ان تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الاولى واما مستفتحة بعقب من الدول الاخرى فلا أمة من الامم ذوات الملل وذوات الدول الاولهم تاريخ يرجعون اليه ويعولون عليه ينقله خلفها عن سلفها وحاضرها عن غابرها تقيد به شوارد الايام وتنصب به معالم الاعلام ولولا ذلك لانقطعت الوصل وجهلت الدول ومات فى أيام الاخر ذكر الاول ولم يعلم الناس انهم لعرق الثرى وانهم نطف فى ظلمات الاصلاب طويلة السرى وان أعمارهم مبتدأة من العهد الذى تقادم لآدم وقد أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم لما أراده من ظهورهم فليعلم المرء قبل انقضاء عمره وقبل نزول قبره ما استبعده أهل الطى من حقيقة النشر ولتقبل فى واحدة من الاطوار شهادة عشر فقد قطع عمرا بعد عمر وسار دهرا بعد دهر ونوى وأنشر

فى ألف قبر وانما كان من الظهور فى ليل الى ان وصل من العيون الى فجر ولو
التاريخ لضاعت مساعى أهل السياسات الفاضله ولم تكن المدائح بينهم وبـ
المذام هى الفاصله ولقل الاعتبار بعاملة العواقب وعقوبتها وجهل ماور
صعوبة الايام من سهولتها وماورا سهولتها من صعوبتها فأرخ بنو آدم بيو
وكان أول من اشترى الموت نفسه وقام النزع مقام سومه ثم أرخ الاولون بالطوفا
الذى بلل الارض وأغرقها ثم بالعام الذى بلبل الالسن وفرقها وأرخت الفر
أربعة تواريخ لاربع طبقات من ملوكها أولهم كاشاه ومعنى هذا الاسم ملك الط
فاليه ترجع الفرس بأنسابها وعليه ينسق عقد حسابها وهى الآن تؤر
بيزدجرد آخر ملوكها وهو الذى بزه الاسلام تاج ايوانه واطفأنو رالله بيت نيرا
وأرخ اليونان من فيلبس أبى الاسكندر والى قلوبطره آخرهم وهؤلاء المسمو
بالحنفاء وهم الصابئون وأرخ الروم بالاسكندر لعظم خطره وشهرة أثره وأر
النبط بالعراق والقبط بمصر بتواريخ موجودة فى الكتب التى خلدوها والازيا
التى رصدوها وأرخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم وبعمارة البيت المقدس وبخرا
على ما اقتضاه نقل أوائلهم وآبائهم وكانت العرب قبل ظهور الاسلام تؤر
بتواريخ كثيرة فكانت حمير تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذو ويسمى بقيل وكانـ
غسان تؤرخ بعام السد حين أرسل الله عرم السيل وأرخت العرب اليمانيـ
بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه وأرخت معد بغلبة جرهم للعماليـ
واخراجهم عن الحرم ثم أرخوا بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العر
تنازع فى الديار فنفصلوا منها وافترقوا عنها ثم أرخوا بحرب بكر وتغلب ابنى وائـ
وهى حرب البسوس ثم أرخوا بحرب عبس وذبيان ابنى بغيض وهى حرب داحـ
والغبراء وكانت قبل المبعث بستين سنة ثم أرخوا بعام الختان قال النابغة الذبيا

فمن يك سائلا عنى فانى * من الفتيان فى عام الختان

وأرخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعام الخنانق وعام الذنائب ويوم ذ
قار وبحرب الفجار وهى أربع حروب ذكرها المؤرخون وأسندها الراو
وأدنى ما أرخوا به قبل الاسلام بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار الرابـ

وبحلف المطيبين وهو قبل حلف الفضول ثم بعام الفيل وهو الجار ذو القربى لتاريخ الاسلام وبعده خرج امام الجمعة فطويت الصحف وجفت الاقلام وأظهر الله على الاديان الدين القيم ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم فأمن وقوع الخلف الواقع فى تواريخ الامم وجبت الهجرة ما قبلها جب الانوار للظلم ودفع الله الناس بعضهم ببعض واستدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وسأل الله عباده على يد وكيل حقه من الاموال والانفس ما يعيده اليهم مضاعفا من القرض ووقت هذه الهجرة الوقت الذى أمر به أمر الاسلام ويومها اليوم الذى ما ولدت الليالى مثله من بنيها الايام وعامها الخاص بالفضل وكل ما بعده بعد من عوام الاعوام

وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الاولى بأن أمدها بالقيامة معذوق وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير الممذوق وهذه الهجرة هى هجرة الاسلام الى البيت المقدس وقائدها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق وتسفر عن أهلتها ادى المداد وتنشق وهى وان كانت هجرة الاسلام الى القدس ثانيه فقد كان انثنى عن وطنه منها لما انثنته يد الكفر ثانيه وهذه الهجرة أبقى الهجرتين وهذه الكرة بقوة الله أبقى الكرتين فان العرب كانت اذا تناهت فى وصف الرجل بالقوة قالت كانه كسر ثم جبر والحق أن نقول ان أطول الحياتين حياة المرء اذا مات ثم نشر والعيان يشهدان أمنع السورين ما عمر بعد ان ثغر والفرق بين فتوح الشام فى هذا العصر وبين فتوحه فى أول الامر فرق يتبين تبين الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر فان الشام فتح أول والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم غير بعيد والوحى ما كاد يتعطل فى طريقه من السماء الى الارض بريد والعيون التى شاهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسل سيوفها من أجفانها والقلوب التى شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره فى الفتح منها بعيانها ورسل عالم الغيب الى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفه ونجدات السماء الى الارض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومردفه وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم ان الارض زويت له مشارقها

ومغاربها وانه سيبلغ ملك أمته المنوبة المرحومة ما ضمت عليه جوانبها والروم حينئذ بغاث ما استنسر والفرس يومئذ رخم ما استبصر والحديد ما تنوعت أشكاله الرائعة ولا طبعت سيوفه هذه القاطعة ولا نسجت ثيابه هذه المانعة والبروج لا تعرف الامشيدة لا مجلدة والمنجنيقات لا يتوثب ما يتوثب اليوم من خشبها المسندة والاقران لا تتراجم بالنيران المذكاة والاسوار لا تتناطح بالكباش المشلاه وبصائر السلف الصالح رضوان الله عليهم يقاتل بها ولو كانوا عزلا والواحد منهم يسوق العشرة كما يساقون الى الموقف حفاة غرلا وكانوا أحرص على الموت منا على البقاء وكان شوقهم الى لقاء الله باعثهم على لقاء الاعداء بذلك اللقاء والشام الآن قد فتح حيث الاسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا وهرق شبابه واستشن أديمه وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا وقد أظلم شرف السماحة وهى للملك المعترك وكثرت معاثره بمناصب الشرك من الشرك وأخلق الجديدان ثوبه وكان القشيب وذوى غصنه وكان الرطيب ونصلت كفه وكانت الخضيب وطال الامد على القلوب فقست ورانت الفتن على البصائر فطمست وعرض هذا الادنى قد أعمى وأصم حبه ومتاع هذه الحياة القليل قد شغل عن الحظ الجزيل فى الآخرة كسبه والكفار قد خشنت عرائكهم واتسعت ممالكهم واستبصر واقى الضلال واستبضعوا القتال وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البرناشبة الصوت وقاتلوا جندا ورعيه واستباحوا الانفس متورعين فلا ترى أعجب من أن ترى استباحة ورعيه وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون وأمدهم فى طغيانهم يعمهون ورفعوا التكليفات فلا ينزع الحديد لوضوء ولا مسح واستشعروا لبوس البوس فلم يلبسوا بها الامن دروالشفاء على القطوب بلا بشر ولا فرح شقرا كأنما لفحت النار وجوههم وهم فيها كالحون زرقا كأنما عيونهم من حديدهم فهم بقلوبهم وعيونهم يكاشحون قد نزع الله الرقة من قلوبهم ونقلها الى غروبهم وعذبهم لما يريده من تعذيبهم واشتعلت نار جهلهم فى فحم ذنوبهم تستعبد المردة من مردتهم وبدعى النار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم فظاظ غلاظ

جهنميون كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكنى عنهم بوقود جهنم حين قال وقودها الناس والحجارة والا فالحجارة لا تستحق الوقود الا أن يراد بها القلوب التي هي كالجلمود في الجمود ومضت ملوك الاسلام ومضت أيامهم كالبارق وان لم تخلع الاظلام وزارت أيامهم الايام خيالا فتنازع الناس طرائف الاحلام وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم وكانوا محاربين كسالمين وبذلوا جهدهم فلا نقول انهم مظلومون بالعجز وما نسميهم ظالمين اللهم غفرا الكل أجل كتاب وكل يوم هو في شأن ولكل مقدور أجل ولكل ما خلق له تيسير ولكل ما تقدم الكتاب الموقوت تأخير والايام تمخض وتطل بالزبده والسور تتلى الى ان تأتي بالسجده والناس يريدون الخروج ولكن ما أعدوا له عده والعذر على كل لسان لكل قوم مده

اذا عجزوا قالوا مقادير قدرت * وما العجز الا ما تجر المقادير

وأبى الله من يقبل عذرا صحيحا وكفى بلفظة النبوة لو ماصر يحا فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتها وأظهر الآية التي لا أخت لها فنقول هي أكبر من أختها أفضت الليلة الماطلة الى فجرها ووصلت الدنيا الحامل الى تمام شهرها وجاءت بواحدها الذي تضاف اليه الاعداد ومالكها الذي له السماء خيمة والحبك أطناب والارض بساط والجبال أوتاد والشمس دينار والقطر دراهم والافلاك خدم والنجوم أولاد صلاح الدنيا والدين ومهماد عونا له فان الله قد سبق اليه كونا ورأينا بين منانا وبين كرمه بونا فهو سبحانه أكرم بالنوال منا بالسؤال والكريم بكرم الله مجزى والساكت عن الدعاء له مكفى فان قلنا أحسن الله اليه فقد قال (انا لا نضيع أجر من أحسن عملا) وان قلنا جزاه الله بالاحسان فقد قال (هل جزاء الاحسان الا الاحسان) وان قلنا هداه الله سبيله فقد قال (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وان قلنا لا ضيع الله عمله فقد قال (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل) وان قلنا لا جعل الله الدهر عليه سبيلا فقد قال (ما على

المحسنين من سبيل) وان قلنا ازاده الله هدى فقد قال (والذين اهتدوا زادهم هدى)

كل مسؤل سائل * فى معاليه قد كمل
لا يسل فيه سائل * سبق الجود ما سأل
وليصح تأملا * يجد الله قد فعل

ونعود الى ذكره اعز الله ذكره فجاد الى ان لم يبق مال ولا أمل وجاهد الى ان لم يبق سيف ولا قلل فلا كف صح على يديه قبح وماهو قبح واحد ماهو الا فيضان قبح والدم ذائب وقبح والذهب جامد فما البلاد التى جمعها فاتحا باغرب من البلاد التى فرقها مانحا فقد استوعب بأسه أكثر مولدات المعادن حديدا وزاد لانه ضرب بالسيوف التى كسرها ثم ضرب بها واستوعب جوده مولدات المعادن ذهبا وزاد لانه نقل الى الاعداء غنم سلع ثم نهبها فوهبها فكل معاد معادى الا هذا المعاد وكل مداد يكتب به اسود الا هذا المداد (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون) أما يرى الناس ماعلى وجه الصدق من قبول الفراغ وماعلى يد الجود من قبل المداغ

(الناس أكيس من ان يمدحوا ملكا * ولم يروا عنده آثار احسان)

وانا لنرجوا ان نكون قد كتبنا بمدحه مع الصادقين الذين أمر الذين آمنوا ان يكونوا معهم وان نكون قد كتبنا مع المحسنين لانا أحسنا وصف احسان الله الى عباده ولم يقطع بنا ماقطعهم وانا وان كنا رعاياه لترى أنفسنا ملوكا ونرى الملوك وهم له سوقه وان القلم فى أيدينا ليهتز طربا لذكره كانه جان وكأن السيف يشنع بانه فروقه ولسنا نسميه قصيرا وان جدع انفه ولكنا نركبه كما ركب قصير العصا الى وصف هذا السلطان ليدرك وصفه ونقول للقلم اذا فاخره السيف ان شانئك هو الابتر ونزيد اذا أوردناه وصف مولانا بانا أعطيناك الكوثر على ان هذا القلم يلزم الادب لذكره أعلاه الله فينكس راسه ويقبل بين يديه كما يقبل حامله الارض قرطاسه ولست بيعيد فى تقييد هذه المفاخر وتشييد هذه المآثر من رجال الطعن والضرب الذين قضوا بين يديه واوجبوا الحق عليه بل حقى من حقوقهم أوجه وأوجب وقلمى من سيوفهم أضرى وأضرب ومن رماحهم اخطى وأخطب ومن سهامهم أنجى وأنجب ومن قسيهم اكسى وأكسب ومن

جيادهم أسرى واسرب ومدادى من نقعهم أغلى واغلب وقرطاسى من راياتهم اجلى واجلب وسيوفهم قد أغمدت وجردت منه مالا يغمد ولا يجمد وآثار السيف من الجراح قد رقادمها وآثارى من الذكر لا تخمل ولا تخمد

* وما السيف أسوى ضربة من لسانيا * فكل أثر خبر به غيرى يموت الخبر بموته وينقطع صيت الاثر بانقطاع صوته والذى اخبرانا به عنه روض يزهو اذا اقلعت الايام صبا ونجم يبدو واذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهبا فهو قول يذكر وينسى كل فعل وفاعله لا قول يؤثر مهما عاش اليوم عامله ثم لا يأتى فى غد الا جاهله فهذه الكتب تهب الاعمار الثانيه وتفاخر الالسنة القائلة بها الايدى الكاتبة البانيه فانظروا الى ايوان كسرى وسينية البحترى فى وصفه تجدوا الايوان قد خرت شعفاته وعفرت شرفاته وتجدوا سينية البحترى قد بقى بها اسم كسرى فى ديوانه أضعاف ما بقى شخصه فى ايوانه واغا راوح بين الاوصاف الغاديه وتناوب بين السمات الساميه للاشارة الى من ينبه على مسماه وينوه بسماه فامامن يقول الله لاسمه أنت من معقبات حمدى ويقول الدهر لذكره أنت الباقى من بعدى فانما يلزم الادب بوصف فضله العظيم ويرفع قدر القول بفضل وصفه الكريم ويسر الله هذه الفتوح وأنزل بها الملائكة والروح فى أيام سيدنا ومولانا الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبى العباس أحمد ابن الامام المستضىء بالله أبى محمد الحسن ابن الامام المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن الامام المقتفى لامر الله أبى عبد الله محمد ابن الامام المستظهر بالله أبى العباس أحمد ابن الامام المقتدى بالله عبد الله ابن الذخيرة محمد بن الامام القائم بامر الله عبد الله ابن الامام القادر بالله أبى العباس أحمد ابن الامير اسحق ابن الامام المقتدر بالله أبى الفضل جعفر ابن الامام المعتضد بالله أبى العباس أحمد ابن الموفق بالله أبى أحمد طلحة ابن الامام المتوكل على الله أبى الفضل جعفر ابن الامام المعتصم بالله أبى اسحق محمد ابن الامام الرشيد بالله أبى جعفر هرون بن الامام المهدى بالله أبى عبد الله محمد ابن الامام المنصور أبى جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين والخلفاء الراشدين وهى الايام التى زواهر آيامها ذواه ومضاه

مضاربها للقضاء مضاء فما أجلها فضلا وأفضلها جلالا وأقبلها جدا وأجدها اقبالا وأفرها ندى ونوالا وأبعدها مدى ومنالا وما أعلى سنى مجدها وأحلى جنى رفدها وأفعم رياض فضائلها وأفعم حيا حياض فواضلها وأسمع سماء سماحها أمطارا وأصح جناح نجاحها مطارا والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ناصر دعوته وداعي نصرته ووليه الطائع وسيفه القاطع والحكم بأمره والمؤمن بحكمه فرأيت ابداء ميامن هذه الايام الغر على الآباد بغرر الآداب وقيدت شوارد معانيها وسيرت محامد معاليها بهذا الكتاب وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتوأم در السحاب ودر السخاب (وسميته الفتح القدسي) تنبيها على جلالة قدره وتنويها بدلالة فخره وعرضته على القاضي الاجل الفاضل وهو الذي في سوق فضله تعرض بضائع الفضائل فقال لي سمه (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز و القدرة في البيان عن صياغته ولما كان هذا الفتح في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بدأت بها وأنشأت رياضي بسحبها وما شهدت الا بما شاهدته وشهدته وما استمطرت الا عهاد العهد الذي عهدته وما عنيت الا بايراد ما عاينته ولا بنيت القاعدة الا على آس ما تبينته فبينته وما توخيت الا الصدق وما تهيت الا الحق ولا ذكرت كلمة تسقط ولا اعتمدت الا ما يرضى الله ولا يسخط وبالله التوفيق والعصمه وله الحمد ومنه النعمه

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الى الاقطار والبلاد يستدعى من جميع الجهات جموع الجهاد وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد واستحضر الغزو من الحضر والبدو وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم قبل استنجاد الجنود واستحشاد الحشود واصحار الاسود واحضار البيض والسود مضى العزماضي العزم صائب السهم ثاقب الفهم ثابت السعود كابت الحسود وخيم على قصر سلامة من بصرى وكفت يد رعيته الطولى من الفرنج اليد القصرى وأقام على ارتقاب اقتراب الحجاج

وقد رتب الفرنج من الارصاد أفواجا على تلك الفجاج لاسيما رأس الكرك فانه كان حريصا على الدرك ناصبا شرك الشرك نصب الشرك فلما شم ذلك الذئب رائحة الاسد عاود دخول حصنه حذار خروج روحه من الجسد ووصل الحاج فى أول صفر وقد قضوا حاجهم ورضوا منهاجهم وخرجوا عن فرضهم ودخلوا الى أرضهم وفرغ القلب من شغلهم وخف مالزم من ثقلهم وانتظر السلطان وصول العسكر المصرى المستدعى ورجى منه حصول العدد المترجى فأبطأ عليه وروده واختلفت فى الاسراع وعوده فأمر ولده الاكبر الملك الافضل نور الدين عليا ولم يزل مكانه عنده عليا أن يقيم على رأس الامراء برأس الماء وتجتمع العساكر الواصلة منه تحت اللواء وتقدم السلطان فى أتباعه وأشياعه الى الكرك وضياعه فأقام عليها يرهق ويزهق ويحرب ويحرق ويرعد بصاعقة بأسه ويبرق حتى ألحق الموجود بالمعدوم وأتى بالقطع على البساتين والكروم ورعى الزروع وعرى الضروع واستأصل الاصول والفروع حتى أقوت من الاقوات واستعرت الغلة بغلاء سعر الغلات وحلت آجال الارزاق وانحلت عرا الارماق واقفر بلد الشرك وامتلأ من الكرد والترك وسار الى الشوبك فأسأر به شوبا وألحفه من عريه ثوبا وأخلاه من زرع ونبات وفرغه من أقوات وفوات وأذهب ضياء تلك الضياع وأزال بقاء تلك البقاع وجاس الخلال وداس الغلال وقشر الثرى وبشره وحشر الردى ونشره وسلب قرار القرى وسكون مسكوها وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها فقد عدم لياها المصباح وصباحها الاصباح ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين وفرقه على أعمال القلعتين وأقام على هذه الحالة فى ذلك الجانب شهرين والملك الافضل ولده مقيم برأس الماء فى جمع عظيم من العظماء وعنده الجحافل الحافله والحواصل الواصله والعساكر الكاسره والقساور القاصره والبواتر الواتره والخضرم الضرم والعرمرم العرم والهام الملتهم والجيش الجائش والترك والاكادش والجنود والبنود والاسود السود والفيالق الفوالق والبيارق البوارق وبنات الاغماد قد برزن من خدورها حبا لمعانقة العدى ظامئات

الى ورد الوريد وما أحسن حلى تجبيع الكفر على عرائس الهدى والعزم يستنهضه والعز يحرضه والدين يستبطيه والنصر يستعطيه والقدر يحركه والظفر يدركه والكفر قدمات من ذعره والاسلام قدمت بعذره وهو ينتظر أمرا من أبيه يأتيه بما يأتيه ويكتب اليه ويقتضيه من رأيه بما رأيه يقتضيه ولما استمر تأخر الامر استمر التأخير وقدم فى الاقدام التبكير والتكبير وانتهز الفرصه وأحرز الحصه وانتقى وانتخب الاجناد الانجاد وجرد الجرد واستجاد الجياد وسرى السرية السريه وأمرها بالغارة على الغرة بأعمال طبريه ومظفر الدين ابن زين الدين على كوجك المقدم المقدام والهمام الهمام والاسد الاسد والارشد الاشد وعلى عسكر دمشق قايماز النجمى وعلى عسكر حلب دلدرم الياروقى فسار وامد جعين وسر وامد لجين وصبحوا صفوريه وساء صباح المنذرين فخرج اليهم الفرنج فى جمع شالك وجرد الك وقنطاريات طائرات وساريات سابغات وللداوية دوى وللاسبتارية هوى والبارونى يقدم على البوار والتركبولى يلقى نفسه على النار وقد ثاروا والثار قد وقد والجو قد عقد وقد انصدع زجاج الزجاج وارتجز عجاج العجاج وانفض الفضاء وانقض القضاء وكادوا يفلون الجمع ويجمعون الفل ويحلون العقد ويعقدون ما انحل فثبت قايماز النجمى فى صدورهم وأشرع الاسنة الى نحورهم وروى اللهاذم من ثامورهم وعطف مظفر الدين يشلهم ويفلهم ولا يكترث بكثرتهم ويستقلهم ولقيهم دلدرم بالوجه الابيض والعزم الانهض والجد الاجد والحد الاحد وانجلى الغبار وقد عم الفرنج القتل والاسار وفجع بقتل مقدمهم الاسبتار وأفلت مقدم الداوية وله حصاص ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك محاص واختلفت رنة السراء انة الاسراء وكانت هذه النوبة بلا نبوه والهبة بلا هبوه وسكنت القلوب بهذه الحركه وركنت النفوس الى هذه البركه وسارت البشرى وسرت ودارت النعمى ودرت وعد ذلك من اقبال الملك الافضل وفضل الملك المقبل وحسنت السنة بالنصر وأحسنت الالسنة فى الشكر هذا والعساكر فى كل يوم يفدون ويفيدون وفيما يجدون الطريق اليه من النكاية فى العدو

يجدون ويجدون وجاءتنا البشارة ونحن بالكرك فأيقنت الآمال بالنجح والدرك وسار سلطاننا الملك الناصر صلاح الدين ووصل السير بالسرى وخيم بعشترا فغصت بسيول الخيل الوهاد والذرى واجتمع به ولده وفرعنا بشبل العرين أسده ومارأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر ولا أكرث للكفر ولا أكثر وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض وما شاهده الامن تلا (ولله جنود السموات والارض) فى ألوية كأنما عقدتها حور الجنان بخمرها وبيارق كأنما جنتها أكف الرياض بزهرها ويوم كالليل عجاجا وليل كاليوم ابتلاجا ومناصل بالمنى صلت وقساطل بالقسى طلت وفيلق لهام الهام يفلق وقلوب عاتية رقاق فى صدور الاغماد تقلق وطيور سهام من أوتار الحنايا الى أوكار المنايا تمرق وسوابغ مفاضة وسوابق مرتاضة وهضاب راسيات وهواضب ساريات ولما تم العرض حم الفرض وتعين الجهاد وتبين الاجتهاد واضطربت السهول والوعوث وانبعثت الهمم وهمت البعوث وهمع الفرنج بكثرة الجمع الجم وزخرة اليم الخضم وبروز التوحيد الى التثليث وانتهاض الطيب لادحاض الخبيث فخافوا وخابوا وهبوا وهابوا وعرفوا ان حزبهم مخذول وان غربهم مفلول وان حدهم مثلوم وأن جندهم مهزوم وانه قد جاءهم مالاعهد لهم بمثله وان الايمان كله برز الى الشرك كله وقد كان بينهم حينئذ خلف منبعث وحلف منتكث ووقوع نفار بين الانفار ووفود شرار بين الشرار ولما استدنوا حين حينهم سعوا فى اصلاح ذات بينهم ودخل الملك على القومص ليتقمص له بالود الاخلص ورمى عليه بنفسه واستبدل وحشته بأنسه فاصطحبا بعدما اصطلحا واصحبا بعدما جمحا وتزاور الفرنج وتوازروا وتآمروا فيما بينهم وتشاوروا وقالوا هذا دين متى دنا منه الوهى وعود اذا عاده الاذى ذوى فالمسيح لنا والصليب معنا والمعمودية عمدتنا والنصرانية نصرتنا ورماحنا رماحنا وصفائحنا صفاحنا وفى لوائنا اللأواء ومع أودائنا الداوية الادواء وطوارقنا الطوارق وبيارقنا البوارق وسيف الاسبتار بتار ولقرن البارونى من مقارنته بوار ومعنا الدلاص والصلاد والصعاب والصعاد وفى كل قنطارى قنطار

ولكل سارى من استتنامنا ستار وقد عم بحرنا الساحل وشددنا به المعاقد والمعاقل وهذه الارض تسعنا نيفا وتسعين سنه وما ضيق بنا فى هذه السنه وارماحنا الى هذه الغاية من الاسواء أسوار هذه البقاع والامكنه وسلاطين الاسلام ما صدقوا أن يسلموا الينا ويسالمونا ويبذلوا لنا القطائع ويقاطعونا وطالما ناصفونا وما صافونا وهادونا وهادنونا وفى جمعنا تفريقهم وفى وقعتنا تعويقهم فقال القومص وكان مجربا مجربا متدبرا متدربا هذا صلاح الدين لا يقاس بأحد من السلاطين لتسلطه واقدامه على المخاوف وتورطه وان كسر كم مرة فلا يصح لكم الجبر وليس الا المراوغة والمغاورة والصبر والصواب أن لا نخالطه ولا نباسطه ولا نخالفه ونقبل شرائطه فقال له الملك أنت قد قلبتك الافه وفى قلبك المخافه وأنت للخور رخو وللخشية حشو وأنا لا بد أن أصدمه وأصده وأكدمه وأكده وأراده حتى أرده وأقيم صليب الصلبوت فلا يقعد عنه من أهل الاحد احد وأمد به الايد لجمعى فلا تعد لاهل الجمعة يد فقبل القومص قوله على مضض وصح ظاهره معه على ما كان فى الباطن من مرض ولما أحس منه الملك بالوفاء والوفاق وعدم أهل الشقاء ما وجدوه بينهما من الشقاق اشتغلوا بالحشد والحشر والطى والنشر

((ذكر ما كان بين ملك الافرنج وبين القومص من الخلف))

لما هلك الملك أمارى بن فلك فى آخر سنه تسع وستين وخمسمائة خلف ولدا مجذوما وكان مع الوجود معدوما قد أعضل داؤه وأيس شفاؤه وسقطت أعضاؤه وطال بلاؤه فوضع الفرنج التاج على راسه وعكفوا مع أمراضه بأمراسه ونفخوا فى ضرمه وتسنموا بورمه وصحوا بسقمه ورقوا فى سلمه ورضوا بتقدمه وأكبروه وأركبوه وأقدموا به وقدموه وهم يكرثون بجذام ملكهم هذا ولا يكترثون بجذامه ويحمون حماه أن يحم حول حمامه وبقى بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا معارا من اشفاقهم واتفاقهم مراعى فلما أحس بهلاكه وسكون حراكه أحضر البطرك والقسوس والمقدمين والروس وكان له ابن أخت صغير عن التطاول الى الملك قصير وقال لهم الملك فى هذا ولكن القومص بكفله مدة

سنى صغره وهو يستقل به بعد كبره فهو الآن لا يستبد ومن أمر القومص يستمد فقبل القومص الوصيه وجمع اليه الاطراف الدانية والقصيه وسكن بطبريه فان صاحبتها كانت تزوجت به وطمعت فى قوته وقربه وهلك الملك المجذوم وظهر السر المكتوم وطمع القومص فى الملك استقلالا فعدم موافقة الداويه وقالوا يلزمك العمل بشرط الوصيه فتكفل بالامر وهو مغلوب وتفقد اختياره فاذا هو مسلوب ورغب فى مقاربة السلطان صلاح الدنيا والدين ليقوى بجانبه ويحظى من مواهبه فاشتد أزره واستد أمره واستقل بنفسه واستولى على جنسه حتى مات الملك الصغير فانتقل الملك منه الى أمه وبطل ما كان فى عزم القومص برغمه وانتقل الملك اليها واجتمع الفرنج عليها فقالت لهم زوجى أقدر وهو أحق بالملك وأجدر وأخذت التاج من رأسها فوضعته على رأسه وعاش رجاؤه بعد يأسه وراش غناه بعد افلاسه وانتاش ابليسه بعد ابلاسه وقامت قيامة القومص باجلاسه وطالبه الملك الجديد بحساب ما تولاه فما أجاب دعوته ولا لباه واستنصر عليه بسلطاننا الملك الناصر وأقام بطبريه فى زى المتطاول المتقاصر وضم اليه من الافرنجية من استرغبه بما استماحه من سلطاننا واستوهبه وحث العزم السلطانى على قصدهم ليرد اليه الملك ويجعله فى نظم أمره السلك فلما اجتمعت العساكر الاسلاميه وتألفت منها الجزريه والديار بكريه والمصريه والشاميه جاء الملك الى القومص بنفسه وفتح لهما وجده من وحشته وعدمه من أنسه وقال أصحاب القومص له ان لم تنصره فنحن ما نخذل الدين ولا نكون بايدينا مسلمين الى المسلمين وتمت بينهم ليوم المصاف المصافاه وزالت المنافرة والمنافاه

﴿ذكر دخول السلطان صلاح الدين بالعسكر الى ديار الفرنج﴾

أصبح بالخميس عارضا من العسكر لعارض ثجاج وبحر بالعجاج عجاج وخضم بالصواهل السوابح والمناصل والصفائح ذى أمواج وقد رتب أبطاله وأطلابه وصب على وجه الارض سحابه ونقل به من الثرى الى الثريا ترابه وأطار الى النسر الواقع من الغبار غرابه وقد فض الفضاء ختام القتام وشدت الشدائد كتب الكتب على

جام الحمام وحنت ضلوع الحنايا على أجنحة السهام وتكفلت العوجاء بالمعتدله
وضعت المتفلتة الى المتفتله ووفت الاوتار بالاوتار وثار كل طلب لطلب الثار
ووقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيبا ويبوبه تبويبا ويعبيه بعيدا
وقريبا وقرر لكل أمير أمرا ولكل مقدام مقاما ولكل موفق موقفا ولكل كمين
مكانا ولكل قرن قرانا ولكل جمر مطفئا ولكل جمع مكفئا ولكل زند موريا
ولكل حد مهيبا ولكل قضبة محكا ولكل حنية سهما ولكل يمين مقضبا
ولكل عنان مقبضا ولكل ضامر مضمارا ولكل مغوار مغارا ولكل رام مرمى
ولكل نام منتمى ولكل سام مسمى ولكل اسم مسمى وعين لكل أمير موقفا
فى الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه ولا يغيب جمعه ولا يبرح أحد منه وأخرج
الجاليشية الكماة من كل طلب ووصى كل حزب بما يقرب به من حزب وقال اذا دخلنا
بلاد العدو فهذه هيأة عساكرنا وصورة مواردنا ومصادرنا ومواضع أطلابنا
ومطالع أبطالنا ومصارع أسنتنا وشوارع أعنتنا وميادين جردنا وبساتين
وردنا ومواقف صروفنا ومصارف وقوفنا ومرامى مرامنا ومجالى مجالنا وقوى
الآمال بما بذله من الاموال وحقق فى انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال
وجمع العدد وفرق العدد ووهب الجياد وأجاد المواهب ورغب فى العطايا
وأعطى الرغائب ونثر الخزائن ونثل الكنائن وأنفق الذخائر واستنفد كرائمها
والاخاير وقسم أحمال النشاب فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب
وأجرى الجرد وأجنى الاجناد وأذكى المذاكى وأشهد الاشهاد وأذال
مناقب المقانب واستمال معاطف المعاطب وقوى القواطع وروى الروائع
وعاد الى المخيم مسرورا مجبورا مقبولا مبرورا موفورا مشكورا وقد رتب ورتب
وقنب وكتب وثبت ونبت قدر عمله وأبر أمله وفاح نشره ولاح بشره وتأرج
رباه وتبلج محياه وأيقن بالظفر وظفر باليقين وأمن الى الدعوة المستدعية
للتأمين وتيمن بأوضاح غرابه الميامين وايضاح اعرابه فى اقتضاء دين الدين
وأنس ببهجة الخيل وبهجة الخير وسر سره بما سرى له من وجه المسير وشد حزم
الحزم وجد فى العزم الجزم وقدم الاسراج للاسراء وألجم العراب للعراء

ورحل يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخر والتوفيق مسايره والتأييد موازره والتمكين مضافره والسعد مظاهره والجد مكاثره واليمن محاضره والعزم مسامره والظفر مجاوره والاسلام شاكره والله عز وجل ناصره وسار على الهيئة التى قدمنا ذكرها من المقانب المقنبه والكتائب المكتبه والمراتب المرتبه والمذاهب المهذبه والسلاهب المجنبه والصوائب المجببه والقواضب المقربه والثعالب المذربه واللهاذم الهادمه والصلادم اللازمه والضراغم الضاغمه وخيم على خسفين وقد أدنى الله الخسف بالعدو وخسوفه وكسف الكفر وكسوفه وبات والوجوه سافره والعيون فى سبيل الله ساهره والايدى لسيوف الايد شاهره والالسن لانعم الله شاكره والقلوب بالاخلاص عامره والانفس للانس مسامره والاقدام بالاقدار متضافرة متظاهرة ثم أصبح سائرا ونزل على الاردن بثغر الاقحوانه بعزم الصيال وعز الصيانه وأحاط بحيرة طبرية بحره المحيط وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط وبرزت الارض فى قشب أثوابها وفتحت السماء لتنزل الملائكة من أبوابها ورست سفن المضارب على تلك الاثباج وطمت الاطلاب أمواجا على أمواج وانعقدت سماء العجاج وطلعت فيها أنجم الخرصان والزجاج وأعاد الاقحوانة رياضا نضره وحدائق مزهره من فرس ورد وفارس كالاسد الورد ومشرفيات كطاقات الرياحين ويزنيات كأشجار البساتين ورايات صفر تخفق بعذبات الياسمين وألوية حمر كشقائق النعمان وموضونة زغف كالغدران ومصقولة بيض كالخلجان ومريشة زرق كالاطيار ومحنية عوج كالافنان وبيض تلمع كثغور الاقحوان وحبب زائلة على بحور الدارعين وعقبان صواهل تروق وتروع الناظرين والسامعين والترنج قد صفوا راياتهم بصفوريه ولووا الالوية ومدوا على ممدود الضواحى الزواخر قناطر القنطاريات وأوقدوا فى ظلام القتام الثائر سرج السريجيات وصوبوا الى صوب قرا الاقران نبات اليزنيات وأحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم وحاطوا بوازرهم بوازرهم وجمعوا الاوشاب والاوباش

ورتبوا الجيش وثبتوا الجاش وحشدوا الفارس والراجل والرامح والنابل
ونشروا ذوائب الذوابل وحشروا ابطال الباطل ورفعوا صليب الصلبوت
فاجتمع اليه عباد الطاغوت وضلال الناسوت واللاهوت ونادوا في نوادي
أقاليم أهل الاقانيم وصلبوا الصليب الاعظم بالتعظيم وماعصاهم من له عصا
وخرجوا عن العد والاحصا وكانوا اعداد الحصى وصاروا في زهاء خمسين ألفا أو
يزيدون ويكيدون مايكيدون قد توافوا على صعيد ووافوا من قريب وبعيد
وهم هنالك مقيمون لايرومون حركة ولا يريعون والسلطان صلاح الدين في كل
صباح يسير اليهم ويشرف عليهم ويراميهم ويشكي نيهم ويتعرض لهم ليتعرضوا
له ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله فربضوا ومانهضوا وقعدوا
ومانهضوا فلوبرزوا والبرز اليهم القتل في مضاجعهم وعاينوا مقام مصارعهم في
سوقهم الى مصارعهم وفزعوا مما فيه وقعوا وجبنوا عما له تشجعوا فرأى
السلطان ان يطيب ربه من طبريه ويشرف على خطتها بالخطية والمشرفيه ويحوز
حوزتها ويعلن مملكتها يغير على الاردن أردان الردينيات وأطلع النقع المثار
من البحر بحوافر الاعوجيات واستسهل عليها ولم يستوعر بيات العربيات
فأمر عساكره وأمراء جيشه وأكابره أن يقيموا قبالة الفرنج ويضيقوا
عليهم واسع النهج فان خرجوا للمصاف بادروا الى الاقدام منهم والانتصاف
وان تحركوا الى بعض الجوانب وثبوا اليهم وثب الاسود بالارانب وان قصدوا
طبريه لصونها وان يكونوا في عونها عجلوا الاعلام ليعجل عليهم الاقدام

(ذكر فتح طبرية)

ونزل على طبريه في خواصه وذوي استخلاصه وأحضر الجاندارية والنقابين
والخراسانية والجارين وأطاف بسورها وشرع في هدم معمورها وصدقها
القتال وماصدف عنها النزال وكان ذلك يوم الخميس وهو يوم الخميس وأخذ
النقابون النقب في برج فهدوه وهدموه وتسلقوا فيه وتسلموه ودخل الليل
وصباح الفتح مسفر وليل الويل على العدو معتكر وامتنعت القلعة بمن فيها
من القومصية ست طبريه وبنيها ولما سمع القومص بفتح طبريه وأخذ بلاده

سقط فى يده وخرج عن جلد جلده وسمح للفرنج بسبده ولبده وقال لهم لاقعود بعد اليوم ولابد لنا من وقم القوم واذا أخذت طبريه أخذت البلاد وذهبت الطراف والتلاد ومابقى لى صبر ومابعد هذا الكسر لى جبر وكان الملك قد حالفه فاخالفه ووافقه فانافقه وماحضه فماذقه ووادده فمارادده وواعده فماعاوده ورحل بجمعه وبصره وسمعه وثعابينه وشياطينه وسراحينه وسراحينه واتباع غيه واشياع بغيه فمادت الارض بحركته وغامت السماء من غبرته ووصل الخبر بان الفرنج ركبوا وثابوا عن ثبات ثباتهم ووثبوا وعبوا وعبوا ودبوا حتى يذبوا وشبوا النار ولبوا الثار وقدموا للنزول بالدار البدار وذلك فى يوم الجمعة رابع عشرى شهر ربيع الآخر فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه بما سبق به حكمه وسر حين أحاط بسيرهم علمه وقال قد حصل المطلوب وكمل المخطوب وجاءنا مانريد ولنا بحمد الله الجد الجديد والحد الحديد والبأس الشديد والنصر العتيد واذا صحت كسرتهم وقتلت وأسرت أسرتهم فطبريه وجميع الساحل مادونها مانع ولا عن فتحها وازع واستخار الله وسار وعدم القرار وجاء يوم الجمعة رابع عشرى شهر ربيع الآخر والفرنج سائرون الى طبريه بقضهم وقضيضهم وكانهم على البقاع فى حضيضهم وقد ماجت خضارمهم وهاجت ضراغمهم وطارت قشاعمهم وثارت غماغمهم وسدت الآفاق غماغمهم وتناوشت ضاربها جماجمهم وهم كالجبال السائره وكالبحار الزاخره أمواجها متلطمة وأفواجها مزدحمه وفجاجها محتدمه واعلاجها مصطلمه وقد جرى الجو وضوى الضو ودوى الدو والفضاء منفض والقضاء منقض والثريا للاستزار الثرى وجرذيل الخيل فدبرى البرى والحوافر الحوافر للارض حوافر والفوارس اللوابس فى البيض سوافر وذئاب الذياد واجلاد الجلاد قد جلوا كل عده وكملوا كل عده فرتب السلطان فى مقابلتهم اطلابه وقصر على مقاتلتهم آرابه وحصل بعسكره قدامهم ورقب على الحملة اقدامهم وحجز بينهم وبين الماء ومنع ذمامهم على الذماء وحلأهم عن الورد وصدعهم بالصد ذلك واليوم قيظ والقوم غيظ وقد وقدت الهاجره فوقدتها غير هاجره وشربت ما كان فى اداوتها

فهي على الظماء غير صابره وحجز الليل بين الفريقين وحجزت الجبل ع
الطريقين وبات الاسلام للكفر مقابلا والتوحيد للتثليث مقاتلا والهد
للضلال مراقبا والايمان للشرك محاربا وهيئت دركات النيران وهئ
درجات الجنان وانتظر مالك واستبشر رضوان حتى اذا أسفر الصباح وس
الصباح وتفجر الفجر انهار النهار ونفر النفير غراب الغبار وانتبهت فى الجفو
الصوارم والتهبت فى الضوامر الضوارم وتيقظت الاوتار وتغيظت النار و
الغرار وسلب القرار خرج الجالبشية تحرق بنيران النصال أهل النار ور
القسى وغنت الاوتار ورقصت مران المراد لجلاء عرائس الجلاد وبرزت البيض
من ملائها فى الملاء عاريه وزنعت السمر لكلها من الكلى راعيه فرجا الفرج فر
وطلب طلبهم المحرج مخرجيا فكلما خرجوا جرحوا وبرح بهم حر الحرب فبرح
وحملوا وهم ظماء ومالهم سوى ما بايديهم من ماء الفرندماء فشوتهم نار الد
وأشوتهم وصممت عليهم قلوب القسى القاسية وأصمتهم وأعجزوا وأزع
وأحرجوا وأخرجوا وكلما حملوا اردوا وأردوا وكلما سار واوشدوا أسروا واوشد
ومادبت منهم غله ولاذبت عنهم حمله واضطرموا واضطربوا والتهفوا والته
وناشبهم النشاب فعادت أسودهم قنافذ وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخ
النافذ فآووا الى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار فأحاطت بحطين بوا
البوار ورشقتهم الظبا وفرشتهم على الربا ورشقتهم الحنايا وقشرتهم الم
وقرشتهم البلايا ورقشتهم الرزايا وصاروا للردى درايا وللقضا يارمايا و
أحس القومص بالكسره حسر عن ذراع الحسره واقتال من العزيمه واحتال
الهزيمه وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر واحتداد الحرب واحتد
الحر فخرج بطلبه يطلب الخروج واعوج الى الوادى وما ودان يعوج ومر
كومض البرق ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق وافلت فى عدة معدوده و
يلتفت الى ردة مردوده وغاب حالة حضور الوغى ونابه الرعب الذى نوى الهزيمة
وماوفى ثم استحرت الحرب واشتجر الطعن والضرب وأحيط بالفرنج م
حواليهم عاحوا اليهم ودارت دائرة الدوائر عليهم وشرعوا فى ضرب خيامهم و

نظامهم فخطوا على حطين مضاربهم وفلت حدود الرماة الكماة مضاربهم وأعجلوا
عن نصب الخيم ورفعها وشغلوا عن أصل الحياة وفرعها وزجوا خبراً فترجلوا
عن الخيل وتجلدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل وأحاط بهم العسكر
إحاطة النار بأهلها ولجؤا الى حزم الارض فبلغ حزامهم الطبيين من سهلها وأسر
الشيطان وجنوده وملك الملك وكنوده وجلس السلطان لعرض أكابر الاسارى
وهم يتهادون فى القيود تهادى السكارى فقدم بدانه مقدم الداويه ومعه عدة
كثيرة منهم ومن الاسبتاريه واحضر الملك كى وأخوه جفرى وأوك صاحب
جبيل وهنفرى والابرنس ارناط صاحب الكرك وهو أول من وقع فى الشرك
وكان السلطان نذر دمه وقال لاعجلن عند وجدانه عدمه فلما حضر بين يديه
أجلسه الى جنب الملك والملك بجنبه وقرعه على غدره وذكره بذنبه وقال له كم
تحلف وتحنث وتعهد وتنكث وتبرم الميثاق وتنقض وتقبل على الوفاق ثم تعرض
فقال الترجمان عنه انه يقول قد جرت بذلك عادة الملوك وما سلكت غير السنن
المسلوك وكان الملك يلهث ظمأ ويميل من سكرة الرعب منتشيا فآنسه
السلطان وحاوره وقثأ سورة الوجل الذى ساوره وسكن رعبه وأمن قلبه
وأتى بماء مثلوج أزال لهثه وأزاح من العطش ما كرثه وناوله الابرنس ليخمد
أيضاً لهبه فأخذه من يده وشربه فقال السلطان للملك لم تأخذ منى فى سقيه اذنا
فلا يوجب ذلك له منى أمنا ثم ركب وخلاهما وبنار الوهل اصلاهما ولم ينزل
الى ان ضرب سرادقه وركزت أعلامه وبيارقه وعادت عن الحومة الى الحمى
فيالقه فلما دخل سرادقه استحضر الابرنس فقام اليه وتلقاه بالسيف فحل
عاتقه وحين صرع أمر برأسه فقطع وجر برجله قدام الملك حين أخرج فارتاع
وانزعج فعرف السلطان انه خامره الفزع وساوره الهلع وسامره الجزع
فاستدعاه واستدناه وأمنه وطمنه ومكنه من قربه وسكنه وقال له ذاك رداءته
أردته وغدرته كأزرته وقد هلك ببغيه وبغيه ونبا زند حيائه وورد هامن
وريه وريه وصحت هذه الكسرة وتمت هذه النصرة يوم السبت وضربت ذلة
أهل السبت على أهل الأحد وكانوا أسودا فعادوا من النقد فما أفلت من تلك

الآلاف الآحاد وما نجا من أوائل الاعداء الأعداد وامتلأ الملأ بالاسرى والقتلى وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذى تجلى وقيدت الاسارى فى الحبال واجبة القلوب وفرشت القتلى فى الوهاد والجبال واجبة الجنوب وحطت حطم تلك الجيف عن متنها وطاب نشر النصر بنتنها وعبرت بها فلقيت أشلاء المشلولين فى الملتقى ملقاه بالعراء عراه ممزقة بالمازق مفصلة المفاصل مفرقة المرافق مفلقة المفارق محذوفة الرقاب مقصوفة الاصلاب مقطعة الهام موزعة الاقدام مجدوعة الآناف منزوعة الاطراف معضاة الاعضاء مجزأة الاجزاء مفقوءة العيون مبعوجة البطون مخضوبة الضفائر معضوبة المرائر مبرية البنان مفرية اللبان مقصومة الاضالع مفصومة الاشاجع مرضوضة الصدور مفضوضة النحور منصفة الاجساد مقصفة الاعضاد مقلصة الشفاه مخلصة الجباه فانية الاوائب دامية الترائب مشكوكة الاضلع مفكوكة الاذرع مكسورة العظام محسورة اللثام بائدة الوجوه بادية المكروه مبشورة الابشار معشورة الاعشار منشورة الشعور مقشورة الظهور مهدومة البنيان مهتومة الاسنان مهرقة الدماء مرهقة الذماء هاوية الذرى واهية العرى سائلة الاحداق مائلة الاعناق مفتونة الافلاذ مبتونة الافخاذ مشدوخة الهامات مسلوخة اللبات عديمة الارواح هشيمة الاشباح كالاحجار بين الاحجار عبرة لاولى الابصار وصارت تلك المعركة بالدماء دأماء وعادت الغبرة حمراء وجرت انهار الدم المنهر وسفر بتلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر فما اطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث وما ألهب عذابات العذاب فى تلك الجثث وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث وما اجرأ صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث هذا حساب من قتل فقد حصرت ألسنة الامم عن حصره وعده وأما من اسر فلم نكب اطناب الخيم لقيده وشده ولقد رأيت فى حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس وفى بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس وهنالك العتاة عناه والعداة عراه وذوو الاسرة أسرى واولو الاثرة عثرى والقوامص قنائص والفوارس فرائس وغوالى الارواح

ونائص ووجوه الداوية الداوية عوابس والروس تحت الاخامص ومطالع الاجسام ذوات المقاطع والمخالص فكم أصيد صيد وفائد قيد وقيد ومشرك مكشر وكافر مفكر ومثلث منصف ومكيف مكتف وجارح مجروح وفارح مقروح ومالك مملوك وهاتك مهتوك ومتبر مبتور ومحسر محسور وكاب في الكبول ومغتال في الغلول وحر في الرق ومبطل في يد المحق

((ذكر الصليب الاعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف))

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت وأهلك دونه أهل الطاغوت وهو الذى اذا نصب وأقيم ورفع سجد له كل نصراني وركع وهم يزعمون انه من الخشبة التي يزعمون انه صلب عليها معبودهم فهو معبودهم ومسجودهم وقد غلفوه بالذهب الاحمر وكللوه بالدر والجوهر واعدوه ليوم الروع المشهود ولموسم عيدهم الموعود فاذا أخرجته القسوس وحملته الروس تبادروا اليه وانثالوا عليه ولا يسع لاحدهم عنه التخلف ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف وأخذه أعظم عندهم من اسر الملك وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك فان الصليب السليب ماله عوض ولا لهم في سواه غرض والتأله له عليهم مفترض فهو الههم وتعفر له جباههم وتسبح له أفواههم يتغاشون عند احضاره ويتعاشون لابصاره ويتلاشون لاظهاره ويتغاضون اذا شاهدوه ويتواجدون اذا وجدوه ويبذلون دونه المهج ويطلبون به الفرج بل صاغوا على مثاله صلبانا يعبدونها ويخشعون لها في بيوتهم ويشهدونها فلما أخذ هذا الصليب الاعظم عظم مصابهم ووهت اصلابهم وكان الجمع المكسور عظيما والموقف المنصور كريما فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد من يومهم العصيب فهلكوا قتلا واسرا وملكوا قهرا وقسرا ونزل السلطان على صحراء طبرية كالاسد المصحر والقمر المبدر

((ذكر فتح حصن طبرية))

وندب الى حصنها من تسلمه أمانا واسكنه بعد الكفر ايمانا وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته ونقلت اليه كل ماملكته وحوته فأمنها على أصحابها وأموالها

وخرجت بنسائها ورجالها ورحالها وسارت الى طرابلس بلد زوجها القومص
بمالها وحالها وعادت طبرية آهلة آمنة باهل الايمان وعين لولايتها صارم الدين
قايماز النجمي وهو من الاكابر الاعيان هذا والملك الناصر نازل ظاهر طبريه
وقد طبق البريه وعسكره طبق البريه

(ذكر ما اعتمده فى الاسارى الداويه والاسبتاريه من ضرب رقابهم
واعطاء بشر الوجوه باعطابهم)

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشري شهر ربيع الآخر بعد الفتح بيومين طلب
الاسارى من الداويه والاسبتاريه وقال انا أطهر الارض من الجنسين النجسين
وجعل لكل من يحضر منهما أسيراً خمسين فاحضر العسكر فى الحال مئين وأمر
بضرب أعناقهم واختار قتلهم على استرقاقهم وكان عنده جماعة من أهل العلم
والتصوف وعدة من ذوى التعفف والتعيف فسأل كل واحد فى قتل واحد
وسل سيفه وحسر عن ساعد والسلطان جالس ووجهه باشر والكفر
عابس والعساكر صفوف والامراء فى السماطين وقوف فمنهم من فرى وبرى
وشكر ومنهم من أبى ونبا وعذر ومنهم من يضحك منه وينوب سواه عنه
وشاهدت هناك الضحوك القتال ورأيت منه القوال الفعال فكم وعد
انجزه وحمد احرزه وأجر استدامه بدم اجراه وبر أعنق اليه بعنق براه ونصل
خضبه لنصر خطبه وأسل اعتقله لاسد عقله وداء داواه لداوى أدواه وقوة
أهداها لهداة قراها ولواء نشره للاواء طواها وكفر أماته لاسلام احياه وشرك
هدمه لتوحيد بناه وعزمة أمضاها لامة ارضاها وعدو قصمه لولي عصمه
وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفرى وصاحب جبيل ومقدم الداويه وجميع أكابرهم
المأسورين الى دمشق ليودعوا السجون وتستبدل حركاتهم السكون وتفرقت
العساكر بما حوته أيديهم من السبي ايدى سبا وخمد جمر جمع الكفر وخبا

(ذكر فتح عكاء)

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهراً على أهل التثليث مديلا للطيب من بلا
للخبيث وسار عسكره وثار عثيره وظهرت راياته وبهرت آياته ونعرت كوساته

وصاحت بوقاته وجالت خيوله وسالت سيوله وطلعت فى سماء العجاج نجوم خرصانه وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه وحفرت حوافر الصلادم اصلاب الصلاد الصلاب وفحصت باعراب الجماجم صواهل الجياد العراب والاسنة مشرعه والاعنة مسرعه وبحور السوابح متموجه وغدران السوابغ مترجرجه وبوارق البيارق متبوجه وأوضاح الجرد وغررها كاوضاح النصر وغرره متبلجه ونزل عشية بأرض لوبية لداعى الفتح ملبيا ولجيش النصر معبيا ولمولود الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا وبات بها معرسا بانيا على عروس الظفر البكر جانيا ثمار الامانى من غروس البيض والسمر وأصبح وقد أصحب جماح الدهر وصح جناح الامر وحص جناح الكفر واسفر فجر الفرج وسفر وجه البهج وسار سار اسره بارا بأرباب الدين بره زائرة أسوده طائرة بنوده ظاهرة جنوده زاهرة جدوده سامية اضواؤه هامية أنواؤه رائعة مواكبه رائقة مراكبه مجنبة عتاقه مذربة رقاقه وكان أمير المدينة النبوية صلوات الله على ساكنها فى موكبه فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سير للفقر الى نصرته من يثرى به من يثربه وهذا الامير عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنى الحسينى قد وفد فى تلك السنة أوان عود الحاج وهو ذو شيبة تقد كالسراج وما برح مع الملك الناصر مأثور المآثر ميمون الصحبه مأمون المحبه مبارك الطلعه مشاركا فى الوقعه فما تم فتح فى تلك السنين الا بحضوره ولا أشرق مطلع من النصر الا بنوره فرأيته ذلك اليوم للسلطان مسايرا ورأيت السلطان له مشاورا ومحاورا وانا أسير معهما وقد دنوت منهما لسمعانى وأسمعهما ولاحت أعلام عكا وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى وكان عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها وقد توافرت عساكر الاسلام الهامن وعرها وسهلها فلما قرب منها خيم وراء تلها وآذنت عروش معاشر الشرك بثلها وعقود معاقدى الكفر بحلها وأصبح يوم الخميس وركب فى خميسه ووقف كالاسد فى عريسه فخرج أهل البلد يطلبون الامان ويبذلون الاذعان فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال ووهب لهم عصمة الانفس والاموال وكانه

فى ظنهم انه يستبيح دماءهم ويسبي ذريتهم ونساءهم وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة واغتنموا تلك المهلة وفتح الباب للخاصة واستغنى بالدخول الى البلد جماعة من ذوى الخصاصة فان القوم ماصدقوا من الخوف المزعج والفرق المحرج كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون وعندهم انهم اذا نجوا بأنفسهم انهم يغنمون فترك معظمهم المدينة وعندهم انه ما كسب السكينة الامن ركب السفينة وذلك ان الجند لما دخلوها استولوا على الدور ونزلوها وركز كل منهم بيرقه على دار وقال صاحبها كيف يصح المقام مع الاسد فى غابة ولا مقام على زاد وكان السلطان جعل للفقيه عيسى الهكارى كل ما يتعلق بالداوية من منازل وضياع ومواضع ورباع فأخذ عكا بما فيها من غلال ومتاع ووهب عكا لولده الملك الافضل فاجراها من نظره على لاحسن الاجل ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الاولى فاقمنا بها الجمعة ووصلنا فريضتها المنقطعة وأعدنا الكنيسة العظمى مسجدا جامعا وعاد نور الهدى الخافى بالضلالة لامعا وحضر القاضى الاجل الفاضل فأمر بترتيب القبلة والمنبر وتبسم بما منه للاسلام بعد الاظلام سنى الصبح المسفر وخطب جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبى النجيب السهروردى فانه تولى بها القضاء والخطابة وملأ ما بعد الذئاب بالاساد السادة تلك الغابة وخلى سكان البلد دورهم ومخزونهم ومذخورهم وتركوها لمن أخذها ونبذوا ما حووه لمن حواها وما نبذها واقتقر من الفرنج أغنياء واستغنى من أجنادنا فقراء ولو ذخرت تلك الحواصل وحصلت تلك الذخائر وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر لكان عدة ليوم الشدائد وعمدة لنجح المقاصد فرتعت فى خضرتها بل صفرائها او بيضائها سروح الاطماع وطال لمستحليها ومستحلها الامتاع بذلك المتاع وأقام السلطان بباب عكاء على التل مخيما وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمما ولملكتها متمما وكان قد كتب الى أخيه الملك العادل سيف الدين أبى بكر وهو بمصر بما أتاحه الله من النصر ١
وقيضه له من اقتضاض الفتح البكر فوصلت البشرى بوصوله باشرا وللواء الحمد ناشرا ولاستفتاح ما فى طريقه من الحصون مباشرا وانه فتح حصن مجدل يابا

ومدينة يافا عنوه واغتنمها غزوه وتسلمها حظوه فقصده من عساكرنا القصاد و وفد اليه من عندنا الوفاد فحباهم بالحباء من السبايا وآتاهم المرباع والصفايا وخصهم من الحاصل بالنقود ووعدهم مما يحصل بالنسايا وشرع يستضيف حصنا فحصنا و يستفيض حسنى وحسنا و يستزيد بلدا و يستزيد مددا و يستزيل من الكفر بددا و يستميل الى الهدى هدى والدين بسيفه منصور والاسلام بنصر ناصره مسرور والملك العادل مالك بعدله سالك نهج النجح بفضله فائز العزيمه حائز الغنيمه ماضي الضريبه قاضي الكتيبه ميمون النقيبه مأمول الرغيبه

(ذكر فتح عدة من البلاد)

وأقام السلطان بمخيمه ظافرا بمغنمه ظاهرا بمكرمه شاكرا اعرام عرمرمه ملويا بمرام مخذمه مرويا بأوام لهذمه وأمر أمراءه بقصد البلاد المجاوره وأمدهم بالضراغم المراوغة المغاوره

(فتح الناصرة وصفورية)

فسار مظفر الدين كوكبوري الى الناصرة فاستباح حماها واستبى دماها وحلها واستحلها وازالها وأزلها وخف اليها واستخفها واستشفها وشافهها بشفار البواتر فشفه منها موارد الذخائر واجتلى عرائسها واجتنى مغارسها وجمع نفائسها ونزع ملابسها واستدر طيبها واسترد سيبها واستقل منها بما استقل به من كل غانية وقانية رقيقة ومصابة مصبيه ومسبية مصبيه ومجلوة مجلوبه وسالبة مسلوبه ودمية داميه وجارية لطيفة بالعنف جاريه وأسيرة من أسره وحاسرة عن حسره وثاكلة لواحدها وآكلة لساعدها وعاضة على يديها وفاضة ختم الدمع على خديها وناهدة متنهده وفريدة متفرده وناعمة شقيه وقينة نقيه وعذراء مفترعه وحسناء منتزعه ومخطفة مختطفه وقوية مستضعفه وعزيزة ذليله وصحيحة عليله وساجية غبرى وصاحية سكرى وغريرة غراء وظبية ظمياء وغضيضة غضه وفضة منفضه وخمارة مخموره وسارة مسحوره ومخدرة مهتوكه وموقرة منهوكه

وجاؤا بالاسارى بين يديه مقرنين فى الاصفاد مقودين فى الاقياد مسوقين الى السوق والحديد منهم فى الاعناق والسوق وصفرت صفوريه من سكانها فلم يوجد بها صافر وكان بها من الذخائر مبلغ وافر

﴿فتح قيسارية﴾

وتوجه بدر الدين دلدرم وعز الدين قليج وجماعة من الامراء الى قيسارية فافتتحوها بالسيف وسلطوا على الانفس والنفائس بها حكم الحتف والحيف وسبوا وحبوا وسلبوا وجلبوا وجالوا ونالوا ووقذوا وأخذوا واحتووا وارتووا وربطوا وضبطوا واستفادوا واستقادوا وفرسوا الفوارس وكنسوا الكنائس واستبوا الابكار العرائس والعون العوانس وتسلمت بعدها حيفا وارسوف واستولى على تلك الشموس والاقمار الكسوف والخسوف

﴿فتح نابلس﴾

وسار حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين على سمت نابلس حاسما بحسامه داء الشرك مالئا بسهام الفتك جعاب الترك تاليا آى الفتح جاليا رأى النجح ووصل الى سبسطية فتسلمها وتعجل مغنمها ووجد مشهد زكريا عليه السلام قد اتخذه القسوس كنيسه وأعادوها بالصور والآلات النفيسة أنيسه فاستخرج المصونات والمصوغات واستوعب العدد والآلات وأعاده مشهدا ورده مسجدا ووضع فيه من بره بالاسلام منبرا وأصبح الدين به مستريا والكفر مقترا ثم أناخ على نابلس وناب حده غير ناب وطرف جده غير كاب وحد بأسه طرير وناظر الدولة به قرير وكان من قبل سلب ساكنوها من الفرنج والنصارى السكون وأيقنوا انهم ان أقاموا لا يأمنون المنون فان المسلمين بها وبأعمالها نهضوا اليهم فى مواطنهم فأجفلوا من مساكنهم وانتقلوا من أماكنهم وخلوا دورهم وأخلوها وتسوروا منها وسلوها وتحول الاقوياء الى قلعتها وتحصنوا بقلعتها ونازلها حسام الدين وحاصرها وطال عليه حصرها وصادرها ولم يزل عليها مقيما ولقتالها مديما الى أن وثقوا بأمانه وعلقوا باحسانه وسلموا وسلموا واستأمنوا وأمنوا وخلصت له نابلس وأعمالها وحليت به أحوالها ولكون

معظم أهلها وجميع سكان نواحيها مسلمين لم يسع الفرنج المتحصنين عند مضايقتهم الآن يكونوا الحصنهم مسلمين فأمسى بالسعود رمم النحوس ونزعنا عنها البوس البوس واستبشرت وجوه أهلها بعد العبوس وقام جاه الاذان وانكسر ناموس الناقوس

(فتح الفولة وغيرها)

وكانت الفولة أحسن قلعة وأحصنها وأملأها بالرجال والعدد وأشحنها وهى للداوية حصن حصين ومكان مكين وركن ركين ولهم بها منبع منيع ومربع مربع ومسند مشيد ومهاد ممهد وفيها مشتاهم ومصيفهم ومقراهم ومضيفهم ومربط خيولهم ومجر ذيولهم ومجرى سيولهم ومجمع اخوانهم ومشرع شيطانهم وموضع صلبانهم ومورد جنتهم وموقد جمرتهم فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم الى مصرعهم وانقين بأن الكدر لا يتمكن من صفو مشرعهم فلما كسروا وأسروا وخسروا وتحسروا خلت طلول الفوله بحدود أهلها المفلوله ودماء داويتها المطلوله ولم يجتمع شمل غمودها بالسيوف المسلوله ولم يبق بها الا رعاع ارعاع وغلمان وأتباع واشياع شعاع فقدموا امكان حماية المكان ووجدوا أمنهم فى الاستئمان فسلموا الحصن بما فيه الى السلطان وكانت فيه أخاير الذخائر ونفائس الاعلاق فوثقوا بما أحكموه من الميثاق وخرجوا ناجين ودخلوا فى الذمام لاجين وللسلامة راجين وتسلم جميع ما كان فى تلك الناحية من البلاد مثل دبورية وجينين وزرعين والطور واللجون وبيسان والقيمون وجميع ما الطبرية وعكاء من الولايات والزيب ومعليا والبعنة واسكندرونة ومنوات

(فتح تبنين)

ولما خلصت تلك الممالك والاعمال وقلصت من الضلال تلك الظلال وصفت الممالك ووفت المدارك أوعز السلطان الى ابن أخيه الملك المظفر عمر بن شاهنشاه تقى الدين بقصد حصن تبنين وان يتوكل على الله فيه ويستعين فالتى عليه جرانه باسه ولتى بالتذليل حران ناسه وأخذ فى مضايقته بأنفاسه ولمح مالمع من قبس قصده فشعف باقتباسه وسنح له قنصه فأمر أب باقتناصه وافتراسه وكتب الى السلطان يبعثه على الوصول اليه بعسكره والنهوض نحوه بأبيضه

وأمره فضرب الكوس وسمت النفوس وأنارت في ظلام القتام من المنزل
والترائك الاقمار والشموس واشتعلت من شبب البيارق في شعاع تلك البوارق
الرؤس وتحرك السواد كهيل النقا واشتبك على الآساد غيل القنا وسالت الاودية
بالسابحات العتاق وطالت على السير أعناق الاعناق ومالت الى الرقاب الغلاظ من
أهل الكفر رقاب الرقاق وجرت الفجاج وجرب الزجاج وغوجت الافواج وتفوجت
الامواج وتحركت غدران السوابغ من رياح السوابق وتدركت ضوامن
الضوامر بالارقاد في ارداف الحق اللاحق وأسفر من بريق البيض والبيض فلق
الفيالق ورغت الصواهل وترنحت الذوابل وساح الساحل وراح الراحل
ووصلنا الى تبنين في ثلاث مراحل فرمينا أهل التثليث فيها بثالثة الاثافي
وأوطأناهم بشفاه الشفار على حدود الاثافي ونزلنا عليها بالنوازل وبسطنا
من المجانيق عليها أيدي الغوائل فتبلدوا من الرعب وتجالدوا على الحرب ثم
خاروا وحاروا وجأروا وجاروا ورغبوا ورهبوا وصحوا من سكر الجماح واصحبوا
وعجزوا وجزعوا وفزهم الحصر وفزعوا وشكوا الندوب وندبوا واقدانوا ودنوا
وأذعنوا اذ عنوا واعتذروا وامتحنوا وراسلوا السلطان وسألوا الامان
واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا
بما بذلوا واقلع من بالقلعة عن الجهالة وتلقى لبث العلق بالمهلة وتقربوا باطلاق
الاسارى المسلمين وترقبوا انقضاء المهلة لسلامة المسلمين فخرج المأسورون
مسرورين وأصبح الصحب المكسورون مجبورين محبورين بالفرج بعد الشدة
محبورين وسر بهم السلطان وسربهم وأقرهم وقربهم وكساهم وحباهم
وآتاهم بعد ردهم الى مغانيهم غناهم وهذا دأبه في كل بلد يفتحه وملك يربحه انه
يبدأ بالاسارى فيفك قيودها ويعيد بعد عدمها وجودها ويحيي بعد اليأس
آمالها ويوسع أرزاقها بعد ما أجال عليها ضيق الاسر آجالها فخلص تلك السنة
من الاسرى أكثر من عشرين ألف أسير للقيود ألف ووقع في أسرنا من الكفار
مائة ألف ولما خلوا القلعة واخلوا البقعة سيرهم ومعهم من العسكر المنصور
من أوصلهم الى صور ورتب في الموضع مماليكه سنقر الدوري فأرشد به ذلك الصقع

الغوى فان أعمال جبل عاملة مجبولة على الشر وأهلها وان كانوا مسلمين كانوا أعوانا لاهل الكفر فوصى سنقر بتأنيس النافر وتعكيس الكافر وتأليف الجافل وتعريف الجاهل وقال له تبنى تبنين ماهدم بالمنجنيق وتجدد سورها وخندقها كل ما يمكن من التوثين والتعميق ورحل ومعه رفيق التوفيق وكان النزول على تبنين يوم الاحد حادى عشر جمادى الاولى وتسلمها يوم الاحد الثامن عشر منه

(فتح صيداء)

يوم الاربعاء الحادى والعشرين من جمادى الاولى يوم النزول عليها وسنحت له صيداء فتصدى لصيدها وكانت همته فى قيدها وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها وسرنا وسرنا مرتاح ونصرنا متاح والجد جديد والمزاح مزاح والعزم جزم والحكم حتم ونفحات الفتوح لمناشق أهل الهدى نفوح ولفحات الردى لاعين العدى تلوح ونص النصر قد نزل وقصد الصدق قد نعدل وفكر الكفر قد تنوزع وشرك الشرك قد تقطع وتقلع وظل الظفر ضاف وسر السرور غير خاف والقدر عون والمعين قادر والنظر سعيد والسعد ناظر وأوجهنا وأوجه البشائر باشره ونيوب النوائب فى أوجه المشركين كاشره والالسن لحديث الفتح الحديث ناشره وقد جفت أجفانها البواتر الواتره وحلت دياجير النقع من لمعان الحديد السوافر الوافره واتصلت للمالك من الملائك أمداد النصرة المتواتية المتواتره ووصلنا فى يومين الى صيداء الى منهل فتحها صادين وعن حى الحق دونها لاهل الباطل صادين ولما نزلنا من الوعر الى السهل سهل ما توعر وصفا من الامر ما ظن انه تكدر فصرفنا الاعنة الى صرفند وأمعنا فى مسارحها الجند وهى مدينة لطيفة على الساحل موروده المناهل ذات بساتين وأزهار ورياحين وأشجار النارنج والاترج تعرب مسراتها لجناتها عن أشجان الفرنج بخسنا خلالها وكل قلب مشغول خلالها وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحليه وقرنتا بما اشتهينا من فواكهها تلك القريه ولم نعرج عليها حتى خيمنا على صيداء وقد حصلنا على صيدها وخلصنا من كيدها وانطلقت هممنا من قيدها فقد باءت رسل صاحبها بمفاتيحها واذهبنا ظلماتها

من العزائم الغر بعصا بعها وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها وجلت غياهب تلك المذاهب بنورها وفتحت أبوابها وأنجحت آرابها وعز مسلموها وذل مشركوها وسكن ساكنوها وهلك أهلوها وعادت معالمها مأهوله بعد ان كانت مقفرة مجهوله وصدح منبرها وصدق مفخرها وربح متجرها ووضح منظرها وأقيمت بها الجمعة والجماعه واستدعيت بها بعد العصيان لله الطاعه

(فتح بيروت)

وكان النزول عليها يوم الخميس ثاني عشري جمادى الاولى وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه

ولما فرغ من شغل صيداء وتبنين وجمع لهما التحصين والتحسين قال لعصمة الله شيدى ما بصيداء وتبنين تبنين والحقيهما رداء الحماية فما يضيع ما تحفظين ولا يطرق ما تحمين ثم صرف عنانه وارهف سنانه ووصل على سمت بيروت ما لثابه سكره الآكام والمروت وسار على الساحل بتلك الجحافل بحر على البحر مائج ومجر مجرى الى الهياج هائج وتقدم من عقد الجدرائج وعزم على صدق القصد عائج ووصل اليها ونزل عليها وبنيت القباب وطفا على خضم المعسكر من الخيم الحباب وزحف الى الاعداء الاحباب وضويق البلد وفورق الجلد وأحاط الرجال بارجائه ورجمت بشهب النصال شياطين الضلال في سمائه وانقضت نجوم السهام من ابراجه وتلاطم عباب ذلك الجمع الجم بأمواج أفواجه وترجل دونه الناس وتجلى نحوه الباس واصطفت التراس واشتد المراس واحتد القتال واحتدم النزال وامتد المصاع والمصال واتصل خروج الجروح للجروح ودام احتراق الروح على اقتراح القروح ومدت الحفاتى كأنها أعناق الجانى وأتى العاتى وعنا الآتى وأحمد النصر الموافى الموافى ودارت كؤس المنايا للارواح بحذى وهاتى وطارت القوارير وثارت المساعير واشتعل النفط واشتغل الرهط والتهم الزراق والتهب الحراق ومرق الشهم الكمى مروق السهم من الرمى وأتى الوادى فطم على القرى ودبت

الدبابة بلبوث الرجال وصبت لصبابة غيوث النبال وارتجزت رواعد الابطال وانتجزت مواعد الآجال وجالت فى الضمائر ضوامر الاوجال وحالت بالنوازل نوازى الاهوال ورعدت بوارق البوار واسعدت الاقدار بالاقدار وشغلت الرقاب قواضى القواضب وحلت العدد النواكب على المناكب وخفت للاثقال اكتاف الفتال وهتكت ستائر السور فوهت أشراك الاشراك ودام القتال أياما يتضاعف اصطلاء واصطلاما ويتظاهر اضطرابا واضطراما وبنات الحنايا ها نجه وأمات المنايا ناتجه ورجت بشهب النفاطات شياطين الداوية المرده وتعادت الاسود العادية على أولئك القرده ١
حتى خرق الخندق وطرق وعلق النقاب بالسور فنقب وعلق وكاد النقب يتسع والبرج يقع والجدار ينقض والحجار بالحجار تنفض وترفض وسوار السور ينكسر وقناع النقع لا ينحسر وخرج من البلد رجال الى الموت عجال وقفوا دون الباشورة مباشرين ولمعاشر أصحابنا بمعاطاة كؤس المنون معاشرين فتلاقوا بسلام السلام وكلام الكلام وتصافحوا بالصفائح وتجار وا بالجرائح وتواصلوا بالقواطع وتعانقوا بالمقامع وتصارعوا على المصارع وتجلدوا وتجالدوا وتواقعوا وتوافعوا وتعاقروا وتقارعوا والبيض بقد والبيض تقد والباسل يرد والباس يرد والصقيل الصادى يصدأ بالدم ويروى وحزب الكفر يضعف وحزب الاسلام يقوى ثم انحصروا فى البلد وانحشروا على الدد وضافهم الرعب وضاق بهم الرحب وذلوا وخاروا وضلوا وحاروا ولما خام المقاتلة وخذلوا ظن أهل بيروت ان المسلمين دخلوا فاجفلوا الى البحر اذ عدموا سكينتهم ليركبوا سفينتهم ويخلوا مدينتهم فخرج أحد المقدمين يستدعى الامان ويستعدى الايمان ويطلب منا لا يعصمهم وذماما يحرمهم وعهدا يسلمون به ويسلمهم وعقدا فى عقد الامن ينظمهم وكنت يومئذ فى مرض قد ازعجنى واحرزنى ومضض اخفانى ولعيون العواد ابرزنى وانقطعت عن الحضور عند السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الامان فطلب السلطان كل كاتب فى ديوانه

وكل من عمل قطعا من أفاضل الملك وأعيانه فلم يرضه ما كتبوه ولم يكفه ما رتبوه لغيابي في تلك الحالة من استملاء مني ومرضت اذهان الاصحاء ولم يمرض ذهني فتم بيروت بخطي وأصبحوا أنا الآخذ والمعطي وكان الناس قد أنسوا بأسطره وأزبره وأنسوا سوى ما أذكره وأحبره وألفوا الصحة فيه فألفوه ولقوا السقم في غيره فأنفوه فلم يكن في ذلك التوقيع نعويق بل كله بتوفيق من الله وتوثيق فما افتتح الا بافتتاحه ولا رتق فتق الا باصلاحه ولا جلي ظلام الا باصباحه ولا وري زند الا باقتداحه وكانت يومئذ جمرة الحر متوهجة ووقدة القيظ متأججة وضرم مرضي ملتهبا وروح روحي منتهبا وبقيت مضطرا مضطربا ولقيت من ذلك الوصب نصبا وحصلت من الاقامة أو السفر على الخطر أو الحذر وتعذر المقام لعذر السقام واشتغلت عن آلاء شغلي بالآلام وحلني اختلالي بنصبي على اخلالي بمنصبي وعزت على مفارقة السلطان وهو باعزازي على مواصلة الاحسان فغضبت على مضض وانصرفت بضرة ومرض وحملت الى دمشق في محفه وحصلت بفضل الله من طيب هوائها بعد الثقل بخفه فتفضل الله بالشفاء وبدل الكدر بالصفاء وعدت الى السلطان يوم فتح القدس وانتهت الوحشة الى الانس وتسلم السلطان بيروت يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الاولى مطاع الامر مشاع النصر مذاع السر في نضوع النشر وتوضح البشر مستفيض السيادة مستضيف الزيادة ناجح الارادة راجح العبادة رابح المتجر واضح المفخر قد شب غرب الهدى وجب غارب العدى واستجدى من من الله منحا واستجد باستفتاحه فتحا واستفاد ملكا واستزاد ملكا وبر بيروت اذ برت وانبرى لبري قوسها فأبرت وقرر مصالحها ومناجحها فاستقرت وحفلت له أخلاف الفتوحات فدرت واستمرى صوب الصواب من عزائمه وصرائمه فاستمرت

(فتح جبيل)

يوم الثلاثاء سابع عشري جمادى الاولى

ووصل كتاب الصفي ابن القابض وهو يومئذ قد فوضت منه دمشق الى الكافي

الناهض يتضمن ان أولك صاحب جبيل أسر اليه في أمره واستشاره في أمره وقال له ان قنع مني بتسليم جبيل سلمت وسلمت وأبحتها الكم ونحرمت وأخرجتها من عصمتي وخرجت واعتصمت فأنا أطلقها ان أطلقت وأزيلها من وثاقي اذا وثقت فأجيب باحترازه من كيده واحضاره في قيده فأحضر في صفده وسمح ببلده فخلص ناجيا وملص راجيا وملكت مدينة جبيل وجرت عليها الفتوح الذيل ونحن يومئذ على بيروت حاضرون حاصرون ولاعداء الله مصابرون مكابرون وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين مساكنين لما كنه الفرنج مستسلمين فذاقوا العزة بعد الذلة وفاقوا الكثرة بعد القلة وصدقت البشائر وصدحت المنابر وترنمت المحاريب وتزخرفت المطاريب وتليت الآيات وجليت الغيابات وخربت الكنائس وعمرت المدارس وظهر عيب البيع وشهر جمع الجمع وقرئ القرآن واستشاط الشيطان ونطقت الاعواد وحقت الاعياد وخرست النواقيس وبطلت النواميس ورفع المسلمون رؤسهم وعرفوا نفوسهم وانتعشوا من شكاة عثارهم وانتقشوا من شوكة عارهم وقروا في ديارهم وقروا أبصارا بأنصارهم وكان كل من استأمن من الكفار يمضي الى صور ويحمي الذمار وصارت صور عش غشهم ووكر مكرهم وملجأ طريدهم ومنجا شريدهم ومأمن خائفهم ومكمن عائثهم وهي التي فر القومص اليها يوم كسرتهم بل يوم حسرتهم

((ذكر هلاك القومص ودخول المركيس الى صور))

ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلاها وآوى الى طرابلس وثواها فما منع عاملك وكان مما قيل

راح يبغي نجوة من هلاك فهلك

فما أنجاه الفرار من القضاء وفر من البلاء الى بلاده فوقع في البلاء وظن ان صور خلت وان مجانيها حلت وان جماحها أذعن وان كفاحها أمكن وان فرصتها انتهزت وانه حصنها أحرزت وان قيادها أطاع وان مرتاها استطاع لكنها تعوضت عن القومص بالمركيس كما يتعوض عن الشيطان بابليس فادرك

ذماء الكفر بعدما أشفى وأيقظ روع الروع بعدما أغفى وضبط صور ومن فيها
من مهزومى الفرنج وعنفيها وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغوى
شياطينه وأضرى سراحينه وأخبث ذئابه وأنجس كلابه وأهش ضلاله
وأخش ضلاله وأعوى عواته وأخون اخوانه وأبغى بغاته وأحنى جفاته
وأرعى حماته وأحمى رعاته وشر شراره وأنكر نكاره وأفجر فجاره وأروغ
ثعالبه وألسب عقاربه وأحنث معاهديه وأنكث معاقديه وهو الطاغية
الداهيه الذى خلقت له ولأمثاله الهاويه ولم يكن وصل الى بلاد الساحل قبل هذا
العام ولا خلف مقدمى الكفر غيره فى الاقدام على خلاف الاسلام واتفق
وصوله الى ميناء عكا وهو بفتحها جاهل وعمن فيها من المسلمين ذاهل فعزم على
ارساء الشينى بالمينا ثم تعجب وقال ما أرى أحدا من أهلها يتلقينا ورأى زى
الناس غير الزى الذى يعرفه فارتاب وارتاع وحدث عن الدخول توقفه وبان
تندمه وتأخر تقدمه وسأل عن الحال فأخبر بها ففكر فى النجاة وكيف يتعلق
بسببها ثم وقف بالقرب فلبث على الرعب والهواء راكد والقضاء عنه راقد
فانه لو خرج اليه مركب لاخذه ولو وقف له قاصد لوقذه فاحتال كيف يخرج
بسفينته ولا يدخل مع فقد سكينته وانتظر هبوب الريح الموافقة له فلم تهب
وما تم لها الاقلاع على ما أحب فسأل عن البلد ومن اليه أمره ومن بيده نفعه
وضره فقيل هو الملك الافضل والملك الاكمل فقال خذوا لى منه أمانا حتى أدخل
وأرفع اليكم ما معى من المتاع وأنقل نجىء اليه بالامان وقيل هذا بعلامة
السلطان فقال ما أثق الا بخط يده ولا أنزل الا بعهده الى بلده فما زال يردد الرسل
ويدير الحيل حتى وافقته الريح فاقلع وأفلت من الشرك بعدما وقع وصار فى
صور فدبر الامور وأجم الجمهور وجرأ الكفر بعد خوره وبصر الشيطان
بعد عماه وعوره فاستعلى بالخزى واستولى بالغى والبغى وأرسل رسله الى
الجزائر وذوى الجرائر يستعدى ويستدعى ويستودع ملة الصليب عباده
ويسترعى ويستثير ويستنزر ويستنفر ويستنصر وثبت فى صور وثبت
وجمع اليه من الفرنج من تشتت وما فتح بلد بالامان الا سار أهله فى حفظ السلطان

حتى يصير وافي صور ويأمنوا المحذور فاجتمع اليها أهل البلاد المفتوحه بالقلوب المقفلة المغلقة المفروحه فامتلأت وكانت خاليه وانتشأت وكانت باليه وتعلت وكانت معتله وتعقدت وكانت منحله وتسددت وكانت مختله ولم يحتفل بها لاخرقتها وماظن بها الضن حتى علم شحها فاستجدت رمقا بالمهله وتصعبت بعد مقادتها السهله فقضى امهالها باهمالها وعادت عيونها الى الاغفاء باغفالها وألهى عن طلبها طلب ماهو أشرف والعزم بفتحه أشغف وهو البيت المقدس فان فتحه من كل فتح أنفس والمركيس فى أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه ويعقد الموثق ويبرمه ويجمع المفرق وينظمه ويتذكر ماتجدد منه فى أوقاته وما فات من فرصة الامكان فى دفع آفاته

(ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعاقل التي يأتي ذكرها)

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل ثنى عنانه يجر ويجرى من العسكر والعثير على السماء والارض الذيل والسيل وعاد عابرا على صيداء وصرفند وقد أورى فيهما باقتداح اقتراحه الزند وجاء الى صور ناظرا اليها وعابرا عليها غير مكترث بامرها ولا متحدث فى حصرها ولا معتقد فى تعقدها ولا منشد فى توردها وعلم أيضا انها ممتنعه وعن سومها من نفعه فعمل بالحزم وعمد الى العزم ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب ومزاولتها تتعب وليس بالساحل بلد منها أحصن فعطف الاعنة الى ماهو منها أهون وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداويه وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبليه متى تمكن باعانتهما من البلاد البقيه وعبر والعيون صور ان صور والمركيس ماشك انه بها محصور محصور فلما أرخى من وثاقه واتسع ضيق خناقه حاق فى مطار أوطاره وحرك لغوائه أوتار أوتاره واجتمع السلطان باخيه الملك العادل واتفقا على طى المراحل ونشر القساطل وحل معاقد المعاقل وسل قواصم الفواصل ونزل على عسقلان وشد بها قدلان وقد آتاها الله الخذلان فتجلد من بها على الحصار وتحوفت أسودها الخادرة من الاسحار وتربصوا وتصبروا وتترسوا وتستروا وحاصوا

وصاحوا وجالوا وناحوا وأبلسوا وأبسلوا وأعولوا مما عليه عولوا وشبوا وشابوا وخبوا وخابوا لكنهم استقبلوا الموت واستقتلوا وتعقدوا على القتع وما تحللوا وأحزنوا في الاباء وما أسهلوا وجهدوا وجهلوا فأقام السلطان عليهم المجانيق مجت نيقها وفرجت بالحجارة طريقها ورجت بالتفريق فريقها ووسعت بالتضييق ضيقها وأضعفت بالتوثيق وثوقها وجمعت شمل الحجارة بالنار التي وقودها الناس والحجاره ولفحتهم نيرانها وتوالت عليهم بعد الشرارة الشراره وخربت منهم العماره ووجبت بالجسارة منالهم الخساره وتهدمت الصخور بالصخور ولزم عبثورهم بالثبور وجسر النقاب فحسر النقاب وباشر الباشورة فرفع الحجاب واشتد القتال واحتد المصال وراسلهم عند ذلك الملك المأسور وقال قد بان عذركم حين نقب السور وجرت حالات وتكررت حوالات وترددت رسالات وقال لهم الملك الاسير لا تخالفوا ما به أشير وأطيعوني ما استطعتم واسمعوا مني اذا سمعتم واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم وحايطة حالكم ولا تخاطروا بغيري بمالكم فاني اذا تخلصت خلصت واذا استنقذت استنقذت وخرج مقدمون وشاوروا الملك وتمعوا في التسليم بهذا السلك وسلموا عسقلان على خروجهم باموالهم سالمين واستوثقوا بذلك الميثاق واليمين وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة وتلألأت السعود في أوجها بالاوجه السافره وممن استشهد على عسقلان من الامراء الكبراء ابراهيم بن حسين المهراني وهو أول أمير افتتح بالشهاده واختتم بالسعاده وكان السلطان قد أخذ في طريقه اليها الرملة ويبنى وبيت لحم والخليل وأقام بها حتى تسلم حصون الداوية غزة والنطرون وبيت جبريل وكان قد استصحب معه مقدم الداوية وشرط معه انه متى سلم معاقلهم أطلقه فسلم هذه المواضع الوثيقة لما أخذ موثقه واجتمع بالسلطان ولده صاحب مصر الملك العزيز عثمان على عسقلان بشارة وبشاره ورايه وآيه وهيئة وهيبه وثرة وثروه وعزة وعزه وعدة وعده وجدة وجده وشد وشده وحد وحده وضوعه وروعه ونخوه وسطوه وصوت وصيت ومصاعب ومصالت ومساعير ومغاوير ودهم ودهم وشهب وكمت وصلاب وصلاد

وانجاب وامجاد وجاب ولجب و بيض وباب و بيض وسود وأساود وأسود وجرد ومرد وكهول وخول ورقاق وعتاق وفود وقدود واطلاب وابطال وفوارس ورجال وخفاف وثقال وعراب وأعارب وسراحين وسراحيب وجد لايكل وجد لايمل وجمر يتقى وجمع لايلتقى ومعه رماة الاحداق كماة الاشراك وهداة التوحيد عداة الاشراك فقرت عينه بولده واعتضد بعضده ووضع يده بتأييد الله فى يده وكان قد استدعى الاساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر بالفلك المواخر وجاءت كانها أمواج تلاطم أمواجا وأفواج تزاحم أفواجا تدب على البحر عقاربها وتخب كقطع الليل سحائبها وتجر بالذوائب ذوائبها وتزاحم مناكب الاطواد مناكبها والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدامها وضرغام غابها وهمامها فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ويقف له فى جزائر البحر على مذاهبه وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه ويظهر فى وقائعه حسن موقعه

(فتح بيت الله المقدس)

ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا وبالعزم غالبا وللنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا قد أصحب ريض مناه وأخصب روض غناه وأصبح رائغ الرجاء أرج الارجاء سيب العرف طيب العرف ظاهر اليد قاهر الايد سنى عسكره قد فاض بالفضاء فضاء وملأ الملا فأفاض الآلاء وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق وكأنما أعاد العجاج رأد الضحى جنح الغسق فالارض شاكية من اجحاف الجحافل والسماء حاظية بافساط القساطل وسار سارا بالاحوال الحوالى مروية أحاديث فتوحه العوالى من العوالى مطوية مدارج مناجحه على ما تنشره الآمال من الامالى وقد حلت وعلت من مغارس النصر ومطالعه المجانى والمجالى والاسلام يخطب من القدس عروسا ويبذل لها فى المهر نفوسا ويحمل لها نعمى ليحمل عنها بوسا ويهدى بشرا ليذهب عبوسا ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لاعدائها على أعدائها واجابة دعائها وتلبية ندائها واطلاع زهر المصابيح فى سمائها واعادة الايمان الغريب منها الى وطنه ورده

الى سكونه وسكنه واقصاء الذين أقصاهم الله بلعنته من الاقصى وجذب قياد قصه الذى استعصى واسكات الناقوس منه بانطاق الاذان وكف كف الكفر عنه باعان الايمان وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس وادناس أدنى الناس وارغام الافهام باخراس الاجراس وطار الخبر الى القدس فطارت قلوب من به رعبا وطاشت وخفقت أفئدتهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت وعمت الفرنج لما شاعت الاخبار انها ما عاشت وكان به من مقدمى الافرنج باليان بن بارزان والبطرك الاعظم ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم فاشتغل بال باليان واشتعل بالنيران وخمدت نار بطر البطرك وضاقت بالقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك وقاموا بالتدبير فى مقام الادبار وتقسمت أفكار الكفار وأيس الفرنج من الفرج وأجمعوا على بذل المهج

(ذكر كنيسة قمامة)

وقالوا ههنا نطرح الرؤس ونسبك النفوس ونسفك الدماء ونهلك الدهماء ونصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح ونسمح بالارواح شحا بمحل الروح فهذه قمامتنا فيها مقامتنا ومنها تقوم قيامتنا ونصح هامتنا ونصح ندامتنا ونسح علامتنا ونسح غمامتنا وبها غرامتنا وعليها غرامتنا وباكرامها كرامتنا وبسلامتها سلامتنا وباستقامتها استقامتنا وفى استدامتها استدامتنا وان تخلينا عنها لزمت لآمتنا ووجبت ملامتنا ففيها المصلب والمطلب والمذبح والمقرب والمجمع والمعبد والمهبط والمصعد والمرقى والمرقب والمشرب والملعب والمموه والمذهب والمطلع والمقطع والمربى والمربع والمرخم والمخرم والمحلل والمحرم والصور والاشكال والانظار والامثال والاساد والاشبال والاشباه والاشباح والاعمدة والالواح والاجسام والارواح وفيها صور الحواريين فى حوارهم والاحبار فى أخبارهم والرهابين فى صوامعهم والاقساء فى مجامعهم والسحرة وحبالها والكهنة وخيالها ومثال السيدة والسيد والهيكل والمولد والمائدة والحوت والمنعوت والمنحوت والتلميذ والمعلم والمهد والصبي المتكلم وصورة الكبش والحمار والجنة والنار والنواقيس

والنواميس قالوا وفيها صلب المسيح وقرب الذبيح وتجسد اللاهوت وتأله الناسوت واستقام التركيب وقام الصليب ونزل النور وزل الديجور وازدوجت الطبيعة بالاقنوم وامتزج الموجود بالمعدوم وعمدت معمودية المعبود ومخضت البتول بالمولود وأضافوا الى متعبدهم من هذه الضلالات ما ضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات وقالوا دون مقبرة ربنا غوث وعلى خوف فوتها منا نفوت وعنها ندافع وعليها نقارع ومالنا لا نقاتل وكيف لا ننازع ولا ننازل ولأي معنى نتركهم حتى يأخذوا وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا وتأهبوا وتباهوا وما انتهوا بل تناهوا ونصبوا المجانيق أمام الاسواء على الاسوار وستروا بظلمات الستائر وجوه الانوار واستشاطت شياطينهم ومرحت سراحينهم وطفت طواغيتهم وأصلتت مصاليتهم ونشرت طواميرهم وتسعرت مساعيرهم وهاج هائجهم وماج مائجهم ودعت دواعيهم وعدت عواديهم وسعت أفاعيهم وحضتهم قسوسهم وحرضتهم رؤسهم وحركتهم نفوسهم وجاءتهم بجوى السوء جواسيسهم وأخبرتهم باقبال العساكر الناصرية منصورة الجنود منشورة البنود موصولة القواطع بالاشاجع مهجورة الغمود مشهورة القواضب مشهودة الكتائب مقودة الضوامر الى ثار العدى موقدة الضمائر بنار الهدى مشبوبة العزائم مجنوبة الصلادم مسلولة الظبا مطلولة الربا مجنونة أجنة أغمادها مسنونة أسنة صعادها مطلقة أعنة جيادها محققة مظنة طرادها قد سالت الوهاد بأكامها وجالت الاعلام في أعلامها وسدت الفجاج أفواجها ومدت العجاج أمواجها وحبت الغزالة عقبانها والهبت الذبالة خرصانها وجرت بالجبال رياحها وجرت كالجبال رماحها واشتمل على الضراغم غيلها وأقبل بالعظائم قبيلها ووافى كل واف بعهد ربه كاف لكف خطبه شاف لهم قلبه ضاف بفيض شربه خاف في لبوسه ناف لبوسه باسل بباسه عاسل بامراسه ناسل بنت الغمد من جفنه غاسل نبت الحسد بدم قرنه واصل بيض الهند بساعده فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده حاد بجده جاد بجده وكل شاب لنار الحرب شاب ورب دين لدين الرب

راب وكل جيش كالبحر عباب وكل سال ذي ذباب عن الهدى ذاب وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال سائل من الله الشهادة عن حب البقا سال مائل في سبيل الله الى انفاق مال وأقبل السلطان باقبال سلطانه وابطال شجعانه واقيال أولاده واخوانه وأشبال مماليكه وغلمانه وكرام امرائه وعظام أوليائه في مقانب بالمناقب مقنبه وكتائب بالمواكب مكتبه وذوابل بالكواكب منصله وجحافل بعضاء المضارب محفله وألويه صفر للاولياء بني الاصفر وبيض وسمر ترزق زرق العدى من الموت الاحمر وقباب وقبائل وقنا وقنابل وصوافن وصواهل وعوامل وعواسل وفوارس فوارس وكل من يبذل للشح بذينه النفوس والنفائس وأصبح يسأل عن الاقصى وطريقه الادنى وفريقه الاسنى ويذكر ما يفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى

((وصف البيت المقدس))

وقال ان أسعدنا من الله على اخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا وأي يد له عندنا اذا أيدنا فانه مكث في يد الكفر احدى وتسعين سنه لم يتقبل الله فيه من عابد حسنه ودامت همم الملوك دونه متوسنه وخلت القرون عنه متخليه وحلت الفرنج به متوليه فما ادخر الله فضيلة فتحه الا لآل أيوب ليجمع لهم بالقبول القلوب وخص به عصر الامام الناصر لدين الله ليفضله به على الاعصار ولتفتخر به مصر وعسكرها على سائر الامصار وكيف لا يهتم باقتناح البيت المقدس الاقوى والمسجد الاقصى المؤسس على التقوى وهو مقام الانبياء وموقف الاولياء ومعبد الاتقياء ومزار ابدال الارض وملائكة السماء ومنه المحشر والمنشر ويتوافد اليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر وفيه الصخرة التي صينت جدة ابهاجها من الانهاج ومنها منهاج المعراج ولها القبة الشماء التي على رأسها كالتاج وفيه ومض البارق ومضى البراق وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق ومن أبوابه باب الرحمة الذي يستوجب داخله الى الجنة بالدخول الخلود وفيه كرسي سليمان ومحراب داود وله عين سلوان التي تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود وهو أول القبلتين وثاني البيتين

وثالث الحرمين وهو أحد المساجد الثلاثة التى جاء فى الخبر النبوى انها تشد اليها
الرحال وتعقد الرجاء بها الرجال ولعل الله يعيده بنا الى أحسن صوره كما شرفه
بذكره مع أشرف خلقه فى أول سوره وقال عز من قائل سبحان الذى أسرى
بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى وله فضائل ومناقب لا تحصى
واليه ومنه كان الاسراء ولارضه فتحت السماء وعنه تؤثر أنباء الانبياء وآلاء
الاولياء ومشاهد الشهداء وكرامات الكرماء وعلامات العلماء وفيه مبارك
المبار ومسارح المسار وصخرته الطولى القبلة الاولى ومنها تعالت القدم
النبويه وتوالت البركة العلويه وعندها صلى نبينا صلى الله عليه وسلم بالنبيين
وصحب الروح الامين وصعد منها الى أعلى عليين وفيه محراب مريم عليها السلام الذى
قال الله فيه كلما دخل عليها زكريا ولنهاره التعبد ولليله التحيا وهو الذى أسسه
داود وأوصى ببنائه سليمان ولاجل اجلاله أنزل الله سبحان وهو الذى افتتحه
الفاروق وافتتحت به سورة من القرآن فما أجله وأعظمه وأشرفه وأفخمه
وأعلاه وأجلاه وأسماه وأسناه وأيمن بركاته وأبرك ميامنه وأحسن حالاته
وأحلى محاسنه وأزين مباهجه وأبهج مزاينه وقد أظهر الله طوله وطوله
بقوله الذى باركنا حوله وكم فيه من الآيات التى أراها الله نبيه وجعل مسموعنا
من فضائله مرئيه ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه ماوثق على استعادة
آلائه مواثيقه والاياه وأقسم لا يبرح حتى يبر قسمه ويرفع باعلاء علمه ويخطو
الى زيارة موضع القدم النبوية قدمه ويصغى الى صرخة الصخره ويبغى
بالبشرى بشر أسرة الاسره وسار واثقا بكمال النصرة وزوال العسره وحسر
الفرنج قناع الحسره ونزل على غربى القدس يوم الاحد خامس عشر رجب
وقلب الكفر قد وجب وحزب الشرك قد شارف الشجى والشجب والقدر قد
أظهر العجب وكان فى القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من سائف
ونابل وبطل للباطل وعاس عاسل بالعاسل قد وقفوا دون البلد يبارزون
ويحاجزون ويعاجزون ويناجزون ويرمون ويدمون ويحمون ويحمون
ويحتدون ويحتدمون ويضطربون ويضطرمون ويذودون ويذبون

ويثبون ويسبون ويصرخون ويحرضون ويلهثون ويتغوثون ويلوذون ويلوبون ويجولون ويجوبون ويقدمون ويحجمون ويتململون ويألمون ويتعاورون ويتضاغون ويحترقون للبلايا ويقترحون المنايا وقاتلوا أشد قتال وناضلوا أحد نضال ونازلوا أجد نزال وطافوا بصحاف الصفاح لارواء اظماء الظماء من ماء الارواح وجالوا بالاوجال وأجالوا اقداح الآجال وصالوا لقطع الاوصال والتهموا والتهبوا وتأشبوا وتشبوا واستهدفوا للسهام واستوقفوا الحمام وقولوا كل واحد منا بعشرين وكل عشرة بمئتين ودون القمامة تقوم القيامه ولحب سلامتها تقلى السلامه ودامت الحرب واستمر الطعن والضرب فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب الى الجانب الشمالي وخيم هنالك وضيق على الفرنج المسالك ووسع عليهم المهالك ونصب المجانيق ومرى من آفاتها الافاويق وأصرخ الصخرة بالصخور وحشر حشر السور منهم وراء السور فعادوا يخرجون من السور رؤس الاور يلقون البوس واليوم العبوس ويلقون على الردى النفوس فللداوية دوى وللبارونية من البوار في الهاوية هوى وللاسبتار تبار وما للفرير به من الموت فرار ومابين الحجار المحلقة وبين المرمى ليهم حجاب وفي كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب اذ الوجوه لقبل النصال مكشوفه والقلوب للوجد والقتال ملهوفه والايدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومه والنفوس لاستبطاء الهمم في الاهتمام مهمومه وقواعد السور وتواجد شرار يفه بالاحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومه فكأن للمجانيق مجانين رامون ومناجيد لا يرامون وحبال تجذبها حبال ورجال تجدها رجال وأمات الدواهي والمنايا وحوامل ثاد البلايا لاحجر عليها في حجر ولا أمن عندها من حذر ولا تخطر سهامها الا بالخطر ولا يفطر مرورها الامرارات ذوي الفطر فكم نجم من سمائها ينقض وصخر من أرضها يرفض وجرم من شرارها ينفض وماشئ كأكفات كفاتها وآيات نكاياتها ودركات ادراكاتها ولفتات فلتاتها وجذبات عذباتها فما زالت تقلع عقائلها وتقرع بعقارعها وتمتح باشطانها وتمرح في أرسانها وتصدم وتهدم

وتصرع وتصدع وتتهز بدلائها وتجهز ببلائها وتحل تركيب الجلاميد
بافراد جلاميدها وتفل شمل المباني بتفريقها وتبديدها وتقوض القواعد
بضربها من أساسها وتنقض المعاقد بجذبها في أمراسها وتنشف الموارد بشربها
من كأسها حتى تركت السور سورا وجعلت الذاب عنه محسورا وعاد العدو من
نظمه المنثور منثورا وخرق الخندق وحفر الزحف وظهر للاسلام الفتح وللكفر
الحتف وأخذ النقب وسهل الصعب وبذل المجهود وحصل المقصود وكمل
المراد وكاد المراد ونغر الثغر وأمر الامر وأربى الارب واستتب السبب وخاف
القوم الوقم واستعاضوا من الصحة السقم وأسلم البلد وقطع زنار خندقه وبرز
ابن بارزان ليأمن من السلطان بوثقه وطلب الامان لقومه فمنع السلطان
وتسامى في سومه وقال لا أمن لكم ولا أمان وما هوانا الا أن نديم لكم الهوان
وغدا نملككم قسرا ونوسعكم قتلا وأسرا ونسفك من الرجال الدماء ونسلط
على الذرية والنساء السباء وأبى في تأمينهم الا الاباء فتعرضوا للتضرع وتخوفوا
وخوفوا عاقبة التسرع وقالوا اذا أيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم وخبنا
من احسانكم وأيقنا أنه لا نجاة ولا نجاح ولا صلح ولا صلاح ولا سلم ولا سلامه
ولا نعمة ولا كرامه فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم ونقابل الوجود بالعدم
ونقدم اقدام المستشري بالشر ونقتحم اقتحام المستضري من الضر ونلقي أنفسنا
على النار ولا نلقي بأيدينا الى التهلكة والعار ولا يجرح واحد منا حتى يجرح
عشره ولا تنضم يد القتل حتى نرى أيدينا بالقتل منتشره وانا نحرق الدور
ونخرب القبه ونترك عليكم في سبينا السبه ونقلع الصخره ونوجدكم عليها
الحسره ونقتل كل من عندنا من أسارى المسلمين وهم ألوف وقد عرف ان
كلا منا من الذل عزوف وللعز ألوف وأما الاموال فانا نعطبها ولا نعطيها وأما
الذراري فانا نسارع الى اعدامها ولا نستبطيها فأية فائدة لكم في هذا الشح وكل
خسر لكم في هذا الربح ورب خيبة جاءت من رجاء النجح ولا يصلح السوء سوى
الصلح ورب مدلج أضله ظلام الليل قبل اسفار الصبح فعقد السلطان محضرا
للمشوره وأحضر كبراء عساكره المنصوره وشاورهم في الامر وحاورهم

في السر والجهر واستطلع خبايا ضمائرهم واستكشف خفايا سرائرهم واستورى زندهم واستعلم ما عندهم وراوضهم على المصلحة المترجحه وفاوضهم في المصالحة المربحه وقال ان الفرصه قد أمكنت فتحرص في انتهازها وان الحصة قد حصلت ونستخير الله في احرازها وان فاتت لا تستدرك وان افلتت لا تملك فقالوا قد خصك الله بالسعاده واخلصك لهذه العباده ورأيك راشد وعزمك لضالة النصر ناشد وأمرك لاشتات المناجح وأسباب المناجح حاشد وكلنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد واستقر بعد مراودات ومعاودات ومفاوضات وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات على قطيعة تكمل بها الغبطه وتحصل منها الحوطه اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم على انه من عجز بعد أربعين يوما عما الزمه أو امتنع منه وما سلمه ضرب عليه الرق وثبت في تملكه لنا الحق وهو عن كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسه وكل صغير أو صغيرة ديناران ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والاسبتار في الضمان وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء وقام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء فمن سلم خرج من بيته آمنا ولم يعد اليه ساكنا وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعه وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعه وكان فيه أكثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان فأغلقت دونهم الابواب ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النواب ووكل بكل باب أمير ومقدم كبير يحصر الخارجين ويحصي الوالجين فمن استخرج منه خرج ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج ولو حفظ هذا المال حق حفظه لفاز منه بيت المال باوفر حظه لكنما تم التفريط وعم التخليط فكل من رشا مشى وتنكب الامناء نهج الرشد بالرشا فمنهم من أدلى من السور بالحبال ومنهم من حمل مخفيا في الرحال ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزي الجند ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد وكانت في القدس ملكة رومية مترهبه في عبادة الصليب متصلبه وعلى مصابها به متلهبه وفي التمسك بملتها متعصبة متعصبه انفاسها متصاعدة

للحزن وعبراتها متحدرة تحدر القطرات من المزن ولها حال ومال وأشياء وأشباع ومتاع وأتباع فمن عليها السلطان وعلى كل من معها بالافراج وأذن في اخراج كل مالها في الاكياس والاخراج فراحت فرحى وان كانت من صحبها قرحى وكانت زوجة الملك المأسور ابنة الملك اماري مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدم والخول والجواري فخلصت هي بمن معها ومن تبعها ومن ادعى انه ممن صحبها وشيعها وكذلك الابرنساسة ابنة فليب أم هنفري أعفيت من الوزن وتوفر مالها عليها في الخزن واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة ارمني ذكر انهم من بلده وان الواصل منهم الى القدس لاجل متعبده وطلب مظفر الدين ابن على كوجك زهاء ألف أرمني ادعى انهم من الرها فاجراه السلطان من اطلاقهم له على ما اشتهى وكان السلطان قد رتب عدة دواوين في كل ديوان منها عدة من النواب المصريين ومنهم من الشاميين فمن أخذ من أحد الداوين خطا بالاداء انطلق مع الطلقاء بعد عرض خطه على من بالباب من الامناء والوكلاء فذكر لي من لا اشك في مقاله انه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله فربما كتبوا خطا لمن نقده في كيسهم ويلبس أمر تلبيسهم فكانوا شركاء بيت المال لا أمناءه وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضر غناه ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار وبقي من بقي تحت رق واسار ينتظر به انقضاء المدة المضروبة والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة

(ذكر يوم الفتح وهو سابع عشري رجب)

واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج وزاد من الالسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج وجلس السلطان للهناء للقاء الاكابر والامراء والمتصوفة والعلماء وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الابرار ووجهه بنور البشر سافر وأمله بعز النجح ظافر وبابه مفتوح ورفده ممنوح وحجابه مرفوع وخطابه مسموع ونشاطه مقبل وبساطه مقبل ومحياه يلوح ورياه يفوح ومحبته تروق ومهابته تروع وآفاقه تتضوع وأخلاقه تضوع ويده

لقبض أمواه السخاء. وفض أفواه العطاء. ظاهرها قبلة القبل وباطنها كعبة الامل قد حلت له هالة الظفر وكان دسته به هالة القمر والقراء جلوس يقرؤن ويرشدون والشعراء وقوف ينشدون وينشدون والاعلام تبرز للتنشير والاقلام تبرز للتبشير والعيون من فرط المسرة تدمع والقلوب للفرح بالنصرة تخشع والالسنة بالابتهال الى الله تضرع والكاتب ينشي ويوشي ويوشع والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع فما شبهت قلمي الا بشائر اري البشائر ولا وجهت كلمي الا لطائف وحي اللطائف وما أرسلت براعي الا براعي الرسائل وبشيع الفضائل ويشيع الفواضل ويشبع القول ويسبغ الطول ويطول بالحجة وان كان في حجمه قصر ويصول بالهجة وان كان في هجمه حصر ويسمن الملك به وهو نحيف ويثقل الجيش به وهو خفيف ويبدي بياض الغرة من سواد الدهمه ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمه ويجري بالآجال والارزاق والمنع والاطلاق والخلف والوفاق والارفاق والاعتاق والعدة والانجاز والجدة والاعواز والفتق والرتق والرقع والخرق وهو الذي يجمع الجيوش ويرفع العروش ويوحش المستأنس ويؤنس المستوحش وينعش العاثر ويعثر المنتعش يجري بالاعداء على الاعداء وبالآلاء للاولياء فبشرت باقلامي اقاليم البشر وعبرت باعاجيبي عن عجائب العبر وملأت البروج بالدراري والدروج بالدرر ورويت تلك البشرى حتى أطابت ريا الري وسمر سمرقند وأطربت وحلت حتى فاقت القنديد والقند وعلقت بفتح القدس بلاد الاسلام وزينت وشرحت فضيلتها وبينت وأديت فريضة زيارتها وتعينت

(ذكر حالي في العود الى الخدمة)

وكنت قد انقطعت من الصحبه لما عرض لي في المرض من النوبه فأقمت بدمشق اداوي مزاجي وأداري منهاجي وأعالج تدبيري وأدبر علاجي الى ان وصل الخبر بان السلطان نزل على القدس فوجدت خفة في النفس وأنست بالابلال بعض الانس وأمنت لوثوقي بالصحة والاستقامة من النكس فأوجهت الى تلك الجهه وسرت بطاعة النفس المتنزهه وعصيان الطبيعة المتكرهه واخترت تعب

السفر على راحة الاقامه ورأيت فى ركوب طريق العطب وجه السلامه ووصلت بكرة السبت ثانى يوم الفتح بالسعد واليمن والنجح فوصلنى السلطان عند وصولى بأجلى بشاشه وأحلى هشاشه وسرى عنه وسر وأرود وقال أين كنت ولم أبطأت وحيث أصبت فى المجى فأخطأت وقد كنا فى انتظارك والسؤال عن أخبارك وهذا أوان احسانك فأين احسان أوانك فأجر بنانك بجراة بيانك وأجر فى ميدانك وما للبشائر الا راصفها وللفرائد الا راصفها وللفصاحه الا قسها وللمصاقعة الا قسها وكان قد جمع أمس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها واقتضاب معان ما اقتضاها وكانوا سألوه فى كتاب الديوان العزيز فقال لهذا من هو اقوم به وعنانى فلما رآنى نادانى واستدنانى فصرفت الى امتثال أمره عنانى وسلم الى الكتب التى كتبوها بالالفاظ التى رتبوها وقال غيرها ولا تبرها وغرضه انى أعدل معوجها وأبدل منهجها وأفترع المعنى البكر لفتح البكر وأرشح ذكر آيانه بآيات الذكر فاستبعدتها فما استبعدتها واستلمعتها فما استطلتها وشحنتها بمحاسنك وكشفتها وسترها هتك وكانوا قد تعاونوا عليها وفيهم الهم شرك فشرعت فى اقتضاض الابكار واقتضاء الافكار واقتراح القريحه واقتراء رحاب الكلم الفصيحة الفسيحه وافتتحت فى بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز وأوردت المعنى البليغ فى اللفظ الوجيز ونخبت ووشعت وشعبت وأشبعت وأطلت وأطبت وصبت وأصبت وأعجزت وأعجبت وأطربت وأطربت وأبعدت وأبدعت ورصعت وصرعت وطابقت وجانست ووافقت وآنست وبينت فضل عصر الامام الناصر على الاعصار السابقه بالابصار الصادقه وان هذا الفتح ادخره الله لزمانه ومكن منه لمكانه وسلط عليه بسلطانه وحسنه لنا باحسانه فقد عبرت القرون الماضية على حسرته وظفر هو وأشياعه بنصرته وما حصل لنا الا ببركة أيامه وحركة اعتزامه وذكرت من هذا كل ماراق وشاق ونور الآفاق وان هذه الفتوح تفوح بأرج نشره وتحيى بحياره فما أيمن أيامنا بأيامه وما أسعد آمالنا بانعامه وكتبت الى كل

ذى طرف بمعنى طريف ولفظ فصيح حصيف وسهرت تلك الليالى حتى نظمت اللآلى وحليت المعالى وقرحت المعادى وفرحت الموالى وسارت شواردى الى المشرق والمغرب معربة عن هذا الفتح المعرب عن النصر المذهب وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الاقصى وتلون شرع لكم من الدين ماوصى وهنأت الحجر الاسود بالصخرة البيضاء ومنزل الوحى بمحل الاسراء ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء ومقام ابراهيم بموضع قدم محمد المصطفى صلى الله عليه وعليهم أجمعين وأدام أهل الاسلام بشرف بيتيه مستمتعين وتسامع الناس بهذا النصر الكريم والفتح العظيم فوفدوا للزيارة من كل فج عميق وسلكوا اليه فى كل طريق وأحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق وتنزهوا من ازهار كراماته فى الروض الانيق

(ذكر ماجرت عليه حال الفرنج فى خروجهم من القدس)

وشرع الافرنج فى بيع الامتعه واستخراج ذخائرهم المودعه وباعوها بالمجان فى سوق الهوان وتقاعد الناس بهم فابتاعوها بأرخص الاثمان وباعوا بأقل من دينار كل ماساوى أكثر من عشره وجدوا فى ضم ماوجدوا من أمورلهم منتشره وكنسوا كنائسهم وأخذوا منها نفائسهم ونقلوا منها الذهبيات والفضيات من الاوانى والقناديل والحريريات والمذهبات من الستور والمناديل ونقضوا من الكنائس الكنائن واستخرجوا من الخزائن الدفائن وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين وجمع ما كان فى قمامة من الجنسين والنسجين فقلت للسلطان هذه أموال وافره وأحوال ظاهره تبلغ مائتى ألف دينار والامان على أموالهم لا أموال الكنائس والاديار فلا تتركها فى أيدى هؤلاء الفجار فقال اذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر وهم جاهلون بسر هذا الامر فنحن نجريهم على ظاهر الامان ولا نتركهم يرمون أهل الايمان بنكث الايمان بل يتحدثون بما افضناه من الاحسان فتركوا ما ثقل وحملوا ما عز وخف ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف وانتقل معظمهم الى صور وكثفوا بالديجور الديجور وبقى منهم زهاء خمسة عشر ألفا

امتنعوا من مشروع الحق فاختصوا بشروط الرق فأما الرجال وكانوا في تقدير سبعة آلاف فإنهم الفوا ذلا لم يكن نواله بآلاف فاقتسمتهم أيدي السبي أيدي سبا وتفرق الغاغون بجمعهم في الوهاد والربا وأحصيت النساء والصبيان ثمانية آلاف نسمة عادت بيننا مقتسمة وأصبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمة فكم محجوبة هتكت ومالكة ملكت وعزباء نكحت وعزيزة منحت وبخيلة سمحت وخبيئة توقحت ومجدة مزحت ومصونة ابتذلت وفارغة شغلت وعقيلة امتهنت وجميلة امتحنت وعذراء افترعت وشمعاء فرعت ولمياء رشفت وظمياء فرشت وريضة أصحبت ورضية أصحبت فكم تسرى منهن مسرى وتجرأ عليهن جرى وقضى وطره عزب ونقى نهمه سغب وفثأ سورته شغب وكم غانية استخلصت وغالية استرخصت ووالية اعتزلت وعالية استنزلت ووحشية صيدت وعرشية قيدت ولما تقدس القدس من رجس الفرنج أهل الرجز وخلع لباس الذل ولبس خلع العز أبى النصارى بعد أداء القطيعة ان يخرجوا وتضرعوا في ان يسكنوا ولا يزعجوا وبذلوا خدما وخدموا ببذول وقابلوا كل ما ألزموا به بالتزام وقبول وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وغصت أفواههم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون ودخلوا في الذمة وخرجوا الى العصمة وشغلوا بالخدمة واستعملوا في المهنة وعدوا المنة في تلك المحنة

(ذكر ما أظهره السلطان في القدس من الحسنات ومحاه من السيئات)

ولما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب وحتم به أمر الايجاب وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا وقيل كانوا اتخذوه مستراحا عدوانا وبغيا وكانوا قد بنوا من غربي القبلة دارا وسيعة وكنيسة رفيعة فأوعز برفع ذلك الحجاب وكشف النقاب عن عروس المحراب وهدم ما قدامه من الابنية وتنظيف ما حوله من الافنية بحيث يجتمع الناس في الجمعة في العرصة المتسعة ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر ونقض ما أحدثوه بين السواري وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري وعلقت القناديل وتلي التنزيل وحق الحق وبطلت الاباطيل وتولى القرآن

وعزل الانجيل وصفت العبادات وصفت العبادات وأقيمت الصلوات وأديت الدعوات ونجحت البركات وانجابت الكربات وانجابت الغيابات واتتابت الهدايات وتليت الآيات واعليت الرايات ونطق الاذان وخرس الناقوس وحضر المؤذنون وغاب القسوس وزال العبوس والبوس وطابت الانفاس والنفوس وأقبلت السعود وأدبرت النحوس وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه وطلب الفضل من معدنه وورد القراء وقرئ الاوراد واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد وعبد الواحد ووحد العابد وتوافد الراكع والساجد والخاشع والواجد والزاهي والزاهد والحاكم والشاهد والجاهد والمجاهد والقائم والقاعد والمتهجد الساهد والزائر والوافد وصدح المنبر وصدع المذكر وانبعث المعشر وذكر البعث والحشر واملى الحفاظ واسلى الوعاظ وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء وتحدث الرواة وروى المحدثون وتحنف الهداة وهدى المتحنفون وأخلص الداعون ودعا المخلصون وأخذ بالعزيمة المترخصون ونص المفسرون وفسر المخصصون وانتدى الفضلاء وانتدب الخطباء وكثر المترشحون للخطابة المتوشحون بالاصابة المعروفون بالفصاحة الموصوفون بالحصافة فمنهم الامن خطب الرتبة ورتب الخطبة وأنشأ معنى شائقا ووشى لفظا رائقا وسوى كلاما بالموضع لائقا وروى مبتكرا من البلاغة فائقا وفيهم من عرض على خطبته وطلب مني نصبته وتمنى ان ترجح فضيلته وتنجح وسيلته وتسبق منيته فيها أمنيته وكلهم طال الى الانتهاء بها عنقه وسال من الالتهاب عليها عرقه ومامنهم الامن يتأهب ويترقب ويتوصل ويتقرب وفيهم من يتعرض ويتضرع ويتشوف ويتشفع وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه وضرب في أخماسه أسداسه ورفع لهذه الرياسة راسه والسلطان لايعين ولايبين ولايخص ولاينص ومنهم من يقول ليتني خطبت في الجمعة الاولى وفزت باليد الطولى واذا ظفرت بطالع سعدى فما ابالي بمن يخطب بعدى فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان وامتلا الجامع واحتفلت المجامع وتوجهت الابصار

والمسامع وفاضت لرقة القلوب المدامع وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع وشاعت من سر السرور ملابس حبر الحبور الشوائع وغصت بالسابقين اليها المواضع وتوسمت العيون وتقسمت الظنون وقال الناس هذا يوم كريم وفضل عميم وموسم عظيم هذا يوم تجاب فيه الدعوات وتصب البركات وتسال العبرات وتقال العثرات ويتيقظ الغافلون ويتعظ العاملون وطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم الذى فيه انتعش الاسلام وارتاش وما أفضل هذه الطائفة الحاضره والعصبة الطاهره والامة الظاهره وما أكرم هذه النصرة الناصريه والاسرة الاماميه والدعوة العباسيه والمملكة الايوبيه والدولة الصلاحيه وهل فى بلاد الاسلام أشرف من هذه الجماعه التى شرفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعه وتكلموا فيمن يخطب ولمن يكون المنصب وتفارضوا فى التفويض وتحدثوا بالتصريح والتعريض والاعلام تعلى والمنبر يكسى ويجلى والاصوات ترتفع والجماعات تجتمع والافواج تزدحم والامواج تلتطم وللعارفين من الضجيج مالى عرفات للحجيج حتى حان الزوال وزال الاعتدال وجعل الداعى واعجل الساعى فنصب السلطان الخطيب بنصه وابان عن اختياره بعد فحصه وأوعز الى القاضى محيى الدين أبى المعالى محمد بن زكى الدين على القرشى بان يرقى ذلك المرقى وزك جباه الباقين بتقديمه عرقى فأعرته من عندى أهبة سوداء من تشريف الخلافه حتى تكمل له شرف الاماضة والاضافه فرقى العود ولقى السعود واهتزت اعطاف المنبر واعتزت اطراف المعشر وخطب وانصتوا ونطق وسكتوا وافصح واعرب وابدع واغرب واعجز واعجب وأوجز واسهب ووعظ فى خطبتيه وخطب بموعظتيه وأبان عن فضل البيت المقدس وتقديسه والمسجد الاقصى من أول تأسيسه وتطهيره بعد تنجيسه واخراس ناقوسه واخراج قسيسه ودعا للخليفة والسلطان وختم بقوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان ونزل وصلى فى المحراب وافتتح ببسم الله من أم الكتاب فائتم بتلك الامه وتم نزول الرحمه وكمل وصول النعمه ولما قضيت الصلاة انتشر الناس واشتهر الايناس وانعقد الاجماع واطرد القياس وكان

قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ليفرعه كبير فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا فذكر من خاف ومن رجا ومن سعد ومن شقي ومن هلك ومن نجا وخوف بالحجة ذوي الحجا وجلا بنور عظاته من ظلمات الشبهات ما دجا وأتى بكل عظة للراقدين موقظه وللظالمين محفظه ولاولياء الله مرققة ولاعداء الله مغلظه وضج المتباكون وعج المتشاكون ورقت القلوب وخفت الكروب وتصاعدت النعرات وتحدرت العبرات وتاب المذنبون واناب المنحوبون وصاح التوابون وناح الاوابون وجرت حالات جلت وجلوات حلت ودعوات علت وضراعات قبلت وفرص من الولاية الالهية انتهزت وحصص من العناية الربانية أحرزت وصلى السلطان في قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصله والامة الى الله بدوام نصره مبتهله والوجوه الموجهة الى القبلة عليه مقبله والايدي الى الله مرفوعه والدعوات له مسموعه ثم رتب في المسجد الاقصى خطيبا استمرت خطبته واستقرت نصبته

﴿ وصف الصخرة المعظمة عمرها الله ﴾

وأما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا ولم يتركوا فيها للايدي المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسا ولا مطمحا وقد زينوها بالصور والتماثيل وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبه بأعمدة الرخام منصوبه وقالوا محل قدم المسيح وهو مقام التقديس والتسبيح وكانت فيها صور الانعام مثبتة في الرخام ورأيت في تلك التصاوير أشباه الخنازير والصخرة المقصودة المزوره بما عليها من الابنية مستوره وبتلك الكنيسة المعمورة مغموره فأمر السلطان بكشف نقابها ورفع حجابها وحسر لثامها وقشر رخامها وكسر وجامها ونقض بنائها وفض غطائها وابرازها للزائرين واظهارها للناظرين ونزع لبوسها وزفاف عروسها واخراج درها من الصدف واطلاع بدرها من السدف وهدم سجنها وفك رهنها واراءة حسنها واضاءة يمنها وابداء وجهها الصبيح وجلاء شرفها الصريح وردها الى الحالة الحالية والقيمة الغالية

والرتبة العالية وهى التى عليها عطل وعطلها حلى وعريها كسوة وكسوتها
عرى فعادت كما كانت فى الزمن القديم وشهدت حين شوهدت بحسنها الكريم
وسيمياء حسنها الوسيم وما كان يظهر منها قبل الفتح الا قطعة من تحتها قد أساء
أهل الكفر فى نحتها وظهرت الآن أحسن ظهور وسفرت عن أيمن سفور
وأشرقت القناديل من فوقها نورا على نور وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد
والاعتناء بها الى الآن كل يوم فى مزيد ورتب السلطان فى قبة الصخرة اماما من
أحسن القراء تلاوة وأزينهم طلاوة وانداهم صوتا وأسماهم فى الديانة صيتا
وأعرفهم بالقراآت السبع بل العشر وأطيبهم فى العرف والنشر وأغناه وأقناه
وأولاه لما أولاه ووقف عليه دارا وأرضا وبستانا وأسدى اليه معروفا وا
احسانا وحمل اليها والى محراب المسجد الاقصى مصاحف وختمات وربعات
معظمات لاتزال بين أيدى الزائرين على كراسيها مرفوعه وعلى اسرتها
موضوعه ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامه قومة لتشمل مصالحها
تامه فما ترى الا العارفون العاكفون القائمون بالعبادة الواقفون فما أبهج
ليلها وقد حضرت الجموع وزهرت الشموع وبان الخشوع ودان الخضوع
ودرت من المتقين الدموع واستعرت من العارفين الضلوع فهنالك كل ولى يعبد
ربه ويأمل بره وكل اشعث أغبر لايؤبه له لو أقسم على الله لابره وهنالك كل من
يحيى الليل ويقومه ويسمو بالحق ويسومه وهنالك كل من يختم القرآن ويرتله
ويطرد الشيطان ويبطله ومن عرفته لعرفته الامصار ومن ألفته لتهجده
الاوراد والاذكار وما أسعد نهارها حين تستقبل الملائكة زوارها وتلحف
الشمس أنوارها أنوارها وتحمل القلوب اليها أسرارها وتضع الجناة عندها
أوزارها وتستهدى صبيحة كل يوم منها اسفارها وما أظهر من تولى اظهارها
واطهر من باشر اطهارها وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحملوا منها الى
قسطنطينيه ونقلوا منها الى صقليه وقيل باعوها بوزنها ذهبا واتخذوا ذلك
مكسبا ولما ظهرت ظهرت مواضعها وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها فهى
الآن مبرزة للعيون بحزها باقية على الايام بعزها مصونة للاسلام فى خدرها

وحرزها وهذا كله تم بعد انفصال السلطان والشروع في العمران وأمر
بترخيم محراب الاقصى وان يبالغ فيه ويستقصى وتنافس ملوك بني أيوب فيما
يؤثر بها من الآثار الحسنه وفيما يجمع له ود القلوب وشكر الالسنه فما منهم
الا من أجمل وأحسن وفعل ما أمكن وجلى وبين وحلى وزين وأشفق وأنفق
وأغنى وأقنى واعتنى وابتنى ووفى وأوفى وأسنى وأضفى وأتى الملك العادل
سيف الدين أبو بكر بكل صنع بكر موجب لكل شكر وكل فعل جميل ورفد
جزيل ومن جلي ومنح جليل ومكرمة حميده ومحمدة كريمه وفضيلة بها ترجح
ووصيلة بها تنجح وأتى الملك المظفر تقي الدين عمر بكل ما عم به العرف وغمر ونهى
وأمر وبنى وعمر ومن جملة أفعاله المشكوره ومكرماته المشهوره انه حضر
يوما في قبة الصخره مع جماعة من السراة الاخيره ومعه من ماء الورد احمال
ولاجل الصدقة والرفد مال فانتهز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها بالافتراص
وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص ثم غسلها بالماء مرارا حتى تطهرت ثم
اتبع الماء بماء الورد صبا حتى تعطرت وكذلك طهر حيطانها وغسل جدرانها
ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت وتضوعت وتعرفت وفغمت مناشق أهل
الهدى وأرغمت آناف العدى ومازال مع قومه في تطهير البقعة المباركة
طول يومه حتى تيقنت طهارتها وبينت عمارتها وراقت نضارتها ووقفت
عليها الاستحسان نظارتها ثم فرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق وافتخر
بان فاق الكرام بالانفاق وجاء الملك الافضل نور الدين علي بكل نور جلي وكرم
ملي واحسان سني وانعام هني وعرف زكي وعرف ذكي وعطاء مبتدع
وسخاء مخترع وجود مبتكر ورفد معتبر وأتى بكل ما خلد الاثر الحسن
وانطق بحمده الالسن وبسط بها الصنيعه وفرش فيها البسط الرفيعه وهدى
واهدى واعاد بعد ما ابدى وانار وأسدى وأفاض الندى وفض الجدا
ونفض الاكياس حتى خلتا به الانفاض والافلاس وسيأتي ذكر ما اعتمده
من بناء اسوار القدس حفر خنادقه وعجزها اعجب من سوابق معروفه
ولواحقه مالم يشق احد فيه غباره ولا لحق سابق فيه مضماره وأما الملك

العزيز بن عثمان فانه أتى بالاحسان الذى استظهر به الايمان وذلك انه لما عاد الى مصر وقد شاهد الفتح والنصر ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها ولم ير بعد حصولها به نقلها وكانت احمالا بأموال واثقالا كجبال وذخائر وافيه وعددا وافيه ودروعا سوابغ ونصولا دوامغ وخوذا وترائك ورماحا ونيازك وقنا وقنابل وصوافل وذوابل وجروخا وقسيا وعمانيا وهنديا ويزنيا وردينيا ومشرفيا وجفاتى وجنوبات وطوارق وقنطاريات ورانات حديد وزانات وآلات وزيارات وزراقات ونفاطات وقطاعات وعدد النقوب وجميع أدوات الحروب فاستظهرت بها المدينه ووثقت بها عراها المتينه وكان من جملة ما شرط على الفرنج ان يتركوا لنا خيلهم وعددهم ويخرجوا قبل ان يستوفى الباقون فى أداء القطيعة مددهم فتوفرت بذلك عدد البلد واستغنى بذلك عما يصل من المدد

﴿ذكر محراب داود عليه السلام وغيره من المشاهد الكرام وتبطيل الكنائس وانشاء المدارس﴾

وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الاقصى فانه فى حصن عند باب المدينه منيع وموضع عال رفيع وهو الحصن الذى يقيم به الوالى فاعتنى السلطان بأحواله الحوالى ورتب له اماما ومؤذنين وقواما وهو مثابة الصالحين ومزار الغادين والرائحين فاحياه وجدده ونهج لقاصديه جدده وأمر بعمارة جميع المساجد وصون المشاهد وانجاح المقاصد واصفاء الموارد للقاصد والوارد وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام وكان ينتابهما فيها الانام وكان الملك العادل نازلا فى كنيسة صهيون وأجناده على بابها مخيمون وفاوض السلطان جلساءه من العلماء الابرار والاتقياء الاخيار فى مدرسة للفقهاء الشافعيه ورباط للصلحاء الصوفيه فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة عند باب أسباط وعين دار البطرك وهى بقرب كنيسة قمامة للرباط ووقف عليهما وقوفا واسدى بذلك الى الطائفتين معروفا وارتاد أيضا مدارس للطوائف ليضيفها الى ما أولاه من العوارف وأمر باغلاق أبواب كنيسة قمامه

وحرم على النصارى زيارتها ولا الامامه وتفاوض الناس عنده فيها فمنهم من أشار بهدم مبانيها وتعفية آثارها وتعمية نهج مزارها وازالة تماثيلها وازاحة أباطيلها واطفاء قناديلها واعفاء أناجيلها واذهاب تهاويلها واكذاب أقاويلها وقالوا اذا هدمت مبانيها وألحقت بأسافلها أعاليها ونبشت المقبرة وعفيت وأخمدت نيرانها وأطفئت ومحيت رسومها ونفيت وحرثت أرضها ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار وانحسمت عن قصدها مواد اطماع أهل النار ومهما استمرت العماره استمرت الزياره وقال أكثر الناس لا فائدة في هدمها ولا هدها ولا يؤذن بسد أبواب الزيارة عن الكفرة وسدها فان متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء ولا ينقطع عنها قصد اجناس النصرانية ولو نسفت أرضها في السماء ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمرهم بهدم البنيان

ومما كتبته الى الديوان العزيز مجده الله للبشارة بفتح القدس
مع الرسول ضياء الدين الشهرزوري من رسالة

قد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم والنصر العميم والعرف الجسيم والفضل الوسيم واليوم الاغر الاعز الكريم والشرف الذي ذخره الله لهذا العصر ليفضله على الاعصار وأراد تأخير ادخاره الى هذه الايام ليكون بها تاريخ الفخار فقد أعجز الملوك عن اقتضاء نصرته واقتضاض عذرته وخص من اجراه على يده بسمو قدره وعلو قدرته وأعاد به القدس الى قدسه وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه وقد رجع الاسلام الغريب منه الى داره وخرج قمر الهدى به من سراره وذهبت ظلم الضلالة بأنواره وعادت الارض المقدسة الى ما كانت موصوفة به من التقديس وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس وقد أقصى عن المسجد الاقصى الاقصون من الله الابعدون وتوافد اليه المصطفون الاقربون والملائكة المقربون وخرس الناقوس بزجل المسبحين وخرج المفسدون بدخول المصلحين وقال المحراب لاهله

مرحبا وأهلا وشمل جماعة المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة ما جمع للاسلام فيه شملا ورفعت الاعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب وتليت بألسنة عذبها نصر من الله وفتح قريب وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين وبعد أهل الاحد من قربها بقرب الموحدين فذكر بهاما كاد ينسى من عهد المعراج النبوى وقامت دلالتها براهين الاعجاز المحمدى وصافحت الايدى منها موضع القدم وتجدد لها من البهجة ولرسالة ما كان لها فى القدم فهو ثانى المسجدين بل ثالث الحرمين فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الاسر واسفار صبح الاسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر وتطهير مواقف الانبياء صلوات الله عليهم من ادناس الارجاس ونضوع أرج الرجاء فى ارجائه بعد اليأس فالحمد لله الذى أبدل الايحاش بالايناس ونزع عنه بافاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه على الاعصر مفضلا وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخر الدين والدنيا به مكملا وبسر ببركات أيامه فتح البلاد الساحلية بأسرها وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها وأسرها ولقد حل الكفر عروة عروه وهد ذروة ذروه وعادت حباله رثاثا وعقوده انكاثا وما كنه اجداثا وصار حديثا بعد ان شوهد أهل الذمة أحداثا فالرتاج مستفتح والرجاء مستنجح والبلاد مستخلصه والقيم الغوالى منها بسوم العوالى مسترخصه والعقائل مقتضه والمعاقل مفتضة ومناهل المنى بمياه النجاح مرفضه ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الايمان منقضه والثغور مبتسمه والامور منتظمه والحصون متسلمه والخصوم مذعنة مستسلمه وأرض الكفر ينقصها الاسلام كل يوم من أطرافها بل يستولى على أواساطها واكنافها ويعيد الى الطاعة كرها مذهب خلافها ولقد اينع زرعها وثمرها من رؤس المشركين وهذا أوان حصادها وقطافها والنعمة بحمد الله عظيمه والموهبه وان خصت هذا الاقليم فهى فى جميع أقاليم المسلمين عميمه ولو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ودلالة المكرمة لكبا قلم البليغ فى مضمار

البيان ولم يبلغ مدى قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا والقاضي ضياء الدين القاسم الشهرزوري قد توجه لهذه النعمة واصفا وعند ما يؤمر به من انهاء البشرى بها واقفا وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه عارفا وأحق من شرح الحق والحقيقة من نبي بشرح الصدور ومصادر شرحه ويفتح على الاسلام أبواب الهناء بانهاء ما تسنى من فتحه ويحدث وهو الضياء باسفار صبحه

(عاد الحديث الى ما جرى بعد فتح القدس)

وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما يقرب بها من حصون واستباح كل ما للكفر بها من مصون ورحل ولده الملك الافضل قبله الى عكاء عائدا وعن حوزتها ببأسه وجوده ذائدا ثم تبعه الملك المظفر فرحل وسار الى عكاء وبها نزل ثم عمد السلطان الى ما جمعه ففرقه وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه وفرضه بموارفه وفضه في مصارفه فسد خلة المعيل واسهم منه ابن السبيل وحل به عن الغارم وأحيى به سنن المكارم ووضعه في أهله وأحله في محله وصرفه في حله وقدم التوسعة على ذوي الاضاقه والانفاق في أهل الفاقه وأجنى الاجناد منه معاطف وجعل للمجاهدين منه وظائف وابقاء بافنائه ذخرا للآخره وكسب المحامد الفاخره فأكثروا عذله على بذله واستكثروا ما فضه بفضله فقال كيف أمنع الحق مستحقيه وهذا الذي أنفقه هو الذي أبقيه وإذا قبله مني المستحق فالمنة له على فيه فانه يخلصني من الامانة ويطلقني من وثاقها فان الذي في يدي وديعة أحفظها لذوي استحقاقها فعاد الوفد الاوفر ودثر والافاضة في نظم من حمده ونثر وحاز كل ذي فضيلة منه فضلا وتفيأ كل ذي من فيئه ظلا وكثر السائلون بالفضائل والقائلون بالوسائل والقاصدون بالقصائد والوافدون بالفوائد والواردون بالفوارد والسابقون بالشوافع والشافعون بالسوابق والسالكون للطرائق والمالكون للحقائق فمن ترى الا فارئا باللسان الفصيح وراويا للكتاب الصحيح ومتكلما في مسئله ومتفحصا عن مشكله ووارد الحديث نبوي وذاكرا لحكم مذهبي وسائلا عن لفظ لغوي

ومعنى نحوى أومقرضا بقريض أومعرضا بتصريح أومصرحا بتعريض أوجالبا لمدحه أوطالبا لمنحه أومستضعفا بفاقه أومستعفيا بآفه أو ناشدا بنشيد أومسمعا بتغريب وتغريد ومافيهم الامن أحظى بسهم أوأرضى بقسم وأصيب بنصيب وأجيب وأجير بتقرير وتقريب فقيل له لو ذخرت هذا المال للمآل لشفيت به مايقع من الاعتلال وكفيت بالحقيقه مايسنح من الاختلال فقال أملى قوى من الله الكافل بنجح الآمال وجمع الاسراء المطلقين وكانوا الوفا من المسلمين فكساهم وآساهم وواساهم وأذهب أساهم فانطلق كل منهم الى وطنه ووطره ناجيا من ضرره وضره ومكث السلطان عليه مقيما للنظر فى مصالحه مستديما فقيل ماقعودك عن صور فانهض اليها عسكرك المنصور وأنت تدخلها يوم وصولك وتحظى منها بمرادك وسولك انو السير وأسرع المسير واحصر الخبر واحظر التأخير وفى تعجيل النهضه تحصيلها فى القبضه وفى بدار الالمام بدارها بشرى اهلة الفتوح المقمرة بابدارها فأسر بالعسكر وأسرع واقطع عن الكفر تلك الاعمال وأقطع وأكثر من كان يستحثه وعلى النهوض يبعثه الامير على بن أحمد المعروف بالمشطوب وكان من أكابر الامراء الكافين للخطوب الكافين فى الحروب وكانت معه صيدا وبيروت وهما بقرب صور وقد أشفق ان قصدها يفوت فرأى الحظ فى الحض وحرض على الفرض ولم يفكر فى فوتها بانتقال رجال الساحل اليها وانه يشق فى هذا الوقت النزول عليها وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس باحكام صور مشتغلا وعلى الاستهتار بتحصينها مشتعلا وقد استجد قدامها من البحر الى البحر خندقا وجعل الطريق اليها مضيقا وأحكم أسباب الاحكام وأخذ بالحزم فى الاهتمام

(ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور)

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان وقد عنا لامره كل قاص ودان وودعه ولده عزيز مصر فى أول منزله وسايره لكراهية فراقه مقدار مرحله ثم وصاه وشيعه واستصحب أخاه الملك العادل معه مستظهرا باخائه مستبشرا بآلائه مستبصرا بآرائه مستنصرا بامضائه

مستغنيا بغنائه موفيا بوفائه وهو بعقله يعقد وبحله يحل وبشده يشد وبحوله يحول والعساكر بالفضاء فائضه وللخطوب الربضة رائضه والى استنهاض النصر لانصارها ناهضه ومن هواها انما في دأماء الدماء من أهل الكفر خائضه فوصل الى عكاء في أول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهرا بخيمه باهرا بتأخيره وتقديمه قاهرا بشباه المبير زاهرا بسناه المنير جاهرا بسره ظاهرا في بحره وأقام أياما يتفكر ويتدبر ويستشير ويستخبر والمشطوب يستعجله ولا يمهله ويحرض بالبعث ويحذر من المكث ويقول الفرصة تدرك بالحث وتفوت باللبث فسار لنداته ملبيا والجيش النصر معبيا ولرأيه مقلدا وبالله عز وجل متأيدا فوصل الى صور تاسع شهر رمضان يوم الجمعه بالجحافل المحتفلة والجموع المجتمعه فنزل بعيدا من سورها سعيدا في ترتيب أمورها مضروبة قبابه مجنوبة عرابه محجوبة بالبنود والجنود أرضه وسماؤه منشورة راياته منصورة آراؤه خافقة على الاعداء عذبات عذابه دافقة في ثرى النجح في الانجاء ثرات صوب صوابه قد كست خيامه عرى العراء وفضت أشعة بيضه وسمره الفضة بالفضاء واحتوت مضاربه المضيئة بآلائه وآرائه على مضارب المضاء وباحت استباحة حمى المشركين للموحدين بسر السراء فمكث أياما حتى تواصل المدد وتكامل العدد واستحضر آلات الحصار واستكثر من المجانيق الصغار والكبار ثم تقدم اليها وخيم عليها الثاني والعشرين من الشهر يوم الخميس في خميس يسير في الوشيج كالاسد في الخيس ونزلت النوازل المركسة من نزوله ونزاله بالمركيس فوقع في الدرديس والعذاب البئيس فكأنما نفخ في صور صور فحشر أهل جهنم وملؤا السور واتصلت زيارة الزيارات للعروج بالجروح وتوافقت مناجاة المجانيق بالخدوش والشدوخ وأرسلت الجارات حاجرة حاجزه وألسنة أهل الرجس والرجز بالفحشاء راجزه وكانت صور على السوء منطويه وعلى كل من خرج من القدس وبلاد الساحل محتويه فضجوا وارتجوا وعاجوا وعجوا ولجؤا ولجوا ونصبوا على كل نيق منجنيقا وشدوا من كل جانب ركنا وثيقا وشدوا في الجبال ومدوا في الحبال ورموا من

الشرافات بالشرور والآفات وسلب الجار جاها وأمت الامة وجاهها وجاهها فكم من رؤس أطارت ونفوس أبارت وبر خسفت وبلاد كسفت وبحر نزفت وطود نسفت فحول السلطان الى قرب هاله خيمة صغيره وأنهض بنات الحنايا بالمنايا عليها مغيره وصف الجفاني فصدف أبيها الآتي وعارض بحرها بعرض بحره ورد كيد الكفر من المنجنيق بما نصبه من المنجنيق فى نحره فاحبط أعمالهم بأعماله وأهبط رجالهم برجاله وقابل الابراج بالابراج وحاول بالردى علاج الاعلاج وولاها حجارات وصخورا حتى جعلت سورها سورا وجد فى أمرها وأجاد فى حصرها ووصل اليه فى تلك الايام من قوى به ظهر الاسلام ولده الملك الظاهر غياث الدين غازى وهو الذى جل فى سماحته وحماسته عن الموازن والموازى فقدم مبارك القدم متدارك النعم عالى الهمم غالى القيم ومعه عسكر مجر لجب جلبه من حلب فدا استصحب البيض والسمر والبيض واليلب فظهر من الملك الظاهر ما ملك به قبول القلوب وأغرى سيفه بسفك دم الكفر المطلول المطلوب ورأى نصب خيمته وراء خيمة أبيه المنصور به وجد فى استرجاع مدينة الاسلام المغصوبه وقدم بين يديه كل جار راج وكل نقاب ناج لصم الصفاح مصافح وكل جاندار جان در الردى للكفار وكل زراق رزق الجسارة على أهل النار بالنار وكل منجنيق من جنانه تقتبس ذبالة البساله وكل جرخى رخى البال بالهدى لاصماء أهل الضلاله وكل رام رام النجم فى الافق فرماه وكل همام هم بالخطب النازل فحماه وكل مقدام قرنه دام وكل ضرغام صريعه فى رغام وكل قمقام ضارب بصمصام وكل حام شارب بكأس حمام وكل ذمر مشيح لذمار الكفر مبيح ولروح الجد مريح ولدماء المراح مزيح وكل فاتك لحبل الوريد باتك ولستر الحياة هاتك ولدم العداة سافك وكل شجاع الى الموت داع والى الجد ساع وللاسلام راع وللاشراك ناع وكل فارس للفوارس فارس وللذوابل فى النحور غارس وفى اليوم العابس غير عابس وكل راجل لقهر العدو راج وبسر البأس مناج ومن شر الناس بشجاعته ناج وبباغت المنون لمن يلاقيه شاج وكل عتال عات ونجار ونشار ونحات وحداد وقين وكل زانر

للعدى بحين فاجتمعوا وزحفوا وجفوا على القوم ورجفوا وأصموا وصمموا وأوقدوا نارا وأضرموا وأطاروا من أعشاش الاقواس الى أوكار الاحداق أفراخا واستصرخوا الاقدار لاقدارهم فخبتهم حين أجبتهم اصراخا وغلظوا على الرقاب الغلاظ بالرقاق وأولوا الشقاء لاولى الشقاق وتساعدوا وتناصروا وتطاولوا وماتقاصروا ومافيهم الامن أبان عن جد وأبان بجد وألان الشديد وأعان السديد وألح فقطع الحديد بالحديد وجد الجديد ومد المديد وصور مرتجة أبوابها مرتجة أربابها مغتصة جوانبها مرتصة عصائبها مشحونة أبراجها مسجونة أعلاجها محصورة كلابها محسورة ذئابها محشورة ثعالبها محشودة كتائبها والمركيس بها مقيم وابليس عليه متحكم وقد سقط في يده وسقط لبلده وارتبط بجلده واختلط بكمده وغلت مراجل غلوائه وعدت عوائل عدوانه وطاش وجاش وأوحش الاوباش والاوخاش وتوشح بالشر وتوحش وترشح للردى وتحرش واشتعل بجمره وبعل بأمره وضرى بضره وجال بوجله في مكر مكره وكرفي وكره وعشا عشه وغشي غشه ونبث على لجاجه ونبث في أجاجه ونمر وتعسر وتربص وتصبر والسلطان مصيب حكمه صائب سهمه ماض عزمه فاض حزمه بارحده جارجده وار زنده سار وفده بائن غربه فائت ضربه قاطع شباباته ساطع سنى ابتسامه قد اتسقت أسبابه واتسعت رحابه واجتمع أصحابه فازدحم على بابه وحول قبابه كل مبارز بار وكل ضارب ضار وكل جار جار وكل رامح ورام وكل حامل سلاح وحام وكل سائف حائف وكل عاصف قاصف وكل آكل للحرب شارب وكل طالع بالضرب غارب وكل هاجم هائج وكل راجم رائج وكل معتقل متقلد وكل مجرب مجرد وكل ذكر مذكور وكل غضنفر مشكور وكل ليث ملاث وكل غيث غياث وكل سفاك لدم الكفر سفاح وكل جراد لسيف القتل جراح وكل مكتتم في درعه مكتمن في نقعه ملثم بزغفه متلثم بحرفه مقنع بلامه ملفع بقتامه سابح في بحر الموت سابحه سامع في الصباح صوت صائحه فجمع اليه أمراءه واستحضر عظماء ملكه وكبراءه وقالوا هذا بلد حصين ومكانه من الارض مكين في البحر ثلاثة

أرباعه وفي السماء ارتفاع يفاعه وطريقه الذي يسلك من البرانية قد أحاط
به الصخر من جانبيه وقد قطعوه بخندق في عرضه وعمقوه ونزلوا في أرضه وكان
من احكام الحزم واتمام العزم تكميل الآلات وتتميمها وتحصيل المنجنيقات
وتقديمها وتركيب الابراج والدبابات وتأليفها وتقريب الجفاتي والجنويات
وتصفيفها وتسوية مناصب المجانيق وتسقيفها وتعبئة أثقال العسكر وتخفيفها
وتعبئة نخب الرجال وتصريفها وتسنية الاسباب وتهيئة الاخشاب واستحضار
كل ما راد للحصار واستنفار كل من رام من الانصار فاذا حضرت هذه
الاشياء والاشباع وتيسرت وتوفرت الاصول والاتباع رحب الذرع في الحصر
والمضايقة وطال الباع واذا حالت الاحوال وضاعت الاوضاع اختل واعتل
النزال والنزاع وأمر السلطان بازاحة العلل وازالة الخلل وشغل الصناع
بالعمل ونقل الامل الى طريق الاجل وتقدم بقطع أشجار الغياض وحمل
ما بتلك النواحي من الانقاض فاجتمع هنالك كل ألقوآ له وذباب وذباله وقضيب
ومقضب ومجرب ومحرب وسهم وشهم وشهب ودهم وأحمال وأثقال
ونظمت الستائر من القضيب وصفت من سور صور بالمكان القريب وكمن
من ورائها الكماة واستترت بالجفاتي قدامها الرماة واشتغل كل صانع بصنعه
وكل جامع بجمعه وكل دافع مانع بمنعه ودفعه فمن جان بمنجنيق ودان الى نيق
وداب بدبابه وذاب بذبابه ونازع في حنيه ونازع بمنيه وقاذف بشراره وحاذف
بحجاره وهاتك من ستاره وفاتك بجساره وجاذب في حبال وجالب لوبال
ومر وفي قلع ومسو لمقلاع ومدبر بايجاف ومدمر بايجاع ولم تزل المنجنيقات ترمي
والحجارات تدمر وتدمي والدبابات تطير من أوكارها عقبان الجروح واطباق
البرج تبني وتغطى بالسلوخ حتى امتد الزمان واشتد الحران وضاق الحصر
واعتاق النصر وكان العسكر قد ألف تيسر الفتح وتسرع النجح فصعب عليه
حين صعب وتبع هواه لما تعب ولم يألف الناس الا ارواء ظمئهم بنهله والحصول
على أكساب سهله وفتح ما يقصدونه من البلاد بغير مهله فلما توقف هذا الفتح

توقفوا وملوا وضجروا وتأففوا والسلطان مع ذلك يزداد في حده حده وفي شده شده وفي جده جده يثبتهم بحثه ويحثهم على الثبات ويقويهم بجوده ويوجدهم القوات ويقول ان الله أمر بالمصابره ولا مصابرة الا بالمثابره فاصبروا واتفلحوا وصابروا واتقضوا

((ذكر ما تم على الاسطول))

وكان السلطان قد نفذ من صور واحضر اليها من عكا ما كان بها من مراكب الاسطول المنصور فوصلت منها عشر شوان على العدى جوان وللردى لهم جوان فعمرها بالرجال وجهزها للقتال واتصلت بها مراكب لنا من بيروت وجبيل فاستشعر المركيس وأشياعه منها الويل وعمروا لهم مراكب ورفعوا بها منا كب وسفننا بالساحل عندنا مربوطه وبحفظنا مضبوطه محوطه ودامت تدب عقاربها وتدب سوارحها وتجري سوار بها وتسري جواريها وتطير للقنص بزاتها وتغير للفرس غزاتها وتكسر بكواسرها وتدور بدوائرها وتلاطم الامواج بأمواجها وتزاحم الاثباج بأثباجها وترفع شرع الهداة بشراعها وتقلع عرش الغواة باقلاعها وتنقض على شياطين الكفر شهبها وترفض بشآبيب الذعر سحبها فكأنها الاساود السود ركبتها الاسود من كل افعوان يحمله افعوان وشجاع امتطته شجعان وغراب بشتات العدى ناعق وسحاب بوميض الهدى بارق فيا لها من اغربة دارت بعقبان واجنحة طارت بظلمان ورواس سوار وغواز بغوار وقد ملئت برماة الحدق وحماة الحلق وزراق النار وطراقي الثار والخاطفين بالخطاطيف والقاذفين بالمقاذيف والكالمين بالكلاليب والسالبين بالاساليب والحاربين بالمحاريب والراجين بالرجام والمعلمين على الاعلام فانشقت مراكب الفرنج وأزاحت سفنها عن النهج وقرنصت بزاة البيزانيه وتقاصت جناة الجنويه وكثرت أدواء الداويه وكثرت أسواء الاسبتاريه وزادت آلام الالمانيه وعادت اسقام الافرنسيه وصارت مراكبهم في الميناء لانبين وشدتهم اشد شوانينا نكادنا بين وقد ربطوا عندهم السفن فلو خرجت كانت حبالا نسفن وأنس أصحابنا بعلو الامر وخلو

البحر وأمنوا من الخوف وادمنوا على الطوف ودام تطوافهم واستقام إيجافهم واغتروا بالسلامه وسروا بالاستقامه وباتت الشوانى خمس لها بزوال الوحشه أنس وربطت بقرب ميناء صور وراصده ولا خذ ما يخرج من شوانيها قاصده والدياجى مدلهمه والدواهى ملمه وعيون الزهر راقده وعيون الكفر ساهده وللمكايد مصايد وللعوادى عوائد وللغوائل طوائل وللمسائل دلائل وللمقادير مقاد ولا ولكن المراد مراد فحفظ أصحابنا الى السحر الحرس وسهروا الى ان شارفوا الغلس وكل منهم لما استأنس نعس وغاص فى النوم وما تنفس فما انتبهوا الا وسفن الفرنج بهم محدقه ونيرانهم محرقه فولجوا فى البحر والتجوا وتطافروا الى الماء لينجوا وعدت العداه وأخذت تلك الشوانى الشناه وأسروا منها عده ولقى الباقون شده فاغتم السلطان بسبب هذه النكبه وفرح الكفار بتلك الضربه وكانت تلك أولى حادثة كرثت وكارثة حدثت ونائبه رابت ورائبه نابت فضاقت القلوب وضافت الكروب وحصلت تجربة الغارين واتصلت حركة القارين واستيقظ الناعس واستوحش الآنس وهب الراقد ودب الراكد وذاب الجامد وشب الخامد وهاج الزائر وماج الزاخر وتحرك الساكن وتورك الراكن وعقل من غفل وذهن من ذهل وتيقظ من غفا وتحفظ من هفا وتقبض من انبسط وتقيد من نشط وهم من عف وألم من كف ورجفت الآفاق بالمرجفين وطالت ألسنة المنفقين فمنهم من يؤنب ويذنب ومنهم من يقول ويطنب والعاقل يتجنب ويقيم العذر لمن يذنب ويقول هذه من الله موعظه وآية لنا موقظه وأشار الناس بانفاذ الشوانى البواقى وقطعوا بان هذه القطع لا تكفى لملاقاة من يلاقى فجهزوها نهارا وصيروا اسرها جهارا وأمروا بتسييرها الى بيروت ورجوا ان تسبق وتفوت وركب العسكر فى الساحل يباريها وهى بالقرب تجاريه فى البحر وهو فى البر يجاريها فابصر ملاحوها شوانى الفرنج لمبارزتها مبرزه وللاجهاز وراءها مجهزه وكانوا رجالا من بحريه مصر مجمعه وأصبحت قلوبهم بما جرى على أنظارهم مروعه فتواقعوا

الى الماء وخافوا على دمائهم فى الدأماء وخرجوا الى البر على وجوههم وخافوا مكرهم فى مكروههم وفروا وفاروا وطاروا وثاروا ولم يلتفت أحد منهم الينا ولم يردهم دعاؤهم الى التجمع الاثنينا فظهر بهذه النوبة الواقعة والنبوة الرائعة ان نواب مصر لم يحرمنهم بالاسطول احتفال ولم يرتب فيه على ما يراد رجال واغا احشد واليها مجمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفة ومستضعفة غير آلفة ولا مألوفة فلا جرم لما شاهدوا الروع ارتاعوا ولما ألزموا بالطاعة ما استطاعوا وكان فى جملة شوانينا قطعة يتولاها رئيس جيل كأنها جبيل وفيها بحرية من ذوى التجربة والتجرى والتجرية ما لها جبن ولا ميل فطال بأسلحة الدفاع وطار بأجنحة الشراع وفاز بالسبق وفات وهيهات ان يدرك هيهات فتجا النجاء وآب بهم الاباء فبقيت المراكب الباقيه وقد أخلاها حماتها الواقيه فرفعناها الى البر ورأينا الصحة منها فى الكسر وفرغنا من شغل المراكب فى البحر هذا والمنجنيقات ترميهم والمفوقات الموفقات تعميهم وتصميهم والقتال قائم والنزال دائم والصخور تفلق والصدور تقلق والاحجار تقلقل والاسوار تحلحل والاطواد تضعضع والابراج القيام تسجد وتركع والاصلاد تقدح والاجلاد تقرح والالواح تصدع والارواح تودع والخدود بشفاه الشفار ملثومه والحدود بضراب الاضراب مثلومه والجروح بين أكفاء الكفاح مقسومه والقروح بها قوارح القوارع موسومه والجنايا واترة موتره والمنايا مأثورة مؤثره وظعائن الضغائن تحدى بصليل البواتر وصهيل الضوامر وحقوق الحقود تقتضى بألسنة الاسنة وعنت الاعنة من الغريم المكافر والاوداج شاخبة كالعيون البواكى والابشار دامية من الزنبوركات والناوكات النواكى وهنالك العقل معزول بالتهور والرأى مشغول عن التدبر والعلم والحلم خالطهما الجهل والسفاه والجرخى يبتدئ ببسم الله والمنجنيق يختم بلا اله الا الله والزراق بالنار يطيب القارورة ويحرق الساتوره والسباق الى المفهار يساور السور ويباشر الباشوره

(ذكر خروج الفرنج للقتال)

ولما عثر الفرنج على تلك العثره ظنوا فينا الفتور لاجل تلك الفتره وقالوا مراكبهم اختل تركيبها وكتائبهم اختل ترتيبها وستجرى بها عنا الندامة التى يحدثها تجريبها وهم الآن على صوت لهم مخيف وفوت بهم مطيف فلا معنى لتقاعدنا عنهم ولا وجه لتباعدنا منهم فلو خرجنا صدمناهم وأقدمنا عليهم وهزمناهم وخرجوا يوما قبل العصر فى عدة كالليل خارجة عن الحصر قد التأموا واستلأموا وانضموا وانتظموا وتقدموا وأقدموا وللطوارق حاملين وللعمالات مطرقين وعلى الفرق مجتمعين وللجماعات مفرقين وبالرهق جادين وبالجدم هفين وللمقود حالين ومن الغمود سالين وللمناصل منتضين وللطوائل مقتضين وللسيوف مجردين وللسيول مجرين وبالزغف ملتثمين وفى الحنف مقتحمين وبالقطاريات طائرين وبالزيارات زائرين من كل مغوار وار ومحضار ضار وغدار جار وجبار بار وعدو عنود وكند كنود وداوى ذى دوى وباروفى غوى ومن كل مصمم اذا وتر مصم اذا نعر مصر اذا ذعر هائج اذا استعر مائج اذا ذخر متنمر اذا زأر متذمر اذا زجر فتناوبوا وتواثبوا وتجاولوا وتجاوبوا ودنوا من متارس المنجنيقات وجنوا من مغارس الجنويات وبنوا أمرهم على ان الناس ناسون غارون وان أهل البأس فى خيمهم هاجعون قارون فتلقاهم منا كل ضارب للهام ضار بالحمام جار الى الاقدام ملب للصوت محب للموت مشتهر بالغناء مشتهٍ للقاء مستهتر بالبلاء ماض بالمواضى منقاض بالقواضب القواضى وكل أبيض بالبيض ضراب وللبيض رضاض وأغلب المغلب قضقاض والى الحرب نهاض وكل معتقل رماحه معتقد مراحه مهتز لطرب الشهاده معتز بأرب السعاده متمن للمنون متعين على الجنون مضرم نار الحديد فى ماء الوريد مغرم فى تفريق العدى بجمع الحديد مفرغ ماء الظباء على نار الضجيع مبلغ تلبية الهدى الى الصريخ السريع قد ائتم باللأم وتلفع باللثام وتقنع بالزرد وتدرع بالجلد وتحرش بالعبر وتحصن بالزبر وصال بالقضب وجال بالهضب وطال بالهندى على الفرنجى وطاش من دم الشرك فى البحر اللجى فلم يسمع الا أنين الحنيه لحنين المنيه ورنين الاوتار

من كنين الاوتار وهفيف السهام لأفيف اللهام وصليل بنات الغمود من غليل أبناء الحقود وهمهمة الابطال وغمغمة الاقتال وزئير الضرغام وزفير الضرام وقرع الظبا بالظبا ووقع الشبا على الشبا وضجة الحديد من الحديد وعجة الشديد من الشديد وجعجعة رحى الحرب وقعقعة أداة الطعن والضرب وجرجرة الفحول وزمجرة الذحول وهديل حمام الحمام وهدير قروم الاقدام ووعوعة ذئاب الوغى ومعمعة التهاب اللظى ودعدعة صاع المصاع وجلجلة سباع القراع وصلصلة الزبر وولولة الزمر وجعجعة دعاة النصر وهيضلة رعاة الكفر ورفرفة المريشات الراشقه وهمهمة الطعنات الفاهقه وزهزهة أعطاف المران وزهزهة أصوات الشجعان ونعير الغالبين وصخب الهالبين ولجب الجالبين وزحير الطالبين ونهيت الاسود وقصيف الرعود وهدة الاركان ودهدهة الرعان وقهقهة الاقران وقرقرة كوم الكماه وصرصرة بزاة الغزاه وكشيش صلال الضلال ونشيش مراجل الرجال وهزيز ريح الباس وهزيم رعد المراس وارنان المعاطس وارزام القناعس وهيعة الصارخ وصيحة النافخ وزعقة المستفزع ونعقة المستنزع وشعشعة الخرصان وزهزمة النيران وهينمة الاجل وجعجعة الزجل وتكبير المؤمنين وتهليل الموقنين وصرير أبواب الجنان للشهداء وصريف أنياب الجنان للاعداء والدعاء الى اللقاء والنداء الى الارداء وارتفعت الاصوات واشتبهت الاحياء والاموات ووقع أصحابنا فيهم وقوع النار في الحطب وأروهم في مرايا البيض وجوه العطب وولوا مدبرين بعدما تولوا مدبرين وجنودنا تشلهم وحدودنا تفلهم ولتوتنا ترضهم ولبوتنا تفضهم وعادوا الى البلد عادمي الجلد وفيهم ندوب وعليهم نوادب وأيدي الردى بهم لواعب ومنهم لواغب ودخل الليل وعمهم الويل وأسرنا منهم مقدمين ثبتوا على الموت مقدمين وممن أسر نخص قومص عظيم بل شيطان رجيم فنزل في قيد الاسار ليكشف عن حاله بالنهار وكان الملك الظاهر غازي لم يحضر فيما تقدم من المغازي فرأى أن يحقق اسمه بقتله فضرب عنقه بحد نصله وكان للمركيس شبيها وفي الفرنج وجيها فظنوا أنه هو للشبه

وبات أهل الكفر بالعمى والعمه ثم عرف أن المركيس فى نفسه لم ينكا ولم ينكب ولما عطب أشياعه لم يعطب وندم على ما قدم ومن تقدم على غرة تندم

(ذكر ما دبروه من الرأى ورأوه من التدبير)

ولما امتنع البلد وارتدع الجلد وارتتج العدو ولج ضجر العسكر وضج واجتمع امراء يحبون الافلات ولا يكرهون الفوات وقالوا مطاولة ما نقص عنه تتعب ومزاولة ما لا يزول تصعب ومحاولة الممتنع محال ومطال غريم هذا الفتح مطال وما يتسع انا فى هذه الحلبة الضيقة مجال وهذا السلطان جلد على المصابره مجد فى المكابره لا يكترث بالكارث ولا يدخل سمعه حديث الحادث ولا يبالى بمن بلى ولا يفكر فيمن أولى أو ولى ولا راحة له الا فى التعب ولا يعلم له نصيب سلامة الا من النصب وكل ما جرى الى اليوم منا ومن القوم لم يرعه ولم يردعه وقد قيل اذا لم تستطع شيأ فدعه فكيف السبيل الى استعطافه وما التدبير فى استعفافه وبم نتوسل ونتوصل واذا عرفناه ان الداء يعضل والخطب يشكل لعله يجتوى الاقامة ويرحل فاطلع على ما دبروه ورتبه ما أمروه وهمه ما به هموا وآلمه ما به ألموا فراسلهم بالهبات وواصلهم بالصلات ورغبهم فيما عند الله من الزلفى ووعدهم بكل ما على أملهم أوفى وقال لهم كيف نخلى هذا المكان وما استفرغنا فى شغله الامكان وما استنفدنا فى مضايقته الوسع ولا أحسنا بعد فى محاصرته الصنع ولا زحف اليه الجمع ولا حفز منه المنع ولا أصابنا من مكر أهله مكروه ولا ورد الصبر منه بشفاه شفاهه مشفوه وكيف نجرى بنا الخيل عنه قبل التجريب وهذا الارب ما يخطر بخاطر الاريب وما عذرنا الى الله والى المسلمين اذا تركناه وكيف نقول فاتنا هذا القنص وما أدركناه والفرصة اذا فاتت لا تدرك والبغية اذا واتت تحفظ ولا تترك ونواظر الناس الى ما يكون منا فى صور وصور وهذه الظلمة المدلهمة لا يجلوها الا النور ومن لا يتعب لا يستريح ومن لا يحترق من الوجد لا يقترح وان تجدوا تجدوا وان تردوا عن المنهل العذب تردوا وان تصبروا وتصيبوا فارجعوا الى الله وأنيبوا وهذا الراجل متواصل والغرض به حاصل ونحن نقسمه على المجانيق ونوبها

ولزم كلا منهم ملازمة البقعة التى هو بها وهذا البرج قد ارتفع والوسع قد اتسع وقد امتلأت بالرجال طبقاته وتوالت منها فى الكفر رشقاته والنصر قد آن أن تطيب نشقاته والمركيس أبعده الله قد قرب أن تخونه ثقاته ورأينا طول الارواح لا التطاول الى الرواح وفى التثبت عن المقام التوثب على المرام ثم أخرج المال وصبه من أكياسه وفرقه على ناسه وأنفقه فى أهل باسه وواصل البذل وهجر العذل وملأ الايدى بالغنى وروج لرجاء نجح المنى وأمر فامتثل وقال فقبل ونادى فسمع وحشر فجمع وعادت عادة الحصار وأسعدت سعادة الانصار

(ذكر فتح حصن هونين)

وورد الخبر عن هونين أنها هانت ودنا أمرها ودانت وان طريق فتحها بانت وأنها عنت فان ألطاف الله أعانت وانها بذلت ماصانت ولم تبق للكفر على ماكانت وان شدتها لانت وكان السلطان قد وكل بها بعض أمرائه وأمده بعدى جنده وعطائه فلبث الى هذه الغاية يصميها بسهام النكاية حتى طلب أهلها الامان على الوفاء بما يشترطون ويشطون منها ولا يشتطون فاول ماقالوا أمهلونا حتى نعلم مايكون من صور ونكشف هذه الامور فان أخذتموها أخذتم هذه وشفعنا أمر السلطان بنفاذه وان خليتموها فياهوان هونين ونحن نجعل على هذا عدة من الاصحاب مرهونين فندب السلطان بدر الدين دلدرم الياروقى وهو من أكابر من عظمائه وأكارم أمرائه وأمره باستنزالهم واستزلالهم والامان لنسائهم ورجالهم فمضى ورغبهم فى الامن والسلامه وخوفهم عقبى الحسرة والندامه وقال لهم أنتم بين حصنين هما تبنين وبانياس وماذا تصنعون اذا خاب رجاؤكم وبان الياس واذا أبيتم التسليم عدمتم سلامتكم وأقمتم قيامتكم واستباحكم السلطان واستباكم وكرهكم وأباكم وحل بالقتل حباكم وفل شباكم فما زال يرغب ويرهب حتى رغبوا ورهبوا وأخذوا الامان على ان يذهبوا ووصل الخبر الى السلطان وهو على محاصرة صور مقيم ولمقاتلة أهلها مستديم والى ماعند الله من نصره مستنيم وتسلمت هونين بما فيها

من عدة وذخيره وقوة وميره وآلات وأدوات كثيره وتسلمها بيرم أخو صاحب بانياس واستشعر الفرنج منها الياس وكانت قد بقيت من الحصون التي تعذر فتحها وبرح بالقلوب برحها من عمل صيداء قلعة أبي الحسن وشقيف أرنون ومن عمل طبرية والغور صفد وكوكب وهما من أحكم الحصون وقد وكل بهما أميرين من خواصه كبيرين وقد ضيقا على من بهما من العلوج ومنعاهم من الدخول والخروج وأقام السلطان على صور محاصرا وللدين الحنيف ناصرا ولبد الشرك بطاولته قاصرا يقاتلها بكل سلاح ويقابلها بكل كفاح حتى كادت تستكين وشدتها تلين وأبنيتها تدين ومريرها يبين وكان قد دخل كانون وظهر من سر الشتاء المكنون وقبض البرد الايدي عن الانبساط وأعدم الهمم دواعي النشاط وعادت العزائم المتوهجة تبرد والصرائم المتأججة تخمد والنخوات المتحركة تجمد والحميات المتيقظة ترقد والضرام المحتدم يخبو والحسام المخذم ينبو والطباع تتكره والسباع تتأوه ومناوبة القتال تختل ومعاقدة النزال تنحل فلحاهم السلطان على ما لاح وعرفهم ان في الصبر الفلاح وأمرهم بالمقام والاستقامة على الامر وانه لا ظفر الا مع الصبر وان الظلم تنجلي عند تجلي الفجر وكان في الامراء جماعة منتخبون منتخون أبت أمانتهم في حمية الدين ان تخون مقيمون على الكريهة ولا كراهة منهم للمقام ويحبون ان تقام وظيفة الانتقام ويؤثرن بأنفسهم في طاعة الله وموافقة السلطان وعصيان الشيطان في مفارقة المكان فاذا أرجف بالرحيل رجفوا وضعفوا رأى المشير به وضعفوا واضطربوا واضطرموا وتذمموا وتلوموا وقالوا كيف نترك ما حوبناه ونعوج ما سويناه وننشر كفرا طويناه ونهجر خيرا نويناه وندوي توحيدا شفيناه ونشفي اشرا كادويناه وما للراحة اليوم طالب الا وهو غدا بالتعب مطلوب ومن أمسى وهو الآن غالب يوشك اذا ولى أن يصبح وهو مغلوب وهذه صورة صور قد تشوهت وموارد قوتها اشفهت واذا تخلينا عنها وخليناها ترفهت واستفرهت واذا حلمنا عنها سفهت وهبت من غشية خشيتها وتنبهت وتارك المصابرة مصاب والآخذ بالمثابرة مثاب فنهم الامير طمان بن غازي ما اطمأن

يوما في الغزو ولا سكن وعز الدين جرديك النوري كم جرد على أعناق المشركين سيفه الذي به تمكن وهما همامان مقدمان مقدامان من عادتهما الوثبات على ثبات العداة يرومان الثبات ولا يرعان وجماعة أخر بهما يتشبهون وبالكريهة لا يتكرهون وأما الباقون فانهم أحبوا البقاء وابغضوا اللقاء واتقوا الاتقاء وأبوا الا الاباء وقالوا قد لغبنا وما بلغنا وجرحنا وما ربحنا فلو رحنا استرحنا ثم جئنا ورجعنا وما نحن بأول واضع للاصر راجع عن الحصر معتف للعقل مستعف من الثقل عامل ببعض الحزم عالم بوقت العزم هذا وقد علم ما عرا من ضروب الكروب وثلم ما برى من غروب الحروب وبقدر ما هدم من مباني البلد هدم أكثر منه من مباني الجلد فقال السلطان بل نجد في القتال أياما ونقدم بأسا واقداما ونزحف بجميع رجالنا ونصدقهم في نزالنا ونقاتلهم من جميع النواحي فان تمذر لاح العذر للاحي وأصبح العسكر وقد استعد وامتد قبالة البلد من البحر الى البحر وللنصر استمد وركب الامراء باجنادهم ووقفوا وأغر لهم ورق الحديد الاخضر فقطفوا وتناوبوا في الزحف وتعاقبوا على الحتف وكلما زحلت طائفة قاتلت ثم رجعت وجاءت الطائفة الاخرى فصدقت وصدعت وقارعت وقرعت وصارعت وصرعت فلم ير أشد من ذلك اليوم في وقم القوم واجترأ أصحابنا وراض جماحهم اصحابنا وخاضت خيلنا في البحر خلف منهزميهم وأقدم من أحجم منا الاحجام مقدميهم فحينئذ طارت للعين من السهام زنابيرها وأسعرت الحرب بضرام الضراب مساعيرها وامتلأت السعير بقتلاهم وقالت هل من مزيد وفتحت الجنة لمن باع نفسه بها فقالت هل من شهيد وانقضى ذلك اليوم وقد كلت الاسلحه وملت الاجنحه وانهاضت قوادم الانهاض وانفضت الجموع من اقواء القوى والانفاض وبات الناس على ضجر وضجاج ولجب ولجاج فلو عاودنا البلد بمثل ذلك اليوم أياما لنلنا من فتحه مراما لكنهم أصبحوا على سأم وألموا بداء ألم وقالوا قلت كثرتنا فلو أقيلت عثرتنا لانجبرت كثرتنا وفينا الجريح والطليح وحتى متى لا نستريح وقد توالت الامطار فلا مطار وعلينا هذا الحصار صار وكانت الجراحات كثيره والاجتياحات بها مثيره ومنع البرد من

العمل وامتنع سد الخلة وتسديد الخلل وما زالوا يراسلون السلطان ويشيرون بالرحيل ويقولون لا نتعب على تحصيل المستحيل ولا نذهب الايام فى ابرام السحيل ودعنا نستجد دعه ونستردقوى عند لطف الله مودعه ونشتغل بفتح الايسر وهو أكثر ونؤخر التشاغل بالعلة بتعسر وكان السلطان فى تلك المده أنفق أموالا كثيرة على تلك الالة والعده وما أمكن نقلها ولا ممكن من نقلها نقلها ولو أبقاها لقوى بها الكفر واشتغل بسببها الفكر فرأى نقضها وفك بعضها وأحرق منها ما تعذر حملها وشتت بعد التجمع شملها وحمل بعضها الى صيداء وبعضها الى عكاء وجرت أعاجيب ما تكاد تحكى ومر ذلك الرحيل قوما وساء قوما فأضحك وأبكى وتأخر السلطان وتباعد عن قرب صور الى المنزلة الاولى وبد أبده على جميع الاحوال طولى فشرع العسكر فى الانصراف وتزود للانكفاء والانكفاف وأخذ الجمع فى الافتراق وانتشر فى الآفاق وذهب من ذهب على مواعدة فى المعاوده ومسارعة فى الرجوع الى المساعده وودع الملك المظفر تقى الدين من هناك وأوعد بوعد عوده الاشراك وسار على طريق هونين الى دمشق مغذا وفارق الغزو وكان له ذلك المغزى مغذى وسارت معه عساكر الموصل وسنجار وديار بكر وكل طير منهم اشتاق الى وكر وما عرفوا ان هذه الراحة القليلة تعقبهم تعبا كثيرا وان هذا الهد والذى مالوا اليه يصير لحثيث حركتهم مثيرا وبقى السلطان يتلهف على ما تركه ويتأسف على الفتح الذى ما أدركه والذين أشاروا بهذا الرأى يسهلون الصعب ويهونون الخطب ويقولون نمضى ونعود وتساعدنا السعود وتجد لنا الجنود وتجدد الجدود ويورق العود وتصدق الوعود واذا أقبل الربيع أقبل الجميع وطاب الزمان ووفى الضمان وأمكن الاسعاد وساعد الامكان وما زالوا بنا حتى رحلنا وعلى الرأى الراثب منهم أحلنا ولو أقمنا لتقسمنا وقمعنا العدو ووقمنا لكن الله قدر وقدره محتوم وسر غيبه المكتوب فى اللوح المحفوظ مكتوم وأراد ولا مرد لمراده وقضى ولا محيد لما قضاه فى عباده ان تبقى صور فى تلك الحالة للكفر وكرا وللمكر مكرا وللشرك شركا وللنار جهنم دركا وقدمنا عن صور

الارتحال آخر شوال غرة كانون الثانى وعم البرد فى القاصى والدانى وتوحت السماء من حوامل السحائب وتوحلت الارض من سوائل المذانب والنكب الرياح عواصف عواصف قواصم قواصف والسحب الدلاح هوامل هوامى رواعد رواعف والبرد فارص فارس والماء جامد جامس والشتاء شمتات بنات ومامع مقامه وثباته مقام وثبات وسرنا عبادید فى لبابید وبين جليد وجلاميد على الناقورة وطريقها والاثقال قد ازدحمت فى مضيقها والاحمال تتواقع والاجمال تتقاطع والسبل تنسد والسابلة ترتد وسلكت الخيل الجبل وقطع العسكر طريقه الى المخيم ووصل وتأخر الثقل الى أن تخلص وتقدم من سبق وتملص ووصلنا الى عكا فى ثلاث مراحل وقد غطى بحر عسكرنا الساحل وخيم السلطان على باب البلد بجانب التل سامى المحل نامى الفضل دائم الفكر فى تدبير الامر وتدمير الكفر وانقاص الله بانجاز عدة النصر

((ذكر الحادثة التى تمت على محمود أخى جاولى حتى استشهد هو وأصحابه))

ويوم رحيلنا من صور نعى محمود أخو جاولى وكان من جملة الامراء أعف ولى ولى وعاش مجاهدا زاهدا وعيشه زهيد وقضى صابرا مصابرا وهو سعيد شهيد وسبب ذلك ان السلطان لعلمه بديانته وأمانته وبأسه وبسالته ويقظته ونهضته وحزامته وكله بحصن كوكب الذى على الغور وكانت فيها جمرة الاسبتارية القريبة الجور البعيدة الغور وقد تمنعوا بشدتهم واشتدوا بمنعتهم وهو حصن لايرام وركن لايضام ومعقل لايسامى ولايسام وذروة لاتفرع ومروة لاتقرع وعقيلة لاتفترع وبكر لاتخطب وقلعة لاتطلب ولما ملك الساحل وهلك الباطل وانتظمت الحصون فى سلك الحصول وظفر الاسلام بالفتح المأمون المأمول واقتضت طبريه وأعمالها وتملكت أغوار البلاد وجبالها تمنعت قلعتا صفد بالداويه وكوكب بالاسبتاريه وتعذر فضهما وتعسر فضهما ووقف أمرهما وأعدى البلاد ضرهما فرتب على صفد جماعة يعرفون بالناصريه من أهل الابية والنخوة والحمية ومقدمهم مسعود الصلتى أصلتت سعادته منه سيفا اصليتا لايلفت عن لقاء العدو ليتا ورتب على كوكب هذا

محمودا وكان بهما أمر الحفظ محمودا وذلك بعد الكسره وصحة النصره فاحاطا بالحصنين واحتاطا وظهرت كفاية كليهما بما تعاطى وكان الحفظ مستمرا والاحتياط مستقرا حتى أنس محمود بضعف أهل الحصن وظن انهم فى غاية الوهن وسكن الى سكونهم وأغمضت عينه لتوهم اغماض عيونهم واسترسل فيما حزب واستسهل ما صعب وأخل بالحزم وخلا من العزم واحتقر عدوه وحسب من العجز هدوه وكان مقامه بحصن قريب من كوكب يقال له عفربلا قد أقام به جاما جامعا فيه ما أمر وحلا وكان ذا دين متين ومكان من النسك مكين وهو يسهر أكثر ليله متهجدا وقد جعل منزله مسجدا وأصحابه من حوله يحفظونه بقوة الله وحوله فلما كان آخر ليلة من شوال وهى ليلة ذات أهوال مظلمة مدلهمة كافرة مكفهره ليلاء قمطاء باردة مقشعره أنوارها بائده وأنواؤها جائده وهزيع جنحها دجوجى وهزيم ودقها لجى ومصبها مصم وأقطارها دهم وصبيرها صيب وصنبرها مشيب لا يفرق فيها السماء من الارض ظلمات بعضها فوق بعض خرج أهل كوكب وقت السحر ومضوا اليه وقد رقد بعد طول السهر والناس رقود والحراس هجود والجنود جمود والانفاس خمود والهمم ركود والسيوف أسرار أضمرتها الغمود والعدم قد دنا منه الوجود فما أحس محمود المحمود وأصحابه الهمود الا بالفرنج وقد سلكوا اليهم وبركوا عليهم فقصروا عن الامتناع ولم يقدروا على الدفاع فجاءتهم السعاده وفجأتهم الشهاده وبقى الامير حتى استشهد محصورا وكان أمر الله قدرا مقدورا ونقلوا الى القلعة ما وجدوه من سلاح ومتاع وخيل وكراع فلما عرف السلطان ما أصابهم احتسب عند الله مصابهم وأحمد الى الجنة مآبهم فندب الى كوكب صارم الدين قايماز النجمى الصارم المخذم والحازم المقدم والعضب البتار والندب المغوار والاسد الاسد والاحمى الاحمد فى خمسمائة فارس من ذوى النجده والبأس والشده فسد الطريق بمضايقتها عنها ومنع من الدخول اليها والخروج منها ولم يزل عليها مقيما ولحصرها مستديما الى أن يسر الله فتحها وسهل للآمال فيها نجحها وسنذكر ذلك فى موضعه وكيف

أشرق صبح النصر من مطلعه

((ذكر ما جرى بعد نزول السلطان على عكاء بعد عوده من صور))

استأذن الملك الظاهر والده فى العود الى حلب فأذن له وودعه بعد ما أمره بكل ما يجب تقديمه من الاستعداد فامتثله واتبعه وودع الملك العادل وأوجه الى مصر مستقبل الظفر والنصر وأقام الملك الافضل بعكاء مستقلا بالآراء مستهلا بالآلاء مستبدا بتدبير أسباب الهدى مستعدا لتدمير أحزاب العدى وأقمنا بالخيم لخدمة السلطان ملازمين ولاقامة شرائطها مداومين وكل يطلب اذنا فى الانصراف ويستقيم على نهج الانحراف حتى خف من عندنا من الجند وتقبل علينا عباب البرد وتناوحت الهوج وتراوحت الثلوج ورجت الدروج ونجت النوج وارتجز عجاج الودق وارتجس نعاج البرق وجفت الحرجف وطفح الاوطف وتقطعت الخيام وتقلعت الاوتاد وتحلت بأبراد الجليد من البرد الآكام والوهاد ومال بل وقع عمود السرادق ودام تواصل البوارح والبوارق ودخل السلطان الى المدينه وسكن بها فى كنف السكينه مستقيما على المحجة المستبينه مقيما للعصبة المتينه وشرع فى اعداد العدد واستمداد المدد وابرام معاقد الحل والعقد واحكام قواعد الدين والجد واحياء سنة السماح والفضل واعلاء سناء الاحسان والعدل وافادة الكرام واكرام الوفود واعادة مابدأ به من افاضة الجود واجازة الراجين واجارة اللاجين واسعاف العافين وابعاد العادين وادناء أهل العلم واغناء ذوى العدم وانجاح المقاصد وانجاز المواعد

((ذكر رسل وردوا فى هذا التاريخ))

وكانت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق عاكفين على بابه قاطفين جنى جنابه واقفين لرفع حجابه مستعرفين لنعمائه مستعطفين لابائه متعرضين لثوابه متضرعين فى خطابه وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته وخصه بنجح وسيلته وأقدره عليه وقد عجز عنه الملوك وهداه الى سبيله وقد تعذر بهم اليه السلوك وهو فتح القدس الذى درج على حسرته القرون الاولى وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى فما منهم الا من يعترف

بمنه ويعترف من نعمه ويقر بحكم التنزيل له ويتزل على حكمه ويخطب الصداقة ويخاطب في الصدق ويحقق المظاهرة لاظهار الحق ويتقرب بالوفاء والوفاق ويتباعد عن الشقاء والشقاق ومن جملتهم رسول صاحب الري قتلغ اينانج بن بهلوان ورسول قزل أرسلان المستولي على ممالك همدان وآذربيجان واران وهو عز الدين الطالبي الطالب للعز الراغب في الفوز فما من يوم يمضي وشهر ينقضي الا ويصل منهم رسول ويتصل به رسول وتنجلي غمه وتجلى نعمه وتتجه بشرى وتستبشر وجوه ويكف مكر ويكفى مكروه ونظر في أحوال عكاء فرتبها وفي أمورها فهذبها وفي مضارها فاذهبها وفي منافعها فقربها وولى عز الدين جرديك بها واليا وأعاد عطلها بفضل ولده الملك الافضل حاليا ووقف بها وقوفا وأجنى المستحقين منها قطوفا وأسدى معروفا وأعطى ألوفا وأرغم من الاعداء أنوفا وكانت فتوحه لهم حتوفا ووقف نصف دار الاسبتار رباطا للمتصوفه وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفه ونصفها مدرسة للمتفقهه وللطلبة المتعففة المتنزهه تجمع بين العلم والعمل والنجح والامل وكتب الرزق لهم الى كتاب الاجل واتخذ لطلب مرضاة الله دار الاسقف بيمارستان المرضى وأتى بكل ما يحبه الله ويرضى فلم يبق سنة الا خلدها ولا منة الا قلدها ولا أجرا الا أجراه ولا هدى الا أهداه ولا أمر الا أمره ولا دراً الا أدره ولا فريضة الا أداها ولا فضيلة الا أتاها ولا فرصة صواب الا انتهزها ولا حصة ثواب الا أحرزها ولا رمم فواضل الا أنشرها ونشرها ولا أمم فضائل الا حشدها وحشرها وما ترك قارئا الا قرأه ولا راويا الا أشبعه وأرواه ولا حافظ حديث الا حفظه من الحدثان ولا محسن صنعة الا اصطنعه بالاحسان ولا ناظم مدائح الا انتظم له المنائح ولا موافيا بقريض الا وفى قروضه وأعجز عن القيام بحمل حمده نهوضه وتقدم الى الوالي بالتردد في الاعمال وتفقد الاحوال وسد الخلل وتسديد الاختلال وتعليل السقيم وتسقيم المعتل وتحليل العقد وتعقيد المنحل فاستقرت بولايته الولايه واستمرت لرعيته الرعايه ودرت أفاويق الآفاق ودارت أسواق الارزاق

«ذكر وصول أخي تاج الدين أبي بكر حامد من دار الخلافة للرسالة في العتب على احداث نقلت وأحاديث نقلت ووشايات أثرت وأرثت وسعايات في السلطان عثت في الاحوال وشعثت وذلك في شوال ونحن على حصار صور ونزاع وزال .

«ذكر السبب في ذلك»

لما تم الفتح الاكبر وخص وعم النجح الاظهر وقطع دابر المشركين وحط اقبال المسلمين أوزار ادبار الكفر بحطين أمرني السلطان بانشاء كتب البشائر الى الآفاق وتقديم البشرى به الى العراق فقلت هذا فتح كريم ومنح من الله عظيم وملك عقيم وسم وسيم فلا يجب ان يكون مبشر دار الخلافه بما أزله الله لنا الرحمه والرآفه الامن هو عندنا أجل وأجلى وأعلم وأعلى وأجمع لفنون الفضائل وأعرف بأداء الرسائل فلا توجه بهذه الكرامة الاالكريم الوجيه ولا تنبه لهذه المقامة الا القويم النبيه ولا ترفع العظيم الابالعظيم الرفيع فان الشريف يتضع شرفه بمقارنة الوضيع فقال هذه نصرة مبتكرة بكرت وموهبة ميسرة بدرت وندرت فنحن نعجل بها بشيرا ونؤخر للاجلال كما ذكرت سفيرا وكان في الخدمة شاب بغدادي من الاجناد قد هاجر للاسترفاد وتوجه بعد وصوله ونبه بعد خموله فسأل في البشارة الى بغداد وزعم انه يداوم اليها الاغذاذ وشفع له جماعة من الاكابر حتى خص بأشرف البشائر فقلت هذا لا يحصل له وقع ولا يصل اليه نفع والواجب ان يسير في هذا الخطير خطير وفي هذه النصرة الكبرى كبير فان الرسول من يندب للتفهيم والتفخيم ويرتب في الامر العظيم للتعظيم ثم سار المندوب وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب ولما فتح البيت المقدس أرسل ببشارته نجاب ونفذ بها كتاب ووصل البشير الجندي فلم تحل به على كفؤ الجلالة من الهدى الهدى وحقروه وما وقروه فانه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين وحبوه بما يليق به من الرقة والعين ونقم على السلطان ارسال مثله وانه لم يعصب المنصب في تلك الرسالة بأهله وسمح المندوب بكلام أخذ عليه وبدرت منه أحاديث نسبت اليه وقال في سكره وحالة نكره ما لعرض عن ذكره نخبل وموه وتنكر ونكره وظن ان

الكلامه أصلا واقطعه متواصلا وأنهيت الى العرض الاشرف مقالاته وعلمت جهالاته وتجني على السلطان بارساله وطرق الى هداه ما أنكروه من مقال المذكور وضلاله ووجد الاعداء حينئذ الى السعاية طريقا وطلبوا الشمل استبداده بالخدمة تفريقا واختلقوا أضاليل ولفقوا أباطيل وقالوا هذا يزعم انه يقلب الدوله ويغلب الصوله وانه ينعت بالملك الناصر من نعت الامام الناصر ويدل عاله من القوة والعساكر فأشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه وبرز الامر المطاع بارسال أخي وانفاذه وقالوا هذا تاج الدين أخو العماد يكفل لنا في كشف سر الامر بالمراد فان أخاه هنالك مطلع على الاسرار وهو منتظم في سلك الاولياء الابرار وعول عليه الديوان العزيز في السفاره وردمعه جواب البشاره وكتبت له تذكرة بموجبات مقاصد العتب ومكدرات موارد القرب والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنه والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينه ونشر الاعتاب في طي العتاب وروح الارضاء في نفض الاغضاب ورد الموهبة في برد المهابه بردظن الخطا الى يقين الاصابه وشرف من الديوان الاخ فسار وهو يبذخ وقد أصحب خيلا وأسحب من التشريف والانعام ذيلا والحف من نور الاهبة العباسية نهارا وليلا فوصل السير بالسرى وقطع الوهاد والذرا وجاء الى دمشق بشارة رائقة وبشارة رائعه واشارة رادعه وشعار مهيب وشرع مصيب وهيبة روعة اماميه وهيئة عصمة عصاميه وفرند نبوى لا ينبو وزند ورى لا يكبو ولسان في الصرامة جرى وجنان بالشهامة حرى وبلاغة بابلاغ ما ليس ببلاغ وافية وصيغة بصباغة كل غريبة قول ورغيبة طول كافلة كافيه وسنا ووقار يستعير منه سنير وثبات خلق يتعلق به ثبير وكان قد عاد المندوب نادبا عاديا جاحدا للنعمة شاكيا ذاكرا انه عدم الحفاظ ووجد الاحفاظ وأكثر الكلام فاحرك شمام وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب ممض وخطب مقض وغضب مغض ولفظ فظ وحض على غير حظ ومعه الملامات المؤلمات والظلامات المظلمات فقلت له اسكت واصمت

وعبالك من وسم الوصم مث ولا تدخل هذا الباب واخرج وليس هذا بمشكل فادرج وقلت للسلطان سمعا وطاعة لامر الديوان فان اظهار سر العتب لك من غاية الاحسان فقال نعم ماقلت وقد طلت بارسال أخيك وطلت وما أسعدني اذا شرفت بالعتاب وأسعفت بالخطاب والمملوك ينفعه التأديب ويزعه التهذيب على انالم نأت الا بكل ماقوى الهدى وأضعف العدى وكف الكفر وأدنى الدين ومازلنا في طاعة أمير المؤمنين مجدين أما فتحنا مصر وقد باضت بها دعوة الدعي وفرخت أما سننا أنفنا بها تاريخ الدولة العباسية بعد ان كانت سنين بسواها أرخت اما استخلصت اليمن وللدعي بها داع وللهدى فيها ناع وللضلال منها راع أما أرحت من رق الشرك الساحل اما أرحت عن حق الملك الباطل اما فتحت البيت المقدس والحقته بالبيت الحرام وألحفته رداء الاكرام واعدت الى الوطن منه غريب الاسلام اما رعت الغرب بغرب عزمي ووزعت الشرق بشرع حكمي وما تعبدت الا بالعبودية للدار العزيزة وهذه الفطرة متمكنة مني في الغريزة فأهلا وسهلا بالرسول وبالسول وحباومرحبا بالاقبال والقبول وما أتى الا بالحب والحبور ولا مرار الامور ولاظهار سر السرور والبارق يشام اذا رعد والصادق يرام اذا وعد وما أمرنا بالواصل وأوصلنا بالمسره وأبرنا بالجد واجدنا بالمبره وسمعت منه كل ماهدى سمعي وابدى لمعي وجمع شملي وشمل بالعز جمعي ولما قرب أخي أصبحت لقدومه انتخي فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله وتقدم بجلالة قدومه باجلاله ثم ركب وتلقاه بنفسه وخصه من تقريبه بأنسه ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار ومصار الكفار ومواطئ أقدام ذوى الاقدام ومواطن بسالة أهل الاسلام ثم نزل وانزله بالقرب وعقدله بالحباء حبى الحب وسذروجهه لوجاهة السفير وأحل محل التوقير والتوفير وتبلج له صبح التبجيل وتأمل منه نجح التأميل ثم حضر عنده وقد أخلى مجلسه لي وله وحده فادى الامانة في مشافهته ووجه مقاصده في مواجهته واحضر التذكره وقد جمعت المعرفة والنكره فقرأتها عليه بفصولها وفصوصها وألزمته حكمي عمومها وخصوصها ووقفته على ظواهرها ونصوصها وكانت في الكتب غلاظة عدت

من الكتاب غلطه وخيلت سقطه وجلبت مخطه وقال ان الامام أجل ان يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ والاسجاع الغلاظ فقد أمكن ايداع هذه المعانى فى أرق منها الفاظا وارفق وأوفى منها فضلا واوفق ومعاذ الله ان يحبط عملى ويهبط أملى وامتعض وارتمض ثم أعرض عما عرض ورجع الى الاستعطاف وانتجع ارق الاستعطاف وقال اما ما تقوله الاعداء وعدابه المتمحلون وتنفق به المتقولون وتسوق المبطلون فما عرف منى الا الاعتراف بالعارفه وماهزرت منذ اعتززت أعطاف العز الا لما يعزنى من العاطفه وان شرفى بالنعمة السالفه يوجب أنفى من هذه الآنفه وأما النعت الذى أنكر ونبه على موضع الخطا فيه وذكر فهذا من عهد الامام المستضىء رضوان الله عليه وجرى لتحققه منى على الالسنه ومتى عدت به ما عدمن الحسنه والآن كل ما شرفنى به أمير المؤمنين من السمة فانه أسمى الذى هو أسمى وأشرف وأطرأ وأطرف وأرفع وأعرف ومازاده ذلك العتب الا خلوص ولاء وخصوص اعتزاز واعتزاء ثم قال كل ما اعتمدته من نصرة الدين وقهر اعداء أمير المؤمنين فانما طلبت به وجه الله ورضاه ما أعددت به سواه فانى أفترض الطاعة الامامية للدين لا للدنيا وما أتقوى فيها الا بالتقوى ومافى عزمى الا استكمال الفتوح لامير المؤمنين وقطع دابر المنافقين والمشركين واذا عادت عواطفه عطفت على فى الحسن العوائد وقطفت الفوائد وصفت الموارد ووفت المقاصد وبعد الاباعد وبعد الحاسد الحاشد وهجر هجر الساعى وأجرى أجر الداعى وعلم جهل الواشى وعذر ذعر الخاشى وجرب غش الغاشى وخرب عش العاشى وذوت هموم ذوى الهمم واوليت كرامة أولى الكرم ومازال السلطان مدة مقام أخى عنده يورى فى عظامه زنده ويأمر باكرامه جنده فكنت اشفق من تكدر ذات البين بعود الانس والوصلة الى الوحشة والبين وان جماعة من الاكابر اجتمعوا بالسلطان وقالوا له قد ذهب حقك الى البطلان ورميت بالبهتان ولحت طاعتك بعين العصيان فكيف خفت وما عففت وألفت وما انفت ورغت وما غرت وصبرت وما سبرت واغضيت لما اغضبت واعتبت لما عوتبت ورقبت وما رقبت فقال لذلك للديوان العزيز نعززيه

ادين وتولي الى مرضاته توصل بالله فبه استعين فتواضعي ترفع وتخشعي تورع وتبتلي متين ومكاني مكين ومما قلته واوضحت له به انا كنا بطاعة أمير المؤمنين نطول ونصول ونزاول بها الملول وعنها لا نزول وهذه فضيلتنا التي رجحت ووسيلتنا التي نجحت وكنا بها مسعودين وعليها محسودين وقد شملت بها بركاتها وكملت حسناتها وصفت مشارع عنها وضفت مدارع حسنها فلا نلتفت الى من يلفتنا ولا نتثبت لمن لا يثبتنا واعرض عمن تعرض لمذهب الخلاف وانهض لمن ينهض للائتلاف فقال هذا ديني وديدني وبه أعني وأعتني ولنوره اجتلي واجتني ثم ندب مع أخي من سارفي خدمته لزيارة القدس وأمر بان يقف به على مواقف الطهر التي طهرت من أهل الرجز والرجس ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل ما في النفس وبالغ في ابداء التضرع والتذرع واظهار التخشي والتخشع وانشأت عنه الى الديوان كتبا معه وبعده ضمنتها كل ما جلا وجلا جده وجده وكل ما يبطل سوق المتفقين ويعطل نفاق المتسوقين ويحجن خلق المختلقين ويزيل تلفيق الساعين ويزيح سعاية الملفقين ويتعرف الى العوارف الغر بالشكر ويستعطف العواطف الغر بالعذر ويجتهد في استفراغ المجهود للاستغفار وينفض عن وجه البشر ما عليه من الغبار وظهرت بعد ذلك القبول آثار الرضا ومضى ما مضى وقضى القدر من اعزاز الديوان قدر السلطان بما قضى

وفي هذه السنه استشهد الامير شمس الدين بن المقدم بالموقف في عرفه لا بداعه رسما ما عرفه فذهب غلطا وعطب فرطا وذلك ان أمير الحاج طاشتكين انكر عليه ضرب الطبل فامتنع فندب اليه من نهو اصحابه أوقع فتمت من هذه الفتنه فتره وعمت نفره ولما نمى الخبر الى السلطان لم يبد منه سوى الاذعان وقال لا شك ان طاشتكين طاش وقصد بعد الايناس الايحاش وعد الديوان العزيز هذا من ذنوب طاشتكين حتى عزله واعتقله بجراءته بعد سنين

(نسخة كتاب جامع للفتح القدسي الاعمن أنشأتها الى سيف الاسلام أخي السلطان باليمن)

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس السامى ضاعف الله علاءه وظاهر آلاءه وضافر
نعماءه وأظفر بالنجح رجاءه وأضعف حساده وأعز أولياءه وأذل أعداءه ولا
زالت أيامه بالأيامن مسفره ولياليه بالمحاسن مقمره ومكارمه بالمحامد مثمره
وعهود مواليه بشكر النعم محكمه ومعاهد معاديه بقهر النقم مقفره دالة على
البشرى بالفتح الاكبر والنجح الازهر والنصر الاشهر والعصر الابهر
والفضل الاكثر والافضال الاوفر واليوم الانور واليمن الانضر والفجر
الاسفر والفخر الاظهر والجد الاشم الاشمخ والمجد الابلج الابلخ والعز الاسمق
الاسمى والنور الاتم الانمى والظفر الاجل الاجلى والوطر الاحل الاحلى
والشرف الاسنم الاسنى والعزم الاغنم الاغنى والسعد الاجد الاجدى
والصيت الابدى الابدى وهو الفتح الذى تفوح بعمايه مهاب الفتوح وتنوح
بسر روحه وملكه مسرات الملائكة والروح وتروح وتغدو غوادى النعم وروائحها
الى روض الهدى المروح وتلوح تباشير بشراه فى لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها
بالوجه السافر والصدر المشروح وتنوح ناعية الكفر فى كل ناحية ولكل
نادبة فللأسى على قتيلها وأسيرها ندوب فى القلب المقروح وهو فتح بيت الله
المقدس الذى غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه وطال فى أسره محنته
واستحكم وهنه وقوى نكره وضعف ركنه وزاد حزنه وزال حسنه وأجدبت
من الهدى أرضه وأخلف مزنه وواصله خوفه وفارقه أمنه واشتغل خاطر
الاسلام بسببه وساء ظنه وذكر فيه الواحد الاحد الذى تعالى عن الولد أن
المسيح ابنه وأربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه وأفرد عنه التوحيد
فكاد يمحى متنه ودرج الملوك الاقدمون على تمنى استنقاذه وأبى الشيطان
غير استيلائه واستحواذه وكان فى الغيب الالهى أن معاده فى الآخرة الى معاذه
وان نفاد ليل الشرك باسفار صبح أمرنا واشراق مطالع نفاذه وذخر الله هذه
الفضيلة لنا ولهذا العصر وأنزل على نصلنا نص النصر وأطلع لنا عزمنا فجر
الفخر ووفقنا لوصل أسباب الاسلام وقطع دابر الكفر وذلك انا استفتحنا سنة
ثلاث وثمانين بجمع أهل التثليث وأصرخنا الاسلام بالجد المجد والعزم الحثيث

وخرجنا من دمشق فى المحرم فى العزم المصمم والرعب المجهز الى الكفر والبأس المقدم وكنا أشفقنا على طريق الحج من قصد الفرنج فشغلناهم عن القصد بقصدهم وتصدينا لجهادهم بردهم عن المراد وصدهم وأقمنا بظاهر بصرى مخيمين على سمت الكرك وقدمنا الطلائع الى المناهل ونظمنا بها امدادهم فى ذلك المسلك حتى وصل الحاج سالما وذل الكفر عن قصده راغما ولما فرغ القلب من شغله وفاز كل بجمع شمله بأهله سرنا الى الكرك فى الامراء والمفردين الخواص وشفعنا للجهاد فى سبيل الله الفاتحة بالاخلاص وقد كنا استدعينا العساكر والجموع للجهاد من جميع الجهات ورقبنا توافيهم للميقات وأمرنا ولدنا الملك الافضل أن يقيم برأس الماء ويكون فى خدمته جميع الامراء وسرنا الى الكرك والشوبك فاخربت عماراتها وأحرقنا غلاتها وقطعنا ثمراتها وأزعجنا ساكنيها وأخفنا آمنيها وأجلينا عنها فلاحيها وأقمنا النوائح عليها فى نواحيها ووصل الينا ونحن بالقرب منها العسكر المستدعى من الديار المصريه فقويت به قلوب الامة المحمديه واجتمع بالمخيم الافضلى برأس الماء من وصل من العساكر الشاميه والفراتيه والجزريه والموصليه والديار البكريه فانتهز ولدنا هنالك فرصة الامكان وأنهض الى الكفر سرية سرية من أهل الايمان فساروا سارين وأغاروا غادين وأخذوا ونهبوا وسبوا وسلبوا فلم يشعروا الا وجموع الكفر قد سدت عليهم الطريق وأخذت دون خروجهم الى السعة المضيق فثبتوا ثبوت الجبال للرياح العواصف وشرعوا الى عرانين الكفر أسنة لرماح القواصف وكان مقدم عسكرنا مظفر الدين بن زين الدين ومعه مملوكنا قايماز النجمى صارم الدين فلقيا بصدريهما صدور العوامل وحملا فى عسكرنا على الفارس والراجل وحصل الفرنج منهم فى دائرة لردى وخذل الضلال ونصر الهدى وكثر من الفرنج القتلى والاسرى وعاد المسلمون بالمسرة العظمى والمبرة الكبرى واتصلت بنا ونحن فى بلاد الكرك البشرى وشكرنا الله على نصرته الاولى وقلنا هذه مقدمة الاخرى ولما قضينا الوطن من تلك البلاد ووفينا باحراق أقوات أهل النار بالنار حق الجهاد فاجتمعنا بأصحابنا

القادمين من مصر وتناصرت لدينا دلائل الظهور وتظاهرت أمارات النصر
عدنا الى الشام وقد تكاملت به جموع الاسلام وزخر بحر الفضاء بأمواج الاعلام
وطفا على اثباجه حباب الخيام وقد فض الفضاء ختام القتام وعلق بالفلق من
ذلك الفيلق غرام الرغام فخيمنا بعشترا شهرا وقد أعدنا بشهر بنات الغمود سهرها
جهرا وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها مهرا وقد جمع الفرنج
بجمعنا فجمعوا ونادوا فى بلادهم فأجمعوا واجتمعوا على صفورية من صفر
وحشروا فى تلك الاشهر من جمعهم فى المحشر جموع سقر وأخرجوا صليب
الصلبوت وقائد أهل الجبروت فتهافت الى شعلة ناره فراشهم وتوافى الى ظلة
ضلاله خشاشهم وقاموا وقيامة رعبهم قائمه وسوابح بردهم فى بحر العجاج عائمه
وطلائعهم سارية وسراياهم طالعه ومقدمات رعبهم منا السائرة لجنوبهم
وقلوبهم مقضة خالعه فلما تكامل منا الجمع وأخذ بعجاجه وضجيجه على الآفاق
البصر والسمع عرضنا عسكرنا فى يومئذ كريوم العرض وبتنا نشاهده
لتنزل الملائكة ولله جنود السموات والارض فى رايات خافقة كقلوب الاعداء
عالية كهمم الاولياء وسرنا فى جموع ضاق بها واسع الفضاء وسار فى كتائبها
نازل القضاء وسحب ذيل الارض بغبار نقعها على السماء وقطعنا الاردن
وتأييد الله مواصل وقدره باقدارنا على الاعداء كافل فنازلنا طبرية حتى
فتحناها بالسيف ودخلناها دخول المغير لا دخول الضيف وتسلمنا المدينه
ونازلنا قلعتها البكر الحصينه وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر
ربيع الآخر والخميس يوم الخميس وأسد الوغى قد اتخذت من وشيجها
العريس هذا والملك العادل عنا غائب ومعه أيضا عسكر كتائب وتوفيق
الله له مصاحب وكنا عزمنا قبل قصد طبريه ان نلاقى الفرنج على صفوريه فى
مركزهم ومجتمعهم ونلاقيهم فى مخيمهم فحين نزلنا من الثغر بالاقحوانه
وتمكنا من الله بالاستنجاد والاستعانه ركبنا قبل قصد طبرية الى الفرنج
فى مجمعهم وأشرفنا عليهم فى موضعهم فما برحوا من مكانهم ولا تحركوا
برجالهم ولا فرسانهم وارتدنا فى صحراء لوبيه موضعا للمصاف واسعا وفضاء

لما أزف الجمعن جامعا وبينا هنالك باطلاب الابطال ميمنة وميسره ووجدنا بتأييد الله أسباب الظهور ميسره وجئنا في خواصنا والجانداريه ونزلنا في العدة المجردة على طبريه وأخذ النقابون ساعة النزول في النقب فصرع قائم سورها للجنب ودخل الناس اليها الا للنهب وكانت ليلة مدلهمة مدنمه وأرجاء المدينة مظلمه فاشعلوا وأوقدوا ودخلوا الدور وتفقدوا مالم يفتقدوا وكانت بها حواصل من زفت وكتان علقت بها النار فاحترقت تلك المساكن والديار وتحصن أهلها بقلعتها وتمنعوا بمنعتها فأصبحنا على حصرها وسلكنا جدد الجد في أمرها فجاءت رسل الامراء ان الفرنج قد تحركت وانزعجت لكون عقيلتهم من طبريه تملكت وأدركهم الندم كيف تركت وما أدركت وانها قد عبت جنودها وشبت وقودها ولبت نداء جموعها وصبت عليها ماء دروعها وغاضت في غدران سوابغها السابريه وفاضت بحار سوابحها الاعوجيه وان جمرهم قد استعر وان بحرهم قد زخر وانهم قد أتوا في عددهم وعديدهم وحدهم وحديدهم وخيلهم ورجلهم وطالهم ووبالهم وفارسهم وراجلهم وأحزاب ضلالهم وأبطال باطلهم وانهم حين عرفوا استيلاءنا على طبريه وسبقنا بفضيلة فتحها البريه غاروا على العقيلة السبيه وأشعلت نخوتهم نار الحميه وساقوا الى معترك الردى وملتقى المنيه ولما عرفنا قربهم قصدنا حربهم وزحفنا اليهم وأشرفنا عليهم واللجب الساري كالجبل الراسي وقد افاض الحديد من قلبه على الحجر القاسي ولمعت بوارق بارقه وراعت طوارق طوارقه وبرقت قوانس قوامصه وارتعدت فرائص فرافصه وأمكنت فرائس فوارسه وباح الحديد على عوابسه بوساوسه وماجت بحار لاهبه واشتعلت نيران قواضبه وشدت الاجادل دون ضوار صوارمه وسدت بعرض أفواجه فجاج مخارمه وقرنت الافات بالامانه وظهر من حشره يوم الحشر بعلامانه فاغتنمنا الفرصة في اللقاء وهجنا الى الهيجاء وأشرعت الاعنه وأشرعت الاسنه ونقع النقع أوام الجو وأجاب الصدى دوي الدووجان الجاليش وطار السهم المريش وعصفت رياح السوابق واستعبرت عيون البوارق ولقيناهم في عرمرم عارم ومجر جارم

وعوامل جوازم وصواهل صلادم وضراغم ضوار وجوارح جوار وأسود
قد اعتقلت أساود وجياد قد حملت أجاود وسوابح قد أقلت بحورا وصقور
قد ركبت صقورا وواقفناهم نهار يوم الجمعة وساكنهم لا يتحرك وبازلهم لا يبرك
وصفهم لا ينفض وجدارهم لا ينقض وبنيانهم مرصوص وطائرهم عن الطيران
محصوص حتى دخل الليل وقرى الوادى ذلك السيل وبات الفريقان على
تعبيتهما واجابة داعى الموت بتلبيتهما وأصبحنا يوم السبت وأهل الاحد على حالهم
لم يرعوا موضع قتالهم ومازالت الحملات تتناوب والاسلات تتواثب وتتناوب
والسواعد بقرع الظبى سواع والرواعف فى زرع الطلى زواع والمنايا تثنى والحنايا
تحنى والبيض تصافح البيض صفاحها والذكور لنتاج الحرب العوان بالفتح
البكر عند اللقاء لقاحها والذوابل فى أشاجع الشجعان ذواب والصوارم للجوامح
النيران شواب وضمائر الغمود قد باحت بأسرارها ونواظر الجفون قد تخلت
غرارها ولما أحسوا بأسنا وامرار امراسنا والهجير يتلظى وقد وقد
عليهم بناره والاوام يتوقد ولا يتوقى احراقهم بأواره مالوا الى طلب الماء وأخذوا
طريق البحيرة للارتواء فأخذنا قدامهم ووقفنا أمامهم وحلأناهم عن الورد
وألجأناهم الى الردى بالرد فاعتصموا بتل حطين وصرنا بهم محيطين وتحكمت
فيهم قواضى القواضب ونشبت من النشاب بهم نيوب النوائب وكان جمعهم جمرا
وقد وقد فصب عليهم السيف نهر الخمد وفضوا بالفضاء وفرشوا بالعراء وعب
دأماء الدماء وغصت الفجاج بالقتلى والاسراء وأسر الملك وأخوه والابرنس
الكركى وموازروه ووجوه الكفر ومقدموه ومقدم الداوية واعوانه وصاحب
جبيل وأعيانه وهنفرى بن هنفرى وابن صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية
ولم يفلت الا ابن بارزان والقومص وتم لهما من الورطة المخلص وكان كلاهما
ملهما عند اللقاء بالقتال وعند الفرار بالاحتيال فاما القومص فانه لما مضى
بطرابلس أدركه الموت فى برجه المشيد ونقله القدر المبيد الى عذابه المؤيد
وذل ذلك اليوم أهل الجبروت وحيز صليب الصلبوت وبار وباد أولياء الطاغوت
وهلك عبدة الناسوت واللاهوت وملك عليهم القدر كتاب الاجل الموقوت وقد

منا الابرنس وضرب نار قبته وفاء بالنذر وعجلنا به الى النار مأوى أهل الغدر وألحقنا به الداويه والاسبتاريه وأدرنا عليهم صبرا كؤس المنيه ورويناظماء الظبي من نجيعهم وقربنا سيد الفلا من صريعهم وعدنا الى طبريه فتسلمنا قلعتها وحللنا عقدتها وفرعنا ذروتها وافترعنا عذرتها ثم سرنا الى عكاء فقضضناها بالامان وأعلنا بها شعار الايمان واستقرينا بعدها البلاد الساحليه من جبيل وحد طرابلس الى الدار وم غير صور فانها امتنعت بسورها ولم يبق فى كاس الكفر غير سورها وانها وجدت فسحه فى أيام اشتغالنا بفتح أخواتها وكنفت من عدد المحاصرة آلاتها وكنا لما افتضضنا عسقلان بدأنا بالنزول على القدس وذلك يوم الجمعة ثالث عشر رجب فرجف بها قلب الكفر ووجب وظن أهلها أنهم يعتصمون وانهم من بأسنا يسلمون فنصبنا عليهم منجنيقات هدت أحجار السور بسورة أحجارها وآذن ركوعها بسجود الابراج فى انجبارها ووقفت الصخور باصراخ الصخره وعثرت تلك القلل لاقالة ما دام بها من العثره وكشف النقب ونقب الاسوار ورمت الجنادل جوانب ذلك الجدار وعلم الكفار لمن عقبى الدار وأيقنوا بالقتل والاسار فخرج مقدموهم متذللين بالاذعان مبتهلين فى طلب الامان فأبينا كل الاباء الاسفك الدماء من الرجال وسبى الذرارى والنساء فخوفوا بقتل الاسراء واخراب العمران وهدم البناء فأمناهم على قطيعة موازيه لاغنائهم لو أسروا أو سبوا فأمنوا من أن يسلبوا وهم على الحقيقه قد سلبوا ومن وفى منهم بالقطيعة خرج بحكم العتق ومن عجز عن أدائه دخل تحت الرق وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ورجع بنيانه من التقوى الى تأسيسه وزال ناموس ناقوسه وبطل بنص النصر قياس قسيسه وفتح باب الرحمة لاهلها ودخلت قبة الصخرة لفضلها وباشرت الجباه بها مواضع سجودها وصافحت أيدى الاولياء آثار القدم النبويه بتجديد عهودها وشوهد مقام المعراج ومواطئ براقه وروئى نور الاسراء ومطلع اشراقه ودنا المسجد الاقصى للراكع والساجد وامتلأ ذلك الفضاء بالاتقياء الاماجد وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس وجليت هدى الهدى من الصخرة المقدسة جلوة العروس وزارها شهر رمضان مضيفا الها نهار

صومها بالتسبيح وابل فطرها بالتراويح وشفى الله بسقيا هذا الفتح ما كان دهم القلوب لاجلهما من تبار التباريح فالبيت الحرام مسا والبيت المقدس مفدى منا كلاهما من المهج والانفس بالانفس وانه من المساجد الثلاثة التى تشد اليها الرحال الرجال ويضيق عن وصف شرفها فى حلبة البيان المجال وهو للحرمين ثالث ولا تثليث فى حرم توحيده فتجدد جد الاسلام بتجديده ولما فرغ البال من تدبيره وقضينا حق تقديسه وتطهيره صرنا الى صور ونازلناها بعسكرنا المنصور وفى صور سور الكفر وبقيته وقد تحصن بسورها ومنعته شرذمته وهى مدينة حصينه متوسطة فى البحر كانها سفينه وقد نصبنا عليها المنجنيقات فنكاءت فيها ورمت من أعاليها وهدمت من مبانيها ولم يبق فى جعبة الكفر سوى نشابها وان جمعت علينا فنصرة الله وعوائد تأييده لنا تؤذن بأصحابها واذا تسلمناها تسلمنا باذن الله كل بلد للفرنج باق ومالهم من عذاب الله الواقع بهم واق ثم رأينا ان حصار صور يطول وان مسئلة بكار العسكر فيها تعول وان فتحها لا يفوت وله وقته الموعود ووعده الموقوت وكان العسكر قد ضجر ومل مواعى وكل وقد دخل الشتاء وبرد الهواء وجادت السماء وتواترت الانواء وتواصلت الانداء ولا بد من استئناف جمع العساكر فى أيام الربيع واستمداد النصر الذى يضم لاستعداد الفتح شمل الجميع ورحلنا عنها بعد أن رتبنا حولها فى الثغور المجاورة لها من يديم شن الغارات عليها ويواظب على النهوض اليها وفسحنا الاجناد فى الاستراحة مدة شهرين الى النيروز فان فى تلك الايام تتوفر العزائم على المبارزة والبروز وقد جرت المواعدة على المعاودة والمعاقدة للمعاضدة والمعاهدة للمساعدة فليس فى الفرنج من يقاتل الآن على الخيل والنهار عليهم فى اظلام الليل والعز متقلص الظل عنهم والذل ضافى الذيل وقد حزب حزبهم من حرب دامشير للحرب والويل وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينه والمعاقل المبينه وهى طبرية عكاء الزيب معليا اسكندرونة تبنين هونين الناصرة الطور صفورية الفولة جينين زرعين دبورية عفربلا بيسان سمطية نابلس اللجون ريحا سنجيل البيرة يافا أرسوف قيسارية حيفا صرفند صيداء قلعة أبى الحسن جبل جابل بيروت جبيل مجدليابا مجدل

حباب الداروم غزة عسقلان تل الصافية التل الاحمر الاطرون بيت جبريل جبل الخليل بيت لحم لد الرملة قرتيا القدس صوباهر مس السلع عفراء الشقيف ولم نذكر ما تخللها من القرى والضياع والابراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع ولكل واحدة من البلاد التي ذكرناها أعمال وقرى ومزارع وأماكن ومواضع قد جاس المسلمون خلالها واستترعوا ثمارها وغلالها وقد كنا عند قصدنا البلاد وعرضنا للجهاد الاجناد كاتبنا أخانا الملك العادل سيف الدين أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب وينتظر كتابنا بنصر هذه الكتائب فلما بشر بكسر الفرنج وفتح طبرية وعكا والظفر الذي أضحك الاولياء وأزعج الاعداء وأبكى وتلى عليه قد أفلح المؤمنون وقد أفلح من تزكى كان وصل الى السوادة في سواده وبياضه وبحار جيشه وبراضه وورد من مورد النصر الى حياضه فجاش بجيوشه وجاز العريش بعريشه وزار دار الداروم بدمورها وأجفلت قدامه البلاد في كل من اعتمد عليه بامورها ووصل الى يافا فافتضها عنوة ونال العسكر منها بالنهب والسباء حظوة ثم حضر مجدل يابا وحصرها وطلبت منه الامان فأنظرها وكتبنا اليه بالاقامة في ذلك الجانب ماضي العزائم قاضي القواضب وان يستفتح من البلاد ما يتعجل فتحه ويقدم من الرجاء ما يتيسر نجحه الى أن نفتح ما في جانبنا من البلاد ونتسلمه وننتهز فرصة الامكان فيما نحن بصدده ونغتنمه وقد كنا انهضنا الى كل بلد من الناصرة وصفورية وحيفا وقيسارية من يتولى افتتاحه ويستقبل من مهب النصر أرواحه فنصرهم الله على الناصرة وقيسارية قسرا وتسلمت البواقي سلما ورأى من كان فيها سلامته غنما ورضي بالغرم رغما وتسلمنا نحن تبنين وبيروت بالامان بعد ان قاتلنا أهلها قتالا شديدا ألجأهم الى الاذعان فأما صيداء فان صاحبها أذعن الى التسليم بعد ان بات منا بليلة السليم وأما جبيل فقد سلمها صاحبها وخلص من الاسر ورأى ربح خلاصه فيما تعجله من الخسر وحينئذ سرنا واجتمعنا بالملك العادل على عسقلان وهان لنا كل ما استصعب منها ودان وظهر لنا منها وجه الفتح وبان وأمكن كل ما تعذر واشتد ولان

وزاحمنا كبار أبراجها من المنجنيقات بمناكب وأصبنا فوائدها المارمينا ها بمصائب وأصمينا مقاتل الاسوار بسهام قسيها وعاقبناها بحبالها وعصيها واقتدنا بخزائم الكره أنف الطاعة من عصيها وصافحنا ببيض الصفائح يد الرضا من أبيها وباشرت سهام المجانيق بسواكها ثنايا الشرافات فهتمتها ونهضت أحجار الرماة الى أحجار البناء فهدتها وهدمتها وغنى فيها معول النقاب فرقصت للاضطراب لا للاطراب وعادت الحجارة الى أصلها من التراب ولما أيقن أهلها بالعطب لاذوا بالضراعة والطلب وخرجوا مستسلمين مسلمين وانقادوا مستكينين مذعنين وأسلم البلد وأسلم وجدع أنف الكفر وأرغم وعاد منه الايمان الغريب الى وطنه وقر منه الاسلام القريب فى سكنه وعند ذلك تسلمنا غزه وأعدنا اليها العزه وأتينا على الرملة ولد والنطرون وفتحنا بيت جبريل وجبل الخليل وجميع تلك المعاقل والحصون ثم ختمنا فتوحات هذه السنة بفتح الارض المقدسه والحمد لله على نعمه المفرجة للكروب وألطافه المنفسه وقد حملنا هذه البشارة القدسيه بما هنانا الله من الموهبة السنيه وسناه من المنحة الهنيه لمملوكنا حسام الدين سنقر الخلاطى وأمرناه أن يسير فيها من أصحابه من يقوم فيها بحق منابه والمجلس السامى يشيع مرامنها ببلاد اليمن ويجلو عروسها البكر فى حسنها الحالى وحليها الحسن ويشكر نعمة الله التى خصنا بها وعمت الامه ويديم شكرها فان داوم الشكر يديم النعمه لا زال المجلس مشكور الشيمه عالى الهمه منصور العزمه ان شاء الله

((ودخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة))

والسلطان مقيم بعكا ونور بيت الربيع رضيع ووشى الروض وشيع وصنيع القدر نصيع وشمل الظفر جميع وفضاء الفضائل وسيع ومراد المراد مريع ونسيم الاسحار لاسرار الازهار مذيع وأريج الجو العليل فى شفاء غليل الجوى شفيع والدهر قد غفل وافاق والزهر قد شمل الآفاق وللصعاب مهاب وفى الشعاب أعشاب وخدود الشقائق محمره وثغور الاقاحى مفتره وعيون النرجس مصفره وشفاه المنابع مخضره وأحداق الحدائق الناضرة ناظره ووجنات

الجنات الزاهية زاهره وعذبات المنابت متموجه وحافات المناهل متدبجة وجباه الغدران متغضنه وجفون النوار متوسنه والافنان مورقة والورق متفننه وخد الخيري مورد وحد العرار مجرد وعرف البهار قد تأرج ووجه الجلنار قد تضرج وعذار البنفسج قد بقل وعذر الزمان قد قبل وشارب النبت قد طر وهارب البرد قد فر وسر الصيف قد سرى وسر وطبى الطيب قد حفل ودر وتقاضى السلطان غريم عزمه بدين الدين وآن ان يصحر ليث بأسه الخادر من العرين فابرز مضاربه وجهز كتائبه وضرب سرادقه وعرض فيالقه ونشر بيارقه وحشر رواعده وبوارقه وأنفق خزائنه وأنفد دفائنه وبذل في صون الدين ديناره وأشعل في حفظ ماء الهدى على العدى ناره وسار على سمت حصن كوكب وعن قصده ما تنكب ونزلنا عليه في العشر الاوسط من المحرم وما بنا الا من له بقتال العدو فيه لهج المحب المغرم ولعزمه وهج اللهيب المضطرم ووجدنا كوكب في سمائها كأنها الكوكب وظن الفرنج انها لا تنكا ولا تنكب وهي من المصاعب التي لا تذلل ولا تركب فأحطنا بالحصن وخيمنا حوله واستمددنا قوة الله وحوله وزحف اليه الرجال وتناوب عليه القتال وركب اليه السلطان وزاره واستصعب اجتيازه ورأى أن مقاتلته تطول وان مشيئته تعول وان محاولته في مطاولته ومصابه في مصابرته واضاقته في مضايقته وان ما في هذه الحال اقتضى تعذر اقتضاض عذرته ولا مطمع الآن في فرع ذروته ولا قرع مروته وكان في خواصه واهل استخلاصه لم تتجمع عساكره ولم تتموج زواخره فأقام هنالك بالتدبير مشتغلا وللاشغال مدبرا وبالاستظهار متأيدا وبتأييد الله مستظهرا حتى رتب على قلعة صفد خمسمائة فارس من كل مجرب للحرب ممارس وسلمهم الى طغرل الجاندار لمرابطتها بالليل والنهار ووكل بكوكب قايماز النجمي في خمسمائة مقاتل من كل ناصر للحق وللباطل خاذل وكان سعد الدين كمشبه الاسدي بقلعة الكرك موكلا وبحفظها متكفلا

(ذكر حال الكرك من أول الفتح)

وقد مضى ذكر وقوع ابرنس الكرك فى الشرك بعسكر يومه فى المعرك وافتتاح
الفتح بحتفه وبسط كف الانتقام عليه بقبضه وكفه وانه أخذ راسه وقطع
انفاسه وقلعت أساسه وكانت زوجته ابنة فليب صاحبة الكرك بالقدس مقيمه
ولحفظ معاقلها مستدعيه وحصل ولدها هنفرى بن هنفرى فى قبض الاسار وقيد
الخسار وغمة الانكساف والانكسار فلما يسر الله فتح البيت المقدس وأصبح
الاسلام عالى اليد والكفر راغم المعطس خرجت صاحبة الكرك متعرضة
للخضوع متضرعة بالخشوع وبرزت مسكينة مستكينه مستعطفة مراحم
السلطان مستلينه رافعة عقيرتها بالابتهال شافعة فى فك ولدها من الاعتقال
معفرة خدها من شأنه التصعر مسفرة عن وجه من عادته التخدر حاسرة حسرى
باسرة لحزنها بأسرى والدة تنشد ولدها والهة دخل الرعب خلدها مطلقة
ميسورها مستطلقة مأسورها ثانية عطف العطف لواحدها رانية بعين الذل فى
خلاص ساعدها سائلة فى فلذة كبدها جائلة بجذوة كمدها باسطة يدها لقبض
يدها ناثرة خرزات دموعها عاثرة بحزازات ولوعها خافضة جناح استعطافها
ناهضة فى نجاح استسعافها راجزة بنوحها عاجزة عن بوحها وخرجت معها
زوجة ابنها ابنة الملك كأنها من بنات الفلك باديا صبح وجهها اليقق فى ليل شعرها
الحلك مشرقة من أوجها مشفقة على زوجها محترقة على فداء الحليل مقترحة
به شفاء الغليل خادرة قد اسفرت من مطالعها وأصحرت حادرة عبرة فى مدامعها
طفرت ناهدة متنهده واجدة متوجده معترة متذلله مهتزة متململه باكية
متلهفه شاكية متأسفه مستدعية مستعديه عاطية مستعطيه ساكبة
عبراتها راكبة عثراتها خامشة وجناتها خادشة بشراتها وحضرت الملكة
فى زوجها الملك خاطبه ولقرمها الندب نادبه قد أذعنت وعنت لفكاك عانيها
وطلبت بطلها الذى هو عامر دار عزها وبانيها فأكرم السلطان وفادتهن ووفر
افادتهن وقرب اراداتهن وقرر زياداتهن ووهب لهن ولاتباعهن وأشياعهن
ما كان يلزمهن ويلزمهم من مال القطيعه ووصلهن بصلاته الرفيعه وخصهن
بعالاق بكرمه من حسن الصنيعه ونقعهن بنجع الذريعه وأما الملكة فانه مكن

محلها وجمع بالملك شملها وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنها على تسليم قلعتي الشوبك والكرك ودخولهما في معاقلنا وخروج أصحابهما منهما في الدرك فاستحضر ابنها هنفري من دمشق اليها وأقر برؤيته عينيها وسار معهم من الامراء الامراء الامناء من يتسلم منهم تلك المعاقل ويحوز من تلك العقيلة العاقلة تلك العقائل فمضت اليها مع ولدها حسنة الظن بأهل بلدها فلما وصلت قاطعوها ودافعوها عن حصونها ومانعوها واختلفوا عليها وخالفوها حيثما ألفوها كما ألفوها وجمحوا وجمدوا واجترؤا عليها واجترموا وعصوها وأقصوها وعددوا عليها الذنوب وأحصوها وأخشوا لها في خطاء الخطاب وأوحشوها بالتنحي عن صوب الصواب وسبعوها وسبوها والى موافقة الاسلام نسبوها وكلما لاينتهم خاشنوها وكلما قاربتهم باينوها فوجدت نبوة نوابها وعدمت اصحاب أصحابها وذكرتهم بحقوقها وحذرتهم من عقوقها ولاطفتهم فغالظوا واسترضتهم فأحفظوا واسترعتهم العهد فما حفظوا ونبهتهم لامرها فما استيقظوا وانفصلت عنهم خائبة مخفقة هائبة مشفقة تخشى من رد ولدها الى السجن وعودها من الاصحاء الى الدجن ومضت الى الحصن الآخر فحصلت منه على صفقة الخاسر فانها لما ألمت بالشوبك ألمت من شوب كدرها وأملت نفعها فعادت بضررها ولقيت من نوابها نوائب وفي موارد المراد منها أقذاء وشوائب فآبت بالامل الخائب والعمل العائب والخوف الصادق والرجاء الكاذب فلما رجعت قبل السلطان عذرها وأزال ذعرها وأعلمها بان ولدها محفوظ وبالرعاية ملحوظ وبالعناية به محظوظ وهو في حصن السلامة الى أن تتسلم الحصون واذا بذل مصونها بذلنا لك منه المصون فسكنت الى الوعد وسكنت بعكاء في ظل الرفه والرفد ثم انتقلت قبل فتح وجنا من عكاء الى صور واستودعت السلطان ابنها المأسور وأمد السلطان سعد الدين كمشبه في حصار الكرك والشوبك بامراء يساعدونه في الحفظ والبرك فأقام على كل قلعة من يكفي لمحاصرتها ويفي بمصابرتها ويلبث في مقابلتها ولا يعبث بعقائلتها فانها تبقى على قوتها مالم تقوم من قوتها وتدوم على طغيانها مالم يذل عز طاغوتها فلما رتب السلطان

هذه المراتب ورب هذه المآرب أقام حتى وثق باستمرارها وتحقق حق استقرارها

((ذكر ما دبره في عمارة عكاء))

اختلفت الآراء في أمر عكاء فإنها كانت مدينة متفرقة وبيوتها متفرقة وسورها غير معمور ومعظمها بلا سور ورأوا أن في إبقائها خطرا وأن في إخلائها ضررا فمن أصحابنا من أشار بخرابها وحفظ الحصون وبناء قلعة القيمون ومنهم من قال إذا حصنت عكاء ملك البحر وملك الكفر وكانت على البلاد الساحلية قفلا وكانت بها بلاد الكفر غفلا فمن قائل بإبقاء برج الداوية لحفظ مينائها ومن قائل نختصرها من أدناها ومن قائل نجدد سورها ونحكم أمورها ونبقي بناءاتها ونعمرها بكمالها على أن أسوار هذه البلاد بيوتها التي هي عند الفتوح مفاتيح أقفالها وأجالوا الفكر فيمن يجلي غوانيها ويحلي عواطلها ويتوحد بتدبيرها وينفرد بتعميرها ويجتهد في تسويرها

((ذكر وصول بهاء الدين قراقوش لتولي عمارة عكاء))

فقال السلطان ما أرى لكفاية الأمر المهم وكف الخطب الملم غير الشهم الماضي السهم المضي الفهم الهمام المجرب النقاب الحرب المهذب اللوذعي المرجب الألمعي الراجح الرأي الناجح السعي الكافي الكافل بتذليل الجوامح وتعديل الجوانح وهو الثبت الذي لا يتزلزل والطود الذي لا يتحلحل بهاء الدين قراقوش الذي يتكفل جأشه بما لا تتكفل به الجيوش وهو الذي أدار السور على مصر والقاهرة وفات وفاق الفحول بآثاره الساعية الظاهرة فأمره أن يستنيب هناك من يستكفيه لتمام تلك العمارة ونؤمره لهذا الأمر فهو جدير بالأمر والإمارة وكوتب بالحضور لتولي الأمور وعمارة السور فوصل متكفلا بالشغل متحملا للثقل منشرح الصدر بالعمل منفسح الصبر والأمل مبتهجا بالأمر ملتهجا بالشكر وقد استصحب معه كل ما يفتقر إليه من أسباب العمارة وآلاتها وأدويتها وأدواتها وأنفارها وأبقارها ورجالها وعمالها ومهندسيها ومؤسسيها وحجاريها ومعماريها والأسارى والصناع والنحات والقطاع

والمال الكثير للنفقه والذهب الابريز والرقه ومثل بالخدمة السلطانية على كوكب وحضر الموكب وشرف بأسنى الخلع وأعطى الملبس والمركب وفوض اليه وقلده وأسعفه من عنده وأسعده وقوى جانبه وأعذب مشاربه وأوضح مذاهبه وأنجح مآربه وأيده وأجد جده وكثر مدده ووفر عدده وعدده وخصه بعطاياه واختصه لوصاياه فتوجه الى عكا وشغله متوجه وعزمه متنبه وسره مترفه وفكره في رياض الهدى متنزه وأمره ماض وحكمه قاض والله عنه راض وقام بما أقيم له ونهض بالعبء وحمله ومشى بكفايته عمله وشرع في التعمير والتسوير وتسوية الامور بحسن التدبير وسيأتي شرح ماجرى بعد ذلك في مكانه وماظهر من حسن اياته واحسانه

﴿ذكر وصول سلطان الروم قليج أرسلان وغيره من الرسل﴾

لما شاع خبر السلطان باستيلائه على البلاد واستعلائه في الجهاد وتأرجت الارجاء بعرف عرفه وأرخت السير بمحاسن وصفه عنت الامصار لمصره وأذعنت الاملاك لملكه وانقادت الامراء القادة لامره وعادت مهاب الحاب تفوح بماله من الفتوح وشروح ايراده واصداره تحل في صدر الزمان المشروح فتهيبه بالضراعة كل عظيم وتأهب له بالطاعة كل اقليم ورهبه ملوك الاطراف وتعلق باستزادة الشرف منه أمل الاشراف فكاتبوه مستعفين وخاطبوه مستعطفين وراسلوه بالتحايا وواصلوه بالهدايا ورغبوا في امتراء خلف الامتزاج والانشاح والالتحاف بحلف الانشاج وخطبوا لوصله وطلبوا الصله وكل يطلب لبلده منه أمانا ولبلده وقدمه من تمكينه وتأييده امكانا ومكانا ويتوصل ويتوسل ويتلطف ويتطفل ويرسل ويسترسل ويترجى مواهبه ويخشى عواقبه ويديم التردد للتودد والقصد لبلوغ المقصد فما يعود رسوله الا بسوله ولا يقبل عليه منه الا بقبوله ومن جملة الملوك المتقربين بالوداد المتسببين الى حصول الاتحاد سلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود ابن قليج ارسلان فانه بذل الاذعان وسأل الاحسان وأدى في المودة الامانه وأبدى للرغبة الاستكانه واستنهض في سفارته السفير الاب وندب الندب

وأنفذ أكبر أمرائه وأعظم سفرائه وهو اختيار الدين حسن بن غفراس وكان في دولته مقدما وفي مملكته محكما وعند أهل ولايته معظما وقد استعلى عليه واستولى واستبد بالتدبير عليه كانه بملكه أولى ولا تصرف له في ملك ولا مال الا بتصريفه ولا تعرف له عن حادث وحال الا بتعريفه فوصل هذا الكبير بنفسه لتمهيد القواعد وتشييد المقاصد وتجديد العهود وتأكيد العقود وقدم مكرما وأكرم قادما وخدم حاضرا وحضر خادما وقبل البساط وبسط وجه القبول وعقل له الشرف فتشرف بالمثول وحيا تحية المماليك للملوك وحفظ الادب ولم ينكب فيه عن النهج المسلوك فتلقاه السلطان بالبشر والترحيب والبر والتقريب وأعزه بنزوله في ذراه وأوعز بنزله وقراه ووسع عليه من الانعام بما ضاق عنه أمله وواصله من الجميل بما رقت تفاصيله وجمله وشفع رسالته بالاصغاء ورفع مقالته عن الالغاء وسمع ما جاء به وأجابه وأبعد بادناء ما قربه مارابه وشافهه بشفائه وأرواه برواته وأولاه لولائه وعرفه بالتعرف الى آلائه ونصبت له خيمة مسردقه شهادات الاقبال الناصري لها مصدقه ووجوه الكرامات بها محدقه وسحب المبرات لها مغدقه فأقام أياما بأيام من مقيمه ومحاسن من احسان الشيم السلطانيه مشيمه فلما استقام أمره استقل واستدر له بارق البر من سماء السماح واستهل ومارام حتى نال مارام ووثق لاحكام المواثيق لاحكام ووصل في تلك المدة أيضا الصلاح فتلقاه وهو أتابك قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا ارسلان واقيا موافيا باحسان الخطبة وخطبة الاحسان راغبا في تتميم الوصله وتعميم الصله آخذا لصاحبه ملك دبار بكر عهدا محكما وعقدا من الميثاق مبرما وقد أحضر قضاة بلاده شهودا واقتضى لصاحبهم بحضورهم عهودا وكان قد خطب لصاحبه ابنة الملك العادل ومت بكثرة الشوافع والوسائل وكان خائفا على آمد فانها من فتوح السلطان ووهبها لابيه نور الدين ابن قرا ارسلان فأشفق من استرجاعها بالحق بعد وفاة والده ورأى لا من عليها وعلى جميع بلاده من أكبر مقاصده ورغب في المصاهرة للمظاهره وان يفتح ما باب المزاورة للموازره فآتوه الملك العادل

الى ظل هذه المواشجه وثبت بعقد المزاوجه حكم الممازجه فتم أمنه وعم ع
وزاد قربه وزال رعبه وجلس السلطان وحضر عنده الاماثل والاعيا
ووكالى وكان وكيل أخيه الغائب فى انشاء العقد مع وكيل الزوج الراغ
فلما تم العقد باركانه اعتضد ملك ديار بكر بمكانه وسار صاحبه بالم
مصحوبا وعاد ذيله بالفخار مسحوبا وقال له قد وجدت الحزن فلا تحزن وا
ركنك فالى سواه لا تركن ومامن كبير أو أمير الا وفد وصل منه أكبر أمر
لينتظم بعهد السلطان فى زمرة أوليائه

((ذكر رحيل السلطان صوب دمشق))

وأقمنا على كوكب الى آخر صفر ننتظر منها بن تكفر الظفر ثم رأينا انه يطو
حصرها ولا يفوت أمرها وان الفتح يبطى وان كان السهم لا يخطى فا
الامراء ووكلنا بها وبغيرها من الحصون بالمقام عليها وابتذال صبرها المص
ورحل السلطان نحو دمشق طاهر الشيمه ظاهر العزيمه سامى اللواء ها
الانواء نامى الانوار فى مطالع المضاء ودخل اليها يوم الخميس سادس شهر ربيع
الاول بالصدر الارحب والباع الاطول وتلقاه أهل البلد بوجوه لاقبا
متهلله وألسنة بالدعاء له مبتهله وعيون لانواره مجتليه وقلوب بولائه ممتل
وأسماع لامره مستمعه وأيدى الى الله فى نصره مرتفعه وصدور بايامه منشر
وآمال فى انعامه منفسحه ونفوس على طاعة الله فى طاعته مجبوله وأعما
رضا الله لمراضيه مبروره مقبوله ودخل المدينه وأدخل اليها السكي
فوجدت الروح سلطانها وعادت الروح الى جثمانها وقرت به عيون أعيا
وأقرت له بحسنها واحسانها وابتدأ بالجلوس فى دار العدل وبحضرة القض
والعلماء من أهل الفضل واسترفع قصص المتظلمين واستمع غصص المتأل
وكشف الظلامات المظلمه وفصل الحكومات المستحكمه وقرأ كل قص
وقراها بكل حصه وحقق الحقوق ورتق الفتوق وأقام للشرع السوق وأ
رجال الرجاء بعدله الوثوق وحل باسعافه كل مشكله وطب باسعافه كل معض
وأصحت سماء السماح وأصحب جماح النجاح وأعدى المستعدى وأرو

الصدى وحبا الحيي وأردى الردي ومجد المجدي ومهد الحق حتى قيل هو
المهدي فما انقضى ذلك اليوم وانفض أولئك القوم الا عن مظلوم أجير بالحق
ومعلوم أجري من الرزق وعالم أغني وظالم أخني وهاذ زين وعاذ شين ومختل
سدد ومنحل عقد ومعتل شفي ومعتر كفي وماحل جيد وآمل زيد وركن حق
شد وشيد وخدن باطل أبير وأبيد وراج أدني فوزه ولاج أسنى عزه وجلس
يوما آخر للاكابر والاماثل والاكارم والافاضل فأضاء النادي وفاضت الايدي
وغدق الندى وصدق الهدى وكرا لكرم وفر العدم وحفل الدر ودر الحفل
وكمل النظام وانتظم الشمل وصان العلماء بالبذل وأعان بافضاله أعيان أهل
الفضل وفاز بالحمد وحاز الثناء وأجاز الشعراء وأكرم الكرماء وروج الرجاء
وأولى النعماء ونعم الاولياء وتقاضاه عزمه بالحركة لاستفاضة البركة واستضافة
المملكة الى المملكة فلم تستقر به دار ولم يدر به قرار ولم يثن في جفنيه غرار
ولم يبت الا وبين جنبيه لحب لقاء العدى أهل النار نار وكان الصفي ابن القابض
قد استجد للسلطان على بعض ابراج القلعة دارا وأذهب في نضارتها ذهبا ونضارا
وهي متطاولة بين البروج مطلة على المروج مشرفة على موازاة الشرقين
كاشفة غطاء النظر عن الغوطتين صحيحة البناء فسيحة الفناء بهيجة البهو
شهية الزهو مجددة لاهل الجذل كرى اللهو فرشها بماء الورد وفرشها بالورد
وبسط بسطها وعلق ستورها وأعلى نورها وجبر حبورها وسرى سرورها
وسنى أنواع نمارقها وأسمى أنوار مشارقها وتوصل الى حضور السلطان بها
وجلوسه وذهبت تباشير بشره بقطوب الزمان وعبوسه وأحضره كل مقرظ
بقريض وكل مؤمل بتصريح وتعريض وكل ناشد ضالة رجائه بنشيد وكل
قاصد جلالة ارجائه بقصيد وكل مغرد مغرب وكل مطرب مطرب وظن ان
السلطان تروقه تلك الحلية والحالة وتلك الجلوة والجلالة وتلك البقعة المؤسسة
وتلك الرقعة المقدسة وذلك المشرف العالى وذلك المشرف الحالى وانتظر نظر
استحسانه لاحسانه وتوقع تمكينه لموقع مكانه فما أعاره لحظا ولا أزاره حظا ولا
لحظه بطرف استطراف ولا منحه حرف استعطاف بل أعرض بنظره عن تلك

النضاره وأغضى عن تلك الغضاره وغض عن تلك الغضاضه واشتغل عن تلك الرياض بالرياضه فالعاقل من لا يتخذ فى دار الدوائر معقلا ولا يجد فى منازل النوازل منزلا ولا يركن الى فناء الفناء لبيب ولا يسكن فى غار الغرور أريب وكيف يبنى العمران والعمر الى الهدم والغنم فى الدنيا الدنية عين الغرم وقال السعيد من يبنى دار الآخره وينجو من أمواج الدنيا الزاخره ثم صرف فى تلك الايام الصفى عن ديوانه وأبقاه فى شغل الخزانة على مكانه وسمعته يقول فى بعض محافله وقد أجرى له حديث من يفرح بمنازله كان من ذنوب الصفى عندي انه بنى لى تلك البنيه فدل على انه لا يوافق منه الامنيه وقال ما يعمل بالدار من يتوقع المنيه وما خلقنا لا للعباده والسعى للسعاده وما يخطر لنا فى هذه الدار خلود بالخلد وما لنا والمقام فى البلاء والبلد وما جئنا لنقيم وما ندوم (الا) ان لا نريم وما تحركنا الا للسكون وما أسهلنا الا للعود الى الحزون فما يجتنى ثمر الراحة الا من مغرس التعب وما يجتبي نصيب المغنم الا من مغرم النصب فأين الاين الذى تقر به العين وما يحصل السكون فى المسكن ولا يكمل الوطر فى الوطن لا سيما والدين يطالبنا بدينه والكفر يستقرب منا حين حينه والبلاد سائبه والبلاء دائبه فلا تفوح الفتوح الا بهبوبنا ولا ينزل النصر الا بركوبنا وغد اللعزم متمما والعزم مصمما ووصل الخبر بوصول عسكر الشرق بالغرب الماضى والحد القاضى والجمع الوافر الوفد والجمر اللافح الواقد وان عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى قد أقبل بقبيله ووصل برعيله وقدم بجده وأقدم بجده واتصل بحلب ثم سار عنها مسارعا وجاء معه الجيش للنجدة والجدة جامعا فأرهف اله عزم السلطاني خبر وصوله وحل بالشد لا رحيل عقد حلوله وكان القاضى الاجل الفاضل ذو الجلالة والفضل والنباهة والنبل متأخرا فى بيته بدمشق لشكاة أقام فى غبرها واستقام مزاجه الكريم منها وهو فى ترقب زوال أثرها والسلطان بنجح سعيه متبرك وبنصح رأيه متمسك وبطوله عالم وبقوله عامل وبعبارته قائل ولاشارته قابل فاراد السلطان أن يقدم بلقائه الاجتماع وبرأيه الانتفاع ويستنير بنوره ويستشيره فى أموره ويفاوضه

فى تفويضاته ويقلده فى تقليداته ويتبرك بعيامنه ويتيمن ببركاته فاطلعا اجتلى سنى السعادة من مطالعه واجتنى جنى الارادة من صنائعه وافتتح الاقاليم بمفاتح أقلامه وأحكم المملكة بثبوت احكامه ووافاه بامداد السودد الوافى سواد مداده وجاءه بالوجاهة فى دينه ودنياه باسعافه واسعاده وكان قد خرج الى جوسق بالشرف الغربى الاعلى ليتفرغ هنالك للعبادة ويتخلى فاصبح السلطان بكرة يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الاول على الرحيل فقصده لابرام ماوجده فى مملكته من الامر المحيل وأقام عنده فى الجوسق الى الظهر مستظهرا به على الدهر حتى كشف مبهمات مهماته ورشف شفاه مشافهاته وانتجى معه فى الآراء والآراب وانتجع لديه من رأيه صوب الصواب وارتجع وديعة سر الغيب ممن عنده علم من الكتاب ثم استودعه الله وودعه ودعا له الاجل الفاضل وشيعه وبات تلك الليلة مخيما بالعراده مختما بالسعادة راج السياده ناج الاراده ثم سلك فى جبل بيوس الى عين الجر الى الداهمية على البقاع وهو مطيع أمر الخالق ومتبعه والخلق تابع أمره المطاع وأتى بعلبك المحروسه وخيم بمرج عدوسه وأقام حتى أمر أمرها وأدر درها وقسم لها من عدله وعدل بها من قسمه وحكم فيها بفضله وأفضل عليها بحكمه وكشف الظلم والمظالم وصرف المكاره وصرف المكارم ورفع من المعالى المعالم وأجرى رسوم الاجر والمراسم وأمر الرعاة برعاية أمر الرعيه وحكم على القضاة بالحكم فى كل قضية بالجهة الشرعية المرعيه ثم رحل على سمت اللبوه معصوم النوبة من النبوه مصون الكتيبة من الكبة والكبوه ثم أوجه الى الزراعة وزرع الظفر قد توجه وشرع النصر اصافى الشرعة من الكدر قد تنزه وقد كحل عثير العسكر طرف الجو الاحمر وقد آن لعين الشمس الراقدة من الهبوة أن تعاود الهبة وتتنبه وزوع بالزراعة من السمر المركوزة والبيض المهزوزة نبات الخط وقنا الخرط وضاق ذلك الفضاء الواسع بحط رحال الرهط

(ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار والاجتماع به)

ووصل الخبر بأن عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى وصل جامعا من الادانى

والأقاصي ونزل طائعا على العاصي وخيم على قدس وخيمه قد تقدس والدين بدنوه تأنس والكفر بقدومه تعكس وانه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه على قهر الشرك ونصر الايمان فركبنا وابن ذكاء في اسفاره والصبح قد زحف على الليل برايات أنواره والفجر قد فجر انهاره وسرنا بصدق النزاع وقصد الاجتماع فلقيناه قد ركب مستقبلا وقرب مقبلا ولما رآه السلطان حياه ولقيه بالكرامة وأكرم ملقاه ونزلا قدامنا ثم ركبا وتوافقا وتساوقا وخيمنا بقرب مخيمه وجمعنا عند مخيمه وحططنا هناك رحالنا وخالطنا برجاله رجالنا وتساعد الجندان وسعد الجدان وجد السعدان وانتظم الجمعان واجتمع النظمان واتحدت الكلم واتأدت الهمم وسأل السلطان أن يوازره ويزوره ويحضره بحضوره حبوره فسار معه الى مضربه وضافه في موكبه وانقلب الى قربه وتقرب الى قلبه وارتفع في صدره ورفع من قدره وصار العسكران مختلطين وجلسا منبسطين ووقف الامراء والعظماء سماطين كالسمطين وقرأ القراء وأورد الشعراء وتجاذب بينهم أطراف الطرف والآداب الفضلاء والعلماء وكان مع عماد الدين شاعره السنجاري ابن الهائم ومن عادته ايراد المدائح في مثل تلك المواسم فأنشد مدحا ونشد منحا ثم بسط السماط وسمط البساط ومدت الموائد وعادت العوائد ونضد الخوان وكونت الالوان ولونت الاكوان وصفت الجفان وأحضر الطهاة من كل حاجة وباجه وخروف ودجاجه وحلو وحامض وحامز وحامض ونيه وقابض ومطبوخ ومشوي ومصنوع ومقلي ما طاب مذاق مذقه ومحضه وطالت الايدي في بسطه وقبضه فلما رفع من ناديه القرى وترع بأياديه الذرى قدم ما أعده للهدايا والتحف السنايا من الجياد المقربه والثياب المذهبه والعدد المحببه والاسلحة المذربه وكل ما يروق ويروع ويضيء ويضوع ثم انفض النادي عن ندى منفض وسدى ابكار الشكر مقتض وعين السلطان يوما لحضور عماد الدين عنده وانه يستضيف فيه خواصه وأمراءه وجنده فوسع مرافقه ووشع نمارقه وضرب بيت الخشب له حسب بيته وأسميت الحسنى بحسن سمته وسمته

واحتفل بحفله وأجل لأجله وأرجت أرجاء النادى بالند وراق مد النواظر
النواضر فى ذلك الرواق الممتد وبسط على البسط ما حضر من الياسمين
والورد وفاح النشر ولاح البشر وفرش الثرى وشرف الورى ورفع الحجاب
وأشرعت القباب وتوجهت الاسباب وتنزهت الالباب وتضوعت نوافح
النوافج ووضحت مناهج المباهج ووضعت المطارح والمساند والاسرة
والوسائد وجاء عماد الدين فى خواصه وأمرائه وصحبه فتلقاه السلطان برحبه
وقرب له السرير وسر بقربه وأجلسه الى جنبه وحباه بحبه وأقبل عليه
بوجهه وقلبه وجلس من جرى بالجلوس رسمه وسمى فى الرؤس اسمه ووقف
الامراء والحجاب والعظماء والاصحاب على مراتبهم فى مواقفهم ودب الاعتزاز
الاهتزاز فى معاطفهم وكان النادى مهيبا والندى مجيبا والذرى رحيبا
والقرى قريبا والظل ممدودا والفضل مورودا والحفل حافلا والشمل
شاملا والبساط مقبلا والنشاط مقبلا والمرئى حاليا والمروى عاليا
والمسموع مطربا والمجموع مغربا والمنظر والمخبر جليلا جميلا والمطلع والمطلب
منيرا منيلا والمكان عليا والزمان جليا والربيع فى انتهائه والصنيع فى
اشتهائه والمصيف فى ابتدائه والمضيف فى اقتدائه والنعيم فى نضرته والكريم
فى نصرته ولاريب فى أربه والطروب فى طربه والضريب من الخلق الحسن
فى ضربه وكانت أيام المشمش وقد وصلت من دمشق أحمالها وحلت فى تلك
الحالة حالها وأقدم الجزل قدومها وطلعت فى أبراج الاطباق نجومها كأنها
كرات من التبر مصوغة أو بالورس مصبوغة صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية
حلا ذوقها وأحلى شوقها ولو نظم جوهره لكان طوقها وهو أحلى من السكر
وأعبق من العبهر وأحسن هيئة من النارنج الاحمر والليمون المركب المدور
وقد زفت عروسه فى الثوب المعصفر والخمار المزعفر كأنما خرط من الصندل
وخلط بالمندل وجمد من الثلج والعسل فهو الذى يضرب به مثل النمل
ويقضب من قضبه لقب القبل وتظر منه ما نصر وما خطر ما حضر وروى
هنالك لقطوفه قطاف ولطوافيره طواف ولعقوده مصارف ولنقوده صيارف

فكأنها وجوه العشاق اكتست اصفرارا أو جمرات تشتعل نارا وتبدي شرارا وقد أعاد لجينها صواغ القدرة الالهية نضارا بل هي احداق الحدائق وقلوب البوارق ووجنات الجنات صبغها بلونه البرق وصفرها من خوفه الرعد ودورها بوقده الودق لا بل اصفرت من مهابة الجنات الجناه وانتظمت من جواهر الحبا اللعباه واضطرمت لهاها شوقا الى فتح اللهاه ثم صرفت الاطباق ونظفت الآفاق وبسط المكان وسمط الخوان ونبهت أجفان الجفان للقدور الرقود وشبهت المراجل لغليانها بصدور ذوي الحقود وتزيد مقال المقالي النشاشه وتزينت مقار المقاري بالبشاشه ومادت أعطاف الموائد بالالطاف وتهادت أكناف السرادق بوشي الافواف وهنالك المسموط والمسلوخ والمخطوب المطبوخ والمقلو المقلوب والمهبو المحبوب والاغذيه واللعمان والاشربه والحملان والالبان والالوان والجوابي والروابي والصواني والاواني وقد صفت البوارد وصفت الموارد وتنوقت الطهاه وتنوعت المشتهاه وحلت الاطعمه وعلت الاسنمه وجاش جاش الجاشنكير الرابط وعاش اخوان الخوان السلار الغابط وتداولوا وتناولوا النوالات والحوالات والحلاوات والحالات وكان يوما مشهودا وحوضا موروداً ورضا معهودا ورواقا ممدودا ورواء مودودا وجماما موعودا وصنعا محمودا ولما فرغت الموائد وبلغت المقاصد أحضر السلطان لعماد الدين هداياه وحباه بأحسن من تحاياه من خيل صفون وحصن كحصون وعراب جياد من طرائف الطريفيات وسوابق سوابح من العتاق الاعوجيات والمذاكي المنسوبات من كل مطهم مطهر الخيم وكريم من نسل الكريم وصافن صافي الاديم ومقرب مقرب ومجنب مكرب وسكب مشذب وقبض سلهب وبحر جموم وطرف لهموم وسرحوب شيظم ويعبوب صلدم وأجرد قود وضامر قيدود واقب نهد وجواد ورد ومسح رفل طمر وأشق أمق غمر ومفرع طموح وعتيق غير جموح وهيكل عال وعضوج ذيال فاختار منها كل طرف قد حط من قدره اذ قوم بألف من كل أشهب قرطاسي وأشعل سوسي وأغر صنابي

وأدهم غيهبي وأحم أحوى وأشقر مدمى وابرش مدنر وكميت مضمر وأخضر وادبس وسمند أغبس ثم أحضر له ما يناسبها من التحف اللائقه والطرف الرائقه والعدد الرائعه والاسلحة المانعه والسابريات السابغات والدروع والزرديات والرؤس والرانات والخوذ والترائك والبواتر البواتك والدلاص الموضونه والنصال المسنونه ومن المستعملات المصريه الذهبيه والحريريه والملحم والدبيقي والمصمت والمغربي والعراقي ومن نسج تونه وتنيس كل ثمين ونفيس وما شاكله من أنواع الطيب على النمط والترتيب ثم انصرف وعرف حمده متضوع وعرف جده متنوع وشدو شكره وعطف نحره مترنم مترنح وأمره متخيره نريج ووده مترج مترنج ودعاؤه صالح وثناؤه صادح ولسانه داع وجنانه واع وعهده راع وسعده ساع وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس والتناجي بما في النفوس والتدبر فيما يقدم ويؤخر ويقرب ويقرر ويوردو يصدر وتكررت المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقصده ويوف العزم فيها الجهاد حق جهده واتفقوا على عرقا وعرقها وعقرها والنزول بعقرها وانها اذا ملكت ملكت طرابلس وأسفر عن صبح فتحها الغلس وأقام العسكر أياما على قدس وبقبس النصر قد تأنس ولسناء الظفر قد توجس وأتى العرب ووأتى الارب واجتمعت الجيوش وجاشت الجموع وآن لليل العزم المدلج من صبح النجح الطلوع ونبعت الفيوض من النعم وفاض الينبوع وأينعت ثمار المبار وطابت الينبوع ثم رحلنا أول شهر ربيع الآخر الى البقيعه تحت حصن الاكراد وخيمنا على الربا والوهاد وصوبنا الى الجهاد هوادي الجياد وأدنينا قطاف ألطاف الله لاجتناء الاجناد وكانت الاعشاب بالشعاب واصيه والشوائب من المشارب قاصيه والقضب للقرب في طاعة الله عاصيه وطار الرعب وثار العجم والعرب وخاف الكفر وطاف الذعر وقال نفر الشرك نفر ولا نستقر وتشوروا وتشاوروا وحاروا وتحاوروا كانهم في قبور حصونهم أموات لا ترتفع لهم من الوهل والوله أصوات وأجمعنا على دخول بلد الساحل على التجريد للتجريب وجوس خلال البعيد والقريب ثم تجرد العسكر عن الاثقال وتجرأ

على أخذ أهبة القتال وسار السلطان ومعه عماد الدين زنكي وسيفه بصقاله يفصل وبدم الكفر يبكي ومظفر الدين كوكبوري وهو الذي حسن بواري صارمه المشهور في تجميع العدى لزناد الظفر بوري وصحبه من فرسان العرب كل فارس مغرب ومن شجعان الاكراد كل فاتك محرب ومن قتال الاتراك كل قسور قاسر ومن صيد الصناديد كل كسروي كاسر وكل كمي كميش واكديش على اكديش وقارح على قارح وخضم على سابح وجرى جار جارح وبهمة وبطل وبسيل على جبل وفحل على فحل وذمر نكل وورد على ورد ومرد على جرد وحلس وحلبس وباشر بالموت معبس وأهيس أليس وأحمى أحمس وغشمشم همام وأيهم مقدام وباسل ذي باس وعاسل عاس ورئبال على رئبال ومشتمل على شمال وبحر على بحر وصقر على صقر وركبوا سلاهبهم وجنبوا جنائبهم وجروا على الساحل سيولا وجروا بالذوابل ذيولا وطار ابليس طرابلس خوافي الخوف ودام الجوى في رعب أهلها بدم الجوف وما سار الامن خفي نهضته ونهض بخفته وأحس حصن الاكراد بالاكدار وصفت على صافيثا بوارق البوار وقطع عرق عرقا وعثرت وتعرمت العريمة وتعرقت ومزعت تلك الاعمال ومزقت وأرهقت وأزهقت ونفرت أنفارها وبقرت أبقارها وملئت بالدوائر ديارها وسيقت مواشيها وحشيت بالنيران أوساطها وحواشيها ونزل السلطان على حصن يحمور فاقدر وابحمونه وابتذل مصونه واستخرج مكنونه وفضه وفضه وساه بالدمار وصبحه وأقام في تلك الديار عشرة أيام يجوسها ويدوسها وقد حيزت له نفائسها ونفوسها ثم رحل بغنمه وقفل الى مخيمه وعاد العسكر مسرورا منصورا مجبورا موفورا قد اطلع من تلك البلاد على العورات واضطلع بالغنائم من تلك الغارات ونكا منها في الاعمار والعمارات وانقضى شهر ربيع الآخر وذلك المرج يموج بالماء كموج البحر الزاخر وقد وصل قاضي جبلة يحث على قصدها ويحض على انجاز وعدها ويحرض على اعذاب وردها ويحقق ان الظفر في هذه السنة يبتدئ من عندها ويقول ان الاشتغال بطرابلس مع احترازها

واحتراسها وكثرة ناسها وتدرعها بلباس باسها واستعدادها للحصار وتحصنها
عن الاصحار يذهب الزمان ويفوت الامكان وهذه جملة وماوراءها من المعاقل
قنيصة للقابل وفرصة للمتناول ولهنة للآكل ورغبة للناهل وأمنية للعاقل
فادونها مانع ولا عنها مدافع وهي على عزتها وغرورها وغفلتها وقصورها
لم يفترع عذرة أمنها ذعر ولم يفثأ سورة نقعها ضر ولم يقرع باب يسرها عسر
فان سلكنا سبيلها ملكنا سلسبيلها وان حزنا ساحتها حزنا راحتها وان
استقدنا امتلاكها ملكنا قيادها وان اعتدنا دواءها حوينا عتادها وان اقتضضنا
بها فضضناها والساكنون بجبلة مجبولون على التسليم مؤملون ان يتبدل شقاؤهم منكم
بالنعيم فعرفناه بجمعه نعجه ورفعناه بجمعه تجمعه وأصغى السلطان الى قوله
واصغى له ورد طوله واقبل عليه وقبله واجزل له العطاء وأكمله وكان قد وصل
له مقدمو جبل بهرا فوفر الهم ورواتبهم وأجرى وخلع عليهم وشرفهم وأسعدهم
بالمواهب وأسعفهم فندبوا الى أتباعهم وكتبوا الى أشياعهم وأجمع السلطان
على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل ورحل يوم الجمعة رابع جمادى
الاولى حافل الجحفل سامي القسطل ماضي المنصل فمررنا في آجام مؤتشبة
وآكام معشبة وحزون وسهول وشعاب وتلول ومعالم ومجاهل وروابي
وهو آجل ومغايض وغياض وارتفاع وانخفاض حتى خرجنا الى ساحة الساحل
ونزلنا بها ومبارك مبارزنا مواحي رسوم تلك النواحي المواحل ومعنا احمال واوساق
وأثقال وأسواق وأزواد وأمداد وعدد وأعداد والخيل عرمرم والسبيل
عرم والمجر لجب والغيل أشب والاسد في عريس من الاسل العراص
والفوارس الصلاد في غدران من السوابغ الدلاص وقد نشأ العجاج كعجاج
النشاص فأظلت بحلولنا معاقد المعاقل واعتلت باستيلاء خيولنا عقائد العقائل
وحلت لخطبة سيوفنا كرائم الحوالي والعواطل ونحن في استباحة واستباء
واصطلام واصطلاء وارتياد وارتياء وقتل باعداء وسفك لدماء وبتك لرقاب
ذوي الفجور وهتك لحجاب ذوات الخدور ننال من العدو كل نيل وندير عليه
في داره دائرة كل ويل فما انقطع الاوراد بغيظ الكفار ولا انحصر الاناد بازديادهم

به الدمار وسرنا الساحل في ثلاث مراحل حتى وصلنا الى أنطرطوس يوم الاحد سادس الشهر فاحدقنا بها من البحر الى البحر وزحف اليها الناس وحفز عليها الباس وخاب رجاء رجالها وخب نحوها الباس ونازلناها ساعه فلم يجد أهلها للدفاع استطاعه ودخلت من جوانبها وتخللت من مذاهبها واصابتها نوائبها ونابتها مصائبها وفل غربها وجب غاربها وقتل من لحق من رجالها ونهب ما وجد من أموالها ونقل ما صودف من غلالها وسبي من أخذ من نسائها وأطفالها واعتصم من بها ببرجين اعتصما بالامتناع وهما هنالك من أحكم القلاع وفي أحدهما الداويه جمرة الكفر ومعهم مقدمهم الذى أطلق من الاسر وفي البرج الآخر المنهزمون الناجون والفارون اليه اللاجون فنزل على هذا البرج مظفر الدين بن زين الدين فأبدى لمن استتر فيه وجه التأمين وحركهم الى الخروج بالتسكين ووثقوا بأمانه وأمنوا عيث اذاه وتمكن كل منهم لسلامته من تسلم مكانه فلما ظفر مظفر الدين بالبرج هدمه وهده وحل من احكامه ما الكفر شده وركب النقب على ركنه العالى ونكبه في ذلك اليوم بما تنكبت عنه نوائب الليالى وخرب الى اساسه سوره ورمى الى البحر صخوره وامتنع برج الداويه بدائهم الدوى واتبع مردتهم في التمرد هوى طاغوتهم الغوى وأقام العسكر حتى نقض أسوار انطرطوس وقوضها وربضنا بها الى ان عفينا ربضها ولما امتنع البرج تركناه وما كانت فيه فرصة لو أدركناه وكيف كنا نشتغل ببرج عن فتح البلاد وللفرص أوقات هى لها بالمرصاد ومن يسلك الجدد اللاحب لا يعرج على بنيات الطرق ولا يبتغى مدلج الليل بالدرارى عن الفلق ورحلنا عنها رابع عشر الشهر شاهرين على الاعداء سيوف القهر ونزلنا على مرقية وقد رحلت من أهلها وتخلت وتشعثت عمارتها واختلت وكان جوازنا الى جبلة على الساحل تحت حصن المرقب وهو معقل للاسبتاريه عالى المنكب سامى المرقى والمرقب ضيق المذهب عسر المطلب فلم يكن بد من عبور ذلك المضيق وسلوك تلك الطريق وقد صفت الفرنج في البحر المراكب وسدوا المذاهب وردوا الراجل والراكب وفوقوا الجرخ للجرح وسددوا

الزنبورك للقرح والطرح فعسر العبور وكثر العثور وامتنع الجواز ووجب الاحتراز وأعوز الظهور وظهر الاعواز وذلك ان صاحب صقليه رام ان يكشف عن الفرنج البليه فجهز أسطولا بجهازه مستطيلا وحمله من عدد القتال وعدد الرجال عبأ ثقيلا وانفق وسوله فى تلك الايام فى ستين قطعه تحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعه من كل شيئ من شأنه شن الغاره ومن عادته العادية تشعيث العماره مع طاغية يقال له المرغريط قد عرف منه التوريط من أرجس الطواغيت وأنجس العفاريت فوصل الى طرابلس بطوله وأسطوله وصولة وصوله فما أحلى ولا أمر ولا نفع ولا ضر ولا استقل ولا استقر ولا نقض ولا أمر بل صار على الفرنج وبالا وأحدث لهم عما يسوءهم من مؤنته انحلالا وما خفف عنهم بل زادهم على الثقل أثقالا ووجد الكفر فى أوان تواتيه فلم ينتفع ولم يرتفع شأن شوانيه وصار الى صور ثم رجع الى طرابلس وتردد فى البحر وتلددوا بلس وتفرقت جماعته وتجبنت شجاعته واضطرب فى البحر أشهرا لا يظهر له رأى ولا يرى له مظهرا فتقطعت أقطاعه وتتابعت فى الفرار أتباعه حتى عاد فى عدة يسيره وشدة عسيره وكان هذا الطاغية قد حضر يوم عبورنا تحت المرقب بمراكبه مصفوفة فى البحر من جوانبه قد ضيق الطريق ولم يطرق المضيق وأمر السلطان بحمل الجفاتى الى هناك وتصفيفها والستائر وتأليفها والتراس وترصيفها واقعد من ورائها على مقابلة سفن القوم وازائها الكماة النخبيه والرماة الجرخيه حتى تباعدت تلك السفن ودب اليها الوهن وغمت عليها المحن وأنحت الاحسن ورحل العسكر فعبر آمنا وأمر عابرا وسار ظاهرا وظهر سائرا وجزنا على مدينة يقال لها بلنياس وقد أجفل عنها الناس ونزلنا فى أرضها وخيمنا فى طولها وعرضها وأنسنا بنهرها وزهرها فى الارواء والرواء وحبسنا على نواضر رياضها نواظر الارتضاء وبتنا ونفحات الندى مريضه وجنبات الوادى مريضه والنسيم العليل بليل والعزم الصحيح دليل ورسم الغدر محيل ولقدح الفوز من تأييد الله لنا تجيل وأصبحنا على الرحيل مبكرين فما اصباح المنذرين وسرنا وسرنا فى سرور وسفرنا فى

سفور وجمعنا فى اجتماع وجدنا فى ارتفاع وتهجعنا فى اتساع وركنا فى امتناع وعارضنا نهر عريض عميق مافيه طريق وهو مطرد من الجبل الى البحر فازدحم العسكر عند ذلك النهر وتوافقت الاحمال والاثقال عند العبر وليس عليه لا قنطرة واحدة فتصادموا على ذلك الجسر وسار السلطان من فوق على سفح الجبل وعبر واستتبع من عسكره بعد الزمر الزمر ونزل عشية الخميس على بلده وعانت الاثقال فى تخلصها من الشدة الشده وتكامل نزولها حين انتصف الليل ووصل الى القرار السيل وهذه بلدة كاسمها بلدة على شاطئ هذا النهر وساحل البحر حصينة البناء مصونة الفناء قد حصنها الاستتار وحسنها الاستظهار وقطعوا عنها سلوك الطرق بتعميق ذلك النهر المخترق وألفينا بلدة أيضا خاوية على العروش حاوية للوحوش خالية من الانس والانس كان لم تغن بالامس وقد ازعج أهلها وتشتت شملها وتخوف آمنوها وعدم السكون ساكنوها

(ذكر فتح جبلة)

وأشرفنا على جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر وقد اشتهر وسم النصر واشتد على الكفر رهق القهر وكان قاضى جبلة قد تقدم فى السابقة وسبق فى المقدمة واقدم على قصدها بالعزمة المصممة فلما بصر مسلموا البلد بما وضح فى الجد من الجدد وسنح من الظفر المتضافر المدد خرجوا مستأمنين مسلمين مستمسكين بعز الاسلام معتصمين وعلت على السور الرايات الناصرية المنصوره والتهجت بحمد الله الالسن الشاكرة وابتهجت القلوب المحبوره وتحصن الكفرة من الحين ولجؤا فى التحصن الى الحصنين فمن لاذ بالحصن الذى على المينا قال انه بحصانته ومنعته يحمينا وعاد معظمهم الاكثر بحصن البلد وهو المعقل الاكبر وتوسط لهم قاضى جبلة فى أخذ الامان بعد قبض الرهائن على ان يعيدوا من استرهنوه فى انطاكية من أهله ويجمعوا عليهم شمله ويسلموا الينا كل مالهم من سلاح وعده وخيل وذخيرة وغله وتسلمنا الحصنين يوم الخميس وعادا مأهولين من الاسلام بالانيس وكرمت بالكرام جبلة جبله ونفت عنها بالفئة المقبلة الفئة الشقية المتبله وسعد أهلها بعد الشقاء وتعوضوا من الشدة

بالرخاء وافضى اليأس بهم الى الرجاء وفاؤا الى الوفاء وانتقل أهل الجبل الى جبلة طائعين بعد العصيان مصالحين بالمصافاة بالايمان أيمان أهل الايمان وكان حصن بكسرايل قد تسلم من قبل واتصل بقصة الجبل فرتب فيه من حكم على ذلك الجانب وأهله وكانوا القاضي جبلة مذعنين بايمانه مؤمنين ولدعائه ملبين ولبقائه محبين ونجوا من العار والتبار وضيم الكفار وتناجوا بالاستبصار والاستنصار والاستغفار والاستنفار وآضت تلك الولاية لاحسانها واليه وتلك الناحية على سكانها حانيه وتلك المدينة لاهل الدين دانية دانيه وتلك الجنة العذبة الجنى لو رددم الجناة من شوك القنا جانيه وتلك البنية لمعالم المعالى فى هدم أساس الاساءة بانيه وتلك الهضبة راسيه والتربة كاسيه والرتبة ساميه والربوة رابيه والذروة عاليه والحال متحاليه وأقام السلطان بها أياما حتى أزال شعثها وأزاح خبثها ورأب صدعها وربربعها وشاد ركنها وشد حصنها وجب كفرها وجبر كسرها وجدد بها جدها وخص بها خصبها وبالعدل عمرها وبالفضل غمرها وبالرعاية ملأها والرعية كلأها وجعل قاضى جبلة وشرفه وحبس عليه ملكا وقفا ووقفه وصرفه فى أملاك آبائه وحكمه فى ولاية حكمه وقضائه

(ذكر فتح اللاذقيه)

ورحل ثالث عشرى الشهر يوم الاربعاء منشور اللواء منصور الاولياء مشكور المضاء عالى القدر قادر العلاء ناجح الآراء راجح الآراء وسار برعب الى العدو يقدمه وعزم على الغزو يصممه وأمر لامرار الاحكام يحكمه وجد على تدبير الدين يقفه وجد فى تدمير المارقين يرهفه وسعادة تؤيده وتأييد من الله يسعده وسطوة على الكفار يرسلها وجذوة فى أهل النار يشعلها وجيش الوثبات ينشطه وجاش بالثبات يربطه وهيبة تروع الخواطر وهيئة تروق النواظر وبتنا تلك الليلة بالقرب من اللاذقية معرسين وبات الكفرة مبلسين قد لاذوا من حصن اللاذقية بحبل عاصم وعروة كل قلب لهم من الرعب

فى يد قاصم والخوف عليهم مستول والذعر فيهم مستعل والافئدة منهم خافقه والاندية بهم متضايقه والمهج فى سوق الردى نافقه ونحن طول الميل من السوابغ فى جر الذيل ومن السوابق فى اجراء الخيل ومن نشاط العزم فى اهتزاز ومن احتياط الحزم فى احتراز ومن انتخاب الاجواد والجياد فى انتقاء ومن انتقاد العتاق والرقاق فى انتقاء ومن انتهاض الرياح بالهواضب فى انتهاء ومن اقتضاب الارواح بالقواضب فى اقتضاء والمقربات تسرج والسريجيات تقرب والمقانب تكتب والكتائب تقنب والصوارم تنتضى والصرائم تقتضى والقوارح تضمر والقرائح تخمر والضوامر تجرى والبواتر تعرى والصلاد تلجم والدلاص تستلأم والحنايا توتر والمنايا توتر والجاليشية تعبى والجاوشية تلبى حتى أصبحنا يوم الخميس والخميس مصبح والمتجر مربح والمفخر متوضح وللعاش فرح وللجيش مرح وقرح العدو مقترح وزند الفتح مقتدح وباب السماء لنزول ملائكة النصر مفتتح وأحدقنا بالقلاع وقلعنا الاحداق وخطنا بابر السهام من موقها الآماق وأخرجناهم بالارهاق الارماق وأنهضنا اليها الجار والنقاب والزراق وأطرنا النشاب الى أوكار المقل وأزرناهم رسل النصال بكتاب الاجل وسمعنا من ضوضائهم زجل الوجل ورأينا (هم) تغلى من صدورهم بنار الحقود مراجل الغلل وأشرفوا من الشراريف قلقين متقلقلين ما بين تلك القلال وجدوا فى القتال وشدوا على الرجال ومدوا ظلال الضلال واعتدوا بالنصال فى النضال وردوا النبال بالنبال وسدوا مذاهب الاهواء بالاهوال وهنالك فى الزنبورك بورك فانه بالجرح دورك وقلنا للكفر اخرج ادخل الى دورك وأى دار فيها التوحيد بأهل الشرك شورك وطالما سكنت دارنا فاخرج ودرجت اليها فادرج ومازلنا نقاتلهم بسوادنا بياض النهار ونغطى سنا يومنا بليل الغبار ونرفع من السور حجابه بالجار حتى فرزنا بتمكن النقاب والجار وأخذت عليهم النقوب ووقذت منهم القلوب وبلغ النقب من الشمال فى الطول ستين ذراعا وأربع أذرع فى العرض اتساعا وهى ثلاث قلاع متلاصقات على طول التل متناسقات

كأنهن على رأس راس راسخ وذروة أشم شامخ فسهل الله لنا فرعها وفرعنا نسنا أصل أصلها وفرعها وناوبنا عليه القتال وجاربنا بالنصال النصال وأوضعت بنات الكنائن بظعائن الضغائن وأثارت من مكامن الاحقاد كوامن الدفائن ودام الرماء وحريت الدماء وانجبع التجميع ووقع ذلك الرفيع فاستبطى السريع وتخطى الصريع وأبصروا ما لا عهد لهم بمثله وعاينوا ما عانوه من غريم الموت المطل فى مطله وفتح الحتف بابه وحفز الزحف أصحابه وكشر الشرك نابه وصادف الكفر لدمه المطلول مصبه ومصابه ونفر الناس اليهم واستطالوا عليهم وطمعوا فيهم والاجل يظهرهم والوجل يخفيهم وهم من وراء أسوارهم بوائق بوارهم ووبل النبل هام وأهل الجهد فى ضراب وضرام وجر الجمع فى النهاب والنهام ووقع منهم الزمع ومنا فيهم الطمع حتى ازدحم على التل الصغار والكبار واستشعروا منا وزال منا الاستشعار وكان لى مملوك صغير قد زحف وأرهق وأرهف فقبل خده سهم فرجع واذا وجهه طلق لاجهم وهو بفرحه فرح وللفرح بالشهادة مقترح وقد عدله الجرح حسنه القبح فلما عرفوا انهم مدركون وانهم يؤخذون ولا يتركون صاحوا والامان واستماحوا الايمان وذلك فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الاولى عشيه وكان فتح ذلك المعقل من الله مشيه فانه موضع ما فيه مطمع ولم يكن للكفر غيره مفزع وصعد اليهم قاضى جبلة يوم السبت غدوه وكان ذلك الفتح صلحا أشبه عنوه وطلع السنجق المنصور وانجلت الظلمة وتجلى النور وأشرق الفلق وزهق الديجور وبدا الفجر وباد الفجور وسرت القلوب وأقبل السرور وسلموا القلاع بما فيها من عدة وذخيره وأسلحة وخيل ودواب كثيره وأمنوا على أنفسهم وأموالهم وانصرفوا بنسائهم ورجالهم وذريتهم وأطفالهم وخفوا من أثقالهم ودخل جماعة منهم فى عقد الذمه وتمسكوا بحبل العصمه وانتقل الباقون الى أنطاكيه وأيقنوا انهم وجدوا بعد رسوم السلامة العافية العافيه ورتب السلطان جماعة من خواص مماليكه وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها التوحيد مصونا من الاشراك وتشريكه ثم ولى

بها سنقر الجلالاتى مملوكه وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه فتولى الرعية
كافة بالرعاية والكفايه وانتهى الى الغاية فى نهى أولى الغوايه وأقام جاليا
للغيابه عالى الرأى والرايه وركب السلطان الى البلاد وطافه وهز الى احسانه
أعطافه وأدنى الى عدله قطافه ووفر ألطافه وأصفى نطافه وأمنه بعد
ما أخافه ورأيتها بلدة واسعة الافنيه جامعة الابنيه متناسبة المعانى
متناسقة المغانى قريبة المجانى رحيبة الموانى فى كل دار بستان وفى كل قطر
بنيان وقد أبى الله أن يكون للكفرة منها جنان أمكنتها مخرمه وأروقتها
مرخمه وعقودها محكمه ومعالمها معلمه ودعائمها منتظمه ومبانيها
مهندسة ومهندمه وأماكنها ممكنه ومحاسنها مبينه ومراتبها معينه
وسقوفها عاليه وقطوفها دانيه وأسواقها فضيه وآفاقها مضيه ومطالعها
مشرقه ومرابعها مونقه وأرجاؤها فسيحه واهواؤها صحيحه لكن العسكر
شعث عمارتها وأذهب نضارتها وأزعج ساكنيها وأخرج قاطنيها وملك
دور المشركين للموحدين وطهرها من رجس الكفر وأظهر الدين ورفع من
عدة من الامراء الرخام على الرخام ونقلوا منه احمالا الى منازلهم بالشام فشوهوا
وجوه الاماكن ومحوا سنا المحاسن وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمه نفيسه
قديمه باجزاء الاجزاع مرصعه وبألوان الرخام مجزعه وأجناس تصاويرها
متنوعه وأصول تماثيلها متفرعه وهى متوازية الزوايا متوازنة البنايا
قد تخيرت بها أشباح الاشباه وصورت فيها أمواج الامواه وزينت لاخوان
الشيطان وعينت لعبدة الصلبان ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها وشوهوا
اعلامها وحسروا لثامها وكسروا أجرامها وأهدوا الاسى لهدم أساسها
وأفاضوا عليها الباس بابلاسها وحكموا بعد الغنى بافلاسها وافتقرت وأقفرت
وخربت وتربت ثم لما طابت النفوس وتجلى عن البلد بقضه البوس عاد الى
هذه الكنيسة بالامان القسوس وهى متشوهة متشعثه متمسكة باركانها
وقواعدها متشبثه ولقد كثر أسفى على تلك العمارات كيف زالت وعلى تلك
الحالات الحاليات كيف حالت ولكنما زاد سرورى بانها عادت للاسلام

مرابع ولسروحه مراتع ولجموعه مجامع ولشموسه مطالع فلو نقيت بحليتها وحالتها بعدما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت وكما أفاقت فاقت وشأت البلاد اذا شاءت لكنها ساءت لما أساءت ثم أعادها الاسلام الى أحسن حاله وجلا لها فى السناء أسنى جلاله ورغب فى اعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والارمن حبا للوطن وسكونا الى السكن فآض مأمول الجنى مأهول الجناب وعاد بتجار البحار معمور الرحاب وتبدل بالابدال الاخيار والارباب الابرار من بعد الكفار الفجار والاشرار أهل النار وكانت شوانى صقليه قد قابلت فى البحر اللاذقيه طمعا فى امتناعها وطلبا لذيادها عنها ودفاعها فلما خابت خبت نارها وباخ أوارها وقصدت لجهلها أخذ من كب من يخرج من أهلها لكونهم شغلوا عن صونها ببذلها فامتنعوا عن الانتقال وأمنوا بعقد الذمة على النفس والمال وكان السلطان يوم الرحيل من اللاذقيه راكبا عند مينائها وقد حصل من ترتيب العمارة مناها فطلب مقدم تلك الشوانى أمانه ليصعد ويشاهد سلطانه فامنه حتى صعد ولو أسلم ذلك الشقى لقال سعد ولما حضر الكافر عفر وكفر وتروى ساعة وتفكر وأحضرنا الترجمان وأدى عنه البيان وقال أنت سلطان عظيم وملك كريم وملك رحيم وقد شاع عدلك وذاع فضلك وقهر سلطانك وظهر احسانك فلو مننت على هذه الطائفة الخائفة فأمنت وأفضلت عليها وأحسنت لملكت قيادها اذا أعدت بلادها وصاروا لك عبيدا وأطاعوك قريبا وبعيدا وان أبيت غير الغيرة والاباء ودمت على ارهاق الدهماء واهراق الدماء جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق وأفاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الآفاق وثار الروم لروم الثار وخرج الفرنج أفرار الاستنفار وسار ملوك ذوى الاقاليم من سائر الممالك والاقاليم وأتى الاتى ولا يقاوم القدر المأتى وهؤلاء أهون منهم فاتركهم واصفح عنهم فقال السلطان قد أمرنا الله بتمهيد الارض ونحن قائمون فى طاعته بالفرض وعلينا الاجتهاد فى الجهاد وامتثال أمره فيه بالانقياد وهو الذى يقدرنا على فتح البلاد ولا تكترث الآساد بكثرة النقاد ولو اجتمع أهل الارض ذات الطول والعرض لتوكلنا على الله

اللقاء ولم نبال باعداد الاعداء فلما سمع مافهمه من نجحه ذهب بعد أن صلب على وجهه وركب بكر به وكر بركبه ولم يغن خطابه عن خطبه

((ذكر فتح حصن صهيون))

ورحلنا ظهر يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى والهدى فى نصره بين انصاره يتهادى وقد تيقنا أن الفتح لا يتمادى وان العزم عن الفداء بالمهج فى سبيل الله لا يتفادى وأخذنا على سمت صهيون وهو حصن يفوق الحصون ويفوت العيون وطلبناه كما يطلب الدائن المديون ونحن للكفر مبيتون وللاسلام محيون وكان الطريق اليه فى أودية وشعاب ومنافذ صعاب ومضايق غير رحاب وأوعاث وأوعار وأنجاد وأغوار وقطعنا الطريق فى يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين ورزقنا الله التأييد والتمكين وهى قلعة على ذروة جبل فى مجمع واديين بها محيطين من جانبين والجانب الجبلى قد قطع بخندق عميق وسور وثيق والقلعة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب ممثلة بذئاب سغاب وأسد غضاب وأحاط العسكر بها يوم الاربعاء من نواحيها الاربع وهى ممتنعة علينا بالركن الامنع والسمو الامتع ونقل السلطان خيمته الى جانب الجبل بكرة اليوم وشرع فى محاصرة القوم وقامت أسواق الاقواس للمنون فى مغالاة السوم وتوفرت سهام السهام من المقل وتبدت بنات الكنائن من الدم القانى حمر الحلل وأسقطت حوامل المنجنيقات أجنة الصخور وكشفت صدور الكنانيات أكنة الصدور وظهر سر السراء وكثر مراء الرماء ودخرد أماء الدماء وطارت الجارات وجرت الطيارات ودارت حباء الحمام على أولئك واستجدت ملوكنا الملائك وأدامت اليهم المجانيق والجروح والقسى الرمى المتدارك وأقام الملك الظاهر غازى صاحب حلب منجنيقين ونهج بهما من جانب الوادى الى ردى الاعادى طريقين وكان له فى فتح هذه القلعة الجد العالى والجد الوالى والعزم الماضى والحزم القاضى والسعى الناجح والرأى الراجح والبأس البالغ والسطو

...... جاه وقد استصعب

الكماة الحماة ومعه الرجال الحلبيه والمنجنيقيه والجرخيه والجاندارية والخراسانيه فاظهر على صهيون اليد البيضاء وكسب الذكر والثناء وأنار فى فضاء الفضائل وأضاء ودام القتال على المكان من جانبه ومن جانب السلطان والملك الظاهر فى تظاهر ملكه وتضافر سلكه وريعان اقباله وعنفوان جلاله وشباب رهان مجاراته وشبا برهان مباراته وابراق عوده واشراق سعوده وغرة عزته وميعة منعته وصدر تصدره وشرخ تأمره وتشمره وقد وصل فى أول نشاطه ونشوء اغتباطه وقناء فتوته ورواء ربته وارتقاء ارتفاعه وايفاع يفاعه وترعرع سنه وتعرعر كنه وتسامى سيادته وتراقى سعادته وأجد لعز العزم الجد وأعد لرى الرأى العد واستلذ فى سبيل الله نصبه ورفع المنجنيق ونصبه وجعل لرجاله نوبا ولاحواله رتبا وألقم أفواه كفاته حجرا وأجرى فى الحق من الجارات الجاريات من منابعه نهرا ورجم الحصن الزانى رجم المحصن وأحسن الى الاسلام وأساء الى الكفر فلله در المسىء المحسن وما زالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمى والحنايا بسهام المنايا تصمى حتى قتلت مقاتلة الحصن وهان عاذب فيه من الوهن وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ثانى جمادى الآخره وطما بحر العسكر بأمواجه الزاخره وازدحم الناس فى الزحف كانهم فى الحشر بالساهره وهاج الشباب وماج العباب وتسابق ذوو الجرأة والقوه وتلاحق ذوو الحمية والنخوه وكان فى قرنة الخندق عند خرقه الى الوادى موضع لم يكمل تعميقه ولم يتم توثيقه فتطرقوا من تلك القرنه الى القنه وتسوروا السور وتسلقوا وتقلعوا الى القلعه وتعلقوا وتملكوا الذروه وأمسكوا العروه واستولى على أهلها الرعب واستشرى بهم الكرب فتعادوا الى القله وتفادوا من الخوف لا من القله وملكت عليهم ثلاثة أسوار بما فيها من متاع وشوار ونعم وأبقار وصاحوا الامان وبذلوا الاذعان ونادوا مكنونا من السلامة وتسلموا المكان فأمنوا على المال والنفس حتى قررنا عليهم مثل قطيعة القدس وأغلقت دونهم الابواب وسير اليهم النواب وما استقر خروجهم حتى استخرج منهم القرار وجبى الدرهم والدينار وعم الكبار والصغار

الصغار وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ما حواه من ذخائره وأمواله الى الامير ناصر الدين منكورس ابن خمارتكين أسد العرين وأمير المجاهدين المقدام الهمام والمطعان المطعام فألقى الثغر سداده بسداده وأمرع به مراد مراده

(ذكر فتح الحصون المذكورة والرحيل)

وتسلم يوم السبت قلعة العيذو ويوم الاحد قلعة الجماهريين ويوم الاثنين حصن بلاطنس وذاب الى كل حصن من تسلمه وسلكه فى سلك الفتوح ونظمه

(ذكر فتح حصنى بكاس والشغر)

وسار السلطان ثانى يوم فتح صهيون على سمت القرشيه ومشيئة الله جارية على موافقة ماله من المشيئة ونزل على العاصى فى طاعة الله والنصر قد نزل والكفر قد انخذل يوم الثلاثاء سادس الشهر وبحور السوابغ فى غدران السوابح مائجة على ذلك النهر وحكم السلطان فى القهر ماض باذن الله على الدهر وتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور وشكا الشرك نكاية حد بأسنا المشكور وحول خيمة خفيفة الى الجبل لحصار قلعة الشغر وهى قلعة مخنة من أعلى القلال على هضبة منقطعة عالية مرتفعة ومن نواحيها واد خاف من العمق غير باد فى أعماق ووهاد وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادى خندقها وأخذ من العوادى مونقها فما اليها طريق ولا عليها طروق ولا فيها للطمع علوق ولا للسهم اليها مروق ولا للزحف فيها مطمع ولا للذر نحوها مطلع ولا للطير فى مراحها وكر ولا للمكر فى افتتاحها مكر ولا للوهم فى توقلها مجال ولا للفهم من تصورها مثال ولا لها عن تحفل بها احتفال وما عليها للنازلين عليها اقتتال ولا نزال ولا يتغير لها مع تغير الاحوال حال وصعب شغل الشغر واشتغل فكر الكفر ولم ير السلطان طريقا غير الرمى من المنجنيق لعله ينال جمعها بالتفريق وداومها بالحجارات أياما ولكم سدد بها مرمى ومراما فلم نعبأ بأعبائها فانها ترامت عن رمائها وأبت الانباء بها وثبتت على اباءتها واعيا اعضال دائها واستفعال بلائها وخام الرجاء بالارجاء عن أرجائها ولولم يضجر حاميها الضجر

رامیها وسئم باغیها التسامیها لکنه وهی بجلده وهوی خلده وخار قلبه وحار لبه وخاف من الاقامه وخاب من السلامه وارتاح الی الراحه وسما الی السماحه وعاج الی الانزعاج وعاد لداء خوفه فی الاستئمان بطلب العلاج ودعا الی الدعه والخروج من الضیق الی السعه فبینا نحن فی تروة فکر وتخیر للرأی وتدبر ونقول هذا حصر یشتد وأمر یمتد وعمل یصعب وأمل یتعب ومعقل لا یختل ومعقد لا یحتل ومقصد لا یدرك ومورد لا یملك ومکان لا امکان لقصه وربما یطول الزمان فی تطلب نجحه اذ خرج من الحصن من یضرع فی الامان ویمتری ضرع الامن فشکرنا الله علی تسهیل المتوعر وتیسیر المتعسر وتحصیل المتعذر وتلقیح الرجاء من الیاس وتنقیح مناط حکم الصحة عند اضطراب علة القیاس وکان ذلك ثالث عشر الشهر یوم الثلاثاء وسألوا فی مهلة ثلاثة أیام والارجاء لیخبروا صاحب انطاکیة ویستأذنوه ویبلوا عنده العذر ویخرجوا من الحصن ویسلموه فأصبحنا یوم الجمعة وصباح الجمع مسفر وجناب الشرك مقفر والثغر شاغر والکفر صاغر وفم القهر منا لهم فاغر والاسلام قد ثلم ثغرمن هوله متاغر والحصن البکر مفترع والدین المتأصل بشعب النصر متفرع وطلع العلم الی ذلك العلم الطالع وانتقم الهدی الضلیع من الضلال الظالع وکانما عذبات تلك الرایة مقاول الداعین وکأنما أبراج تلك القلعة مسامع الواعین وعاد الحصن آهلا بأهل الاحصان وصافح بأیدی الاید ایمان ذوی الایمان فابتسم عن النصر ثغر الثغر وفرغ القلب من شغل الشغر وسلم هو وحصن بکاس الی غرس الدین قلیج الساقی عدوه الموت بکاس الباس وانتقل السلطان یوم السبت الی مخیمه والاقبال جاثم فی مجثمه وسری ولده الملك الظاهر الی قلعة سرمانیه وأرهق فیها الفجرة الجانیه واستطلق منها البررة العانیه وقطف مجانیها الدانیه واخلی مغانیها الغانیه وماقطع قرارها حتی قررعلیها قطیعه وکلفها ما کانت له من المال مستطیعه ولم تزل عاصیة بطوعها فصارت کرها مطیعه ثم خربها حتی خربها عالیها وعطل حالیها وانجلی ثاویها وانتأی جالیها وبقیت دمنة داثره ودمیة عاثره ورسما عافیا ورقما

خافيا وربعا باليا وصقعا خاليا وعادت دار ادارسه مستوحشة بعد أن كانت آنسه وكان فتحها في يوم الجمعة الثالث والعشرين فأخلى الله من السباع الضوارى ذلك العرين ومن نوادر الطاف الله تيسير هذه الفتوحات الخمسة المتتابعه فى أيام الجمع الخمس المتواليه بما فيها النصر أهل الجمعة بذل أهل السبت أهل الاحد وأصبح لتوحيد على التثليث قاهر الايد ظاهر اليد

﴿ذكر فتح حصن برزيه﴾

وسرنا الى قلعة برزيه وسرنا سار ودر الظفر لنا دار وهى أحصن القلاع وافرعها وأحسن التلاع وأرفعها وأسمق الروابى وأسماها واسنم الروامخ وأسناها وكان السلطان سبق اليها وأشرف عليها ثم استدعى الثقل واستحضر وجمع بالفضاء تحتها العسكر وذلك رابع عشرى الشهر يوم السبت وقد تهيأت فى العدو أسباب الكبوة والكبت ثم تجرد يوم الاحد فى المدد والعدد ورقى الى الجبل مع ابطاله النبل فرأيناها قلعة تسامى الذرى لا تكاد من سموها ترى وهى على سن من الجبل عال متراميه فى السماء ارتفاعا وقيل قدر علوّ قلته فكان خمسمائة ونيفا وسبعين ذراعا فاحدقنا بها وبالجبل وقطعنا عنها متصلات السبل ونصبنا عليها المجانيق فى ذلك السفح فلم تصافحها صفائحها وأبدت لنا صفحة الصفح فقد بعد مرام مرماها وحارت الاوهام فيها وقلنا ما أعلاها وما أسماها وتجاوزت عنها الحجاره فلها من اجازتها بها الاجاره فما بلغت الى القلعة قلائعها ولا اطلعت الى القلعة طلائعها هذا والنجم بلامع بلامعها وتقارن طوالعه طوالعها فكان الصخور سلم نحورها فان سورتها تنكسر دون الوصول الى سورها ولما رأى السلطان انه لا وصول الى نيقها بالمنجنيق وان الاشتغال به يطيل زمان التعويق مال الى الزحف ولاحف جوعه فى ذلك اللحف وذلك فى السابع والعشرين من الشهر يوم الثلاثاء فقسم الناس ثلاثة أقسام على السواء وجعل النوبة الاولى لعماد الدين صاحب سنجار الليث الهصار والغيث المدرار والبحر الزخار والسيد الجحاجح والملك العادل فى صحابه الصباح كفاة الكفاح وعفاة الصفاح ونفاة الهام بثبات الاقدام فى الاقدام وشفاة

الاوام بعلة الانتقام من الاقوام واساة ذوى الاساءة باحسان الحسام وكساة
عرى العراء اردية القتام ورقاة ارقم اللهاذم وسقاة حوائم الصوارم والمزاق
فى حومة الردى رداء المآزق والسباق فى حلبة الهدى بهوادى السوابق من
كل شارب ماء الوريد بشفاه الشفار وضارب هام المريد بشبا الشبار ولاسع
بحمة الحمام فى الاسل العاسل عاسل ولابس لباس الباس كالاسد الباسر باسل
ومعتقد للدين لا رديني معتقل ومعتد على العدو بعادى معتدل ومجتاب
لبوس البوس على الموت العبوس مجتاز ومجتنب لحب المنون لرهون نفائس
النفوس محتاز فانقضوا على الهضب وعضوا على العضب ودام الصفا بهده
والصدى بقهقهه والزاحف يتقدم ويتقهقر والحافر يختفى ويظهر والرجال
تتعالى والجبال تتوالى والمصاعد ترقى والمصاعب تلقى والمضايق تولج
والبوائق تخرج والآكام تفرع والرجام تقرع وللصخور ترديد والجلاميد
تميد ومازالت هذه النوبة تنازل وتقاتل وتناضل وتطاول وترمى وترمى وتدمى
وتدمى وتصمى وتردوترد وتصدو تصد وتصدم وتصادم وتقدم
وتحجم وتصدع وتصدع وتحمل وترجع وتذكو وتنطفى وتبدو وتختفى حتى
كلت وملت والحت وتحلت وكانت غلبت لولا انها الغبت وهمت لولا انها
سئمت وانفت هذه النوبة خاصة لاهل الحصن خاصة فانهم تولوا باجمعهم
القتال ولم يقصد والاتناوب الاستبدال ولما ظهرت فى النوبة النبوة وكاد
جوادها تناله الكبوة تقدم السلطان بنفسه فى النوبة الثانية والسطوة
الدانية والعزمة الناوبة غير الوانية وخف فى الثقال من الرجال وزحف الى
الجبل بالجبال وتضافروا وتطافروا فى الاوعار كالاوعال وجروا كالسيول فى تلك
المسائل وجروا ذيول السوابغ على تلك الهواجل وترقوا فى ذراها وقروا
على قراها وتلبسوا بجوانبها وتوجوا من مناعبها وتدرجوا فى مدارجها
وعرجوا فى معارجها وخرجوا فى مداخلها ودخلوا فى مخارجها وصارت
الجروخ تجوزهم والجروح لاتحوزهم والسهام تعبرهم والآكام تسترهم
والنخوة تحميهم والحمية تحميهم وقد نشط السلطان لتنشيطهم وتثبيطهم

والتحذير من تورطهم وتفريطهم فمن انقبض بسطه ومن أعرض ضبطه ومن أقبل أغبطه ومن أدبر أسخطه ومن تقدم قرظه ومن تقاعس أحفظه ومن تناعس أيقظه وكلما شاهدوا السلطان يشاهدهم تساطوا وكلما اغتبطوا بما فرعوه من تلك الفوارع ارتبطوا فمنهم من تمكن من الطلوع ومنهم من تمكن للولوع وتقلبوا فى تلك المخارم كالقلوب بين الضلوع وعرا أهل الحصن العناء والعياء وعمهم البلاء وأدركهم الشقاء فانهم مازالوا يقاتلون يومهم من غير مناوبة جميعا فمنهم من صد صديعا ومنهم من صار صريعا وظهر فيهم الفتور وبدا منهم القصور وجاءت النوبة الثالثة تاليه وأقدمت أمدادها متواليه متعاليه وعادت النوبة الاولى لنشاطها وزادت فى انبساطها فبلغوا وغلبوا والتهموا والتهبوا وتعلقوا بالسور وتسلقوا كالنسور وطلعت القلعه وتلعت الطلعه واقتضت العذره واقتضيت النصره وأعان القدر فقدر الاعوان وتبعت بالفتح البكر الحرب العوان وان أهل القلعه لما أيقنوا انهم ملكوا طلبوا الامان حتى لا يهلكوا فلما سمع أصحابنا بالامان صياحهم وعرفوا للضراعة التياعهم والتياحهم كفوا عنهم انتظارا لما يأمرهم به السلطان واشفاقا من سبى من يشمله الامان وكان جماعة من دهاة الخواص عارفين بطرق الاقتناص فاظهروا ان السلطان آمن أهل القلعه وانه يدافع عنهم فى هذه الدفعه وجمعوهم فى مواضع وكنائس وأحرزوا النفوس والنفائس وعاد عنهم من حضرهم على ظن ان السلطان آمنهم وحظرهم وبقى أولئك الافراد بهم متفردين ولتجريدهم للسبى متجردين وصارما بالقلعة ومن فيها لهم كسبا وسبيا ومارأوا الحق من شاركهم فى السبى رعيا وحرموا ما ارتفقوا به وحرموا الرفقاء وحازوا دون الغانمين النهب والسباء وملك واحد مائه وحاز الرى وملأ عنه رفقه ظمئه ولما تسنى ذلك الفتح وتهنأ وتسهل ذلك الصعب وتهيأ عاد السلطان الى خيامه وعادت الايام بايامه وكانت صاحبة حصن برزيه أخت زوجة الابرنس صاحب انطاكيه وقد سبيت وخبئت فما زال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها وكانوا بعد هتك سترها ستروها فمن عليها بالاعتاق من

الارفاق وحل عنها وعن زوجها قيد الوثاق وأحضر أيضا ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم وأدخلهم معهم فى الاطلاق وجمع شملهم بعد الشتات ووصل حبلهم بعد البتات وشبعهم وقد تصدعوا وأشبعهم وقد تجوعوا وحظرهم وقد استحلوا وكثرهم وقد استقلوا وحرسهم وقد استبيحوا ومنعهم وقد استميحوا وأحياهم بعد ما هلكوا وعصمهم بعد ما هتكوا وحواهم وأغناهم وقد افترقوا وافتقروا وجبرهم ونعشهم وقد انكسروا وعثروا وسير معهم الى انطاكية من أوفدهم على سننها فسرت باخذها وأعلنت بعتقها من سر مقتها واذاعت من مضمر بغضها اعظم حبها وجاءها الفرح فى غمها والفرج فى كربها وتشكت لاخذ بلدها وتشكرت لترك أختها وولدها وأنعم السلطان بهذا الحصن على عز الدين ابن المقدم الكريم المكرم والمقدام المقدم والعظيم المعظم والماجد الممجد ابراهيم بن محمد فان هذه القلعة الثغر افامية الجارية فى اقطاعه متاخمه وهى لها فى السلم مقاسمه وفى الحرب مزاحمه وسرت هذه البشرى وسارت ودرت هذه النعمى ودارت وطارت كتب البشائر وسرحت على جناح الطائر وفيما كتبت ان هذه البشرى بما أجده الله من الفتح العزيز والنصر الوجيز بفتح حصن برزيه الذى برزت له الارض فى وشى أثوابها وتفتحت له السماء لتنزل الملائكة من أبوابها بل سفرت به عرائس الايام فى حلى أيامنها وأشرقت منه أقمار الليالى فى أنوار محاسنها وهذا الحصن لا يمكن وصف ما (هو) عليه من الحصانه وكان بحجره فى حجر حضن للحضانه وقد عرف ما فتحناه من البلاد والحصون وسلبنا أهل الكفر بها من السلامة والسكون وفتحنا كل مرتج لم يكن فتحه مرتجى ولم يجد من حصل فى أسر الدهر به مخرجا حتى أتت أيامنا ودانى فيه مرامنا بخاء عصرنا وبجاه أمرنا ووصل الينا ما هو فى الازل ذخرنا وكمل بهذه الفتوحات فخرنا وذلك انا فتحنا من حدود طرابلس الى حد انطاكيه وسقينا بماء الحديد الجارى فى أنهار دم أهل النار مغارس الهدى الزاكيه وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكه وعيون العدو الباكيه وهذه الحصون التى فتحناها والمعاقل التى استبحناها لو وكلنا الله الى اجتهادنا فى فتح

أحدها لتعذر ولو أنجدت عساكر الدنيا عددها لكن الله سهل ويسر وفتح ونصر وانزل الظفر وان حصن برزيه لم يكن عليه قتال ولا للوهم فيه مجال ولا منصب عليه لمنجنيق ولا مسلك اليه لسالك طريق وحضرنا لحصره متوكلين على الله فى أمره غير طامعين فى فتحه ولا راجين لنجحه فانقاد جماحه وانخفض جناحه وساء صباحه وكل سلاحه وتوقل الرجال فى ذروته توقل النجوم فى الافلاك ونصر الله أهل التوحيد على أهل الاشراك وفتحناه بالسيف عنوه ودجا يوم المثلث عليه يوم الثلاثاء ضحوه فانا المانو كلنا على الله فى منازلته واستعنا به فى مقاتلته نظر الله الى الثبات وأعان ذوى العزائم والثبات فتعلقوا فى الجبل وتسلقوا الى القلل وسعوا الى الاجل فى طلب اسنى الامل فكان كما قال الله تعالى وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر حتى من الله بالظفر وأصفى الورد والصدر من الكدر وقد بقيت انطاكية وما لها بقاء ولا لها فى الاعتصام رجاء وقد نقصنا أطرافها واستبعنا اكنافها وشفهنا اطافها وعضدنا من رؤس أهلها بحدود الصوارم قطافها ولم يبق من معاقلها الا القصير ودربساك وبغراس وقد تقدم اليها الفاتحان الرعب والباس

((ذكر فتح حصن دربساك))

ورحل السلطان وقد نجحت آماله ورجحت أعماله وجل اقباله واقبل جلاله وعبر عند شقيف دركوش الى شرقى العاصى وقد دانت ودنت له المقاصد العواصى القواصى وأقام أياما على جسر الحديد حديد الجاره شديد الاستظهار بما ظهر للمؤمنين من الربح وللمشركين من الخساره ثم قصدنا دربساك وجددنا بتأييد الله فى حصره الاستمساك ووجدناه حصنا من تفع الذرى ممتنع الذرا قد جاوز الجوزاء وناجت أرضه السماء وكان عش الداوية بل عرينهم وطالما أطال فى التعدى أيديهم وعرانينهم وكانوا قد نزلوا منذ أنزلناهم من ظهور الحصن بطون الحصون وركنوا بسكنى هذا المعقل الى السكون فلما أشرفنا عليهم أشرفوا على المنون ونزلنا عليه يوم الجمعة ثامن رجب وقلب الكفر قد وجب ووفرت المنجنيقات سهامهم من سهامها وصوبت اليهم مسددات مراميها

ومرامها ورامیناهم بها لیلا ونهارا وأرسلنا الیهم أمثال قلوبهم ووجوههم أحجارا وكدنا الا نذر في أرضها التي هي في السماء من الكافرين ديارا وتركنا ناسه بالحجارة صرعى وأسمعنا من نحورهم ووجوههم بيض النصال في حمر المرعى وأصبحنا يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب وقد شارف الفرنج الشجا والشجب ووجه نجاتهم قد احتجب وقد وقع بالنقب برج من السور الخارج وظهر فيه عروج للدارج ودروج للعارج فطلبوا على مراجعة انطاكية الامان وان ينزلوا ويتركوا لكل ما فيه المكان فأجيبوا الى ذلك على قطيعه وردوا ما كان للاسلام معهم من وديعه وتسلم الحصن بما فيه ثاني عشري الشهر يوم الجمعه وأصحب بهذا الفتح جماح الحصون الممتنعه

((ذكر فتح حصن بغراس))

وتوجهنا بكرة يوم السبت الى بغراس وقد ضايقنا الاعداء وضيقنا منهم وعليهم النفوس والانفاس وهي قلعة من انطاكية قريبه وانها في الشدائد لدعائها مجيبه ورأيناها راسخة على رأس راس شامخة على عاص عاس أرضها في السماء وجوازها على الجوزاء متوغلة في الشعاب متوقلة على الهضاب منتصبة في السحاب مضببة بالضباب مربة على الرباب متعلقة بالنسرين متسلقة الى الفرقدين محلقة الى النسرين ولا مطمع نحوها لطالع ولا مطلع فيها لطامع ولا مطمح للامح ولا ملمح لطامح وهي الداوية وجار ضباعها وغاب سباعها ودارد وائرها وغار مغاورها وغيل غوائلها ومنزل نوازلها وجعبة نبالها وهضبة رئالها ومذب ذئابها ومدب ذبابها وكوارة زنابيرها ومغارة خنازيرها ومرقب صقورها ومرقد نسورها ومكنس وحوشها ومعرس جيوشها فخيمنا بقربها في المرج وقد أثارت من مشرعات أسنتنا في ظلماء نقع خيلنا مشعلات السرج وتقدم من العسكر جمع كثير وجم غفير وخيم بين انطاكية وبينها ووكل بها ناظر يقظته وأرقد عينها فأقام على سبيل البرك ودخل في حفظ جانبها في الدرك وصار يركب كل يوم ويقف تجاه انطاكية صفا ويسومها من الغارات عسفا وليس بينه وبينها الا النهر ومقابل رجسها منه

الظهر وصعد السلطان في جريدة عسكره الى الجبل ووقف بازاء الحصن وقوف المشتاق على الطلل فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته وصوب لقم الحجر الى لهاته ووافق آمريه بالاذعان على خلاف نهاته وقلنا للمقيم به خذ الامان وهاته ومازالت الحجارات تناوبه وصدى الصفا بالنكاية يجاوبه والصخور فيه تتواقع والبلايا باليه تتتابع فما شعرنا الا بانفتاح بابه والجاء جاح أصحابنا عليه جماحه الى أصحابه وخرج مقدم الداوية يستأذن في الحضور ويسأل الامن من المحذور والحل من المحظور ويقول انما اقتنينا بغراس بغراس القنا وبنينا على حصونها من القنطاريات أحصن البنا والمعاقل لا يحميها الا معتقلوها والبلاد لا يحفظها الا أهلوها ومافي هذا الحصن الا مقدمان ومالنا بمقاومتكم يدان وعاد الى أصحابه من السلطان بالامان وتسلمت القلعة كما تسلمت أختها دربساك بالامس وسلمها الداوية طائعين فعجبنا من انقياد أولئك الشمس وأباحوها لنا وكانوا يغارون عليها من طلوع الشمس وأنار في مطلعها سنا السنجق المنصور وآذن المتطاول فيهما من تطاولنا بالقصور وذلك في ثاني شعبان وسر الصرفيه شاع وبان وسلم السلطان الحصنين دربساك وبغراس الى علم الدين سليمان وكان صاحب حصن عزاز وقد حاز الغنى به وفاز وما كان في الامراء الاكابر من لا يدعي سواه الاعواز فالزمه بهما ليعتنى بحفظهما وحضه من عصمتهما على حظهما فتسلمهما بذخائرهما واطلع من النفائس على مستودعات ضمائرهما وكانت حينئذ انطاكية قد أسعر غلتها غلاء سعر الغله وقل ساكنوها لما كانوا فيه من القله والغرارة تساوي اثني عشر دينارا والقوم قد شارفوا فيها تبارا وبوارا ووجدنا في بغراس خاصة من الغله سوى مافيها من تفصيل الاقوات والجمله فكان تقدير اثني عشر ألف غراره فحصل سليمان من منبع هذا الملاء على غرارة من غراره فقلت كأني به وقد نقل هذه الغلة الى انطاكية وباعها وأعرض عن مناعب الآخرة وحوى من الدنيا متاعها وأذهب الغلة بذهب يغله ويتحلى من هذا السحت ويستحله ثم يستغني من حفظ الثغر ويشتبر بتخريبه ويقع له فيه من الظن ما كان بعد سنين فكشف عنه علم تجربيه

(ذكر عقد الهدنة مع انطاكية)

فلما فرغ السلطان من شغل الحصون وظفر من فتوحها بالسر المصون عول على قصد انطاكية فانها كانت مريضة على شفا ورسم قوتها قد عفا وخلق ثيابها قد انتفى والدهر قد انتقم منها واشتفى ووجه الفلاح عن أهلها قد اختفى فلو صدقها وقصدها لخاص دماءها وحصدها وكان الابرنس صاحبها قد عجل بارسال أخي زوجته يسأل في سلم تعود ببقاء بهجته وسلامة مهجته وعقد الهدنة على بلده وأمن على ما في يده وذلك لثمانية أشهر من تشرين الى آخر أيار ووافق من السلطان الاختيار لكون انقضاء الهدنة قبل ادراك الغلة وأوان حصادها فلا يقعد والفرنج عن تحصيلها ونقلها واعدادها ولم يكن له رغبة في اتمام هذا الصلح لكمال الغبطة لنا في الحرب ووفور الربح لكن العسكر الغريب مل الاقامة وأبدى السآمة وأراد السلم والسلامة وقيل بهذه المدة من الهدنة لا تزداد انطاكية قوة ولا تستجد جدة ولا ترجو العاهدة نجدة ونحن نضرب للعود اليها مع انقضاء عدتها عده وأما حصونها فقد حصلنا على عملها وقتلنا نخلها وأما هي فنعمل فيها بقول الله تعالى وان جنحوا للسلم فاجنح لها وشرط على صاحب انطاكية اطلاق من في الاسر من المسلمين واستوفى رسولها على عقد الهدنة اليمين وسار رسولنا معه شمس الدولة بن منقذ للاسارى منقذا وللاوامر منفذا وعلى المقاصد مستحوذا وسار السلطان ثالث شعبان على سمت حلب والاسلام قد غلب وفاز من الفتوح بما طلب واستغنى بما جمعه من السبي والغنيمة وسلب وخلب

(ذكر وداع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وعساكر البلاد وعود السلطان الى دمشق بنجح المراد)

ولما رحل من بغراس وقف لعماد الدين ودعاه لوداعه وشيعه بكرامة كرام أتباعه وخصه بعد ما سيره من الخيل والخير بخلع خواصه وأتباعه وأناله منه حسن اصطفائه وحسنى اصطناعه ولم ينفصل منهم الا من وصل بصلة وخلعة

بجمله وحرمة مكمله ووعد جميل يرغب في العود وجود جزيل مذهب الجود
وذلك سوى ما غنموه من كسب وكسبوه من غنم واستطلقوه من رسم واستجزلوه
من قسم وملكوه من رق سبي وأدركوه من حق سعي وأجدوه من غرض
وأدوه من مفترض وأحيوه من سنة النصر وأماتوه من سنة الكفر
واستضافوه من فتح واستفاضوا به من نجح وسار السلطان في عسكره حامد الله
في مورده ومصدره وارتاح الى العبور على ارتاح وامتار لها اليمن بانقيادها
وامتاح ووصل الى حلب وحلب احتفالها بوصوله حافل والملك بها للاهتزاز
بقدومه في ملابس البهاء رافل ودخلناها وقد خرج كل من بها للتلقي مستبشرين
بالاقبال المتضاعف المترقي وشاهدنا من النظارة عيونا للجمال من ناظره ووجوها
ناضره وقلوبا حاضره وألسنا شاكره وأيديا في بسطها الى الله للابتهال بالدعاء
متظاهره واقتضت حركتنا الى الشهباء لما كنهم لسكون الدهماء وأقام بقلعتها
أياما يسيره وألقى ولده الملك الظاهر أسر احسانا وأحسن سيره وقام به وبالعسكر
مدة المقام وانتسقت الامور بأوامره على النظام ولم يرحل الا وقد خص عوامنا
وخواصنا بالانعام الخاص والعام وأبان عن كل منقبه وأعان بكل موهبه فما
رآه والده مذ حل بحلب الا في أجل حليه وأكمل حاله وأجلى بهجه وأبهى جلاله
وقد أجد لعينه ولنفسه قرة وقرارا وأعد لعزمه ولحزمه استنصارا واستبصارا
ثم انفصلنا عن حلب منقطعين الى مواصلته بالدعاء قاطعين طرقنا المتصلة بدليلي
الشكر والثناء وتنكبنا طريق المعره بسلوك طريق المعره وأوفيناها بالمبرة
الموفية المبره وتيمن السلطان بزيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقي أبي زكريا
المغربي وهو مقيم في مسجده عند قبر عمر بن عبد العزيز ومشهده وقصده
السلطان على فراسخ ولقي منه في الحلم والوقار الطود الراسخ واهتدى بسجاياه
واقتدى بوصاياه ووصلنا الى حماة وبتنا بها ليلة واحده ولم نر عينها لما شملها
من الرعاية جاحده فان الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب قد
كشف عنها بالنية الكروب وملأ بالقبول من أهلها القلوب وأعاد لها بالعمارة
العمرية عمرا جديدا ومد عليها من مهابته ومحبته ظلا مديدا وكانت قلعة حماة

لا تعد فى القلاع المعدودة المحميه ولا تذكر مع المعاقل المرعية المرضيه وهى ذات تل منبطح غير مرتفع ولا متسنح فلما تولاها تقى الدين قطع من التل ما كان متواطيا وأتلع من القلعة جيدا عاطيا وعمق خندقها فى الصخر وحصنها على الدهر وبنى فيها الدور المرخمه والاروقة المهندمه وحصنها وأعلاها وحسنها وحلاها وزينها بكل زينه وأعادها ذات قلعة حصينه فاضلة فى الشام كل مدينه فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعه وسر بما رأى لها من الحصانة والرفعه ووقف الملك المظفر لعمه وجرى فى الخدمة على رسمه وحضرنا وأمير المدينة النبوية معنا والسلطان قد أجلسنا بحضرته ورفدنا والنادى قد جمعنا والشادى قد أسمعنا والاغاريد تطرب والاناشيد تعرب فما انفصلنا تلك الليلة الا عن علم نشر وعرف أنشر وفضل سنى وعدل أحيى ورسم نائل للسماح أجرى وزند سائل بالنجاح أورى وسنى جد أعلى وجنى جود أحلى وقسر لذوى الحاجات القصص وأزال من الظلامات الغصص وأنال لذوى الخصاصات الحصص وأصبحنا على الرحيل ووصلنا العنق بالذميل وعبرنا مغذين على حمص وزدنا فى الوصول الى دمشق على طريق بعلبك الحرص وجئناها قبل شهر رمضان بأيام وركنا به الى ما أنسنا به من مقام وتجمع بنا شملها وتهلل باستهلالنا أهلها وقلنا نصوم مع القوم ونقيم مدة الصوم فما لبث السلطان ولا مكث ولا نقض عهد عزمه على الغزاة ولا نكث وقال لا نبطل الغزوه ولا نعطل هذه الشتوه وقد بقيت صفد وكوكب وأخواتها وبطول مضايقتها فتبيت أقواتها وفواتها فتنتهز فرصة فتحها التى لا يؤمن فواتها وخرج من دمشق فى أوائل شهر رمضان وحد عزمه رميض ولبارق سعده وميض وفضله مستفيض ووجوه الايام لا باديه البيض بيض ولسان الدهر فى ذكر سيره وتسيير ذكره مفيض وجناح الكفر بجناح رجائه ورواج مناجحه مهيض وحديث اقدامه القديم والحديث طويل عريض

((ذكر فتح الكرك وحصونه))

ووردت البشرى بنجح الدرك فى تسلم حصن الكرك وذلك ان مدة غيبتنا فى

بلاءانطاكيه لم تعدم من محاصرتها المضايقة النا كيه وكان الملك العادل اخو
السلطان مقيما بتبنين فى العساكر محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر
مقويا للامر اءالمرتبين على الحصون حافظا على الدهماء بحركته فى الامور عادة
السكون وكان صهره سعد الدين كمشبه الاسدى بالكرك موكلا وباهله منكلا
وقد غلق رهنه وبقى داؤه معضلا وأمره مشكلا حتى فنيت أزوادهم ونفدت
موادهم ويئسوا من نجدة تأتيهم وأعيات عليهم مصايفهم ومشاتيهم فتوسلوا
بالملك العادل وأبدوا له ضراعة السائل وتذرعوا بوسائل الرسائل فما زالت
الرسالات تتردد والاقتراحات تتجدد والقوم يلينون والعادل يتشدد حتى
دخلوا فى الحكم وخرجوا على السلم وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامه وخلصوا
باقامة عذرهم عند قومهم من الملامه وكتبت عن السلطان فى بعض البشائر
ما ألهى بحلاوته عن أرى الشائر وهو انا لما عدنا الى دمشق رأينا أن لا نستريح
ولا ننثنى عن كسر العدو وعزمنا الصحيح فقلنا نغتنم هذه الشتوه ونستكمل
الحظوه ونواصل بالغزوة الغزوه ونستخلص هذه القلاع التى شغلت منا
فى هذا الجانب قلوبا وعساكر وأبقت لاهل البلاد فى طريقها ذنوبا ومعاثر
وبين صدق هذه العزيمه والاستمرار فى الجهاد على الشيمه وردت البشرى
بأن حصن الكرك عاد اليه بعد الجماح الاصحاب وخرج منه الفرنج ودخله
الاصحاب وهو الحصن الذى كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز وقد نصب
أشراك اشراكه منه على طرق الاجتياز فأذقناه عام أول كاس الحمام وملكنا
حصنه الذى كان يعتصم به فى هذا العام واضطر الكفر فى اسلامه الى الاسلام
وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام وقد كان هذا الحصن ذنب الدهر فى ذلك
الفج وعذر أهله فى ترك الحج وابتسم الاسلام حين زيد ثغرا وساق الى
عقائله الرجال مهرا فالحمد لله على ماقدر من المنى ويسر من النعمى حمدا
يكون لما تقدم ازاءه ولما يسر جزاءه والحمد لله الذى أنجز صادق عداته فى كاذب
عداته

﴿ذكر محاصرة صفد وفتحه وادراك السعى فيه ونجحه﴾

وقطعنا مخاضة الاحزان خائضين فى بحار المسرات المتواصلة راكضين الى مضمار المبرات الحافلة والسلطان سائر والجنة تحت راياته مفتوحة أبوابها والنصرة فوق ألويته ممدودة أسبابها فى أطلاب أبطال اذا أوماها الفجر لم يبدها الى عشائه واذا طلع عليها سرحان الصباح نشط من عجاجها على عشائه ونزلنا على صفد والصبر قد نفد والنصر قد وفد والقدر قد رقد والعزم قد وقد وجاء الملك العادل وظاهر أخاه وضافره فيما توخاه وشد بالرأى والحزم ما الزمان أرخاه وبعث كل ذى عزيمة على التصميم ونخاه وشرعنا فى مراومة القلعة ومساومة السلعة وجنت المجانيق لاجتنائها وحدثتها بألسنة أحداثها ورمتها عن قسيها بالقاسيات ورمت الى هضاب تلك الابراج الراسيات وأمطرت عليها حجاره ولم تعطها من العذاب الواقع بها اجاره فما رفع بها الحصن الرامى راسا ولا الحجارة مست منه ركنا ولا النقوب باشرت أساسا ودامت المجانيق منصوبة قد قام دست شطرنجها والنقب لم يكشف نقب السور عن وجوه فرجها ودمنا عليها الى ثامن شوال ونوعنا فى افتتاحها الاحتيال حتى أذن الله فى الفتح فسهل ما صعب وحضر ما تغيب وظهر ما تحجب وتيسر ما تعسر وأمكن ما تعذر وتأتى ما تأبى وأجاب نداء الاسلام ولبى وعلموا ان صفدا ان لم تخرج من أيديهم دخلت أرجلهم فى الاصفاد وعادوا ثعالب يروغون وكانوا كالآساد ونزلوا من سماء العز الى أرض الهوان فاذعنوا للضراعة وتضرعوا بالاذعان وأخرجوا أسارى المسلمين ليشفعوا لهم فى طلب الامان وصارت صفد للمسلمين صدفا وكانت بالمشركين هدفا وعادت للاسلام سدا بعد ان كانت للكفر ردءا أو صدا وطالما مكث فيها المشركون وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ولقد كانت نار الكفر جدع ومرفقا الشرك قطع وناظر الالحاد قد غض وقرنه نض وجارحه هيض وقد قص ويد الباطل شلت وقد امتدت وعقدة الضلالة حلت وقد اشتدت وتخلصت الداوية بأدوائها وتخلصت بأسوائها وصاروا فى صور وابدوا بعد اشتعالهم

القصور

(ذكر ما دبره الفرنج في تقوية قلعة كوكب فانعكس عليهم التدبير)

لما عرف من بصور من الفرنج ان صفد لنا صفت وانها الى الفتح الذى بشق أشفت قالوا لم يبق لنا الا كوكب وان صلاح الدين من قصده لا ينكب وقد اقوت من القوة وهى تهى ان لم نعاجلها ونعالجها بالنجدة المدعوة وقد ضعف رجاؤه لضعف رجالها وقل ظهورها لظهور اقلالها وهذا أوان انجائها وانجادها وهى مشرفة على العدم فدبروا فى ايجادها فاذا قويناها وحميناها بقيت عدة فى العواقب وعصمة من النوائب فقال مقدم الاسبتار هى كوكبنا المتلالى ومنكبنا العالى ومعقلنا المحكم ومعقدنا المبرم وحصننا الحصين ومكاننا المكين ولنا منه المربع المريع والمنبع المنيع والمحل المحلى والمعلم المعلى وهى قفل من البلاد على البلاد وموئل من الخطوب الشداد ولعلها تثبت الى ان توافينا من البحر ملوكنا وتعود الى عادة الانتظام سلوكنا فما بطئ نجداتنا وما تخطى نجداتنا وأجمعوا على تسيير مائتى رجل من النخب المعدين لدفاع النوب من كل جرئ فتى وكمى أكمى وجهم جهمى وعفر عفرى ووعل جبلى وبطل باطلى وكلب كلب وذئب سغب وعاسل عاسر وباسل باسر ومغوار مغو وملوم ملو وذمر متذمر وغمر متنمر وسبع ضار وشواظ من نار وجمر من الجحيم وحام من الحميم من شياطين يجنون الجنون ويمنون المنون ويشنون الشؤن ويهدون الهدون ويحزون الحزون ويفوتون الفتون ويظنون بالله الظنون وقالوا لهم كيف تضوون وطريق السلامة مخيف وطارق الاسلام مطيف والظبا منيف والشذب مضيف فقالوا نحن نسير ونصير فى ضمن الكهوف أسرارا وعلى أجياد الاطواد أزرارا وفى أوكار المغارات أطيارا وفى أعماق السيول أكدارا وعلى ظهور البرود أوزارا نسرى ليلا ونختفى نهارا والليل للعاشقين ستر والكم أدلج من له وتر والدلج وان بعد فهو فى قرب عزمنا فتر ومن رام النفيس الخطير رمى نفسه فى الخطر وطار الى الوطر وغرب الى الغرر ثم عزموا على ما زعموا وعملوا بما عنه عموا وخطروا

الى الخطر وحاولوا بعالهم من الغدر مزاولة القدر وتوقلوا في الاكم وتوغلوا في الاجم وتبطنوا في الاوديه وتكمنوا في الافنيه واحترسوا بالكمون واحترزوا من العيون وتحركوا على السكون وكادوا يصلون الى الموضع ويحصلون على المطمع ويدركون الطلاب ويهتكون الحجاب ويعيدون الى الحصن روحه ويأسون بعد اليأس جروحه فعثر بواحد عشر منهم بعض المتصيدين فتصيده وقاده وقيده وأتى به الى صاحبه صارم الدين قايماز واستغرب من الافرنجي هنالك الجواز فأخبره بالحال وان بالوادي مكمن الرجال فركب اليهم في أصحابه والتقطهم من سر الوادي وشعابه وركب اشجاع مسعود في طلب أولئك الاشقياء وانتشر الناس في تلك الاكناف والارجاء فما نجا منهم ناج ولا نجح راج ولا عاش عاش ولا حصل عاثر بانتعاش فاشعرنا ونحن على صفد للحصار والسلطان مطل من بيت الخشب على من حوله من الانصار حتى وصل صاحب قايماز بالاسارى مقرنين في الاصفاد مقودين في الاقياد وكان فيهم مقدمان من الاسبتار وقد أشفيا على التبار فان السلطان ما كان يبقي على أحد من الاسبتارية والداوية فاحضروا عند السلطان للمنيه فاتاهما الله عافيه حياتهما وناجيا عايه نجاتهما وقالا عند دخولهما وامام مثولهما ماتظن اننا بعد ما شاهدناك لحقنا سوء وعرفت ان بقاءهما مرجو وانتظرت أمر السلطان فيهما وأيقنت انه يبقيهما فمال الى مقالهما وأمر باعتقالهما فان تلك الكلمة حركت منه الكرم وحقنت منهما الدم واستبشرنا بانعكاس ما أحكمه الكفر من التدبير وانعكاس من جرده بالتدمير وفتح الله علينا صفد ثامن شوال فشكرناه على ان مدد النصر متوال وسلمت بلدها الى شجاع الدين طغرل الجاندار فهو بها وال

(ذكر حصار كوكب وفتحها)

وجئنا الى كوكب ووجدناها في مناط الكوكب كانها وكر العنقاء ومنزل العواء قد نزلتها كلاب عاويه ونزعت بها ذئاب غاويه ووثبت فيها سباع ضاريه وجرتها بحميتهما وابت ان تنزل على أمنيتنا ولو بنزل منيتها واختارت العطب

على العطاء وامترت خلف الخلف والشقاق للشقاء وأبت غير الاباء وبصرت بالامر فصبرت على الضر وأصرت على تحمل الاصر وترامت على التعامى بالمصائب وتعامت عن المرامى الصوائب وقالوا لو بقى منا واحد لحفظ بيت الاسبتار وخلاصه الى الابد من العار ولا بد من عود الفرنج الى هذه الديار فتجلد للاصطبار وتشدد للانتظار فقاتلوا أشد قتال ونازلوا أحد نزال وفوقوا الجروح المصميه وصوبوا الصخور المرديه ورفعوا المنجنيقات الموجيه وتوترت زيارات الزيارات الموزره وتناوبت نوائب الزنبوركات المطيره واجترؤا على الاجتراح وجرى سيل الجراح ودمنا في الدم ورد الوجود الى العدم وتجرئة الرجال والتجريد للقتال وايثار الحنايا وابثار المنايا والرمى فى المنجنيق والجمع والتفريق والرفع والتخريق والنقب والتعليق والحفر والتعميق والحصر والتضييق والهدو الهدم والرد والردم والصد والصدم وكان الوقت صعبا والغيث سكبا وتكاثرت السيول وتكاثفت الوحول ودامت الديم لدموعها مريقه وبقيت الخيم فى الطين غريقه فلا لمركب مبرك ولا مربط ولا لسالك متسلك ولا مسقط وكذا فى شغل شاغل من تقلع الاوتاد وتوقد الاقدام ووهى الاطناب وتوقع الخيام وكان الخيم مناخل الانداء وعدمت الانوار لوجود الانواء وفقد ماء الشرب مع سيل الماء والروايا ما نضت ولا نزعت ولا غمضت والرواحل فى الطين باركه وللعباه فاركه وللعلف تاركه والمطيه مطينه وسبل السبل مستبينه وقد كشر البرد بالبرد عن اسنان عضاضة بالدرد والطرق زلقة زلقه وهى مع سعتها ضيقه وللابق نقل وللعلق عقل ومانم الامانيط بالطين وصعب علينا بصعوبة هذا الامر أمر أولئك الشياطين فنقل السلطان خيمته الى قرب المكان لتقريب وجوه الامكان وبنى له من الحجاره ما صار له كالستاره فحضرت بين يديه والسهام تعبرنا ولا تذعرنا والستائر تسترنا عنهم وعليهم تظهرنا والنقاب قد قلع وعلق والجرخى قد هتك الحجب وخرق وجرد الجند وأجد الجد ونزلت الاثقال والخيم الى أسفل التل نخف الثقل بنقل الثقل وطاب المقام بالغور وسهل بالسهل وتحولت الشدة الى اللين

وتحللت الى الطيب عقد الطين وما زال السلطان ملازما للحصن وهنالك ظاهرة له منه أسباب الوهن حتى علق بعض جدرانه وطرق الهدم الى بنيانه فتسلمه بامانه واذهب سكون سكانه فأخرجهم راغمين واخرجهم غارمين وتركوا الحصن بكل ما فيه وأصبحوا بعد مقاتلته للعفو والمعافاة معتفيه وذلك في منتصف ذي القعده وانتصفت الايام بحل تلك العقده ورجعت الليالي السكون الى طيب الرقده وعرضت القلعة على جماعة فلم يقبلوها وخلوها وأبوا ان يلوها وتخلوا عنها بهمم واهيه فوليها قايماز النجمي على كراهيه بعزيمة عن مهامها لاهيه وانتقل السلطان الى المخيم بالفضاء وحمد الله على قضاء التوفيق وموافقة القضاء وودعه الاجل الفاضل على عزم مصر بعدما استكمل لنا مدة مقامه بصدق اهتمامه وجد اعتزامه الفتح والنصر ثم تحول السلطان الى أرض بيسان وازال البؤس وزاد الاحسان وأقام بقية الشهر في تمهيد مجد مقيم باقي الدهر وأظهر من الفضل مالم يكن مستورا وأعطى الامراء والاجناد في انفصالهم دستورا وسار ومعه اخوه الملك العادل مستهل ذي الحجه واضح المحجة لاغ البهجه وأوجها الى القدس في طريق الغور وزاراه للبركه وتبركا بالزور ووصل يوم الجمعة ثامن الشهر وصلى في قبة الصخره وخص ذوي الخصاصة بعميم المبره وعيد بها يوم الاحد الاضحى وأضحى بعدما ضحى وقد أصحب مراده وأضحى وسار يوم الاثنين الى عسقلان للنظر في مهامها ونظم اسباب أحكامها وتدبير أحوالها وترتيب رجالها وأقام أياما يوضح الجدد ويصلح ما فسد ويشد من النفع ما فقد ويخمد من الشر ما وقد فاذا وجد شعثا لمه وان ألفى نشرا ضمه وان صادف فتقا رتقه وان لقي حقا حققه وان عثر على باطل عفى أثره وان بصر بآمل خصه بعرفه وأثره ثم ودعه أخوه الملك العادل واستقل الى مصر بعسكره ورحل السلطان على صوب عكاء موفقا في مورده ومصدره فاعتبر بلد الاقوى عدده وكثر عدده وواصل بالرجال مدده وكنت انفصلت عن خدمته الى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبني الامكان والحمد لله الذي وفر حصة الصحه وحول المحنة الى المنحه وكمل الشفاء بعد الاشفاء

واهدى عند اليأس أرج الرجاء

(ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة)

والسلطان في عكاء مقيم والامر مستقيم والنهج قويم وهو يبوب أسباب حفظها ويسبب أبواب حظها ويهذب مراتب مصالحها ويرتب مذاهب مناجحها ويعدل جوائح أمورها ويذلل جوامح جمهورها ويقوي ما وهى ويسوي ما هوى ويحلي من الشان ما عطل ويعلي من المكان ما سفل ويعيد نظام ما انتكث ولم ما تشعث ويجدد كل ما دعا الى بعث ما مات منه وبعث ومكث بها لا يريم القدر الى ان وصل جماعة من مصر فأمرهم فيها بالاقامة محافظة على الحماية المستدامة فأمر بهاء الدين قراقوش باتمام بناء السور واحكام احكام الامور وولى الامير حسام الدين بشارة بعكاء واليا ولم يزل لآثار الدولة في ايثار العدل تاليا ثم خرج السلطان وسار على طبرية ودخل دمشق مستهل صفر وقد استكمل الظفر ووجه الدين به قد سفر وعز من آمن وذل من كفر وحزب الهدى قد أنس ونفر الضلال قد نفر وجلس على سرير السرور ولبس حبير الحبور وبدأ بحضور دار العدل فدر عدله للبادي والحاضر وأقام سفور بشره للمقيم والمسافر وأفاض الفضل ومحا المحل وأعلى أعلام العلماء وأحلى أحلام الحلماء وأمضى أحكام الحكماء وقضى باكرام الكرماء وأسدى المعروف وأعدى الملهوف وأنكر المناهي ونهى عن المنكر وطهر حكم الشريعة وحكم بالشرع المطهر وأقام مدة الشهر وأولياؤه جناة النصر واعداؤه عناة القهر وأيامه مسفره ولياليه مقمره ومغارس أياديه بثمار المحامد مثمره ومجالس أعاديه في ديار الشدائد مقفره والملك زهوه زاه زاهر والدين بيمانه مباه باهر والآفاق منيرة والانوار مفيقه وللدولة حق مدلول حقيقه وللعدو في جده وللجود وفي عده وللسماح سماء تهمع وللمراد مراد مرع وللوجوه بالبشر بهجه وللالسنة في الشكر لهجه وللهمم علو وللشيم سمو وللكرم غلو وللفضل قيمه وللافضال ديمه وللشريعة شرعة واضحه وللحق سنة لستر الباطل فاضحه والصنائع راجحه والذرائع ناجحه

﴿ذكر وصول رسول دار الخلافة والخطبة لولي العهد عدة الدين أبي نصر﴾
﴿محمد بن الامام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد أمير المؤمنين﴾

بتاريخ أوائل صفر وصل رسول منزل الرساله ومقر الجلاله ومربع الامامه وموضع الكرامه ومطلع الهدى ومنبع الندى ومشرق نور الايمان ومشرع فيض الاحسان ومرجع المرجين ومفزع الملتجين ومنجى الناجين ومنجى المناجين ومهبط الوحي ومصعد الامر والنهي ومقصد نجاح السعي ومخفض جناح الرحمه ومقطف جنى النعمه ومجر ذيول المناقب ومجرى سيول المواهب ومزار أملاك السماء ومدار أفلاك العلاء ومجمع ملوك الارض ومجمع سلوك الفرض وموطن التنزيل وموطئ جبريل ومقام الخلافه ومرام الرأفه ومحمل الامانه ومحل الديانه ومطاف الطائفين ومطار العاكفين ومعرف الواقفين وموقف العارفين وقبلة المقبلين وموئل المؤملين وكعبة القاصدين ومثابة الوافدين ومعفر وجوه العظماء ومكفر ذنوب الكرماء ومعصب السيادة القرشيه ومنصب الوراثة النبويه والسدة الشريفة الناصريه ودار السلام وقبة الاسلام فابتهج السلطان بوصول الرسول وأيقن بحصول السول وسر سره وأبر بره وصدر بنشر الانشراح صدره وقدر على الانسام بالتسامي قدره واحتفل بأسباب التلقي والتحف بأثواب الترقي وسأل عن الرسول المندوب للسؤل المخطوب فقيل هو ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينه وصل بالضياء والسكينه والاحوال الحالية المزينه وكان وزير الخلافة يومئذ معز الدين بن حديده فعين لهذه الرسالة ابن سكينة حين عرف آراءه السديده فتلقاه يوم دخوله الى دمشق السلطان وأولاده وكان يوما شهودا حضره اعيان البلد وأماثل العسكر وأشهاده وأنزله في دار الكرامه ورتب له وظائف الاقامه ثم جلس له في يوم سعد صباحه وبدت في جبهة الدهر البهيم غرره وأوضاحه وملأت ظرفي الزمان والمكان أفراحه وجاء على وفق الآمل اقتراحه وختم باليمن والاقبال رواحه وورد بكل ما أبهج الاولياء وأزعج الاعداء وخاطب السلطان عن الديوان العزيز بكل ما سره وثنى عطف ابتهاجه وهزه ورسالة

طودا بالوقار فى ايراد الرساله وجلاله فى مهب المهابة أنوار الجلاله وتلقاه له بالتفضل وتطوق منه بالتطول وبشر بان أمير المؤمنين فوض ولاية عهده الى ولده عدة الدين أبى نصر محمد من بعده وأخذ بذلك العهد على من حضره من اعيان الامه وحفظ عليهم بتولبته ما أولاهم الله به من النعمه وأمر بأن يخطب له بمصر والشام وجميع بلاد الاسلام فاستبشر بهذه الموهبه واستظهر بما خص به من هذه المرتبه وأمر بذكر اسمه ونقشه فى الخطبة وعلى السكه وعاد الاسلام به ظاهر الشوكه والشكه وخطبنا لولى العهد بدمشق يوم الجمعة ثالث عشر صفر ولم يبق من الامراء والاماثل والافاضل الا من حضر وأحضر معه الدنانير ونثر وتولى ذلك الملك الافضل فاظهر أبهة ملكه وبهاء فضله وحصل الاسلام من رى رأيه على نهله وعله وندب للرسالة الى الديوان العزيز ضياء الدين الشهرزورى القاسم بن يحيى ليتشرف بما كاد يعفو من سنن الموافاة ويحيا وسيرت معه الهدايا والتحف والطرف السنايا وأسارى الفرنج الفوارس وعددها الكوامل النفائس وتاج ملكهم السليب والصليب والملبوس والطيب وأضفيت على رسول الامام ملابس الاكرام وقفل ناجح المرام واصطحب الضياء ن لاضاءة مطالع الايمان بسفارة سافرة عن سنا الاحسان وبشارة شائرة جنى النحل من نحل الجنان واهتزت الاعطاف واعتزت الاطراف وابتسمت ثغور الثغور لسدادها وانتظمت أمور الجمهور لسدادها وسرت القلوب وسريت الكروب وخزى الحاسد الحاشد وقوى الساعد المساعد وواصل فى طريقه الاغذاذ حتى وصل الى بغداذ فتلقى الرسول بالسول وقوبل بالقبول وخرج اليه الموكب الشريف واضيف له الى تالد جده القديم جده الجديد الطريف ودخل البلد وأسارى الفرنج على هيئة يوم قراعها راكبة حصنها فى طوارقها وبيارقها وأدراعها وقد نكست بنودها وارغمت أنوفها وهينت على هيئة قنوحنا حتوفها ووقف على العتبة الشريفة واستقبلها وقبلها ثم عطف به الى دار الكرامة فنزلها والتقى الوزير ابن حديدة قد عزل وأقام فى بيته واعتزل وتصدر فى الدست للنيابه وسماع الخطاب والاجابه من له المجد الاثير

الصدر الكبير مؤيد الدين صاحب ديوان الانشاء وقد خص بتولي الحل والعقد والاخذ والاعطاء فتولى سماع الرسالة وجوابها واولى صوبها و والى صوابها وسيأتي في موضعه ذكر ما انتهت اليه الحال وجرى به الفال وكيف شغلته العوائق وعاقت الاشغال

(فصل مما كتبته في المعنى عن السلطان الى الديوان العزيز مع الرسول)

قد تقدمت خدمة الخادم بما قدمه من امتثال المثال واداه من فرض الاعظام والاجلال وقام به من الامر الذي قام به أمر الدين والدنيا وبادر اليه من استثمار طاعته التي دامت لها من نعمة الدار العزيزة في ازكاء مغارسها السقيا وحل حبا الحب لما حل من حبائها وعقد خنصر النصر لعزائمه على ما اعتقده من ولائها وجمع شمل السعادة الشاملة بما جمع أمره من اسعادها واستجد عهد الجد المورق المونق بما جاد ثراه من ثرات عهادها ونهض من الملك بتقديم ما قدمه على الملوك الناهضين وابرم من عقد عبوديته الكاملة ما تقاصر عنه تطاول الناقصين المناقضين ووفق لما وافق المراضي الشريفة ففاز بما حاز من شرف الرضا واقتضى دين الدين الثابت وثبت على الوفاء في استيفائه بما اقتضى وسبق الى ما سبق به جواد صدقه في جواد قصده وافتتح فريضة طاعته في حلاوة عبوديته بتلاوة فاتحة حمده وانتهى الى نهاية النهى واطاع ما اطاق فيما أمر الله به ونهى وما وضع الكتاب من يده حتى رفع بالدعاء يده وسأل الله لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين وافد النصر ومدده وان يعضدده بولده ولي عهده المطاع بامر الله عدة الدنيا والدين ويقر به عيون المسلمين فقد فاضت البركات وآضت الحسنات وأضاءت الكرامات وراضت جماح الاماني المبرات المبرات وهاضت جناح الكفر الفتكات المرديات وعمت الميامن وغمت المحاسن وغنت وغث النعم الظواهر والبواطن وضمت بسكون الدهماء أهاليها المعاهد والمواطن وصدحت المنابر وصدقت المفاخر وصدعت الاوامر وصدفت الفواقر وصدمت قلوب أهل النفاق من بواعث الرعب البواعث البوادر وتمشت صفحات الدرهم والدينار ونعشت عثرات الاخيار الاحرار وفرشت مفوفات الانواء والانوار وعرشت

أسرة المبار والمسار ورفعت رغبات الابرار وسمعت دعوات الاسحار ونزل النصر وفضل العصر ووجب الشكر وشجب الكفر ورحب الصدر وأصحب الدهر وسحت سماء السماح وصح ارواء الارواح وتضوع نشر الانشراح وتوضح صباح الصلاح وطال جناح النجاح وطاب جنى الافراح وعظم القدر ونظم الامر وحسن الذكر وأمن الذعر واهتزت اعطاف الاسلام واعتزت اطراف الشام وتبلجت أيامن الايام وتروجت امانى الانام وارحبت ارجاء الرجال وثبتت باسناد الاسناد رواية امالى رى الآمل وقرت الاعين وابتهجت بالسعد الطالع وأقرت الالسن والتهجت بالحمد الجامع وقرت الانفس وانتهجت بوسعها سنن العز الواسع ونابت هذه الموارد العذبة المشارب الصافية المشارع فى نقع الاوام ونفع الانام مناب المنابع وأرخت السير وسيرت التواريخ وخلقت حاطفات البشائر لموجب تضمخها وتضمخها التضميخ وأشرق المغرب من بشر البشرى وأنارت مصر من حسن هذه الحسنى وسمت بسمة الشرف منابر الاقاصى والادانى موافقة لمنبر المسجد الاقصى وتطرزت الفتوحات الفاضل عصرها الشامل نصرها بهذا المذهب وفاحت فى مهاب السحاب نفحات هذا الزمن الاطهر الاطيب وعاد الزمان الى اعتداله وعاد العدل بزمانه وتاب الدهر من عدوانه وآب الى احسانه ورجع الدين الى سناء سلطانه ونجع الكفر بعبدة صلبانه وبطش الايمان بايمانه واستخلص من الشرك بلدانه بلدانه وتقاضى الربيع بقروضه وضافت ضيوف فيوضه وعتب العزم على ربوضه وحض الحظ على نهوضه وحث الحب على اقامة سنن الجهاد وفروضه فقد درت أفاويق الآفاق وذرت أشعة الاشراق وافترت نضرة الحدائق لناظرة الاحداق وراقت أوراق الالوية كالنواء الاوراق وازهرت البيض والسمر كازهار الرياض وانغض غرار الجفون فى الاغماد من الاغماض وتيقظت الاقدار للاقدار على ايقاظ عيون البيض لاجراء دم الشرك المطلول وتنزل البركات فى انتجاع المراق من جميع المارقين لا زال نص النصر على النصل المسلول وقد آن أن ترعى الجثاثات منهم على رعى الحشيش ويطير الى أوكار المقل طير السهم المريش وترتع

ثعالب العوامل فى عشب الكلى ويطن ذباب المناصل فى لوح الطلى وترن رقاق المرهفات فى الرقاب رنين الحطب على الاعواد وتذوب قلوب علوج الكفر من نار الرعب ذوب الثلوج على رؤس الاطواد وتحمل اشجار القنا بثمر الهام ويحيش الفضاء المعشب بزهر الجيش اللهام ويقطف ورد الموت الاحمر من ورق الحديد الاخضر ويوقف حد الهندى الابيض على قصر بنى الاصفر ويجرى فى ورد الوريد جدد اول البواتر وترمى من الحصن العاديات الى حصون العدا جنادل الحوافر وتكفل بما وعد الله من الظفر الظاهر والظهور المضافر ضوامن الضوامر وتلى عقبان رايات الفتح والكسر من عقبان الجو بالفتح الكواسر ويعبق ثوب الدارع من ردع الثواب بسهك المأذى وتعلق فى ملتقى التقى الفات السمهرى بلامات السابرى ويظهر الحق بخذلان الباطل ويحل بأيدى الايد مابقى مع الفرنج من معاقد المعاقل ويغرق بحر الجرار الجرار ماتخلف من ساحات الساحل فلم يبق به من المدن المنيعة الاصور وطرابلس ومعالم الكفر بهما فى هذه السنة الحسنة بعون الله تدرس واما انطاكية فانها بالعراء منبوذه وعند الانجاء اليها مأخوذه على انها وقم قومها عام أول موقوذه وحدود العزائم اليها عند انقضاء هدنتها مشحوذه فانها قد نقصت من اطرافها ودخل عليها من اكنافها وجدعت بفتح حصونها عرانينها وضيق على أسدها وسيدانها المحصورة المحشورة فيها عرينها فهى نهزة لمفترص وطعمة لمقتنص وسلعة لمسترخص وبلغة لمستفحص وقد خرج الخادم ليدخل البلاد وبستأنف بجهده الجهاد ويستقبل الربيع بربيع الاقبال ويستنزل ملائكة النصر من سماء الرحمة لاوقات النزال وهو يرجو ببركة هذه الايام الزاهرة من الله أن يجد جند ارضه بجند سمائه ويوفق الخادم لتصديق أمله فى تطهير الارض من انجاس اجناس المشركين بدمائهم وتحقيق رجائه فالجحافل حافله واسراب الكفر بين يديها جافله ومعاطف الاسلام فى لباس الباس رافله ونصرة الله بانجاز عداته فى قمع عداته كافله والحمد لله الذى وفق عبده مولانا أمير المؤمنين فى طاعته لنفاذ أمره واخلاص الولاء له فى سره وجهره واقتناء كل منقبة حقق بها

فضل عصره واشكار كل فضيلة سار بها احسن ذكره فما يفتح مرتجا الا بتقليدها ولا يستنجح مرتجى الا بتأييدها

((ذكر خروج السلطان من دمشق لاجل شقيف أرنون وما جرى له مع صاحبه))

وأقام السلطان شهر صفر فى دمشق وقد أطاب لمناشق الآمال من نشره النشق ثم خرج منها فى ثالث شهر ربيع الاول يوم الجمعه بالمحبة المجتمعة والمهابة الممتنعه متوجها الى شقيف أرنون ليفر بفضه العيون ويصدق فى استخلاصه الظنون وأتى مرج برغوث وأقام به الى يوم السبت حادى عشر الشهر ينتظر من عساكره البعوث ثم رحل على سمت بانياس وقد أوقع رعبه بين أهل الكفر الياس وأتى مرج عيون وخيم منه بقرب الشقيف وجمع على من به من آلات الحصار أسباب التخويف وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الاول فى أواسط فصل الربيع وأقام فى ذلك المرج الوسيع والروض الوشيع وأسمنا الخيل فى اعشاب واصيه ورتعنا فى الطاف من الله دانيه غير قاصيه وكان الشقيف فى يد صاحب صيداء أرناط وقد أكمل فى حفظه الاحتياط فنزل الى خدمة السلطان لحكمه طائعا ولامره سامعا ولرضاه تابعا وفى موضعه شافعا وعلى حصنه خاشيا ولاجله خاشعا وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله وأظهر انه محترز من علم المركيس بحاله فلا يسلم من جهله وحينئذ يسلم الموضع فيه ويدخل فى طاعة السلطان ومراضيه ويخدمه على اقطاع يغنيه وعن حب أهل دينه يسليه فاكرمه وقربه وقضى اربه وأجابه الى ما سأله وقبل منه عزيز ما بذله بذله وأمهله عن رغبه وأمهله وأخذله وماخذله وخلع عليه وشرفه ورفعه فى ناديه بنداه وعرفه واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينه ووجد اليه سكونا وعنده سكينه فشرع ارناط فى اذالة حصنه وازالة وهنه ورميم مستهدمه وتتميم مستحكمه وتوفير غلاله وتوفية رجاله وتدبير احواله وتكثير أمواله ونحن فى غرة من تحفظه وفى سنة من تيقظه وفى غفلة من حزمه وفى غفوة من عزمه وكان يبتاع من سوق عسكرنا الميره ويكثر فيه الذخيره وقد

صدقنا كذبه وحققنا اربه وأنهى الى السلطان ماهو مشتغل به من عمارة يجددها وذخيرة يعدها وثلمة يسدها وقوة يشدها وميرة يستمدها وكان بالمذكور سديد الظن شديد الضن لا يقبل ما فيه يقال ولا يظن به عثورا يقال فلما كثر فيه القول وتمكن من مسئلته العول لم يرد أن يبدى له ما قيل ولم يصدئ بالتغير عليه وجه جاهه الصقيل فأمر بالانتقال من المرج الى سطح الجبل وتحويل الخيم اليه والثقل وذلك ليلة الجمعة ثانى عشر جمادى الآخرة وأظهر ان المرج وخيم والمقيم به سقيم وأم الدهر فيه بالصحة عقيم وكان المقصود أن الشقيف من عيانه بقرب واخباره عنه لا تعزب فلما علم صاحب الشقيف بقربه شرع فى ازالة ما فى قلبه وجاء الى الخدمه واستمسك بالعصمه وذكر انه متعزز ببذل الطاعه وبذل الاستطاعه وتضرع خاضعا وتعرض خاشعا وذكر انه تخلف له أهل بصور وانه كان زمان غيبته يرجو منهم الحضور وانه يترقب وصولهم ويأمل عنده حصولهم وشرع فى تقرير هذا الحديث وتمهيد عذره فيما توهم من عهده النكيث وأقام يوما وعاد الى حصنه وقد وجد من السلطان دلائل أمنه وكانت المدة قد دنا انتهاؤها وقرب انقضاؤها فانها الى آخر هذا الشهر ولم يجد بدا من التسليم أو الغدر فعاد بعد أيام باكتئاب واغتمام وحضر عند السلطان فقال ما أظهر به الابتهال واستزاد الامهال وذكر انه رقيق الامتنان وعتيق الاحسان وانه العبد القن وقد دخل عليه الوهن وغلق به الرهن وانه يبقى أهله معتقلين بصور ان خرج منه الحصن ومن أنشأ غرسا سقاه فأبقاه وأشكاه فأزكاه وأسماه فأنماه وقد اصطنعتنى ورفعتنى فلا تضع الرفيع ولا تضع الصنيع وسأل أن تكون المدة سنه وأن يتبع الحسنة فى حقه حسنه وأن يرخى بطوله طوله وأن يشفى بشفاء أمله أمله فراقه قوله فرق له طوله ثم أفكر فى أمره واستمر فى فكره فغادره على عزيمة غدره وجاهره بسر شره بعد أن ماطله وطاوله وزاوله على ماحاوله وأقام أياما يردده ويخصه من الكرامة بما يجدده ثم كشف له

الغطاء بعد أن أجزل له العطاء وقال له قد قيل عنك ما لا نظنه فيك ولا نعلمه منك فجحد ما عنه رقى وانه كيف يلقى بالكفران ما من الانعام لقى وانه ان لم يسعد بامهاله فى الشقيف شقى ثم سأل فى ندب من يوثق بأمانته ويؤمن الى وثاقته ليدخل الموضع ويلمحه ويحضر بوصف ما شاهده ويشرحه فرجع المندوبون بخبر ما أبصروه وذكروا ان الحصن قد غيروه وانه قد استجد فى سوره باب واستجدت له من أحكام احكامه أسباب فاستحكم به الارتياب وعرف ان السرح قد حوته الذئاب فوكل به وحفظ من حيث لا يعلم وقيل لعله يحسن فلا يحوج الى مقابحته ويسلم ثم قيل له قد بقى يومان من المدة المضروبة والمهلة الموهوبة فنقيم عندنا حتى تنتهى المدة وتنقضى وتسلم الحصن وتسلم وتمضى فابدى ضرورة وضراعة وقال سمعا وطاعة وكان له ملق وملق وفى لسانه ذلق وما عنده من كل ما يفرق منه فرق وقال أنا أنفذ الى نوابى فى التسليم وهو قد تقدم اليهم بالوصية والتعليم فاظهروا عصيانه وقالوا ابق مكانه فقال قد بقى من المهلة يومان فما هذه العجلة التى يفوت بها الغرض ويطول منها المرض فصبر عليه الى يوم الاحد ثامن عشرى جمادى الآخرة وهو آخر مدته وأول شدته وأوان انقضاء عدة عدته وقد رتب على الشقيف يزك يمنع الخروج والدخول والصعود والنزول ويضايق غريمه المطول قبل أن يمتد حصاره ويطول وحمله جماعة من الامراء ووقفوا به ازاء حصنه فناداهم فى دراك أمره وفكاك رهنه فخرج اليه قس فاس بأمر عن باس فحادثه فى حادثه بلغته وناقشه فى كارثه بغلته وتحاوروا فى السر وتشاوروا فى الشر وكأنما أمره بالتجلد وصبره على التشدد وعاد القس الشقى الى الشقيف وترك صاحبه عانيا بالعناء العنيف فقيد وحمل الى قلعة بانياس وبطل الرجاء فيه وبان الياس ثم احضره فى سادس رجب وهدده وتوعده وبالغ فى تخويفه على أن يبلغ المراد فى شقيفه فلما لم يفد خطابه ولم يجد عذابه سيره الى دمشق وسجنه وألزمه شجاه وشجنه وتحول السلطان من مخيمه الى أعلى الجبل يوم الاربعاء ثامن رجب لمحاصرة الحصن ورتب لها عدة من الامراء وأمرهم بملازمته فى الصيف والشتاء الى أن

تسلمه بعد سنة بحكم السلم وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم

(ذكر ما تجدد للسلطان مدة المقام بمرج عيون من الاحوال وما كان من غزواته ونهضاته ووقعاته في حرب الفرنج والقتال)

اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الاسر وقالوا نحن في جمع جم خارج عن الحصر وقد تواصلت الينا أمداد البحر فثر بنا للثار وأعر نامن هذا العار وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور وفارقوا بالاستطالة القصور وجرت بين المركيس المقيم بها وبين الملك مراسلات وحالت بين اتفاقهما حالات فلم يمكنه من دخول البلد ولج معه في اللدد واحتج بأنه من قبل الملوك الذين من وراء البحر وانه منتظر لما يبرمونه من الامر ويصله من الامر ثم اتفقوا على أن يقيم بصور المركيس ويدوم منه لملكهم التأسيس ولملكهم التأنيس وانهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم ويتساعدون على رم ما تشعث من أحوالهم ويتعاقدون على حل أشكالهم ويتعاضدون في تسديد اختلالهم ويقصدون بلاد الاسلام من الساحل ويقيمون عليه بالنوازل اقامة المنازل والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد ويجمع ما يحتاجون اليه من الميرة والاسلحة والعدد فأجمعوا على هذا الراى وبلغوا في الغى الى هذه الغاى وشرعوا فيما شرعوه وفرعوا ذروة الاصل الذى فرعوه ووصل الخبر يوم الاثنين سابع عشر جمادى الاولى من النزل ان جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر الى المعترك وانهم على قصد صيداء للحصر وقد جسروا على عبور الجسر فركب السلطان في الحال فيمن خف من ثقال الرجال وأقتال القتال وأطلاب الابطال وأنجاد الاجناد وأجلاد الجلاد والباذلين المهج للجهد في الجهاد ووصل الى الملتقى والشغل قد فرغ والسيل قد بلغ والصدمة قد وقعت والوقعة قد صدمت والثورة قد ثارت والسورة قد أسارت فان اليزكية لما شاهدت جاهدت وتعاقدت على لقائهم وتعاضدت وخالطتهم وباسطتهم وواقعتهم وجالدتهم وجاولتهم وجاردتهم وجاولتهم وردتهم مفلولين مخذولين وصدتهم منهزمين مثلومين وقسرتهم وكسرتهم وأسرت

سراتهم و برزت بزاتهم وقنصت عقبانهم وقصمت شجعانهم وصادت صيدهم وفرست فرسانهم و وقع فى الاسر من سباعهم سبعه وغودرت للنسور من اشلاء المارقين بالمازق شبعه واستشهد من المماليك الخواص أيبك الاخرش وقد كان شهما بالوقائع يتحرش وبثبات واثبا لا يتشوش وأنيسا بالحوادث لا يتوحش وكبشا بالكوارث لا يتكمش وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان وكانت الدائرة على أهل الشرك والطغيان وعاد السلطان الى خيم ضربت له بقرب اليزك وقال لعلهم يعودون الى ذلك المعترك فنستدرك ما فرط من استئصالهم واجتثاثهم وقد ندم الفرنج على ما ندر من اجترائهم وانبعاثهم وأقام الى يوم الاربعاء تاسع عشر الشهر والاسلام بقوة ظهوره على الكفر قوى الظهر وركب فى ذلك اليوم ليطلع من الجبل على القوم ولم يكن له نية القتال فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال وتبعه راجل كثير من غزاة البلاد بغير علمه وظنوا ان السلطان انما ركب للقتال وعلى عزمه وكان الفرنج قد صروا بالراجل فطمعوا فيه ثم ظنوا ان وراءه عسكرا فى الكمين يحميه ونفذ السلطان بعض الامراء الى الغزاة الرجالة ليعودوا فما قبلوا وحمل عليهم العدو فأسروا وقتلوا وختمت بشهادة أولئك السعداء تلك العشيه ونفذت من الله فى استشهادهم المشيه وحمل الحاضرون من الامراء والعسكرية على الفرنج حملة أردتهم وردتهم وصدقتهم عن الجرأة وصدتهم وتزاحموا على الجسر فغرق منهم زهاء ثمانين فى النهر وكان يوما علينا ولنا جنى المنا وأجنى أملنا وللحرب رجال والحرب سجال ولم يكن لاولئك الغرباء بقتال الفرنج دربه واقدامهم على العدو لله قربه فخاضوا من الدم فى اللجج واعتاضوا الجنة من المهج وممن لقى الله بالشهاده وختم له بالسعاده الامير غازى بن سعد الدولة مسعود بن البصارو وكان شابا للنار الحرب شابا ولدين الرب رابا ولما شاهد ما تم من الغزاه انقض فى أصحابه على الفرنج انقضاض البزاه فدعته جنته الى طعنة لبتها لبتيه فاحتسبه عند الله والده وكدرت عليه موارده وأوجد جمعنا الاسى على فقد ذلك الواحد وساء عدم الساعد وبتنا نشكر مساعى ذلك المساعد وضاقت

القلوب وفاضت الكروب وألم البوس وألمت النفوس وهذه وقعة ندرت وواقعة بدرت ونذير حدث وحادثة أنذرت فلم يصب الكفار من المسلمين منذ أصيبوا غير هذه الكره وأذاقونا بعد ان حلا لنا جنى الفتوحات مرارة هذه المره فأيقظتنا من رقدة الغره وأخذ الناس حذرهم ونذروا وعقدوا على الانتقام نذرهم ثم رجعوا الى الله وقالوا هذا وعد الله حيث قال فيقتلون ويقتلون وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمتثلون ثم قويت عزمة السلطان على قصدهم في مخيمهم وكبسهم في مجثمهم وعبور الجسر اليهم والاحداق بهم من حواليهم وشاع صيت هذا العزم وصوته وأسرع الناس الى موسمه وخشي فوته وتسامع أهل البلاد بتصميم عزمة الجهاد فتباشروا وتبادروا وتسابقوا وتسارعوا وأتوا من كل فج وجاؤا من كل نهج وسالوا في كل واد وجالوا في كل يفاع ووهاد ووافت مطوعة دمشق وحوران يجرون الى مر الموت ويجرون المران وتوافد من بالمرج والغوطه على الحالة المغبوطه وقالوا هذا أوان احضار الضوامر المربوطه واجتمعت بمرج عيون جموع مرجت العيون فخافت الفرنج من هذا الجمع وأنافت على القمع ونكست الى سور صور وعاين أولئك البور الثبور وتحرزوا وتحوسوا وتوجلوا وتوجسوا فاقتضت الحال تأخير قصدهم ليتمكن على غرتهم حشد تامن حصدهم وعاد العسكر الى المخيم وسار السلطان الى تبنين صبيحة يوم الخميس السابع والعشرين لتفقد أحوالها وتأمل أعمالها وعرض رجالها ثم سار منها الى عكا جريده ورتب في عمارتها وولايتها أحوالا سديده ووصى رجالها بالاحتياط والتحفظ والاستظهار والتيقظ وأسرع عودته الى المعسكر عظيم المفخر كريم المعشر موفق المورد والمصدر مقرظ المنظر والمخبر وأقام الى يوم السبت سادس جمادى الآخره وبحر مخيمه يموج بامواج العساكر الزاخره

﴿ذكر ماتم من استشهاد عدة من أمراء العرب﴾

وانتهى الينا أن الفرنج ينتشرون في الارض وينبسطون في موضع القبض ولا يتحفظون في الرفع والخفض ويختطبون ولا يحتاطون ويحتشون ولا يختشون

و يجنون ثمار الجبل و يجنون على من يصادفونه بأنواع الغيل وهم فى غرة من غاره وفى جسارة تعود عليهم بخساره وفى غفلة تجر عقله وفى ضلة ترفع عليهم من العذاب ظله وانهم اذا خرجوا للاحتشاش والاحتطاب وانتشروا لضم الاعشاب من الشعاب خرجت وراءهم خيل تلحظهم على بعد وتحفظهم من متعد ونفذ السلطان الى خيل تبنين وأمرهم بان يصبحوا أولئك الملاعين فاذا خرجت الخيل اليهم تطاردوا اقدامها ووصلت بها الكمين وذلك يكون فى صباح الاثنين ثامن الشهر المذكور وواعدهم على هذا السر المستور ونفذ الى عسكر عكاء ليكمن فى موضع عينه ولا يظهر مكمنه حتى يكون من وراء القوم مستعد الماينالهم من الوقم وسار السلطان ليلة الاثنين على الموعد مصدقا للمقصد وصادف خيل تبنين قد أغارت وأثارت وأبرت وأبارت فعبر تبنين وكمن بين صور وبينها وعين اليزكية وأوفد عينها ورتب ثمانية أطلاب من الابطال وكمن بتلك الارجاء كماة الرجال وانتخب من كل طلب عشرين فارسا أجوادا على الجياد وأجلادا فى الجلد على الجلاد فامرهم بان يتراءوا للفرنج حتى تصل اليهم وتحمل عليهم وهم يفرون قدامها ولا يقرون أمامها و يجذبونها الى قرب الكمين و يوقعوها عليه و يواقعوها اذا حصلت بين يديه ففعلوا ما به أمروا ولما حملت عليهم الفرنج ثبتوا وصبروا وأنفوا من أن يقال عنهم فروا بل جالوا فيهم وكروا واتصل القتال واشتد واحتدم المصال واحتد وطال زمان الحرب وامتد وطارت جمرات الصفاح وفارت غمرات الكفاح وثارت غبرات البرى وداوت عثرات الثرى و تحلت عرى اللمم وانحطت ذرى القمم وعدم كل قرن قراره وكل جفن غراره ودام نهارنا يجرى بانهار الدم أنهاره وعرف من بالكمين ان الحرب قد اشتبكت وان الاسد قد اعتركت وان البزل قد ارتبكت وابتركت فتواصل انجاد اللانجاد وتراسل أمدادا بعد الامداد فلما رأى العدو أن المدد يكثر والعدد يكثف وان عساكرنا لا تتوقى ولا تتوقف صمم العزيمه على الهزيمه وعلم ان النجاة عين الغنيمه فثنى أعطافه وضم أطرافه وردأ حلافه وجرت بين الفريقين مقتله عادت أرض المعركة بها

وهي منقله وكان قد حمل العرب على وعد العود الى الكمين والرجوع الى أسد ذلك العرين ولم يكن لهم بالطريق خبره ولا عبرت من الطوارق بهم عبره فتطاردوا بين يدى الفرنج فى واد ماله نفاذ ولا لسالكه الى منهج ملاذ ورآهم العدو فعداوراءهم وسار بجمعه ازاءهم فلما انتهوا الى الجبل أدركوا ولم يقدروا أن يسلكوا فقاتلوا حتى قتلوا وأقبلوا على الله فقبلوا وهم الامير زامل ابن نبل بن مرين ربيعة أمير النقره وسرى الامره والامير حجى بن منصور ابن غدفل بن ربيعة والامير مطرف بن وقيع بن بردويل بن مرين ربيعة وآخر معهم فهؤلاء أربعة من ربيعة بنيت لهم فى جنة الخلد ربوع وقدر لهم فى رياض النعيم رتوع وفازوا بالنعيم ونعموا بالفوز وانتقلوا من العز الفانى الى الباقى من العز وكان معهم من المماليك الخواص من ذوى الجد والاخلاص تركى عربى النخوه غضنفرى السطوه فلما حصل فى المضيق وأيس من الطريق نزل عن فرسه على صخرة بنجوه ونثل بين يديه كنانته فارع الذروه وقد أوتر قوسه وسدد اليهم سهمه وقبل قضاء الله وحكمه وحن الى منيته من جنيته وأصاب منيته من اصماء العدو فى المصاب بامنيته فوقفوا عنه بعيدا حين خافوا قربه ومازالوا يطعنونه ويرمونه حتى ظنوا أنه قضى نحبه فاصبح وقد نزف دمه ونزح على وجوده عدمه ولما قيل انه استشهد وطلب لبجد رمق وبه رمق وهو فى دمه غرق فحمل على أنه من الاموات ولم يرج له فوات الوفاة فاحياه الله بعد أن أماته وجمع أعضاءه عليه وقد شارف منها شتاته وأنشأه خلقا جديدا وأوجده فى أجله مزيدا وهو أيبك الساقى زاده ماجرى اجتراء على الاقدام واجراء الى مضمار الحمام فما سمع بعد ذلك هيعة الاطار اليها ولا أبصر للكفر ضيعة الاأغار عليها

(ذكر مسير الفرنج الى عكاء والنزول عليها ورحيل السلطان قبالتهم اليها)

وصل الخبر يوم الاربعاء ثامن رجب ان العدو قد ركب وأجلب بخيله ورجله وطار بجراد جرده ودب دباه فى رجله وسرحت ذئابه ونبحت كلابه وجاش

ورام جيشه العرمرم وطاش الى أهل الجنة بأهل جهنم وذوى القرب من
النواقير وأضرم بنار السعير مساعى المساعير وهو على قصد عكا يجرى الى
المدى برأى جمعه المدابير وان نفر منهم نفر وسبق الى النواقير وعبر ونزل
باسكندرونه واستباح طرقها المصونه وهنالك من المؤمنين رجال يحمون طرف
الثغر ويضمون نشر الامر ويصمون نحر الكفر ويجبون غارب الشر ويجوبون
جانب البحر ويطوفون للحراسه ويطولون بالحماسه فلما رأوا مقدمة الفرنج
واقعوها ودافعوها وعاقروها وقارعوها وأهلكوا عدده وملكوا عدده ولما
تكاثرت أعداد الاعداء استظهروا بالانكفاء عن الاكفاء وتدافعوا بعد
ما دافعوا وتراجعوا بعد ما راجعوا واطلع السلطان على خبرهم وعرف نفور
نفرهم فكتب الى العساكر الدانية بالدنو للعدو على العدو فتوافدوا للميعاد
وتوافوا للاعتضاد وتوافروا للجهاد وتوافقوا فى ادناء المراد بإبعاد المراد ورحل
الفرنج ثانى عشر رجب يوم الاحد وافية المدد وافرة العدد ونزلت على عين
بصه ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد تلك الرحاب المغتصه ووصل أوائلهم الى
الزيب وأجابوا داعية الصليب فاصبح السلطان يوم الاثنين على الرحيل
ووصل العنق بالذميل وكان الثقل قد سار من الليل وجرى على طريق الملاحة فى
الاوديه مجرى السيل ومررنا على جب يوسف الى المنيه آخذين بالحزم تاركين
للونيه وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفركنا وبتنا بها تلك
الليلة وسكنا ثم أصبح يوم الاربعاء خامس عشر الشهر ونزل على جبل الخروبه
واطلع منها على الاسرار المحجوبه وأشرف على العدو النازل ودنا حزب الحق
من حزب الباطل وكان عدة من الامراء ساروا على طريق هونين للفرنج
مقابلين مقاتلين فوصلوا فى هذا اليوم وقد نالوا فى طريقهم من القوم ونزلنا فى
أرض صفوريه بالاثقال وتجرد الرجال منها الى المخيم السلطانى للقتال وكان من
رأى السلطان عند رحيل الفرنج على قصد عكا ولم يزل رأيه بنور فطنته وطيب
فطرته أذكى وأزكى ان يسايرهم فى الطريق ويواقعهم عند المضيق ويقطعهم
عن الوصول ويدفعهم عن النزول فانهم اذا نزلوا اصعب نزالهم وأتعب قتالهم

واذا ثبتوا تعذر حصدهم واذا ثبتوا تعسر قصدهم واذا لصقوا ببطن الارض صاروا كالقراد واذا حلقوا في جو الدو طاروا كالجراد فعند الانتشار يمكن التقاطهم وعند الانحصار يمكن احتياطهم فقالوا اله بل نستقيم على السنن القويم ونطلبهم طلب الغريم وما اهون قطعهم اذا وصلنا واعجل ادبارهم اذا اقبلنا والطريق قبالتهم وعر وللمقصر عن التطاول فيه عذر فنمضي على أسهل الطرق ونسد فلقهم بالفيلق وتبين لنا بالعاقبة ان الرأى السلطاني كان أصوب فان نزالهم عند نزولهم صار أصعب ونزل الفرنج على عكاء من البحر الى البحر محتاطين بالانحصار محيطين بها للحصر وضرب الملك العتيق كي خيمته على تل المصلبه وربطت مراكبهم بشاطئ البحر فكانت كالآجام المؤتشبه وبعث السلطان ليلة وصوله الى مدينة عكاء بعناد خلها على غرة من العدو وتواصلت البعوث اليها التي هي على التزايد والنمو حتى استظهرت بقوتها وقويت باستظهارها فلما اجتمعت العساكر واتصلت بالاوائل الاواخر عبى جيشه طلبا طلبا وميمنة وميسرة وجناحا وقلبا وسار بهيبته وهيبته وأنزل العسكر على تعبيته ونزل بمرج عكاء على تل كيسان في ذوى اختصاصه وقد نصب من خيامه عليه اشراك اقتناصه وامتدت الميمنة الى تل العياضية والميسرة الى نهر الماء العذب فدارت رحى الحرب ودام كر الكرب وطاب طعم الطعن والضرب وطافت كأس البأس بمدام الدم على الشرب ووافى للانجاد عسكر الشرق ماضي الغرب وصرنا محاصرين للمحاصرين مكابرين للمكابرين قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط واستشطنا منه وهو مستشيط وأحدقنا باولئك الكفرة احاطة النار باهلها ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ورتبنا بالزبب والنواقير رجالا يصدونهم عن سبلها ودمنا نصابحهم بالقتال ونماسيهم ونراوحهم ونغاديهم ونعاودهم ونباديهم ونقدم بعوادينا على عواديهم ونصدهم ونصدمهم ويوجدهم البحر ونعدمهم ومازالت مراكبهم تتواصل ومناكبهم تتطاول وأهل الجزائر من أهل الجزائر متوافرون متوافدون مترادفون مترافدون قد لفظوا وجه البحر بنقب السفن وجذبوا بالقلوس على نجعه عران الرعن وألقوا على تياره بسط

البطش وحملوا على الصبر أوزار النحس ونبالهم وتعسا فانهم زادوا على رجسهم رجسا وبقى القتال بينهم وبين اليزكية كل بكرة الى العشية الى ان وصل الملك المظفر تقى الدين عمر ومظفر الدين كوكبورى الاسد الغضنفر فاستظهرنا بهما وبعسكرهما الدهم ووصل مقدمو الرجال فى الجمع الجم واستدارت الفرنج بعكاء كالدائرة بالمركز وزادوا من جانبنا فى التحرس والتحرز ومنعوا من الدخول والخروج ولج وثلث العلوج فى ضبط طريق الولوج وذلك فى يومى الاربعاء والخميس آخر رجب لانسلاخه والاسلام ينادينا باستصراخه وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد استهلت راياته واستقلت آياته وعز عزمه وعلا حكمه ومامنا الامن أسرج الجرد وجرد السريجيات وهاج بالاعوجيات وأشرف بالمشرفيات وبرز باعتقال الردينيات ورديان العقيليات وأذكى المذاكى وقرب المقربات وقدس سنان لدنه وجن جنان قرنه وساق سيفه ردع الدم وضاف وجوده مضيف العدم وأقبلنا والنصر مقبل والظفر متهلل والميمنة والميسرة باليمن واليسر ممتدتان والقلب له من التأييد والتمكين جناحان واتفقت الآراء وأجمع الامراء على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعه عند قبول الدعوات المرتفعه ومناب منابر الاسلام عن أهله فى جميع بلاده واجماع الالسنة والقلوب فى الضراعة الى الله فى نصرة المجاهدين من عباده وأحاط العسكر الاسلامى بجوانبهم وكدر عليهم صفو مشاربهم وفلل مضاء مضاربهم وهم فى مواضعهم واقفون وعلى مصارعهم عاكفون وفى مواطنهم ثابتون وعلى مواطئهم نابتون كالبنيان المرصوص مافيه خلل وكالحلقة المفرغة ما اليها مدخل وكالسور المحيط ما عليه متسلق وكالجبل الاشم ما فيه متعلق فزحفنا اليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم يتزحزحوا وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها وأنخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم أن يمتطوها ودامت الحرب قائمة ودعة الدم دائمه وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه وخلف نظامه حتى دخل الليل وحجز وعد النصر ما نجز وحزب الحق ما عجز فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما أمسوا وزادوا على ماجرى أمس وألهوا عنه وأنسوا فما طلعت شمس الظهيرة حتى طلعت شمس

الظهور وأصبحت شمس الجمهور واستضاف نورها مستفيض النور وحمل الناس من جانب البحر ثم الى عكا حملة شديده كانت لمن قدامهم من الفرنج مبيده وفرشوهم على تلك التلول وردوا مضاربهم من فلهم بها بادية الفلول وانهزم الفرنج الى تل المصلبة نحو القبه وثبتوا عند الوثبه وأخلوا ذلك الجانب وخلوا تلك المذاهب وقلعت خيامهم منها وقطعت أطماعهم عنها وانفتح لنا طريق عكا، ودخلها الرجال وحملت اليها الغلال ونقلت اليها الاحمال ودخل العسكر اليها وخرج وانكشف ضيق حصرها وانفرج وذلك من باب القلعة الوسطى الى باب قراقوش واستطرقت اليها العساكر والجيوش واطلع السلطان على الفرنج من سورها وشرع فى تدبير أمورها وخرج عسكر البلد للموازرة على قتال العدو العادى وترك الهوادة فى قصر النصر والهوادى والفرنج قد رهبوا ولو قدر واهربوا ولكن أصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمه وانهم أى وقت أرادوا كانت منهم عزيمه ومن العدو هزيمه وتوقفوا عن الاتمام وتقدموا عن مقام الاقدام ولو أنهم استمروا فى الحرب على هيئتهم وهيبتهم لباء الاعداء لنعمنا بخيبتهم فان الصدمة الاولى أخافت وحافت ونافت بقاء القوم وعلى هلاكها أنافت لكنا تركناهم حتى عادت اليهم الارماق وعاود فرقهم الافراق وأبصروا ما بين أيديهم وما خلفهم وأزالوا فيما بينهم بالموافقة خلفهم وأثبتوا فى مستنقع الموت أرجلهم ورأوا ان الوقت قد أمهلهم وقال امراؤنا هؤلاء قد سهل أمرهم وخمد جمرهم وقد حص رياشهم حصرهم وهم فى قبضتنا أى وقت أردنا ولقصدهم تجردنا وقالوا نصبر الى الظهر ونسقى الخيل ونعود وحينئذ يشتغل بهم العدم ويفرغ منهم الوجود فانصرفوا على وعد العود وتفرقوا فى مراتعهم تفرق الذود وبلع العدو ريقه ووجد الى الجلد طريقه وجمع بعد التفرق فريقه وضم عن الانتشار راجله وزم رامحه ونابله ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات وقد صوبوا الجروخ وفوقوها وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها كانهم فى الدروع أراقم وفى المجان علاجم وفى النهوض قشاعم وفى الضراوة ضراغم واختلفت الاراء مع

العلم باحترامهم ونسترهم بتراسهم فمنا من يقول نصبحهم بالزحف ونزورهم بالحتف و يترجل الامراء فيتبعهم الاصحاب وتنشب من آسادنا فى تلك الخنازير من النشاب الاظفار والانياب و يتصل الطعان والضراب فننسفهم ولو أنهم جبال ونطفىء نيرانهم فلا يقدلهم من بعدها ذبال ومنا من يقول يدخل راجلنا الى البلد مستعدا بالاهب متأهبا بالعدد فاذا زحفنا اليهم وأوجفنا عليهم خرج من فى البلد من العسكرية والراجل ونازلناهم من امامهم ومن ورائهم بالنوازل فلا تطرف لهم بعدها عين ولا يبقى للدين بعد درك الثار منهم دين ومنا من يقول لا بل نفرج عنهم ونبعد منهم فادمنا على هذه المضايقة والمصابره والمحاققة والمحاصره والمكابدة والمكابره فانهم يتيقظون ويتنبهون و يتحفظون ولا ينتهون و يتحرزون و يتحربون ويتوجلون ويتوجون فاذا أرخينا طولهم وأوسعنا أملهم استرسلوا بعدما استبسلوا واستقبلوا الدعة بعدما استقتلوا واطمأنوا فطمعوا واذا أبطأنا تسرعوا واغتروا واباناعلى غرة فاغاروا وظهرت لهم آثار ركودنا عنهم فظهروا وثاروا فحينئذ حينهم يحين وشينهم يشين واذا ظهروا اظهرنا عليهم ومتى أصحروا أصحرنا اليهم وان بارزوا بارزناهم وأنجزنا عدة أمانينا فيهم وناجزناهم ومنا من يقول هؤلاء عدد النمل وكثرة الرمل وظلام الليل وعرام السيل فما يقمهم الا العدد الكثير ولا يقمعهم الا الجمع الجم الغفير والمصلحة ان نستنفر العساكر ونستحضر لابادتهم البادى والحاضر ونستجيش الجحافل ونستثير الفارس والراجل ونلقاهم بامثالهم ونقدم عليهم مستظهرين فى قتالهم ومنا من يقول هؤلاء عالم لا يحصى قد حضروا من الادنى والاقصى وأزوادهم عن قريب تفرغ وآمادهم فى الصبر تبلغ وأمدادهم تنقطع وأنجادهم تمتنع وموادهم تقل وجوادهم تضل ولمراكبهم فى الشتاء شتات ولحبائلهم وحبالهم انبتات فاما أن يضطروا الى الانفصال واما أن يؤذن فناء أرزاقهم بحلول الآجال و يهون علينا حربهم فى تلك الحال وكفى الله المؤمنين القتال فهذا عسكر الاسلام وجند مصر والشام وفى الاقدام به خطر وفى المباشرة بحربه غرر والمصلحة العامة تحفظ ورأس المال

يحفظ ومنامن يقول نستدعي من مصر الاساطيل ونستدفع بحقها الاباطيل ونستكثر من مراكبها ونستعدي على هذه الافاعي بعقاربها ونستطيل على الشناة المستطيلة بشوانيها ونعدو على عوادي الاعادي بعواديها واذا وصلت وقطعت عليهم طرق البحر وصلت لنا أسباب النصر وحينئذ نقاتلهم براو بحرا ونوسعهم بمضايقتهم فيهما قتلا وأسرا ومازالت هذه الاراء بيننا متداوله وخواطرنا في تدبيرها متجاوله والحرب بيننا وبين الفرنج جاريه وزناد الهيجاء لاشعال نارها واريه وفي كل يوم نتصافح بالصفاح ونتكافأ في الكفاح وننطق فيهم بكلام الكلوم ونلحق منهم الموجود بالمعدوم وللطلائع وقائع وللوقائع طلائع وللسهام أفواق فائقه وللحمام أسواق نافقه وسرايانا في كل يوم وليلة تسري وتأسر وتبري وتأبر وتكبس وتكسب وتسبي وتسلب والسلطان يباشر ذلك كله بنفسه وهو يدأب في يومه لغده مجتهدا في الزيادة على أمسه نائبا عن أعوان المسلمين وأنصارهم ساهرا لهم في لياليهم قائما بأمرهم في نهارهم والعين الساهرة في سبيل الله قريره وتعب يوم واحد لله في اليوم الآخر خيره

(ذكر وقعة تمت يوم الاربعاء سادس شعبان)

وركب الفرنج آخر يوم الاربعاء سادس شعبان باجمعهم وتقدموا من موضعهم واشتاقوا الى مصرعهم وفارقوا الحازم في تسرعهم وخرجوا عن رجالتهم وتجردوا بخيالتهم وحملوا على الواقفين من أصحابنا حملة الرجل الواحد فتحرك الصف الثابت الساكن أمامهم كالبنيان اذا انحلل من القواعد وتراجع عنهم المسلمون استدراجا وملأت الارض السماء عجاجا وعجاجا وزخر بحر الحرب على أمواج أمواجا فاقربوا من خيام السيزك الاوقد اعتكر جو المعترك وعاكرنا قد أوجفت عليهم وزحفت اليهم وأردتهم بعقابهم وردتهم على أعقابهم ووصلت الى رؤسائهم فقطعت رؤساءهم وأطافت بأسهاذلك الجمع بوسا وثنت وجه الكفر عبوسا وولوا مدبرين وأدبروا مولين والجريح بالقتيل عاثر والاخر الباسل باسم بالموت باشر فلما جن الليل رجعت بما جنته الخيل وبات كل حزب على حرب واعداد عدد طعن وضرب وبات الناس من

الجانبين على غاية من التيقظ وهممهم متنبهة للحفظ وحراسه وحمايه وسياسة ورعايه فلما أصبحوا عادوا الى عادتهم فى اللقاء وهاجوا بعاديتهم الى الهيجاء هذا وأبواب البلد مفتوحه والصدور بطروق الظهر اليها مشروحه والفرنج قد ندموا على ما قدموا وعدموا بصيرتهم عاصدموا وعادوا لا يفرطون ولا يتورطون وينقبضون ولا ينبسطون

(ذكر وفاة حسام الدين طمان)

انتقل السلطان ليلة الاثنين حادى عشر الشهر الى تل العياضيه ليكون منه فى الجهة المرضيه فان هذا التل بازاء تل المصليه منزلة العدو وهو مشرف عليهم للعلو وضربت خيام الميمنة ممتدة الى البحر وخيام الميسرة الى النهر واتسع مجال النار ضاقت الدائرة على الكفر وكان الامير طمان صاحب الرقة من رضا ولم تزل وجوه الايام الغبر فى سبيل الله باحمرار بيضه بيضا وهو الحسام الفاضل والهمام الباسل والقرم البازل والندب الحلاحل والمحترق لحميه الدين والمقترح لحماية المسلمين ولما وافت وفاته وفاته رجاؤه ولم يرجأ أوانه أسف على عمره وأسى على أمره وحزن كيف لم يقتل شهيدا ولم يستشهد فى الجهاد سعيدا وقال قدموا حصانى حتى أشهد الحرب وأستشهد وأجاهد الى أن أقتل وأجهد فانى أرى موتى على الفراش غبنا وقد عرفتم منى شجاعة لا جبنا وتوفى فى عصر الاربعاء ثالث عشر شعبان وبوأه الله الجنان وبشره رضوان وكان قد توفى بالقرب الامير الندب فارس الحرب ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب حسام الدين سنقر الخلاطى النجيب المنتجب فنبت مضارب الدين باغماد الحسامين وجلت الهموم لاجل أجل الهمامين فوجمت النفوس وألمت القلوب وفاضت لغروب فيضهما الغروب

(ذكر واقعة للعرب أربت لنا بالارب)

انتهى الينا ان الفرنج يتطرقون ويتطرفون ويأمنون ولا يخوفون ويخرجون للاحتشاش وينتشرون لضم الاعشاب من الاعشاش ويصلون الى طرف النهر وهم لمن يحاق عليهم من فوقهم تحت القهر فانتدب جماعة من العربان وضراغم

فارسة من الفرسان فاغاروا وهم غارون وساروا الى جمعهم وهم بجمعهم سارون وحالوا بينهم وبين خيامهم وحشروهم الى حمى خيامهم وحلوا اليهم حين حلوا عليهم بوسا وقطعوا منهم لما اتصلوا بهم رؤسا وأحضروها عند السلطان فاجتابوا بها خلع الاحتباء وبعثهم على الجبهة والاباء وذلك يوم السبت سادس عشر الشهر وسر المسلمون واستبشروا بوقعة النهر هذا والقتال بينهم وبين أصحابنا فى عكاء متصل وشرار الشر مشتعل والموت منهم منتق وفيهم متنقل وفى كل يوم تقوم الحرب على ساق والارواح فى مساق والمصاع على اتساق وكم قتل من حزب العدو وأسر وكم حمل ليكسر فكسر وربما عامل الحزبان وكل القربان فتوافقا على الامان وتواقفا يتكلمان وربما أقدموا ثم نكصوا وغنوا ورقصوا واذا لغبوا لعبوا واستراحوا الى الوقوف اذا تعبوا ومن نوادر ما جرى وغرائبه وملح ما تم وعجائبه ان الطائفتين فى بعض الايام ضجرتا من مباشرة الحرب على الدوام فقال واحد من الفرنج الى متى هذا القتال وقد فنى الرجال فأخرجوا صبيانكم الى صبياننا وليكونوا فى أمانكم وأماننا فبرز منهم صبيان ومن البلد آخران فقاتلوا مليا وألفوا نار الحرب صليا ثم وثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين وضرب به الارض وقفز عليه وانقض وقبضه كبيرا وجذبه أسيرا فافتداه بعضهم بدينارين وعاد المسلم من ظهوره وسروره الى جنتين والعدو من كفره وفكره الى نارين ومن الاتفاقات النادره وأمارات السعادة الظاهره انه أفلت من بعض مراكب الفرنج حصان له عندهم صيت وشان فلم يقدروا على ضبطه كما عجزوا عن ربطه ومازال يعوم فى البحر وهم حواليه حتى دخل مينا البلد وتسارع أصحابنا اليه وأهدوه الى السلطان وعده العدو من أمارات الخذلان ورأيناه لنا من دلائل النصر والاحسان

﴿ذكر الوقعة الكبرى﴾

وأصبح الفرنج يوم الاربعاء العشرين من شعبان وقد رفعوا الصلبان وزحفت أسودهم فى غاب المران وطارت بهم خيولهم عقبانا على عقبان وجرت بالجبال

منهم رياح وجالوا دون النسل كأنهم له وشاح وخرجوا على التعبيه وشفعوا نداء الكفر بالتلبيه وشغفوا بالتجربة للتربيه وتقدموا معتزمين وعزموا مصممين وثاروا ثورة الشيطان وفاروا فورة الطوفان وقدموا الراجل امام الفرسان وزحفوا أطلابا وحفزوا اطلابا ودبوا دبيب الليل الى النهار وهبوا هبوب الخيل الى المضمار وأجروا سيول السوابق الى القرار وجروا ذيول السوابغ الى الغوار وتحركوا وهم هضاب وتدركوا وهم غضاب ومازالت ميسرتهم تكثر وتكثف وتعطوا وتعطف وتفور وتثور وترود وتدور وتهم وتهمهم وتزدم وتدوم وقد عبى السلطان ميمنته وميسرته وطلب من الله نصرته وثبت قلبه وقلبه ثابت وحزبه في صف الحرب نابت ورعبه لكبة العدو كابت وهو يعبر بالصفوف ويأمر بالوقوف ويحض على حظ الابد ويحث على الجلاد والجلاد ويثوب للوثوب ويندب الى الندوب ولما شاهد شروق برقهم وخروق خرقهم وكثافة ميسرتهم وحشو حشود كثرتهم أنهض رجال القلب لتقوية ميمنته على الحرب وكان الملك المظفر تقي الدين من الميمنة على الجناح في جمع بعثر بعثيره وارد الصباح وكلما تقدموا تأخر ليجرهم ويحذر مكرهم ومكرهم فعرفوا انه لاقبل لهم بمقابلته وان هذا ليس ميقات مقاتلته فتركوه واستقبلوا القلب وزخر بحرهم وعب وحملوا حملة دوى منها الدو واسود منها وجه الجو ووصلوا الى جموع ديار بكر والجزيره وغاصوا في لجتها بغدران السوابح او السوابغ الغزيره وكانت من القلب على الجناح للطيران وحبالها على الرياح للجريان فعرفوها بالغره واستضعفوها لدى الكره وألموا بها فما ألمت وهموا بها فما اهمت واندفعت ومادفعت وتراجعت ومارجعت وتعكست وماعكست وأدبرت وماندبرت ولكونها غير عارفة بقتال الفرنج هابت وماهبت ولابت ومالبت ورابت ومارببت وجاؤا الى القلب وقلبوه وحاربوه وحربوه وخربوا حزبه وخرقوا حجبه وهنالك استشهد كرام باعوا أنفسهم بالجنه وأمنوا نحورهم نحو الاسنه منهم الامير مجلي بن مروان وكان مجليا في المروه والظهير أخو الفقيه عيسى وكان ظاهر الفتوه وآخرون

اعترفوا بذنوبهم فرحضوا عار الشهادة درن حوبهم وصعدوا الى مخيم السلطان
طامعين في استطالة حزب الصلبان وكنت في جماعة من أهل الفضل قد ركبنا
في ذلك اليوم ووقفنا على التل نشاهد الوقعة وننتظر ما يكون من القوم وما ظننا
ان القوة تهي وان الواقعة الينا تنتهي فلما خالطونا في المخيم وباسطونا في الجثم
وكنا على بغال بغير أهبة قتال استدركنا أمرنا وأخذنا منهم حذرنا ورأينا
العسكر موليا والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخليا فوافقنا في الاندفاع
وألفينا الاستضرار في المال عين الانتفاع فوصلنا الى طبرية فيمن وصل
ووجدناها كلها قد أجفل فسقنا الى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقيه وكل منا
ذاهل عن شبعه وريه مفكر فيما يكون من أمره منكسر القلب لما تم على
الاسلام من كسره لا يألف جنبنا ولا يلفى بيننا ممسك بلجام فرسه قد آذن
ضيق نفسه بضيق نفسه ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق وهو غير مفيق
ومنهم من وصل الى دمشق غير معرج على طريق وأقمنا بموضعنا على الجوى
والخبل واقفة بجمها والطوى والغمض غير طارق والفرق غير مفارق
والقلوب مرتاعة مرتابة والادعية الى الله مرفوعة مستجابة وتحدث الناس فيما
بينهم بأن الاسلام عاد جده وعدا جنده وان الكفر حان قله وفل حده وان
الميسرة ثبتت فثاب اليسر والاسدية انتصروا فأسد النصر وكان هذا الصدى
يقوى والصدأ يروى والبشرى تسري والبرد بها تجري والناس بين مصدق
ومكذب وذاهب في مذهب من الظن مذهب مهذب حتى عبر مصرا علينا
خادم اسمه صافي وقد ورد موردا لظفر الصافي فنادى أين العماد فقد جاءه
من النصر المراد فأسرعنا اليه واجتمعنا عليه فقلنا ما الخبر وكيف صفا
الظفر وصفا الكدر وقدر السلطان وتسلط القدر والى أين أنت سار
بالنبا السار وفي أية دار تنزل بمنزل اسرار الدار فقال انا بشير دمشق بالنبا
العظيم والخبر الكريم فقلنا أهلا بناثر البشائر وطائر الاوطار وسائر
بالمسار والاخبار بالاخبار والصديق الصادق والموفق الموافق ومرحبا

بالحصى الخاص لما مرحبا الخل بالخبر الفعل فخلا وكم أم للنجح أملا وجلا وجلا فابنا مجبورين مجبورين ونبنا مثابين مأجورين وندمنا على ما ندمنا في الهزيمة وعز علينا ترك الاخذ بالعزيمة ولقينا السلطان وقد قتل وقتل وجد وجدل وانتقم من القوم ومن مقامه ما انتقل وقد شل الجموع وجمع الاشلاء وأدام الاجراء حتى أجرى الدماء

«ذكر حصة النصرة بعد صحة الكسرة»

«وكيف أدال الله الاسلام وأذال الكفر بتلك الكرة»

لما تمت الكسرة وعمت الفترة وكرت الكرة وأمرت تلك المرة وصل جماعة من الفرنج الى خيمة السلطان وشيم من عارض اعتراضهم شؤم شيمة الشيطان وجالوا حوله وخالوا دوله وصالوا وصوله ثم رأوا عنهم انقطاع أشياعهم وعدموا اتباع أتباعهم فشرعوا في اندفاعهم وهابوا الوقوف على اجتماعهم فانحدروا عن التل وقد جاؤا بقوة العز فآبوا بضعف الذل واستقبلهم أصحابنا فركبوا أكتافهم وحكموا في رقابهم أسيافهم وردوهم وأردوهم وعدوا على شركائهم في الشرك فأعدوهم وكان في ميسرتنا عسكر سنجار والاسدية فما زالوا وما زلوا بل وصلوا وصالوا وصلوا وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت بالجبال الرياح وما حطوها فودعت أجسامها الارواح وعاد من كان من الميمنة الاسلامية بالبعد حاد المضاء ماضي الحد مثل تقي الدين وقايماز النجمي والحسام ابن لاجين ومن ثبت من أبطال المجاهدين فكروا على ميسرة الفرنج فشلوها وانتشلوها من دمائها وأعلوها وأنهوها وفلوها ولقوها واقتلوها ووضعوا فيها السيوف وأوضعوا اليها الحتوف وأوسعوها قتلا ذريعا وما أبطأ الوقت حتى صار مقدامها صريعا مصريعا فلم يفلت من الاعداء الا أعداد ولم ينج من آلافها الا آحاد وأمست لنار الحرب فراشا وللارض المعركة فراشا وتبعها أصحابنا حتى كلت سيوفهم وكلوا وملت لتوتهم وليوثهم وملوا وفرس زهاء خمسة آلاف فارس من كل ممارس مارس ومستوحش بالموت آنس وممن أودى في الاقدام مقدم الداوية ولم تحمه من الحمام ناره الحامية لنار الحمية وحكى عنه انه قال عرضنا

في مائة ألف وعشرة آلاف أحلاف الخلاف وألاف ثلاث بلا ائتلاف فلما عجزوا
وبالخندق احتجزوا وقف عنهم أجنادنا وبلغ المدى فيهم جهادنا واجتهادنا ومن
العجب ان الذين ثبتوا منا لم يبلغوا ألفا فارس ردوا مائة ألف وآتاهم الله قوة بعد
ضعف وكان الواحد منا يقول قتلت من المثلثين ثلاثين وأربعين وتركتهم بالعراء
عراة مصرعين ولا شك أن الله أنزل ملائكته المسومين وكل يتحدث بعد
ذلك بما شاهده ويعهد الثناء عاهده وحكى بعضهم قال كنت على فرس
قطوف ماله منه سير ولا وقوف وأنا منهزم من فارس مدجج في بحر الحرب
ملجج وهو على جبل يجري به جري الريح وينادي بشعار المسيح وقد لز بقربي
حصانه وهز اصابي سنانه فما شككت انه يشكني بلهذمه ويكبني
بخذمه وأيست من البقاء وأيست للشهادة واللقاء واستعذت بالله واستغثت
وتشاهدت بما شاهدت ثم أبطأت على صدمته وأخطأتني خذمته فالتفت
فاذا هو وحصانه ملقى كلاهما وما وجدت بالقرب أحدا أقول انه أرداهما
فعرفت انه نصر الهي وصنع رباني في ميدان الايمان شهي وفي آفاق الاحسان
بهي فايقنت ان النصرة ما ملكت الا الملائكة نصرت وان الظهور ما مر
الا لامر الله ظهرت

(ذكر مكاتبة أنشأتها الى بعض الاطراف)
(بشرح ما يسره الله في هذه الوقعة من الالطاف)

قد سبقت المكاتبة بشرح الاحوال وذكرها وشكر ألطاف الله الخفية وابداء
سرها ونشر مطاوي النعم باذاعة طيها واشاعة نشرها وذكر فيها ما الفرنج
عليه من اجتماع راجلها وفارسها والاحتماء بخنادقها ومتارسها وان لنا كل
يوم فيهم نكاية بالغة وسطوة دامغة وثعالب عوامل في دمائهم والغة ومضارب
مناصل لرؤسهم فادغة ونيوب عوامل لمضغهم ماضغة وذيول نقم عليهم في
تقلص ظلال ضلالهم سابغة وأيدي أيد لصفحات البيض بنجيعهم القاني صابغة
وضمائر وضوامر عن كل شغل سوى شغل الجهاد فارغة وهمما وعزائم لا ترى
عن وقم القوم أهل الزيغ زائغة ومابرح الفرنج في برح شديد وأمر غير سديد

وظل للذل مديد وضيق حدهم في كل يوم جديد جديد حتى ضاقت أنفسهم وأنفاسهم وأخفق رجاؤهم وظهر يأسهم ووقع بينهم بطول المقام بأسهم فاجمعوا أمرهم على انهم يجدون في اللقاء ويهجمون الى الهيجاء ويلقون الالوف بالالوف ويصدمون الصفوف بالصفوف ويعرضون نحورهم ووجوههم على الاسنة والسيوف ويحكمون في كلام الكلوم من الصواهل والصوارم بين الاصوات والحروف ويكشفون بشبه التثليث أدلة التوحيد ويكشفون الضر عنهم بالجد الجديد والحد الحديد وبرز ذلك الخميس يوم الاربعاء لعشر بقين من شعبان ورفعوا الصلبان وأشرعوا الخرصان واتبعوا الشيطان وركبوا الرجال وطلبوا الفرسان وحلت لهم أطلاب تضم أبطالا وتضمن بباطلها للحق ابطالا وتأمل لشملها المتفرق اجتماعا وترجو للصليب السليب ارتجاعا وعصفت رياحها الهوج وأقبلت بحارها وسوابغها تموج وكاد أن يثبت للشيطان قدم ويراق للايمان دم فانها خرقت حجاب الصف وفرقت شمل الجمع الملتف وراع جنان الجبان وهمه وأدبر موليا وعزمه زعمه فظن من لا يقين له ان الاسلام قد أسلم وان نصر الله الموجود قد عدم وان الكفر المتأخر قد تقدم وان الصبح المتبلج قد أظلم وهنالك عرف أهل الثبات وثبت أهل العرفان ورقصت المران على أناجيج الشجعان والتف العنان بالعنان والتقى السنان بالسنان وخطبت الصوارم على منابر الطلى ورنمت اللهاذم في كلا الكلى وفضت البغالق مغالق المتقف وزحفت الفوارس الى فوارس الزحف وعطفت العساكر المنصورة طلابا بالثلث الاطلاب ووصلت ضرب الاعناق بقطع الرقاب ومازالت تشل الفرنج وتفناهم وتحل عقدهم لوهن وتحلهم وتروي ظمأ الظبا من ورد وريدهم وتخضب شيب البيض بدم طريدهم حتى فرشت بعد أن سلبت أشلاؤهم بالعراء عريا وجرحت خيولهم وخيالاتهم فلم تستطع اجراء ولم تلق جريا حتى تثلمت وتلثمت بنجيعهم صفحات الصفاح ووقفت أشباحهم وقفة الوداع لفراق الارواح وأعرب حديث حادثهم عن جمجمة الجماجم الفصاح وقتل من مقدميهم ومتقدميهم زهاء خمسة آلاف زهى الاسلام بما تسع من عطن عطبهم

وحسن منقلبه بسوء منقلبهم وعاش بما شاع من قتلهم واشتغل العسكر المنصور بشغلهم وطاب القلب المهموم بما تم من مأتم الكفر وعرس الدين وفصم الهدى من الضلال المتين وحمت الرواعف الفوارع بحمل هامات الحاملين وانجلى الغبار عن كل قتيل ما للعاثر من مقيل ولا لقائله من مقيل وعادت أعلام الاسلام ظاهره وايمان الايمان باطشه قاهره ويدى الهدى على النصر من فوقه وعيون العدا عن النظر بالعمى مكفوفه ولم ينج ممن حمل من حمل راسه ولم يقدم من أولئك الرجال الا من فقد رجاءه ووجد يأسه وعاد الفرنج الى خيامهم وقد نجموا بتلك الالوف وأصيبوا عن صفاق تلك الصفوف وتراءت وجوه الفتوح لنا من خلال تلك الحتوف ودخل الليل عليهم ووقفت العساكر حوالهم وهم يرون ويرنون الى ما أصابهم من الكسرة وأخطأهم من النصره وحل فيهم من الرزء وسخر بهم الشيطان فى موقف الهزء وفجع كلهم بالجزء ونقص منهم العدد الكثير وركد من ريحهم ذلك العاصف المبير فانهم فى حشد كالدبى وجمع أغص الوهاد والربى وقد أخلدوا الى الارض وشدوا على حب الموت الحبا وودوا لو وجدوا مهربا وتفرقوا أيدى سبا وقد عادوا وتحصنوا وتصبروا وتخيروا المقام على الحين حين تحيروا وأوسعوا الخنادق وعمقوها وأحكموا المتارس ووثقوها وندموا على الحركه فانها أفضت بهم الى الهلكه وأنهم ما داموا رابضين وعلى يد الصبر قابضين يتعذر الوصول اليهم والدخول عليهم وتطول أيام الاحاطة بهم من حواليهم وفى تلك الحركة التى جلا بها الشجعان طعم الطعن وغلب فيها الجبناء وهم الوهن وتجافى عن الثبات من محبى الدنيا جنب الجبن ارتاع عسكر الشرق من ذلك الغرب واختار المتسللون المتفللون منهم البعد على القرب وما ثبت الا عسكر سنجار فكله مجرب مجرب للامور سديد سداد الثغور ومجاهد الدين يرنقش قد صدق نيته بالمجاهدة للدين وجلا ظلمة الوهم بنور اليقين وقرت عين طمان بالجنة باقدام الولد وماذا يقال فى شبل ذلك الاسد وأما الغرباء هابوا وكانوا قد ضجروا من الحضور فغابوا والفرنج الآن فى ذل وخسر وفى عسر بغير يسر وفى حصر بغير حصر والمرجو من الله سبحانه أن يقدر على قطع دابرهم واهلاك سائرهم عن آخرهم

وتحريك همم المؤمنين في تسكين ثائرهم وتخريب عمرهم وعامرهم وانزال دوائر السوء بنازل دوائرهم وما دام البحر مددهم والبر لا يصدهم فبلاء البلاد بهم دائم ومرض القلوب بادوائهم وأسوائهم ملازم وتدبيرنا الآن في التدمير على هذه الجموع وسوقهم الى مصارعهم في ورطة الوقوع فأين حمية المسلمين ونخوة أهل الدين وغيرة أهل اليقين وما ينقضي عجبنا من تضافر المشرك على شركه وتظاهره في اتساع مسلكه واتساق سلكه وقعود المسلمين عن المسلمين وتقاعدهم وتغاضيهم في تعاضدهم وانحلال عقود تعاقدهم فلا ملبي فيهم لمناد ولا منقذ لمناد ولا موري منهم في اجابة داع لزناد فانظروا الى الفرنج أي مورد وردوا وأي حشد حشدوا وأية ضالة نشدوا وأية نجدة أنجدوا وأية أموال غرموها وأنفقوها وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم الا جارى جاره في مضمار الانجاد وبارى نظيره في الجد والاجتهاد واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والارواح وأمدوا أجناسهم الانجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح وما فعلوا ما فعلوا ولا بذلوا ما بذلوا الا لمجرد الحمية لمن تعبدهم والنخوة لمعتقدهم وليس أحد من الفرنجية يستشعر ان الساحل اذا ملك ورفع فيه حجاب عزهم وهتك يخرج بلده من يده أو تمتد يد الى بلده والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا وغفلوا وكسلوا ولزموا الحيرة وعدموا الغيرة ولو انثنى والعياذ بالله للاسلام عنان أو خبا سنا ونبا سنان لما وجد في شرق البلاد وغربها وبعد الآفاق وقربها من لدين الله يغار ومن لنصرة الحق على الباطل يختار وهذا أوان رفض التواني واستدناء أولي الحمية من الاقاصي والاداني على انا بحمد الله لنصره راجون وله باخلاص السر وسر الاخلاص مناجون والمشركون باذن الله هالكون والمؤمنون آمنون ناجون

(ذكر ما عرض للعسكر بعد ذلك من العذر)

(فصل عن قصد المباكرة لمناجزة أهل الكفر)

وعاد السلطان الى مضاربه وقد عادت مضاربه الى عادة المضاء وزادت مشاربه

من علاة الصفاء وأمرءوا راة الشهداء ومن جملتهم الفقيه أبو على بن رواحه وكان غزير الفضل قد أكمل الرجاحة والسجاحه وهو شاعر مفلق وفقيه محقق من ولد عبد الله بن رواحة الصحابى الانصارى فى الشهادة والشعر معرق فطرفه الاعلى يوم موتة مع جعفر الطيار وطرفه الاقرب يوم عكا فى لقاء الكفار ومنهم اسمعيل الصوفى الارموى المكبس وكان شديدا عفيفا عاريا من العار لا يتدنس بالشبه ولا يتلبس ومنهم شيخ من الحاشية فى بيت الطشت وغلام فى الخزانة أمين على البيت وآخرون صودفوا عند القتل فختم لهم بالسعاده وختامهم الشهاده وهؤلاء سوى من وقع فى الوقعه وذهب قبل الرجعه وأجمع السلطان وذووا الآراء انه يصبح القوم ويباكر فى طلب أرواحهم اليوم وقال هؤلاء قد أضعفنا قوتهم وأعجزنا قدرتهم وفثأنا سورتهم واخمدنا فورتهم وقتلنا مقاتلتهم وأدوينا داوينهم فان تركناهم لعوا الريق وبغوا فى الاحتراز والاحتراس الطريق فنحن نوا فيهم غدا ونوفيهم ردى ونكيلهم بصاع المصاع ونذرعهم بباع السباع ونقيسهم بذراع البراع ونوسعهم قرى القراع ونذيقهم حر الحرب ونسيئهم فى طعم الطعن ضرب الضرب ونعين من عيونهم للسهام سهاما ونتخذ لارواح النصال من أجسامهم أجساما ونغرقهم بماء فرند الهندوانيات ونحرقهم بنار زند اليمانيات ونوجد من عدمهم النصر ونطيب من نتنهم النشر ونقطع دابرهم ونلحق بأولهم آخرهم فلما اتفقت الآراء على امضاء هذا العزم واجراء هذا الحكم تفقدوا العسكر فاذا هو قد غاب لما ناب من الامر وراب وذلك ان غلمان العسكرية وصحابها وأوباش الجمع وأوشابها ظنوا ان الفورة هزيمه فنهبوا الاثقال والاحمال وعدوها غنيمه وانهزم من انهزم من الجند وثبت من ثبت من أهل الجد فمن عاد الى رحله وجده منهوبا مسلوبا وكان ظنه أنه فرغ من لقاء خطب فلقى خطوبا فضوا وراء الغلمان وبلوا بسوء دين السودان وأصبحنا واذا العسكر غائب والعازم عازب والقاصم قاص والطائع عاص والجمع متفرق والثابت قلق والآمن فرق والغنى معدم والجرىء متندم فهذا خلف ماذهب من ماله ذاهب وهذا لمن طلب الطريق بأثقاله طالب فنفتر

ذلك العزم وتأخر ذلك الحكم وانتعش الفرنج فى تلك المده وانتشلوا من تلك الشده واستطالوا بعد الاقصار وفرغوا لشغل الحصار وجاءتهم فى البحر مراكب أخلفت من عدم وبنت ماهدم فكمل بالمدد مانقص من العدد ولولا أن الله تعالى قدر بقاءهم لكنا عاودناه صباح تلك الليلة لقاءهم فان الفرصة أمكنت والحصة تعينت والجوخال والضوءعال والحال جلية والجمال حال فقضى الله بما قضى وعبرا الملضض بما مضى وبقيت هنالك تلك الجيف منتنة منبتة مبثه وتلك الجثث محينة مخبثة مجتثه تعرفنا ان نشورها من حواصل النسور وان قبورها بطون الضباع والنمور فشكرنا من رائحتها وشكرنا من جائعتها فحمل السلطان جلها على العجل الى النهر ليشرب من صديدها أهل الكفر فحمل الى الماء أكثر من خمسة آلاف جثه بعثت الى النار قبل يوم البعثه فاعتبر بها الامن اعتبر واستشفى من أقبل بمن أدبر وسلم الله من أسلم وكف وورد بالردى من كفر

﴿ ذكر ما اعتمده السلطان فى استرجاع مانهب من الثقل ﴾
﴿ واستدراك ماحزب من الخلل ﴾

تقدم الامر الى المقدمين والامراء بعد النداء واعلام الجهلاء باحصاء كل مانهب واحضار كل ماساب وانه من لم يرد ما أخذه أخذ بالردى واعتدى عليه بمثل ما اعتدى فاحضر كل ما عنده وبذل فى الكشف جهده وجمعوا ما تفرق منه فى الخيام فى خيمة السلطان وضاقت عن كثرته سعة ذلك المكان وجلس السلطان يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان فكل من عرف من ماله شيأ أخذه بعد احلافه وحلا فى مذاق الشكر قطاف ألطافه وسعى فى معاناة ذوى الاخلاق الصعبة على سهولة أخلاقه وشفى الغلل والغلل بالنهل والعلل من اشفاقه وقمش ذلك القماش وحصل من ذلك الوبل الرشاش وصح بعد العرى والعثار الارتياش والانتعاش وكتب الى الولاة بالامصار والنواحى والاقطار والضواحى بحث البحث وجد الكشف واستخلاص كل ما يوجدو يؤخذ بالرفق والعنف وتراجع الناس وتتابع الايناس وعادت مضارب العزائم الى

مضانها وقضاة القواضب الى اقتضابها واقتضائها وغار الآنف وأنف الغيران وتسلط العزم وعزم السلطان وثار الحنق وحنق الثائر وطار العلق وعاق الطائر وطلبت الطلى نكاح بنات الخلل الذكور واشرأب لشرب نبات الاسل الى ماء النحور وحمى ذووا الحمية للتقاضى وقالوا حتى متى التراضى بالتغاضى

(ذكر مجلس عقد ورأى عليه اعتمد وصواب افتقد وقد فقد)

وحضر أكابر الامراء عند السلطان يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان فقال اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد أجلب بخيله ورجله وأناخ بكلكل كله وقد برز بالكفر كله الى الاسلام كله وجمع حشده وحشد جمعه واستنفد وسعه وان لم نعاجل الآن فريقه والبحر قد منع طريقه أعضل داؤه وتعذر غدا لقاؤه فانه اذا سكن البحر واستسهل ركوبه السفر تضاعفت أعداد الاعداء فظهر الاعدام من الاعداء وخرج الداء عن قبول الدواء ونحن ما وراءنا نجدة ننتظرها ولا قوة نستحضرها وما بلى بهذا المعشر الا معشرنا وما بازاء عسكر الكفر الا عسكرنا وما فى المسلمين من ينجدنا وما فى بلاد الاسلام من يسعدنا وعساكرنا حاضره وعزائمنا للتوانى حاظره وعيون أسنتنا الى الفتك بالعدا ناظره وما يعوزنا الا حضور أخينا الملك العادل سيف الدين ولا بقاء لانتقاد اذ أصحر منه ليث العرين فالرأى كل الرأى فى المناجزه قبل وقوفهم على محاجز المحاجزه ثم قال ليشر كل منكم برائه ولا يقدم على قول ورأيه من ورائه فتجاذبوا حبل الاضطراب واختلفوا فى الآراء بحسب اختلاف الآراب وركب كل منهم هواه وأعلن بما نواه ومنهم من قال هذا ثالث عشر تشرين الثانى لا الاول وقد دفعنا الى الخطب الاعضل والتعب الاطول والنائب الاعصى والناب الاعصل وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يوما وما طعمنا فى هذه الليالى نوما ولا سمنا الطارق طيف غمضا ولا شمنا الا بارق سيف ومضا ولكم قد ذقنا المنايا وقد دخلنا لهواتها وكان أبا الطيب عنانا بقوله * وكأنما خلقوا على صهواتها * وقد كلت الصوارم وقلت البواتر وملت العساكر وهذا الشتاء

قد أقبل والعدو قد استقتل والشر قد استفحل ومابنا أنى قلعه الامن يتأتى وبالصبر يدرك الاريب ما يبتغي وهم بالمصابرة مصابون ونحن على المثابرة مثابون وهؤلاء لا يتمكن منهم الا بالجمع الجم والسيل لا يغلبه غير الخضم والصواب أن نصابرهم هذه الشتوه ونجدد لنا ولخيلنا القوه ونتأخر عن هذه المنزله لتحصيل هذه المصلحة المؤمله ونوكل بهم مناوبة من يمنعهم من الخروج واذا انقضى البرد نرجع الى معالجة هؤلاء العلوج ونعيد السمريحيات الى سلها والسلاهب الى السروج والصواب الاخذ بالاحتياط وتقديم الكتب والرسل الى الاطراف والاوساط ومكاتبة دار السلام واعلام الامام عليه أفضل السلام بما دفع اليه الاسلام بالشام فان المسلمين لا شك ينجدون ويقومون بالنصرة ولا يقعدون ولا نترك استنفار التركمان وترغيبهم بالبر والاحسان واستدعاؤهم بالعطايا والتشريفات السنايا وينفذ الى بلاد الشام القاصية والدانيه في تحريك الهمم والعزائم الوانيه الى أن تمتلئ بالجموع ساح الساحل وتغلي بنار الحميات بهم مراجل الراجل فحينئذ ينتهي أمد المصابره ونصمم على المكابرة مع المكاثره ونباديهم ونفاتحهم قبل انفتاح البحر ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح القهر وننسفهم ولو انهم جبال وننزفهم ولو انهم بحار ونعدمهم حتى لا يطرق جفن بالدم منهم خيال ولا يلم بجفن طارق لهم غرار ومازالوا في مشاورة ومحاورة ومجاذبة ومجاوبة ومناظرة ومساورة حتى تفضل الرأي وتمخض وخالوا انه تبين الصواب وتمحض ومالوا الى الدعه والخروج من الضيق الى السعه ومن نزال الحرب الى المنزل الرحب ومن المعترك المنكر الى المبرك المبتكر فلم تعجبني هذه الحاله ولم توافقني هذه المقاله وقلت لعمري أتيتم بمصلحه ولكنها غير مترجحه فان الفرنج الى الآن لم يتمكنوا من الحصار ولم يحدقوا بجميع الاسوار فاذا رحلنا وتغيبنا عنهم أرخينا خناقهم وأطلنا الى مرادهم أعناقهم وباب عكا من جانب البحر مفتوح والمقيم بها منا بكأس تفقدنا اياه مغبوق مصبوح والطريق اليها سابله والذخائر اليها في كل يوم داخله والفرنج عن قطع الطريق عاجزه وعزائمنا عن مصابحتها

ومماساتها الها دون قصدها محاجزه فان تأخرنا تقدموا وان هونا أحكموا وان نقضنا أبرموا وان قعدنا قاموا وان بعدنا حاموا ومتى رمناهم تحفظوا ومتى غبنا عنهم تيقظوا ومادمنا نشغلهم فانهم لحصر البلد لا يتفرغون والى أمد الامل لا يبلغون فقالوا هذا أمر هين وماذكرناه صواب متعين ووجه الصلاح فيه بين ومامقصودنا الآن ينتشروا ويخرجوا من مصابرتهم ويصحروا فاذا أنسوا بالرجاء ولم ييأسوا من الارجاء أرخينا لهم حبل الانظار حتى استمروا على الانتشار وحينئذ نصبحهم على غره ونعاجلهم كرة بعد كره وننقض عليهم انقضاض البزاة على البغاث ونصدهم بالباعث الباغث لهم عن الانبعاث وكان السلطان منكرها لما أبدوه من الرأى الملتاث لولا ماعرض لمزاجه من الالتياث

«ذكر الرحيل الى الخروبة عند خيم الانتقال المضروبه»

كان السلطان مع ماألم به من الالم غير مبدوجه الملل والسأم وهوفى كل يوم يركب وعلى العسكر يطوف ويقف مستطلاعلى العدو ويطول منه الوقوف ويعود وقت الظهر وعليه أثر الضرمن الصبر فليم على فعله وخصه الطبيب بعذله فانتقل الى الثقل ليلة الثلاثاء رابع شهر رمضان وخلى المنزل الاول وأخلى العسكر ذلك المكان وتقدم الى من بعكا باغلاق الباب وسلوك نهج الاحتراس والاجتناب وجرى الامر على ما كنت قلته وتحقق من الخلل ماخلته فان المركيس رحل وشغل الباب الذى كان خاليا ورخص عنده ما كان من سوم خوفه غاليا وشرع الفرنج فى حفر خندق على معسكرهم حوالى عكا من البحر الى البحر وأخرجوا ما كان فى مراكبهم من آلات الحصر وفى كل يوم تأتينا اليزكية بخبرهم وبماظهر من أثرهم والجد فى تعميق الخندق وتتميم محتفرهم والعسكر هاجم كانه واجم والظن فيه راجم وشر الكفر ناجم ومافينا العود الامر عاجم وقلت يوما للسلطان يركب العسكر اليهم ويركض عليهم فلعله ينال ظفرا ويقضى من كسر العدو وطرا فقال مايعمل العسكر شيأ الا اذا كنت معه راكبا ولعمله مشاهدا مراقبا ولقد صدق فى مقاله فانه كان أعرف

برجاله فانهم كانوا يبذلون معه المهج ويخوضون من بحار الحرب اللجج ويوسعون لهزم العدو الأزرق اللجج وكان من قضاء الله أنا أغفلناهم وأمهلناهم بل أهملناهم حتى عمقوا الحفور ونقوا من ترابها السور وملؤه بالستائر ومنعوه من الطير الطائر وبنوه وأسسوه وستروه وترسوه ورتبوا عليه رجالا ولم يتركوا اليه لواغل مجالا وتركوا فيه أبوابا وفروجا ليظهروا منها اذا أرادوا خروجا ولما فرغوا من هذا الامر اشتغلوا بالحصر ونحن نقول لا مبالاة بهم ولا كتراث وما أسهل اذا عزمنا عليهم لاستئصالهم الاجتثاث وبسيول سيوفنا نغسل تلك الاخباث وأي وقت قصدناهم وجئناهم وجأناهم ونكأنا قرحهم ونكبناهم وما فوارسهم لنا الا فرائس وما خنادقهم لهم الا رموس دوارس وما حفروا الا قبورهم وما دبروا الا ثبورهم ومتى قصدناهم كذبت ظنونهم وصدقتهم منونهم وامتلأت باشلائهم خنادقهم وأظلمت عليهم بغربنا مشارقهم وبيتتهم بوائقهم وتبت علائقهم

(ذكر رأي رائب عن النظر في الغاي غائب أسفر عن داء دائب وأبان عن غرارة بغرائب)

وقع لبعض الاكابر فتني عليه خنصره ووكل باتمامه سمعه وبصره لما تمت على الفرنج تلك المقتلة وعمت فيهم الهلكة وضمت أشلاءهم المعركة وشوهدت على الرباجب نحورهم المهتكة وخمدوا وخملوا وأهلكهم الله بما عملوا ووقع لبعض الاكابر انه لم يبق للقوم انتعاش من تلك المعاثر وانهم قد عدموا القرار وعزموا الفرار ولو قدروا على النجاة لخلصوا ولو فضنا طريقهم ما نصبوا ولا تربصوا وقال للسلطان ارحلوا عنهم حتى تروا ما يكون منهم فانهم يرهبون ويهربون ويبعدون الى صور ومن بعدها من عكاء لا يقربون فمال قوم الى مقاله وتخيلوا مثل خياله واشار بقطع طريق البلد والصدر عن ورد الرصد والجد في تعمية الجدد وان يفتح لهم ما سد من الطريق ولا يعوقهم فانهم كالذب تعوي من التعويق ولما بلونا رأيه وتلونا آيه أخلف ظنه وبدا وهنه وما زاد الفرنج الا ثباتا ولم نعرف لشملهم على ما زعمه شتاتا وكنا نتحدث بذلك الرأي

القائل ونقول ما أعجب قبولنا القول هذا القائل

(ذكر ما جرى بعد ذلك من الحوادث وتجدد للعزائم من البواعث)

أقام السلطان بالخيم لاصلاح مزاجه وايضاح منهاجه ومداراة ألمه ومداواة سقمه فوهب الله له العافيه وكمل له عصمته الكافيه ومنته الشافيه ونعمته الوافيه وأبدى له ألطافه الخافيه وقوى قلبه على المقام بنية الانتقام وصرف الاجناد الغرباء ليرجعوا في الربيع ويستريحوا في مرابعهم لوقت الرجوع وأقام في مماليكه وخواصه ورجال حلقته المنصورة من ذوي استخلاصه ورتب بالنوبة على الفرنج يزكا ضمنه دركا وأدار بهلاك القوم منه فلكا وكان في مماليكه كل مقدم مقدام وكل همام همام وكل ليث ذي لبوته وكل حدث محسن له حسن أحدوثه وكل ضيغم ضاغم وكل أسد عرين لبس الاعرين قرنه براغم وكل رئبال ذي بال وكل بطل من ولايه الهيجاء غير بطال وكل مغير للنصر مريغ وكل مسيء الى العدو بالكاس الحمام مسيغ وكل زكي للرماء غير تارك وللاصماء غير فارك قوسه في ظفر الهدى موتر على الوتر وسهمه من مقل العدا طائر الى الوكر وسيفه في رداء الردى حال بدم الكفر وكل جلدي في الروع جليد وبالحرب عميد وكل مكاري على القرن عكار وفي الوغى كرار وللفنا جرار وكل ذر زاري بالاسد زار وللبسالة كاس ومن العار عار وكل مهراني في القتال ماهر وللرجال قاهر وعلى الابطال ظاهر وكل كمي كبش وكبش على الكبش فما خلا يوم من وقعه وما صار من بارزهم الا الى صرعه وما عاد من نجا من زنابير سهامهم الا بلسعه وما حصلت شفار شفارهم من طلاء من طاولهم الا على لطعه وما بقي على التوحيم ليت واصوتهم في النزال كل صباح ومساء صيت وبلي الفرنج منهم بالمبير المبيد واعتاق بهم مراد العدو المريد ومازال هذا دأبهم في الركوب ومباكرتهم ومراوحتهم الى مواقف الكروب فكم أقروا منا أعينا بايديهم وثبتوا عدل النصر بتعديهم وصدوا أمر الشرك بتصديهم وحركوا ما سكن وهدأ من عزائم الهداة بتهديهم وفي يوم الاثنين ثالث شهر رمضان أخذ أصحابنا بعكاء مركبا للفرنج الى سور مقلعا واجتلبناه من سنا النصر مطلعا وكان المركب محتويا على ثلاثين رجلا وامرأة

واحدة ورزمة من الحرير وجاءت حظوة حلوة وغنيمة صفوة ونشوة أعقبت صحوة وبهجة استصحبت قهوة وقوة من وهن العدو ومحنة فكت رهن السلو فقد كان انكسر نشاطهم وانقبض انبساطهم وانخفض اغتباطهم وفترت عزمتهم وقصرت هممهم وخمدت فورتهم وركدت ثورتهم فلما عثروا بالمركب انتعشوا وانتقشوا وتنعموا وتنفشوا ودب الروح وشب المروح وتحرك الساكن وتدرك الضامن وصاروا يخرجون ويحرجون ويقتلون ويجرحون ويعدون على القتال ويصبحون ويكافحون ويدافعون ويقارعون ويواقعون والعسكر فى المنزلة هاجم وجم جمه واجم واليزكية زكية والعيون ذكية والنوب راتبة والعدة المعينة فى كل يوم راكبة

((ذكر وصول ملك الالمان))

ونمى الخبر بوصول ملك الالمان الى قسطنطينية فى عدد هم نثر ونظم من خيله ورجله ونثر وهو على قصد العبور الى بلاد الاسلام وقطع بلاد الروم والارمن الى الشام وانه فى ثلثمائة ألف مقاتل من كل سالب باسل وطالب باطل وجهم جهنمى وأشقر سقرى وأعمش أقعوانى وصل صليبى صلانى وأرقش حنشى ومستعر سعيرى ومحرب الطوى ومغوار نارى وضار بالقرن ضار وجار للدرع جار وكل ذئب عاسل ذاب بعاسل وأزرق لابيض مشتمل وأصهب لاسمر معتقل وكل جيمى جاحم وجرى فاحم وحربى بحرى وباربرى وقاطع فى طريق الوصول وراحل بقصد الحلول وناوى النزال وصال بنار الصيال ومشمر على الموت متمرن ومضى الى المنون متضمن وفيهم ستون الف فارس مدرع مقنع ماله سوى السوء من مقنع وانه مع الالمانى ملوك وكنود وكل شيطان لربه كنود وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الارمن وهو فى قلعته على الفرات ومن أهل الذمة فى المأمن يبدى نصحا واشفاقا وتخوفا على البلاد واحتراقا ويقطع بان الواصلين فى كثرة وان الناهضين الى طريقهم فى عثرة وأبرق فى كتابه وأرعد وأبدع بخطابه وأبعد ولاشك انه الى جنسه النجس مائل وعلاة أهل ملته قائل ولما وصل هذا النبأ وقيل انه عظيم وورد هذا الخبر وخيل انه أليم كاد

الناس يضطربون على انهم يصدقون ويكذبون ومن طرف كل حبل من الرأى يجذبون وقلنا ان وقع هذا الخطر وصح هذا الخبر فالمسلمون يقومون لنا ولا يقعدون ويغضبون لله ولا يرضون انهم لا يعضدون على ان الله ناصرنا وموازرنا ومظاهرنا وحققنا باظهار القوة لمن استوحش التأنيس وبثثنا بالارسال الى بلاد الروم عيوناً وجواسيس وندبنا رسل الاستنصار وبعثنا كتب الاستنفار الى جميع الامصار والاقطار وقلنا ما هذه المرة الا مره ولا يسيغها الا كل مرىء أبى وما هذه الكرة مثل كل كره ولا يحضرها الا كل كميش كمى

(ذكر رسالة دار الخلافة)

وعول السلطان على القاضى بهاء الدين بن شداد يوسف بن رافع بن تميم ليكون كتابه الى الديوان العزيز مع رسول كريم وقال له ما احتاج أوصى وأنت تستوفى القول وتستقصى وحمل له الى كل ذى طرف فى طريقه رسالة وأودعه اليه مقالة فسار من عندنا فى شهر رمضان مغذا يبذ خيل العزم بذا ويجذ حبل السير جذا ووصل الى حلب والقاضى ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزورى رسول السلطان ببغداد قد عاد وذكر انه قد بلغ المراد وانه استجدى واستجاب واستفاد واستزاد وانه استكمل للعدة الاستنجاز وللعدة الاستنجاد فما هذا الرسول الرائح وربما تعرضت لتلك النوائح الجوائح واذا اختلف الحديث حدث الاختلاف ومتى ألقى غير ما ألقى ألغى الائتلاف فما هذا العجل وهم الوجل فصدقه الملك الظاهر غازى صاحب حلب عن كل ما أبان عنه وأعرب وكتب الى والده بذكر مقاصده وقال أنا لا أقدر على صد من للخدمة تصدى ولا رد من بثوب الرسالة تردى وأنت تقضى الى السلطان بما أوضحته من البرهان وهو يحكم ويحكم ويعقد ويبرم ويقول فنسمع ويأمر فنتبع ولعلك تعود سريعا وتجد شمل ما ألفته جميعا فوصل ضياء الدين الشهرزورى وهو مغتاظ وحمياه السجاح غلاظ وتغير على ونسب انفاذ القاضى بهاء الدين الى فانه كان يخالى ويخالطى ويجالسى ويباسطى فأزلت عنه كل ظن واعتذرت اليه بكل فن فانبسط عذر ولا قبض ذعر فانى على أسبابى

ببغداد خائف ودون رضا كل سائر الهواوئف واسترضيته فارضى ومضيت اليه مرارا قبل ان يمضى ثم اجتمع بالسلطان وندمه على ماقدمه وأعلمه بما عمله وقال له الشغل قد فرغ والمقصود قد بلغ والسؤال قد أجيب والسؤل قد أصيب والمخطوب بزمامه نحوك مخطوم وكل ملك سواك لاجلك من رضاع رضاهم مفطوم فكن للامام يكن لك وأقبل أمره ليقبلك واجتمع بالسلطان دونى واتفق بجماعة شاركوه وأفردونى وقرروا معه سرا أمرا وحذروه أن يصير جهرا ولو كنت معهم لعرفتهم ان الامر الذى أبرموه غير مبرم وان الرأى الذى أحكموه غير محكم ومازلت أؤكد الامر حتى يؤمن انتقاضه وأتعرض دون الرأى حتى لايمكن اعتراضه وأتيقن أن الامر مافيه خلاف وان الوعد ماله اخلاف فافعل الرسول يتلبث ولا أمهل يتمكث بل جعل على المجاز لا الحقيقة مجازه وزعم فيما دبره نجاحه ونجازه وسلك فيما تعرد منهج العجب وأسرع العودة على النجب فلما انفصل عن السلطان بما وصله من الاحسان جمع السلطان الامراء على المشوره ووقفهم على المعنى والصوره وقال لهم قد وعدت الخليفة على لسان الشهرزورى بشهرزور واستدعيت عسكره المنصور وربما قدم الينا الحضور فيكمل لنا النصر والحبور فقالوا هذا رأى رائب وشأو شائب وأمر عنه الصواب ناء وكيف تهدى الامام بما لايقرن بوفاء وكيف ننجز هذا الوعد ونمنع هذا القصد ودونه ايحاش من هو فى طاعتك فكنت تبذل مايدخل فى استطاعتك أما صاحب الموصل طلبها فمنع وصاحب اربل عنها دفع وهو لو كان بها لمن يجاوره خائف وكل يوانى لحدها وحقها حائف ومامن هؤلاء الامن بذل عنها أموالا وأحوالا والتزم من الجنود والنقود انجادا خفافا وثقالا فاذا عرف انك أخرجتها لمن له الامر ودخل عليهم الضر وملك مالك الامر أمرهم وأبدوا فى انقطاعهم عنك عذرهم وانقطع الواصل وارتفع الحاصل ومأجاءنا من المذكورين فارس واحد ولاساعد على ما نحن فيه بعدها مساعد أما هذا بكتمر فى خلاط قد جمع الاخلاط وجهر بالعداوه وأقام على الغباوة والغباوه فقال السلطان الخليفة ملك

الخليفه وهو مالك الحق والحقيقه فان وصل الينا أعطيناه هذه البلاد فكيف شهر زور وسيحدث الله بعد الامور الامور ولما وصل ضياء الدين الشهرزوري الى بغداد صادف بها القاضي بهاء الدين ابن شداد فلم يسفر أمر سفارته عن سداد وقيل له جواب ما أنبت فيه مع ضياء الدين تسيره وتشدبه فيما تخبره وشرف بهاء الدين وأعبد وزين ضياء الدين وزيد وذكر ماجرى فتم الاعتداد وتم الاجهاد وسيأتي ذكر ما آلت اليه نوبته حين كانت أوبته

(ذكر وصول الملك العادل سيف الدين أخي السلطان والاستظهار بجموعه والاجتماع بظهوره لنصرة الايمان)

ووصل الملك العادل سيف الدين من مصر منتصف شوال في جيش وال وجمع حال وشوكة رائعه وشكة رادعه وشارة ساره ودعة من البأس داره وعدة منتخبة منتخبه وعدة منتقاة مهذبه من كل أجدل على مرتب وأجود على جواد مقرب وصاف عتيق على صافن عتيق وطود على طود ونيق على نيق وصقر على سوذنيق وبحر على سابح وجذع على قارح ومن كل رئبال على تنفل وأغر محجب على أغر محجل ومن كل أبيض ضرب البيض ضراب وكل أسمر باسل السمر سلاب وكل أروع يحمل يراعا وكل شجاع يعتقل شجاعا وكل أحمى أحمس وكل أفرى أفرس ومن كل أسد خادر وقسور قاسر وضيغم ضاغم وقمقام واقم وليث بلونه وحدث له في الشهامة أحدوثه واحضر معه من سودان مصر كل ذمر كانه العبسي عابس وكل مغامر للموت مغامس وكل غربيب حلكوك وكل سرحان صعلوك وكل ضرغام غربيق ومقدام ربيق وكل خارج لثار وكل مارج من نار وكل اسود سالخ وكل راس في الشر راسخ وجاؤا بالغبية القبطيه والترسة الملطيه والصلال القفطيه والالال النوبيه والحراب الحربيه والصعاد الصعيديه والصوارم المذروبه والصرائم المشبوبه والاسنة المسنونه والصوابغ الموضونه والسراحين السارحه والثعابين الجارحه والتماسيح المزدرده والشياطين المتوقده والزنجات والزنبات

والهنديات والجمانيات وكان يوم وصول العادل مشهودا لم يترك في كل ما راد من القوة مجهودا وأقبل في روع ظاهر وضوع باهر ونشر ذائع ونشر ضائع وحبور تام وسرور عام وهزة وطرب وعزة وأرب وقلنا سيف الدين المنتضى وناصر الاسلام المرتضى وغياث الانام المرتجى وسلطان جيوش المسلمين المجتبى لقد نص النصر وكف الكفر وسلم الاسلام ونام الانام وأمن الايمان وتسلط السلطان وحليت الاحوال وفرغ البال وبلغت الآمال ونيل رجاء الرجال وأزيل ابطاء الابطال وورت زناد الاجناد ورويت ظماء الصعاد فما بعد اليوم الابعد القوم وادراك ما استقام من النهج وهلاك من أقام من الفرنج ونزل الملك العادل في مخيمه وقدم اليمن بمقدمه وتقدم السلطان الى راجل دمشق والبلاد فحضر وضايق الفرنج به وحصر ولم يخل العدو في كل حين من حين وفي كل وقت من مقت وفي كل شأن من شين وفي كل بقعة من وقعه وفي كل صقع من صقعه وفي كل ليلة من بليه وفي كل سحرة من كبسة بالنكاية فيهم ملبه والملك العادل يركب في كل يوم ويبلى ومن جهده في القتال لا يخلى والفرنج على البلاء صابرون وللعناء والعناد مكابرون لا يبرزون ولا يبارزون ولا يجاوزون خنادقهم وهم فيها منحاجزون

(ذكر فصل الى الديوان العزيز اشتمل على مجاري الاحوال)

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل ومحاولة أهل الغواية بالغوائل ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة في البحر بعدد أمواجه الى الساحل وقد نزلوا على عكا المحروسه براياتهم المنكوسه وآرائهم المعكوسه وحشودهم المجموعة وجموعهم المحشوده وظلال الضلال الممدوده واقدام الاقدام المصدودة المسدوده وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه وبسط الكفر جناحه وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روعت والروعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ورامح ونابل فما أثر ذلك في نقصهم ولا أرث الانار حرصهم وما فلل حد حدثهم الحادث ولا قلل عدد كثيرهم الكارث ولا غضوا

عيون أطماعهم ولا فضوا ختوم اجتماعهم ولا ردوا وجوههم عن مواجهة الردى ولا قطعوا آمالهم عن الوصول الى المدى ولو قطعوا بالمدى وهم لمواضعهم ملازمون وفي مصارعهم جاثمون وعلى الموت صابرون والى الحمام صائرون وبالخنادق من البوائق محتمون وبالطوارق من الطوارق معتصمون وعندهم انهم للبلد محاصرون وهم على الحقيقة وان كانوا الكثرتهم غير محصورين محصورون وان جندنا لهم المنصورون وللعساكر الاسلامية فيهم كل يوم نكاية شديده وفتكة مبيده ووقعة ناكيه وجمرة ذاكيه وصدمة صادعه وحدمة رادعه ولما امتنع الدخول عليهم وتعذر الوصول اليهم جمع راجل البلاد وحشد الى حشودهم ذووا الاستعداد حتى تقاتل الراجل بالراجل والفارس بالفارس وتفترع بقمع جمعهم بكر الفتح العانس وقد وصل الاخ العادل وفقه الله للمراضي الشريفه بالجموع الكثيرة الكثيفه ولعل الله أن يجعل خلف هؤلاء الفرنج فتحا لابواب الفتح ويجل لليالي آمال المسلمين بطلوع صبح النجح وايس هذا العدو بواحد فيجمع فيه التدبير ويأتي عليه التدمير وانما هو كل من وراء البحر وجميع من في ديار الكفر فانه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيره ولا خطه صغيرة ولا كبيره الا جهزت مراكبها وانهضت نوائبها وتحركت ساكنها وبرز كامنها ونفضت خزائنها وأنفضت معادنها وحملت ذخائرها وبذلت أخايرها وثار ثائرها وسار سائرها وطار طائرها ونثلت كنائن كنائسها واستخرجت دفائن نفائسها وخرج بصلبانها أساقفتها وبطاركها وغصت بالافواج فجاجها ومسالكها وتصلبت للصليب السليب وتغضبت للمصاب المصيب ونادوا في نواديهم بان البلاد هم بلادهم وان اخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم وانه من خرج من بيته مهاجرا وبحرب الاسلام مجاهرا ولمتعبده مستردا وللجد في النصرة لا بنه مستجدا فقد وهبت له ذنوبه وذهبت عنه عيوبه ومن عجز عن السفر سفر بعدته وثروته من قدر وبذل البدر لمن بدر فجاؤا الابسين للحديد بعد ان كانوا الابسين للحداد وتواصلت منهم الامداد بالامداد وتوالت أنجاد الانجاد فهم على النقص يزيدون وعلى

الابد يبيدون وبالمهج يجودون وعن اللعاج في خوض اللجج لا يعودون وهؤلاء الواصلون في البحر القاطعون أثباجه المكاثرون أمواجه فأما ملوكهم الواصلون في البر فقد تواترت أخبارهم بأن خلت منهم ديارهم ورمتهم الى أغراضهم البعيدة أوتارهم وبهم يستفحل الشر ويعضل الامر ويصول الكفر ويجول ويتطاول الشرك ولكنه لا يطول فان لدين الله من خليفته ناصرا لا يسلمه ورازقا لا يحرمه وما عتصم بحبل طاعته الامن وارقدحه وحاز السناء قدحه وأسفر صبحه ووفر نجحه وبدا علوه وباد عدوه والخادم بقوة رجائه في العوارف الامامية والعواطف النبوية وشدة استظهاره بالنصرة الظاهرة الناصر به آن أن يفرق الجمعين ويجمع للفريقين القمعين ويعيد البر بحرا من دماء وافدى البر والبحر ويقطع بقطع دابرهم دابر الكفر

(ذكر وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء سادس عشر ذى القعدة في المراكب المستعدة المستبدة بالباس والشدة وكانت عدته خمسين شينيا)

كان السلطان منذ وصل الفرنج الى عكاء قد كتب الى مصر بتجهيز الاسطول وتجربة حباله وترجيه أمور رجاله وتكثير عدده وتوفير عدده واصلاح شؤون شوانيه واسناء روامى سواريه فتولى حسام الدين لؤلؤ الشيخ أمره وشرح لايراده واصداره صدره وأنفق من ماله ما جمع به شمل رجاله وهذا اللؤلؤ قد اشتهرت في الكفر فتكاته وشكرت في العدو نكاياته وقد تفرد بغزوات لم يشاركه فيها أحد ولم يكن فيها على الاسلام لغيره يد ما سلك نهج الا ملك ولا طلب غاية الا أدرك وهو ميمون النقيبة مشكور الضريبة وهو الذى رد الفرنج عن بحر الحجاز ووقف لهم على طرق المجاز ولم يترك منهم عينا تطرف ولم يبق لهم دليلا يعرف وغزواته مشهوره وفتكاته مذكوره وأمواله مبذوله وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلوله فتولى الاسطول وجمع به الطول والطول ووصل به وللفرنج من شوانيها على وجه البحر عقارب تدب ولواسب سوالب بما تنجب وما تنجب وسفن حماله ومقاتله وبطس للازواد والميرة ناقله فصدمها

مراكبنا بمناكبها وملأت معاطفها بعاطبها واستطال الاسطول المنصور على أساطيلها وجاء حقه بازهاق أباطيلها وطلعت فى سماء البحر كواكب مراكبنا نجوما وقذفت لشياطين الكفر رجوما وأقبلت سوار بها بلروامى مبرمة الامراس محكمة المرامى وقطعت اللجة بأشباه أمواجها وسدت فجاجها بأفواجها ونكست أعلام الاعلاج عن أثباجها ووافت أساودها السود بالاسود وسدت عقبانها الآفاق بأجنحة الرايات والبنود وطارت بقوادم المجاذيف وخوافيها وزارت بجوارح المقاذيف وعوافيها فجاءت فجاءة وسفن العدو كالجبال غرس السحاب وتطوى اللجة كطى السجل للكتاب فصدتها وصدعتها وردتها وردعتها فكأنما نعبت غربانها ببين أحبة الكفر أعاديها وأناخت ظعائن الضغائن على شوانئ شوانيها وعادت قوامص الفرنج فيها قنائص جوارح جواريها فأول ماظفر الاسطول المنصور بشينى للفرنج عظيم الشان عاد طاغ بأهل الطغيان والعدوان فقتل مقاتليه وسبى مابليه فوقعت بطشته الكبرى بطسة كبيره تشتمل على ميرة لهم وذخيره وأمتعة كثيره وتفرقت سفن الفرنج أيدى سبا وأصلد زندهم وكبا وعادوا محصورين محسورين قد دفعت مراكبهم التى دافعت عن مباركهم وأيقنوا انهم تورطوا فى مهالكهم وسيرت بوصول الاسطول كتب الى الاقطار وبشر المسلمون بما حصل به من الاستظهار

(ذكر فصول أنشأتها فيها)

منها فصل

ولما رأينا أمدادهم فى البحر متضاعفه وجموعهم متكاثفه استدعينا الاسطول المصرى المنصور فجاءها فجاءه وامتد أسطرا على طرس البحر أعيت متأملها قراءه وأقبلت جواريه بجوارح من قناصها القصوامص وصدمت شوانيه شوانى الشناة فعادت مراكبهم وهى نواكص وطارت غربانا ببين أحبة الكفر أعداء الاسلام ناعبه واطردت على طرائد الفرنج فطردتها غالبة لالاعبه وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمره وألهبت فى الماء على أهل النار كل نار للنكال مسعره وانقطعت طرق الفرنج البحرية فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت

وجاءت وحملات ماشاءت وتبعتهم مراراً بالغنائم فاءت وأعشت أعين الرائين كلما رأت فضاقت بها العداة ذرعاً ولم تجد من بعدها مطمعاً ولا مرعى

(فصل من كتاب)

صدر الكتاب بورود الاسطول المصرى بالسطو الشديد والبأس القوى فارتاع الكفر من وصوله وصولة الرائع وذل جمع الكفر لعزه الجامع وجاء بكل شيني شانئ لشانئ الدين واجى مفاجىء للعدو بالهلاك مفاجئ مفرق لمراكب الشرك المجتمعه مضيق لمناهج مضارها المتسعه فطعن مناكب مراكبها ووسع معاطن معاطبها واستولى منها حالة وروده على عدة للملاقاة مستعده ولامد داعانتها من وراءها مستمده وقتل من فيها من الرجال وغنم ما وجد فيها من العدد والاموال

(فصل من مكاتبة أخرى)

وصل الاسطول المنصور فى كل شيني شانئ الشرك شائن زائد لبهجة الاسلام زائن زائر بكل أسد زائر سائر بكل مقدام الى مقام الاقدام سائر وكانت الفرنج قد جهزت مراكبها وأرهفت غروبها وسنمت غواربها وملأتها برجال أيديها على قوائم القواضب قوابض وأرجلها على الثبات فى روابى متون سفنها روابض وهم على انتظار الاسطول ليطاولوه ويقووا بالمداهمة يجاولوه فلما وصل وصال وراع أمره وهال وجلا عليهم الاوجال ولاتجال بنوا المرامى والحبال وانهزموا بسفنهم وآذنت قوتهم بوهنهم واستولى على عدة منها بالعدد والرجال والذخائر والاحمال مملوه وسلبهم كل ما أعدوه فيها من قوت وقوه والفصول كثيرة واعاذكرت منها ما وصف صورة الحال على جليتها وأعرب عن حقها وحقيقتها

(ذكر ما اعتمده السلطان من تقوية البلد
ونقل الرجال والذخائر والعدد)

ولما اشتد البرد وتوالت الغيوث وتجرت السهول والوعوث وحالت الاوحال ولاحت على خلاف المراد الاحوال وتعذر الخروج الى تلك المروج وامتنع على

السالك فصد أولئك العلوج وزال حكم النزال واستقال من استقل بالقتال شرع السلطان فيما هو أنفع وأجدى وأنجع وأنجى وأرجع بالاحتياط والحزم وأرجى وهو تقويته عكا بالميرة والذخيره والاسلحة الكثيره والرجال الحماه والابطال الكماه فنقل اليها في المراكب جماعة من الامراء الاملئاء بأجنادهم فدخلوا اليها بعددهم وأزوادهم واستظهر البلد أيضا برجال الاسطول ورؤسائه وقواده فما دخل أحد فيه الا بزيادة في زاده وكانوا زهاء عشرة آلاف بحرى حربى على الجرى الى الموت جرى فامتلأ البلد بكل منتخب منتخ مرخص مهجته الغالية للاسلام مصرخ وانتفع بهم في جذب المنجنيقات والرمى في العرادات والحذف بالنفاطات والاحراق بالزرافات والزرق بالمحرقات والقاء القوارير واذكاء المساعير وتطريح النار وتطويح الاحجار ومواصلة القطاعات والزيارة بالزيارات وتوتير الجروخ والزنبوركات وتطيير الناوكات النواكى من مقاتل العدو الى الوكنات ومناشبة الفرنج في كل وقت بالاخذ والوقذ والجد في الجد والجذ وطروقهم ليلا على سبيل التلصص وسوقهم من سوقهم على وجه التصيد والتقنص وكبس الليل سوق الحمارات والعواهر وسواعدة من المحصنات الفواجر واستنصروا بذلك واستبشروا واجترؤا منه على ما أجروا وكذلك من عندنا يدخل اليهم الرجال متسرقين ويأتونهم من كل جانب مجتمعين ومتفرقين فمن قدر على حصان أخذه وأخرجه ومن تعذر عليه اخراجه عقره وبعجه ومنهم من يهجم على الرجل في خيمته ويرهبه بهمد بته ويسلبه سكونه بسكينه ويحمله ان لم يجذب معه من بينه على بغيته فيقوده بخطام القهر ويجذبه بجذام الامر ووقع القوم من هذا في بلاء مبل وعناء عن حب الحياة مسل فقد كثر اليهم الاجتياز ومنهم الاحتياز وشق عليهم الاحتراس بالاحتراز وتحيل الناس في اغتيالهم بكل طريق وازداد فرقهم من كل فريق وأعدت الحال من الليل الى النهار والمكابرة والجهار حتى كان رجالنا يختفون بالحشيش في أجراف الانهار فاذا صادفوا فارسا ورد الماء فاجؤه بالقتل أو الاسار

(ذكر حال نساء الفرنج)

وصلت في مركب ثلثمائة امرأة افرنجية مستحسنة متحلية بشبابها وحسنها متزينة قد اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجرائر واغتربن لاسعاف الغرباء وتأهبن لاسعاد الاشقياء وترافدن على الارفاق والارفاد وتلهبن على السفاح والسفاد من كل زانية تازية زاهية هازية عاطية متعاطية خاطية خاطية متغنية متغنجة متبرزة متبرجة نارية متلهبة متنقشة متخضبة تائقة شائقة فائقة رائقة فاتقة راقعة خارقة مارقة رامقة فاسرة سارقة فارجة فاجرة فاتنة فائرة مشتهاة متشهية ملهاة متلهية متفننة متقنية ناشبة متنشبة متشوقة متوقة مقترحة مخترقة مخضبة متعشقة حمراء مرحاء نجلاء كحلاء عجزاء هيفاء غناء لفاء زرقاء ورقاء مخترقة خرقاء تسحب غفارتها وتسحر بنضارتها نظارتها وتتثنى كانها غصن وتتجلى كانها حصن وتعبس كانها قضيب وتزيف وعلى لبتها صليب وهي بائعة شكرها بشكرها باغية كسرها في سكرها فوصلن وقد سبلن أنفسهن وقدمن للتبذل أصونهن وأنفسهن وذكرن أنهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن وأنهن لا يمتنعن من العزبان ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان وتفردن بخاصر بنية من الخيم والقباب وانضمت اليهن أترابهن من الحسان الشواب وفتحن أبواب الملاذ وسبلن ما بين الافخاذ وبحن بالاباحة ورحن الى الراحة وأزحن علة السماحة ونفقن سوق الفسوق ولفقن رتوق الفتوق ونقعن بينابيع الفجور وتحجرن بنزو الفحول منهن على الجور وعرضن الامتاع بالمتاع ودعون الوقاح الى الوقاع وركبن الصدور على الاعجاز وسمعن بالسلعة لذوي الاعواز ودمن على تقريب خلاخلهن من الاقراط ورمن فرشهن على بساط النشاط وتهدفن للسهام وتحللن للحرام وتعرضن للطعان وتضرعن للاخدان ومددن الرواق وحللن حين عقدن النطاق وصرن مضارب للاوتاد واستدعين النصول منهن الى الاغماد وسوين أراضيهن للغراس واستنهضن الحراب الى التراس واستنفرت المحاريث الى الحرث ومكن

المناقير من البحث وأذن للرؤس فى دخول الدهاليز وجرين تحت راكبيهن
على ضرب المهاميز وقربن الاشطان من الركايا وفوقن النبال فى أعجاس الحنايا
وقطعن التكك وطبعن السكك وضممن الاطيار فى أوكار الاوراك وجمعن
قرون كباش النطاح فى الشباك ورفعن الحجر عن المصون وترفعن عن ستر
المكنون ولففن الساق بالساق وشفين غليل العشاق وكثرن الضباب فى
الوجار وأطلعن الاشرار على الاسرار وطرقن الاقلام الى الادويه والسيول
الى الاوديه والجداول الى الغدران والمناصل الى الاجفان والسبائك الى
البواتق والزنانير الى المناطق والاحطاب الى التنانير وذوى الاجرام الى
المطامير والصيارف الى الدنانير والاعناق الى البطون والاقذاء الى العيون
وتشاجرن على الاشجار وتساقطن على الثمار وزعمن أن هذه قربة مافوقها
قربه لاسيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبه وسقين الخمر وطلبن بعين الوزر
الاجر وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضيه وعجبوا كيف تعبدوا بترك النخوه
والحميه وأبق من المماليك الاغبياء والمدابير الجهلاء جماعة جذبهم الهوى
واتبعوا من غوى فمنهم من رضى للذلة بالذله ومنهم من ندم على الزلة فتحيل فى
النقله فان يد من لا يرتد لا يعتد وأمر الهارب اليهم لاتهامه يشتد وباب الهوى
عليه يستد وما عند الفرنج على العزباء اذ أمكنت منها الاعزب حرج وما
أزكاها عند القسوس اذ كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج ووصلت
أيضا فى البحر امرأة كبيرة القدر وافرة الوفر وهى فى بلدها مالكة الامر وفى
جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم وغلمانهم وأشياعهم وهى كافلة بكل
مايحتاجون اليه من المؤنه زائدة بما تنفقه فيهم على المعونه وهم يركبون
بركباتها ويحملون بحملاتها ويثبون لوثباتها وتثبت ثباتها لثباتها وفى الفرنج
نساء فوارس لهن دروع وقوانس وكن فى زى الرجال ويبرزن فى حومة
القتال ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات الحجال وكل هذا يعتقدنه عباده
ويخلن أنهن يعقدن به سعاده ويجعلنه لهن عاده فسبحان الذى أضلهن وعن نهج
النهى أزلهن وفى يوم الوقعة قلعت منهن نسوه لهن بالفرسان أسوه وفيهن مع

لبنهم قسوه وابست لهن سوى السوابغ كسوه فاعـرفن حتى سلبن وعرين ومنهن عدة استبين واشترين وأما العجائز فقد امتـلأت بهن المراكز وهن يشددن تارة ويرخين ويحرضن وينخين ويقلن ان الصليب لا يرضى الا بالاباء وانه لا بقاء له الا بالفناء وان قبر معبودهم تحت استيلاء الاعداء فانظر الى الاتفاق فى الضلال بين الرجال منهم والنساء فهن للغيرة على الملة ملان الغيره والنجاة من الحيرة ناجين الحيره ولعدم الجلد عن طلب الثار تجلدن ولما ضامهن من الامر تبلهن وتبلدن

(ذكر ما أهداه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر
صاحب الموصل من النفط الابيض والرماح والتراس)

ولما عرف صاحب الموصل ما شرع فيه السلطان من تكثير العده وتقوية النجده بكل ما يمكنه من أسباب البأس والشده سير من أحمال النفط الابيض مع عزة وجوده ما وجده ومن التراس والرماح من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده وشاع الاعتداد وذاع الاحماد ودل ذلك على انثاج الوداد والامتزاج والاتحاد

(وكتبنا فى شكره)

وصل السلاح وتم للاسلام من فروح الكفر الاقتراح واستجدت التراس والرماح وفارقت للقائها أجسام الاعداء الارواح واتصل بالنفط الواصل الى أهل النار الاحتراق ولعنت وضربت منهم الصور والاعناق وقد هداها أهداء النصر الى الهدى والردى الى العدا وأجود الاكارم وأكرم الاجاود من جاد بما أجدى وأهدى ما هدى وعاد من المكرمة بما بدى لا أخلى الله المجلس من يتعهدها وأياديسيرها وينفذها ويجدد يستخلصها لنفسه ويستنقذها وحمية للدين يقصم بها جماة الشرك ويقذها ونخوة للاسلام فهى حدود الهمم النابيه وتشحذها وما طلب من العدة ما طلب الا للحاجة الحاقه والضرورة الشاقه فان الحروب المتطاولة المدد أتت على جميع العدد فالسمر متحطمه والبيض متثلمه ووجوه الصفاح بلثام النجيع متلثمه وعيون النصال عن حواجب القسى الى مقل الاقران رامقه مارقه وحمام الحمام فى

مريشات السهام بكتب الكبت من حنايا المنايا السائقة سابقة وقد أفنى المصال النصال والنضال النبال والرماء الافواق والقاء العتاق والمصاع المناصل والقراع الذوابل والصيال الصواهل وعمل الجهاد الدائم العوامل فلا ضامر الا وهو وان كان غالبا لاغب ولا صارم الا وهو فى دم العدو الفائض ناضب ولا جارح الا وهو مجروح ولا قارح الا وهو مقروح ولا جامح الا وهو مصحب ولا باتر الا وهو منقطب فبأية عدة من هذه العدد أنجد غار الجد وأنجد ونأسس الشكر لانعامه وتمهيد ومن العجب ان العدة تفنى ولا تفنى العداة وتنبو على الحصاد وكانها النبات ويتسارع الى امدادها الموت والهلاك ويخلفها فى ابدالها الحياة فان البحر عدهم والكفر الى الردى بردهم وكلما أخلفتهم الايام فان الليالى تجددهم وماجمعهم القدر الا ليفرقهم وما حل أهل النار فى الماء الا ليغرقهم فى دمائهم ونار البواتر بحرقهم

(ذكر عماد الدين صاحب سنجار وما عزم عليه من تجهيز ولده)

ورد الخبر بان عماد الدين قد جهز عسكره وقدم عليه قطب الدين ولده وسيره فقال السلطان هذه أيام الشتاء ولا ينتصف فيها من الاعداء ونحن محتاجون الى العسكر فى الربيع واستنهاض الجموع الى شمل النصر الجميع فكتب بتأخيره والتمهل فى تسييره فتأثر قلب عماد الدين برد ولده ورجوعه بعد المسير من بلده

(فكتب اليه السلطان من مكاتبة)

كان لما انتهى اليه صدق اهتمام المجلس بأمره والتقدم بتجهيز العسكر الى نجدته بكل ما يعود بسر ورمسره وانشراح صدره وعرف مسير قطب الدين أدام الله له مضاعفة العلاء وأقر بانواره عيون الاولياء وظن انه لم يقدم حركته المقرونة بالحسنات ولم يقرب من عبر الفرات اشفق عليه من التعب ليكون عسكره مستريحا عند الطلب فان الحاجة اليه فى الربيع أدعى ومصلحة الاسلام فى ذلك الاوان أولى أن ترعى ولو عرف ان الركاب القطبى قد دنا لبشرته السعادة بنجح المنى ولاستقبله بالنفوس والارواح ولقيته القلوب بالقبول العبق بنشر

الانشراح وان اشتغل القلب بما فاته من حظ الاستسعاد بوفوده فقد بشر امله بنضارة عود نجحه عند عوده ونجاز وعوده

وفي آخر هذه السنة ندب السلطان الرسل الى الاقطار والامصار للاستنفار والاستنصار وبث الكتب وكتب بالبث وحث الرسل وراسل بالحث وبعث المسرعين لاستبطاء البعث وأنهض للتبليغ كل بليغ وجرع كاس التدبير في حسن السفارة كل مشبع مسبغ وسرح عدنان النجاب الى سيف الاسلام باليمن وشرح في الكتاب اليه ماجرى من حوادث الزمن ووصفت له جلية الحال وما نحن عليه من دوام القتال وطلبت منه الاعانة بالمال واستعين واستنجد واستلين واسترفد وحض على حظه من انجاد الاسلام وان يكشف بسنا طلوعه ماغشيه من الاظلام وأرشد الى نهج السماح وتسيير كل مايقدر عليه من العدد والسلاح وتجريد الجرد العتاق وتوفير الحمول التي تخرجها في سبيل الله يد الانفاق وكوتب قزل أرسلان بهمذان بما دنا منه عزمه ودان وحكم على كل ملك بحجه الايمان وهدى الى محجة الاحسان

ذكر وصول رسول سلطان العجم

ركن الدنيا والدين طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه

بالالتجاء الى ظل السلطان وارتجاء ماله من فضل الاحسان

وورد من عند طغرل سلطان العجم أمير من خواصه هو أيلدكز امير العلم فضرب له من الخيم الخاصة سرادق ووفرت في الضيافة له المنافع والمرافق ومضمون رسالته انه خانته من أمرائه ومماليكه العامة والخاصه وخصته في سفرائه ونكباته الخاصه وان عمه أخا أبيه من أمه قد استولى على ممالكه وضيق عليه سعة مسالكه وألجأه الى هذا الالتجاء وهو بقوته من هذا الجانب قوي الرجاء وقد وصل الى حد مملكته بقرب اربل وأراد الوصول الى الموصل لكنه نزل في بيوت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق ينتظر منكم الاصراخ والاشفاق وعز الدين حسن من خدم دولتكم والمتمسكين بعصمتكم والمستوثقين بذمتكم وأنا عنده مقيم وعلى سنن الامل مستقيم فان استقدمتني البلاد

قدمت وان أمرت أمراء أطراف ولا يتك بعشائرى وجدت من النصر ما عدمت وأنا الآن هزبل عاملك ونزيل انعامك ووصل معه كتاب بخطه قد بث حزنه فيه بشرحه وبسطه وأبدى الاستكانه واستدعى الاعانه وأردف رسولا برسول وكرر سؤالا فيما التمسه من سول فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد الشاغل وانه لا مطمع مادام العدو ملازما للثاني مفارقة الساحل فكتب الى زين الدين يوسف صاحب اربل والى حسن بن قفجاق والى نائبه بشهرزور بالتوفر على خدمته والارتياد لمصلحته واشاعة معونته ثم ندب كبيرا للسفارة بينه وبين مظفر الدين قزل أرسلان وهو جمال الدين أبو الفتح اسمعيل بن محمد بن عبدكويه نسيبي ليكون القيام بهذا الامر من نصيبي وسعى فى المصلحة والمصالحه والمصافاة على صفقة المودة والمصافحه وحفظ حرمة تضرعه وتذرعه وسيأتى ذكر ما آل اليه الامر فى موضعه

وتوفى الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى بمنزل الخروبة مصرة يوم الثلاثاء تاسع ذى القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة ولقد كان من الاعيان ومن مقربى السلطان ومن أهل الجد فى نصرة الايمان فنقله الله الى الجنان وحمل من يومه الى القدس فدفن به وكانت فى هذه السنة وفاة الفقيه الكبير شرف الدين أبى سعد عبدالله بن محمد بن أبى عصرون بدمشق يوم الثلاثاء حادى عشر شهر رمضان وهو شيخ المذهب الذى لم يخلفه مثله ودفن معه فضله وكان مولده فى أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وكانت وفاة الامير عز الدين موسك بن جكو بكرة يوم الجمعة النصف من شعبان منها وكان من الابرار الاخيار والعظماء الكبار

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة وكل من الملك العادل والملك الافضل والملك المظفر فى خيمته المضروبة وعكا محصوره وجموع الفرنج الى حصارها محشوره وعلى تعذرها عليهم محسوره وخرجت هذه السنة والحصر مستمر والسلطان فى ملازمة القتال مستقر وحيا النصر فى الاحيان مستدر وقد تسنت للاسلام مباهج ووضحت للسعادة مناهج وبانت للقتال مداخل ومخارج وانقطعت بين الوشيج وأرحام الارواح وشائج واشتدت لتبارج

الاشواق الى لقاء الاعداء لواعج وتألفت فى الاقدام مقدمات ونتائج وللمناجح المنى منافى مدى الرجاء مدارج وللخطباء الظباء فى منابر الطلى معارج وللعهاد جهات وللعزمات أزمات واتفقت حسنات وحسنت اتفاقات وكانت لنا مسرات هى لاعدائنا مساآت ووقعت عجائب وأعجبت وقائع وأبدعت غرائب وأغربت بدائع واجتمعت كتائب ونابت نوائب وصفت تارة وكدرت مشارب وساعدت الاقدار وتباعدت الاكدار وهلك من الفرنج المحاصرين فى الوقائع عدد لايقع عليه الحصر ولكم أسفر صبح أصبح فيه جناح الظفر وسفر النصر وسيرد حديث كل حادث بمفرده ويجدد ذكر كل متجدد بمجرده

(ذكر وقعة الرمل)

كان السلطان يركب احيانا للصيد بعد ان يحذر على ما ظهر للعدو من الكيد وهو لايبعد من الخيم ولا يقرب من مسائل الديم وركب يوما فى صفر على عادته فتصيد وطاب له قرب القنص فأبعد والبزكية على الرمل وساحل البحر من الميسرة على الحالة الحافظة المستظهرة فخرج الفرنج وقت العصر فى عدد لايدخل فى الحصر وتسامع أصحابنا بهم فزحفوا اليهم وحملوا عليهم وطاردوهم الى خيامهم وأخذوا عليهم من خلفهم وأمامهم ومازالت بينهم حملة وحملة وشلة وشلة وسلة وسلة وركضة وركضة ونفضة ونفضة ومشقة ومشقة ورشقة ورشقة وجذبة وجذبة وضربة وضربة وشدة وشدة وردة وردة وضمة وضمة ولمة ولمة وأصحابنا ظاهرون وبالمراد ظافرون ولهم فى كل دفعة من العدو قلائع وللفرنج فى كل كرة على الرمل مصارع حتى فنى النشاب وبقى الانتشاب وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب والفرنج لايعجزهم الارماء ولا ينكبهم الا الاصماء ولاينفرهم الا رنة الاوتار ولا ينذرهم الا أنة القسى بالدمار والبوار فلما أنسوا بخلو الجعاب تجاسروا الى الدنو من تلك الشعاب وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا الى النهر وكادت تعبث بهم يد القهر فثبت من العادلية فى وجوه القوم صف مرصوص البنيان وأسرعوا الى نحو رتلك الذئاب ثعالب الخرصان واستشهد جماعة من الشجعان استحلوا طعام الطعان وساقهم جنى الجنان وذلك

أنهم لما ردوا الفرنج قلعوا فرسانا وصرعوا أقرانا فنزلوا بعد فرسهم لسلب لبسهم فمرت بهم الحملة فى الاوبه وأعجلتهم عن الركبة والوثبه وأظلم الليل فافترق من معاركها الجمعان واجتمع فى مراكزها الفريقان وكثر التأسف على من فقد وكان الحاجب أيدغمش المجدى ممن استشهد وزاد التلهف على فوات الفرصه وكيف أغفل ذلك القنص عن تلك القنصه فان العدو صار عرضة للصرعه فى تلك العرصه ومن نوادر هذه الوقعه وطرائف هذه الدفعه ان مملوكا للسلطان يقال له سراسنقر وهو يتطاول فى كل معترك ولا يقصر عنه جواده وثبت على الجرأة فؤاده ورجله عثاره وأسلمه أنصاره فقبض من أسره شعره لجذبه وسل آخر سيفه ليضربه فضرب يد قابض شعره فبيه واشتد سراسنقر يعدو ناجيا وللخلاص راجيا وهم يعدون وراءه ليمسكوه ويهلكوه وفاتهم بعون الله فلم يدركوه وهذا قذفته المنون من لهاتها بعد ازدراده وانتضاه الحمام لمضاء غراره بعد اغماده

(ذكر فتح شقيف أرنون)

وفى يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول تسلم بالامان شقيف أرنون واستمر الحصار عليه منذ نزولنا فى السنة الماضية بمرج عيون وصاحبه ارناط صاحب صيدا فى دمشق لاجله معتقل وباب خلاصه دون فتح شقيفه مقفل وذلك ان الشوق فى الشقيف فنى زاده وعز اجتهاده ومرد عليه فى الحفظ مراده وخانه فى الصبر ازدياده وازدياده ونخب من الرعب فؤاده وأصلد بالياس زناده وامتنع عليه اصداره وايراده فسلمه على أن يسلم صاحبه وتخلص فى النجاة مذاهبه وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه وتركه للاسلام بما يحويه وأفرج عن صاحب صيداء وصار الى صور ولبس من التشريف والتسريح حبير الحبور

(ذكر حال عكاء ودخول العوام بين اليها ووصول الكتب على أجنحة الطير منها)

كان السلطان اغتنم هيجان البحر وحضور مراكب الاسطول من مصر فما

زال يقوى عكاء بتسيير الغلات والاقوات والقوات اليها فى المراكب وقد ملأها بالذخائر والاسلحة والكماة المساعير والحماة المحارب فلما سكن البحر وأمن غائلته الكفر عادت مراكب الفرنج الى مراسيها ودبت عقاربها وأفاعيها وشدت مراكبنا فى موانيها وانقطع عنا خبر البلد وامتنع عليه دخول المدد والعدد فانتدب العوام للسباحة وحملتهم السماحة لهم بالرغائب على وضع المهج فى ميزان السماحة وعلموا أنهم اذا سبحوا ربحوا واذا سلموا فرحوا فرحوا حتى صاروا يحملون نفقات الاجناد على أوساطهم ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم ويحملون كتبا وطيورا ويعودون بكتب وطيور ونكتب اليهم ويكتبون الينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الامور ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفى المستور وكان فى العسكر من يتخذ حماما تطوف على خيمته وتنزل فى منزلته وعمل لها برجا من خشب وهرادى من قصب ويدربها على الطيران من البعد ويورده الشبعها وريها أحب الحب وأعذب الورد وكنا نقول ماهذا الولع بما لا ينفع والوله بما لا ينجع حتى جاءت نوبة عكاء فنفعت وشفت الغلل ونقعت وأنت بالكتب شارحة سارحة ووفت بمفاتح الغيب بالبشرى مفاتحة فصرنا نحبو صاحب الطيور بالاطراء ونخصه بالمدح والثناء ونأمره بالاستكثار ونطلبها منه مع الليل والنهار حتى قل وجودها عنده لكثرة الارسال وكنا نعرف بها جلية الاحوال ونعلم أن الله علمه ذلك البر وألهمه ذلك السر فانه اطلع على ما يدفع اليه أهل الاسلام فحمى حمى هداهم بهداية الحمام فانها أمينة على الاسرار ضمينة بالاخبار ضنينة بالاسفار قمينة بكرامة الاحرار مصونة من بين الاطيار جريئة على الاخطار بريئة من الاعذار معدودة من الاذخار مودودة مع الاخيار وجاء البلد الينا مع العوام محموله وعقود الاكياس عليهم محلوله فلا ينكر على المحتاج ان عام بالاعوام ومعوله البحر زمن الضلال والتخفى بستر الظلام والضرورة تحمل على تحمل الضرر والغرارة تبعث على الانبعاث الى الغرر والفقر يدعو الى ركوب الخطر وفيهم من سلم مرارا من القوم فاجترأت نفسه وأنس بالعوم ولقد عطب عوامون

بالأمانة قوامون فما ارتدع الباقون وماذا لو أنهم لما التقى رفقا وهم لاقون

(ذكر ما دبره السلطان عند انحسار الشتاء وانكسار البرد في الانتهاء)

ولما انحسر الشتاء وانكسر وانشى الربيع وانتشر أمر السلطان عساكره بالعود فتواصلت أمداد أجوادهم توالي أمداد الجود فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة وهو بأكمل العدة وأحسن الأهبة وسابق الدين عثمان صاحب شيزر وهو الذي بسالته يقسر الليث القسور وعز الدين ابراهيم بن المقدم المقدام الهمام ابن الهمام والكريم ابن الكرام والأسد الضرغام والسيد القمقام ووفد معهم جموع من الاجناد والأعيان وحشود من العرب والتركمان فضاق بهم الفضاء واكتسى برياشهم العراء وكثرت الجنود وانتشرت البنود وملئت عقبان الالويه وتلاحقت ذؤبان الاوديه ولمعت بوارق البيارق وارتفعت عوائق البوائق وحلت بواسق السوابق وثبتت وثائق العلائق ونبتت شقائق العقائق ونظرت أحداق الحدائق وتيسرت طرائق الطوارق وأعجبت أزهار الرايات وانمت غايات الغابات وزانت بحسن الصنيع نصوص النصول ودارت بيد الربيع فصوص الفصول وعلت الاعلام وحلت الاحلام ووضحت المواضي ومضت وانقضت القواضب القواضي وقضت وعريت البيض من الحلي وغريت السمر بالكلى واشتاقت لدات اللدان الى العناق وتاقت شفاه الشفار الى لثم الاعناق وتحدث الاحداث في الجراءة باجراء العتاق وطالت رقاب الرقاق الى غلائظ الرقاب وأعجم عن جمجمة الجماجم اعراب العراب وحمي عزم البطل ومحي رسم الملل وعاد الجد الى جدته والحد الى حدته وخرج البرد من عدته وفاز النصر بعدته وجليت بنت الغمد في زي الهندوي الفرند وقطف ورد الورد للشد الى الورد وقال الناس الام ننتظر وعلام نصبر ولم لا نشتغل وكيف لا نشتغل وحتام القعود وفيم الركود ولماذا الرقود. وقد نظرت السعود

ونصر العود وصدقت من أصحابنا الوعود فرحل السلطان وتقدم وعزم على طلب العدو وصمم ونزل على تل كيسان يوم الاربعاء ثامن عشر ربيع الاول في الفصل الاعدل والفضل الاكمل وتدانى العسكران وتعالى العثيران وتقارب القرنان وتحارب المازبان وترتب العسكر الاسلامى فى نزوله ميمنة وميسرة وقلبا وفى ركوبه على ترتيب منازلهم طلبا طلبا فكان الملك المظفر تقى الدين فى آخر الميمنة الميمونة والملك العادل فى آخر الميسرة المنصورة المصونة والملك الافضل فى أول ميمنة القلب وأخوه الملك الظافر فى أول ميسرته على الجنب والكتائب مكتبه والمقانب مقنبه والسهلة بالنقع الثائر منقبه والارض بوقع الحافر منقبه والعساكر مترادفة مترافده متوافرة متوافده متتابعة متوارده متسابقة متلاحقه متناسبة متناسقه متوالية متوافيه متجاريه متباريه منقضة كالبزاه منفضة الى العداه داعية الى الانتصار عادية على الكفار

(ذكر وصول رسول دار الخلافة مع ضياء الدين الشهرزورى فى جواب رسالته)

ووصل يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الاول رسول دار الخلافة بالنجدة والعارفة والرحمة والرآفه وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن عليه السلام فتلقاه السلطان بالاحترام والاكرام واحتفل لوصوله واستقبله لقبوله وتلقاه الامراء على الترتيب فمنهم من تقدم نحوه الى البعيد ومنهم من وقف له بالقريب ثم اخوة السلطان وأولاده وأحدا بعد واحد وماجدا بعد ماجد وبادئا بعد عائد ثم ركب السلطان اليه عند القرب من مراده وأدناه اليه بتعانقه ثم سار معه قليلا وأصحبه من خواصه وأمرائه قبيلا حتى نزلوا به فى باركاه له مضروب وخصه بصنوف من الالطاف وضروب ووصل معه حملان من النفط الطيار وحملان من القنا الخطى الخطار وتوقيع بعشرين ألف دينار تقترض على الديوان العزيز من التجار وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الاحراق بالنار فاعتد السلطان بكل ما أحضره وأخلص الدعاء

للديوان العزيز وشكره غير أنه أبدى رد التوقيع مع رد الصنيع وقال كله ما معي من نعمة أمير المؤمنين وعارفته ولقد نعشني ما شملني من عاطفته وأمل الله يوفقني للقيام بالفرض ويغنيني عن الالتزام بالقرض وأركب الرسول مرارا معه وأراه مبارك النزال ومعارك القتال ومصارع الرجال ومجامع الابطال ومطالع للقاء ومواضع الهيجاء ومصالت الاقدام ومنابت الاقدام ومواقف الصفوف ومصاف الوقوف وأماكن البعوث ومكامن الليوث وتل الفضول وبقية التلول حتى يشهد بما شاهد ويبين له المجتهد والمجاهد وأراه مالم يره ليأثر أثره ويخبر بجملته ويجمل خبره وأقام الرسول طويلا وأقام له السلطان من طوله دليلا ووفر له عطاء جزيلا وعرفا جميلا حتى استأذن في العود فعاد واستصحب الشكر والاحماد

(ذكر مقاتلة الفرنج عكاء بالابراج والاعجاز بها والازعاج)

وكان الفرنج منذ نزلوا للحصار شرعوا في عمل الابراج الكبار وركبوها من الاخشاب الطوال والعمد الثقال وبنوها وقدموها ونصبوها وأحكموها وسقفوها طباقا وسمروها بالحديد وجعلوا الهامنه أطواقا ووثقوها شدا وشدوها وثاقا ولبسوها بالسلوخ وملؤها بالجروخ وزحفوا بها الى السور وكشفوا بالرمي منها بعض سقوف الدور وتساعدوا على طم الخنادق وتفتيح الطرائق ووصل من المدينة عوام يخبر بان التلف بها حوام وان البلد قد أشرف والخطر قد أسرف والابراج علت والاسوار خلت والبلاء قد عم والخندق قد طم وأنتم ان تم هذا عرا كم العار وأظلم على الدنيا والدين بليله النهار فاحتمى السلطان واحتد وشد واشتد وكرب وركب وكان يحسب هذا نجاء كما حسب وزحف الى الفرنج ليشغلهم عن الزحف ويصرفهم عن الفتح بالخنف وذلك في العشرين من ربيع الاول يوم الجمعه بالجحافل المجتمعه والضراغم المرتفعه والصوارم اللامعه والصلادم الممتنعه والاسنة المشرعه والاعنة المسرعه والجوائب المنتجعة من النجيع والبيارق المختفقة كازهار الربيع واتفق في هذا اليوم وصول عماد الدين صاحب دارا محمود بن بهرام

الارتق بالجمع لو فرار في رالعسكر اخى التقى وسار الى القتال على حاله بخيله ورجاله وضايقهم السلطان مضايقة عظيمه ولم تزل جادة الجد في مقاومتهم مستقيمه حتى دخل الليل وانعبت الخيل فقوى تلك الليلة البرك والزمهم في الحفظ الدرك ورجع الى مخيمه ساهدا ساهرا مجاهدا بالبكور نحوهم مجاهر فلما أصبح يوم السبت صبحهم بالحرب وسبحهم على بحر البكر والمكرب ورجل الرجال اليهم وأنزل النوازل عليهم وامتزج بياض النهار بسواد النقع وانبع نحرق الواقعة على الرقع وانقضى اليوم وقد انقرض القوم وتفرق الجمعان وقت العشاء من قتيل غريق في الدماء أو جريح على شفا الذماء وبات الناس في الصلاح شاكين وبنار المذاكي ذاكين ولما تم منهم وعليهم حاكين ورجع السلطان الى خيمة ضربت له على تل العياضيه وقد ألزمته الحالة الطبيعيه بالتوقف في رياض الاخلاق الرياضيه وأصبح يوم الاحد راجعا الى قتال أهل الاحد واستقى من الجلد على أنهج الجلاد وأمر بانتقال السوق الى قربه ليقرب من العسكر وأيده الله بالنصر الاظهر والظهور الانضر وأقام كذلك وهو في كل يوم يغادي ويناوي ويعادي ويقاتل ثم نقل يوم الاربعاء الخامس والعشرين الانتقال الى الخيم لئلا يغيب حاضر ولا يصاب عن الورد صادر وليكون غلمان العسكر للحرب مباشرين ولمعشر الكفر بادارة كؤوس الردى عليهم معاشرين فانتدب منهم الى الحرب كل مجترئ للوقائع مجترح وكل محترق على نار الهيجاء للهياج مقترح وكل وقاح بالسارب وقاح وكل ضرار بارداء الكفرة نفاع وكل غلام له من جبلة الحمية لغام وكل أسد خدا الى الشدة في حومة المأزق زئير وبغام وكل متسلاف الغيرة غير متلاف وكل جاف عن سوى السوء متجاف وأخذوا من بيت السلاح السيوف والترس وطلبوا بقصد العدو الاقتناص والافتراس وأبلوا بلاء حسنا وأوضحوا النكاية في العدو سننا ووصل في صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين عوام من البلد يخبر بقوة الشرك بين المحاصرين وان البلد ضويق وأن العدو المخذول يحيق به كيده ان حوقق فتقدم السلطان ليشغل العدو عن قتال البلد بقتاله ويكفه بنزاله عن نزاله وجدد الكتب الى الامصار

بالاستنفار والاستنصار فاول من وصل ولده الملك الظاهر صاحب حلب وقد جمع وجلب وتقدم عسكره يوم الجمعة وانفرد بوصوله وحظى من نظر والده بسوله وذلك يوم الجمعة السابع والعشرين ثم عاد الى معسكره وجاء يوم السبت فى حسن منظره واحسان أثره فى منظر ناضر ورونق حاضر وجمع كثيف وحشد لفيف وجم جمة رائعة وروعة مبهجة وهيئة معجزة وهيبة للعدو مزعجة وصولة ذائلة ودولة صائلة وميامن رائعة ومحاسن شائعة وبحر من الحديد مائج ومجر من العديد هائج ورفاق وذوابل وعتاق بصواهل وعوابس وعواسل وشعوب وقبائل وقدم فى هذا اليوم مظفر الدين بن على كوجك وهو صاحب حران جريدة وقد استأنف للجهاد عزيمة جديدة ثم عاد الى عسكره ليقدم به ويحضر بجنده وتركانه وعربه

(ذكر وقوع النار فى ابراج الفرنج الثلاثة واحتراقها
وتلف كل ما كان ومن كان فى طباقها)

ولما كان بعد الظهر من هذا اليوم وهو السبت الثامن والعشرون تتابعت بظهور دلائل النصر وتناصر أسباب الظهور والمبشرون فنظرنا النار من أحد الابراج فى السماء بشعلها متساميه وفى الجو بشرارها مترامية وما ندرى ما سبب هذا الحريق وكيف تيسر هذا التوفيق وأحدقت النار بالبرج فاذا هو كشجرة من نار وقلوب المشركين لاستعارها فى استعار ووجوه المؤمنين لانوارها فى استبشار ثم رأينا البرج الثانى وهو يحترق والنار فى أثنائه تخترق ثم نظرنا الى البرج الثالث فاذا هو يشتعل وبألسنة النيران يبتهل فما برحنا حتى سقطت ثلاثتها وبلغت البناء من صدماتها وهدماتها استغاثتها وركب السلطان ونحن معه وتركنا نكتب بشائر النار ونسير بطاقاتها على على أجنحة الاطيار والعجب ان الابراج كانت متباعدة غير متدانيه وقد أبعدها الفرنج لسابات متنائيه فكل واحد منها على جانب من البلد قد كشفه وخسف اسواره وكسفه فاحترقت على تباينها فى وقت واحد وقدر من الله وارد فلم يكن ذلك الا امرا الهيا والمغار بانيا وفرجا بعد الشده وثلجا الصدور المؤمنين بتلك الوقده وكان سبب حريقها ان

وجلا يعرف بعلي بن عريف النحاسين بدمشق كان استأذن السلطان في دخول عكا للجهاد وأقام فيها باذلا للاجتهاد وغرى بعمل قدور النفط وتركيب عقاقيره وتعيين كل نوع وتعيير مقاديره وتقدير معاييره والناس يضحكون منه ويغضون عنه ويقولون هذا يضيع ماله فيما لا يعنيه وما هذا الهوس الذي وقع فيه وهو يعد لذلك العمل الآلات ويجد في تلك الادوات ويكثر القدور ويرتب الامور فلما قدمت الى البلد تلك الابراج وحصل من الامتزاج الامتزاج تلونت بكل فن وأدنى اليها من النفط كل قدر ودن ورميت بكل قارورة محرقه وكل نفاطة مرهقه وبالغ في صنعته الزراق فلم يتم في شيء منها الاحتراق ووقع اليأس واستسلم الناس فمضى ابن العريف بل ابن العريف الى بهاء الدين قراقوش الامير وقال قد رأينا ما اعترض من التدبير وما عرض من التقدير فافسح لي في رمي هذه القدور فلعل الله يأتي منها بشفاء الصدور فأذن له على كره وقال ما أرى لاحراق هذه البروج على يده من وجه فان الصناع قد أبلدوا ولو رأينا العارفين بالصناعة يئسوا فلما وجد الاذن وزن القدور وغيرها ورمى بواحدة منها الى أحد الابراج في المنجنيق وعيرها واعتبرها ثم لما استوت رمايته وصحت في الاصابة درايته رمى بقدر نفط لا نار فيها وهو يصبها على أعلى البرج ويسقيها والفرنج يعجبون من البال ولا يدرون بما وراءه من الشغل ثم قذف بقدر نارية متشعبة بكل نابه فوقعت في الطبقة الوسطى ورمى أخرى فوقعت في السفلى فاشتعل البرج من طرفيه الادنى والاعلى وتعذر على من فيه من الفرنج الخلاص وكانوا اجمعين (فاحترقوا أجمعين) ودخل اليه أيضا جماعة لاستنقاذ ما فيه فاحترقوا بدروعهم وسيوفهم وتقلبت الجحيم عليهم غيظا لاستبطاء حتوفهم وتحول ابن العريف الى مقابلة البرج الثاني ولم يلحقه في احراقه التواني وانتقل الى الثالث فاحرقه وما كان ذلك بصنعة منه بل لان الله وفقه وما زالت تحترق الثلاثة وتتقد اتقادا حتى عاد جمرها رمادا وباض نارها واحمرارها فامسى على الارض سوادا واحترقت المجانيق والستائر التي كانت تقربها وبهت الذي كفر وأسف على نصبه في نصبها وخمد الكفار بذلك

الضرام وسلوا عما كانوا فيه من غرام الارام وحبطت أعمالهم وخابت آمالهم وركدوا بعد جريهم وركنوا الى خزيهم وضلوا في سعيهم وتورطوا في بغيهم وسقط في أيديهم سقوط أيدهم وحيق مكرهم بهم وكيدوا بكيدهم وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق وسدوا الثغر وأظهروا بظهور القدر القدر وجاؤا الى مواضع الابراج وأماكنها واستخرجوا الحديد من مكامنها ونبشوا الرماد عن الزرديات التي انسبكت وكشفوا عن الستائر التي تهتكت فأخذوا ما وجدوا وحصلوا على ما نشدوا وانزبت من تربة من تراث ذلك التراب وعمرت قلوب المسلمين بذلك الخراب وبردت من حر تلك النار وشفي أوامها بذلك الاوار والحمد لله الذي جعل تلك النار لاوليائه بالبرد والسلام ابراهيميه وعلى اعدائه بالحر والضرام جحيميه

(ذكر فصول انشأتها من كتب البشائر بالنار)

صدرت مبشرة بما أجلاه الله من الجلد وأنجزه من الوعد وأجزله من الرفد وأعده به حال الظما البرح من الورد وذلك ما ظهر يوم السبت ثامن عشري شهر ربيع الاول من الاتفاق الحسن والنصر الذي يقصر عن وصفه ذو اللسن وهو ان أصحابنا بعكاء رموا بقدور النفط عدد العدو المدحور وأحرقوا جميع مالهم من المذخور واحترقت ثلاثة ابراج كانوا قدموها ودبابات قربوها ومنجنيقات نصبوها ولهم مذ سبعة أشهر يجمعون هذه الآلات ويستسهلون عليها الغرامات حتى أقاموا ابراجا أعلى من أبراج السور بضعف سمكها وقربوها نابا كية في الثغر المحروس بفتكها وشحنوا بالرجال المقاتلة طباقها وأطالوا على مناكب البلد أعناقها فاشفق الاسلام من نكاياتها وأظلمت الآفاق من غياباتها وكشفت من البلد جانبا وجبت من سوره غاربا فاقدر الله على احراق ما عمل في تلك المدة المديدة في ساعه وأمسى العدو بقلوب وأفئدة من نابة مرتاعه وما أفصح ألسن النيران على تلك الاعواد خاطبه وما أبسط أيديها على من كان فيها من الرجال للارواح ناهبة سالبه

(فصل)

هذه المكاتبة مبشرة بالظفر الذي ورت زناده والنصر الذي قرب بعاده وذلك ان أصحابنا بثغر عكا استظهروا وظهروا وصبروا فانتصروا ورموا من البلد أبراج الفرنج المنصوبة عليه بقدور النفط وأنزلوها من سمائها لرفعة الى أرض الحط وأطلوا بها ألسن النار المضطرمة ودبت من الأبراج المقربة الى الدبابات المقدمة وعلم العدو ان كرته خاسرة وان يده عن نيل المنى قاصرة

(فصل)

هذه مبشرة بالظفر الهني والنجح السني والنور اللامع من النار والنصر الواري الزناد الطائر الشرار وهو ظهور أصحابنا بعكا يوم السبت ثامن عشري ربيع الأول وقد خصهم الله بالنجح الأفضل الأكمل وقد كان العدو قدم أبراجه وملأ في المضايقة منهاجه ولزم في الزحف الدائم لجاجه فاستظهر الأصحاب عليهم وقت الظهر ورموهم بقدور النفط المحرقة من الثغر فطالت ألسنة النيران تدعو على أهلها بالبوار وتبدي في تضرمها تضرعها الينا للاعتذار وشاهد أهل النار ما أعد لهم في سقر وتلونا قول الله سبحانه فيهم كذلك نجزي من كفر

(فصل الى الديوان العزيز)

ولما كان ظهر يوم السبت ظهر أهل الجمعة على أهل الأحد ورمى الأصحاب المحصورون المنصورون عدد العدو وأبراجه بقدور النفط من البلد فعلت ألسنة النيران على تلك الأعواد بل على تلك الأطواد وألحقتها ارداء اردى وألحقتها بالوهاد وفرشت رمادها المأتم أولئك المراد فكانت تلك النار على الكفر ضراما وعلى الاسلام بردا وسلاما واحترقت الأبراج الثلاثة على معتقدي التثليث ودبت النار الى الدبابات والمنجنيقات بصدمة التأثير وحدمة التأريث وما أطول ألسن النار وأفصحها بالدعاء على أهلها بالتبار وقد أبدت الى الاسلام بتضرمها تضرعها ووجه الاستبشار وما أحسنها وهي ترمي بشرر كالقصر وتكسو سنى لهبها وجوه المؤمنين بشر النصر وما أقطعها لدابر المشركين وقد خصت باحراق تلك الآلات عن البلد أجنحة المحصورين بها عبوس لبوس بأمر الله ثغر الثغر وقد بعثت هذه الفجيعة فجأة من حزنه تلك البروج

ودخل الى طبقاتها قوم لاطفاء النار فتعذر عليهم الخروج وهلك فيها أكثر من ثلثمائة دارع وخرج من أهل البلد لماحق الفرج كل مسابق الى الغنيمة مسارع وكسبوا من الدروع والمناصل والسيوف كل ما وجدوه خلل رماد تلك الحتوف وكان القوم قد اعتصموا بالابراج ووثقوا بوثاقتها واشتدوا بشدتها فما عاق بهم من علاقتها ووصلوا بها جنتهم وذخروا فيها أسلحتهم فأخفقت ظنونهم وسخنت عيونهم وخسر هنالك المبطلون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون

(فصل من كتاب الى اليمن فى وصف الابراج واحراقها)

استنفد الفرنج أموالهم فى عدد أعدوها وآلات أجدوها وأحكموا ابراجا شامخات ومجانيق شادخات وزاد غرامهم بالغرامات واستقلوا على عمل الابراج كثرة الخسارات ومكثوا مدة على لجاجهم يطرقون بين يدى أبراجهم ويمهدون الارض لتسوية منهاجهم فلما قدموها بعد لأى وأحكموا باحكامها كل تدبير ورأى وأشرفوا منها على سور البلد بأسوار ذات أسواء وجاؤا بآلات علاة وادوات أدواء وأشفى البلد من بلائها واشفق ووجل كل قلب وفرق واحتجنا لمزاولة هذا الخطب الجليل ومداواة الامر العليل الى أن نشغلهم بحصرنا اياهم عن التفرغ للحصر وتضرعنا الى الله فى انزال ملائكة النصر فكان من لطف الله ما لم يكن فى الحساب وأتى الله المجرمين بالعذاب وألهم أصحابنا ما داووا به المرض وأدركوا به الغرض وأظهرهم ظهر يوم السبت الذى خصهم فيه بالظهور وأقدرهم على رمى تلك الابراج بالنفط فى القدور وظهر من سر صنع الله ما كان فى المقدور فتسلطت النار على عمل أهل النار وتصاعدت زفرات غيظها بأنفاس الشرار ولمع نور النصر الساطع من خلال ظلمة ذلك الدخان وكان كما قال الله تبارك وتعالى يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران وعادت تلك الاكم وهادا وتلك الجمر رمادا وتحلحلت تلك الجبال وتحلل تركيبها واصطلى بالتراب ترتيبها وانتكس منها صليبها وكانت ثلاثة أبراج شاهقة فلعبت فى ملاعبها النيران فاذا هى زاهقة وتنقلت نجوم الشعل

في تلك البروج وعجز شياطينها برجمات جمرات شهبها عن الخروج وتسلط المضيض على بقاعها وباد الدارعون فيها بأدراعها وأضحك الله ثغر الثغر بما أطابه من أرج الفرج وأخمد باشتعال ذلك الوهج ما أكرب قلوب المؤمنين من الوهج وصان مهج أهل التوحيد بما أرداه لأهل التثليث من المهج

(فصل)

تقدم المشركون بالابراج الى البلد فقربوا الاسوار من أسواره وألصقوا منها جدرانا بجداره وأشرف الثغر على الخطر العظيم من جواره فأظهر الله ما كان خفيا من سر اقداره وأحرق عمل أهل النار بناره وكان أصحابنا لما عاينوا امارتها هم وهدهم وخصهم من الخطب وعمهم نصبوا المجانيق بازاء الابراج وصدعوها بها صدع الزجاج ورموها منها بقدور النفط فاشتعلت رؤسها وشابت وشبت ومشت النار في أطرافها وأعطافها ودبت وأرسل الله في تلك الساعة بعذابها وسحابها هبت فأمست أجنحتها قد حصت وأسنمتها قد جبت وسقط في أيديها ووجبت جنوبها وكبت على وجوهها في النار وكبت فما أفصح ألسنة النيران وقد نادت بنصرنا ولبت وألفت منا قلوبنا بما ألفت من نعم علياها واجبت والحمد لله على الطافه التي ما غابت ولا أغبت وقصدنا بذكر هذه الفصول ذكر الاحوال التي جرت بجملها وحقيقتها وحليتها وجليتها فانه يشتمل كل فصل على تمام ما أغفل في غيره ومقصودنا استيعاب كل حادث بذكره

(ذكر تاريخ وصول الاكابر في هذه السنة)

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشري ربيع الآخر قدم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن اتم ضه من العساكر وكان أول من استقبله حين ظهرت راياته من العسكر كتابه وقضاته ثم لقيه الملك المظفر تقي الدين بتل كيسان ولقيه بعده الملك الظافر خضر والمعز اسحق ولدا السلطان فنزل لهما وترجلا له وتعمدا اعظامه واجلاله ثم لقاه الملك الافضل أدنى من ذلك فتعانقا على فرسيهما اعفاء له من النزول وتلاقيا بالاقبال والقبول ثم وصل اليه السلطان بالوجه الضاحك واللطف المتدارك واعتنقا على ظهر واتفقا على بشر ونشر وكان الملك العادل

أخرفلق وأظهر من أرج صباباه ما بنشره عبق وبحبه علق وسار مع السلطان بأطلابه وأبطاله وحماته ورجاله حتى وقف قبالة العدو بصفوفه ووقف عليهم طول الرعب بطول وقوفه ثم رده السلطان الى خيمته على رسم الضيافه وترفرفت ألطافه عليه بالاطافه ووقف ساعة مع الملك العادل حتى دخل السلطان سرادقه وجلس وحضر الملك العادل بعماد الدين وبسط لفرشه ثوبا أطلس وأكرمه السلطان باجلاسه الى جنبه على الطراحه وآنسه ببشر السماحة والسجاحه ووقف الامراء والخواص والاولياء صفين وأنشد الشعراء من المدح والنسيب صنفين ثم أحضرت المائدة فازدهرها الحضور وعقد الجبالهم الحبور ثم رفع الخوان وارتفع الاخوان وحسن الخبر والعيان وخلا المكان وحلا الامكان فأمر السلطان له باحضار عشرة من العتاق العراب وخمس عشرة رزمة من كرائم الثياب ثم نهض وهو بعبء الشكر ناهض ولوجه العذر عارض ونزل في خيمته وقد ضربت على النهر بعد المضارب العادليه وملأ تلك المروج بعساكره المليه ثم وصل من بعده ابن أخيه معز الدين سنجر شاه بن غازي بن مودود صاحب الجزيره بعساكره الكثيفة الكثيره وذلك يوم الاربعاء سابع جمادى الاولى بالايد الاطول واليد الطولى فالتقاه السلطان وأخوه وأولاده على قاعدة عمه وأبراه في الضيافه والكرامة والنزول بالخيمة السلطانية على حكمه لكنه يقصر في القاعدة عن رسمه ونزل بخيمته في فناء السرادق العمادي وقد استكثر من العسكر الجهادي فكان ذلك المرج بحرا أمواجه الخيم والمضارب أو سماء كواكبها أمرعته من صعادها الكتائب أو غيل آساده في آجام القنا الفوارس أو غدير من السوابغ حبابه الترائك والقوانس أو سحاب بروقه الصوارم لرثاق أو وهادا آكامها الصواهل العتاق ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خرمشاه ابن صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود وهو كوالده مسعود مودود وفي شهامته وصرامته شكور محمود وذلك تاسع جمادى الاولى يوم الجمعه بالمحاسن المتنوعه والمفاخر الاصليه المتفرعه والصنائع المبدعه والبدائع المصنعه وجيشه للقوة ضابط وجأشه على الجمة رابط

وبأسه ليد الايد باسط وجنانه على الكفر ساخط وهو شاب أول ما بقل خطه وابتهج بكماله رهطه وكان بوه قد عزم على الوصول بنفسه رادهاب وحشة الخطب الملم بأسه ثم رأى المصلحة فى الاقامة وتقديم ولده المشكور المشهور الشهامه فانهض العسكر المجر معه ثم أتبعه بن حشده وجمعه فورد ورود الشهاب المكهور ونور المطالع بسنا السفور وأطلع طلوعه على معنى البأس المصور واحتفل السلطان بقدومه احتفاله بقديم عمه وحافظ من المكرامة على توفير رسومه وأنزله فى سرادقه وأضافه وأهدى له خيله وألطافه وأمر بانزاله فى لجة بين ولديه الملكين الافضل والظاهر وضاق ذلك البر الواسع بصر العساكر ولم يبق فى أهل السلطان الا من اقتدى به فى الاحتفال بقدوم هؤلاء واعتماد ما قام به البرهان على الخالصة فى الولاء والمسارعة الى الضيافة والاهداء والاعادة الى المكارمة بعد الابداء

(فصل من كتاب الى صاحب الموصل فى شكره على تسييرولده)

الحمد لله الذى نصر الدين بأهله وعجل بانصاره جمع شمله ووفق أسد عرين الملة أن يحمى حوزة الاسلام شبله وللمجلس فى طوله اليد الطولى والمنة الثانية التى أربت على الاولى حيث حثت همته العليه وحض لحظ دينه عزمته الماضية المضيه وشرف بولده علاء الدين من تقلد بوروده أوفى منه وتجمل من وفوده أقوى منة وأرقى جنه فلقد ورد الى الساحل بحرا وطلع فى ليل القساطل بدرا وأسفر لمرتقبى صباح النصر فجرا وجلا وجوه المؤمنين ببشراه بشرا وملأ صدر الاسلام أمنا وقلب الكفر ذعرا ثم وصل زين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك صاحب اربل يوم الاربعاء فى العشر الآخر من جمادى الاول ذو السماح المؤمل والمجد المؤثل بجيش كالسحاب المسبل فدرت أخلاف النصر بحفول ذلك الجحفل وورد بكل ورد هى وجد سنى وقدم بكل مقدام وزار خيس الجيش بكل ضرغام وزار بكل همام بالمنون همام ووصل بكل واصل لسبب النصر قاطع دابر الكفر ووفد بكل وافد باليمن الوافى والنجح الكافى والعز الصافى والعزم الشافى وطلع بكل طالع بالسنى جامع للمنى فارع بالغنى

فارك للغى سافك دم الشرك بالظبا والقنا وكان هذا أول يوم لقائه للسلطان وأحسن اليه بالاكرام وزاد فى الاحسان وكان يجمع بين الحماسة والسماحة والبشاشة والرجاحة والتودد الى الناس والتشدد بالباس والتواضع مع الكرم ودنو الودمع علو الهمم ماله مبذول ونواله مأمول وسيفه على الكفر مسلول وأمره بالطاعة فى رعيته ومن فى جملته مقبول وهو مرجو ومخشى وكريم مغشى ومهيب مرجو ومحسن سنى الحمد مجلو وكان معه خلق كثير فى سلك الاتباع وسلك الاتباع نظيم نثير وأنزل بقرب أخيه مظفر الدين فى الميسرة وتمكن الرعب بما تم من الجمع فى قلوب الكفرة

(ذكر وصول الاسطول من مصر)

كان السلطان قد أمر بتعمير أسطول آخر من مصر تصل فيه الذخيرة والميرة والعدد الكثيرة فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهر الاسطول وتم بظهوره النصر المأمول فركب السلطان فى جحافله وسدد سهام الردى الى العدو ومقاتله وأحدق به حول خنادقه ليوسع عليه المجال فى مضايقه وليشغل الفرنج عن قتال الاسطول ويسهل عليه بشغلهم طريق الوصول فصف الفرنج أسطولا وصفوا شوانيه على البحر عرضا وطولا وقدروا أنه يلاقى الاسطول المنصور ويحاولون سد الطرق عليه وسد العبور فجاءت مراكبنا وقطعت مراكبهم وطعنتها وأوهت متنها وأوهنتها وأخذنا لهم مركبا وأخذوا لنا مركبا وكان تقصير الرؤساء فى حفظه لاخذه سببا واتصل الحرب فى البر الى حين غروب الشمس وعاد المسلمون بحبور القلب وسرور النفس وقتل من الفرنج عدة وافية وكانت الله لنا ولاصحابنا واقية

(ووصفت هذه الحالة فى مكاتبة كتبتها تعرف منها الصورة وتكشف القضية المذكورة وهى

هذه المكاتبة مبشرة بما اسناه الله من النصر الهنى وهناه من النجح السنى وأجنى المسلمين من ثمر الظفر الجنى وذلك بوصول الاسطول الثانى المصرى المنصور ظهر يوم الخميس متظاهرا بامداد الظهور متواترا بوفود الوفور رد خوله ...!!

غانما الى ثغر عكا المحروس المعمور فأثر البلاد بعد انغاضه واجتمع اليه مدد القوة بعد انفضاضه واستجد جدة وافيه وعصمة واقيه وذخيرة كافيه وكان الفرنج عند وصول أسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها وأبرزت مناكبها وحفت بالرجال والعدد جوانبها وسنمت غواربها ورفعت هضابها وهواضبها وسحبت على ثبج البحر سحائبها وأدبت الى عقبان أساطيلنا المحلقة بعقابها ثعابينها وعقاربها وظنت أنها تستطيل على رواسي أساطيلنا بسواريها وانها تواجه عرائسها المجلوة بحور جواريها فلما جاء الحق زهق الباطل وصال الواصل وحاص العدو من الحاصل وانحل تركيب تلك المراكب وحطت تلك المناكب عما أحاط بها من النواكب وخرج الاسطول الاول من الثغر متبشرا بدخول الثاني واجتمع شمل الشواني بالشواني وتفرقت سفن العدو شذر مذر وعذر حين ذعر فحذر وكبت شوانينا ست بطشانهم فكسرتها ووجدت فيها عدة من الرجال المقدمين وانساء فأسرتها وكانت الفرنج حملت فيها تجائر وذخائر تطلب ربحها فخسرتها

(فصل آخر)

وصل الاسطول ظهر يوم الخميس ظاهرا جيبه ثائرا بالاسد عربيه في شوان للعدو شوائن وشلنديات لشله وفيه ضوامن وحراريق لاهل النار بنارها محرقه وعقبان مراكب في مطار العقاب على البحر مين محلقه وسواري هواضب كرواسي هضاب وسحاب بوائق كبوارق سحاب من كل مركب للنصر مركب ومفرد من الشدة والبأس مركب وقطعة لنياط قلب العدو قاطعه وقلعة لاساس أهل الكفر قالعه وتلعة في ذروة العزة تابعه وذروة في مرقى الهدى راقية منيعه وجاءت في البحر أمواجا في الامواج ودخلت الى الثغر أفواجا بعد الافواج وكان العدو قد أبرز أباطيله وجهز أساطيله وشب عواديه ودواعيه وأدب عقاربه وأفاعيه واسمى مناكب مراكبه وجد في امهاء غروبه وتسنيم غواربه ولما وصل الاسطول طل وصال ولاح للعدو صده بحيلة من حال فحال وامتنع مراده واستحال وأخذ الاسطول من مراكبه الكبار ست قطع قطعت أسبابها وفصمت

من عبدة الصليب أصلابها وخيب حسابها

(فصل)

وصل الاسطول الى البلد مستطيلا بالجلاد والجلد وأثرى به الثغر بعد الانفاض واجتمع به شمل الرجاء بعد الانفضاض ودخل اليه ما خرج عن حد الحصر من ذخيرة وميرة توجب كثرتها قلة المبالاة بالحصر فان الرايات المنصورة علت فخلت في الآفاق رياضا والمراكب الاسلامية انقضت فقضت للمسلمين أغراضا ووافت ووفت فاعادت جواهر مراكب العدو أعراضا وجاءت سواريها كالرواسي وجواريها محكمة المراسي ومن شأن شوانيها شن الغارات على الشناة ومن عادة شلندياتها شل أندية العداه ومن شيمة حراريقها شيم بوارق البوائق لاحراق أهل المارق المارق الماء ومن عمل مراكبها الحالي مناكب الكفار رداء الارداء من كل جبل بحرم السحاب وضامر بشد العراب وعقاب محلق على الشرك في مطار العقاب وغراب ناعب في أعداء الله ببين الاحباب وهضبة موفية على الهضاب وقطعة رافية من الكافرين بقطع الرقاب وما أحسنها وقد زفت عرائس وجليت أوانس وطلعت باهل الايمان بواشر وعلى أهل الكفر عوابس وعادت بها رسوم مراكب الفرنج دوارس وخلا وجه البحر من سفن الضلال وتقلص ما لها من الظلال ولما شوهد الاسطول ساطيا وجيد النصر منه عاطيا وأخذ البحر من الاعداء بحقه وأشرق سنى النجح في افقه ركب العسكر المنصور للقتال وأخذ أهبة النزال وزحف الرجال الى الرجال والتقى الابطال بالابطال وشفيت بدم الكفر غلة المناصل والنصال واحمرت البيض الظامئات ورويت من نجيع الزرق وبشرت جياع العواسل من اليراع العاسل بعاجل الرزق وظل أهل الضلال وقد كفهم الكفاح وفككهم القتل والجراح وأقوى الاقوى من الثبات وبطل بطلهم بما أثخنه من الجراحات وبات المسلمون واثقين من الله بأن جمع الكفر قريب الشتات وأدرك المشركين ما فاتهم من الآفات

(ذكر قصة ملك الالمان وصحة الخبر المتواتر بوصوله)

صح الخبر أن ملك الالمان عبر من قسطنطينية الخليج وخطب في تلك المروج
بمروجه الخطب المريج وأنه وصل بجمعه الى مضايق صعب عليه منها العبور
وعمهم في مضايقهم العثور فقيل انهم أقاموا في قفار ومواضع شهرا عدموا فيها
الطعام ولم يجدوا بها الامرا وكان التركمان الاوجية على طريقهم يمنعون
بغربهم من تشربقهم فاضطروا الى المقام بغير زاد وهم في جهد وضر واجتهاد
فصاروا يذبحون خيلهم ويأكلونها ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب
ويشعلونها فتزحلت منهم ألوف ورغمت أنوف وكان ذلك في البرد الشديد
وزمان الثلج والجليد فجمدوا وخمدوا وتجلدوا وتبلدوا وعدموا دواب حمل
الاثقال وثقل عدد الرجال فدفنوا وأحرقوا منها وتركوها وسلوا عنها وكان
ذلك من الله لطفا وأمست قوتهم ضعفا وكانوا في خلق لا يعد وجمع لا يحد فما
أثر فيهم ذلك النصب ولا صدهم عن مقصدهم ذلك التعب وما زالوا يسيرون
والاوجية تبدي اليهم الوبال في أوجها أوجها والافرنجية لا تنتهي حتى تبلغ الى
مالها من منتهى حتى بلغوا الى بلاد قليج أرسلان ابن مسعود ومسالكها وهم غير
مصدود ولا مسدود وقليج أرسلان محكوم عليه من ولده قطب الدين ملكشاه
وهو يدبر أمره ويتولاه ويسومه الاكراه فعارضهم لما قربوا وتعرض لقتالهم
وطاردهم ليضيق عليهم سعة مجالهم ثم اندفع من بين أيديهم وتعدى عن جانب
تعديهم ودخلوا قونية دار ملك المسعوديه واعتصم قليج أرسلان بقلعتها المحميه
وتراسل هو وملك الالمان واتفقا في الباطن على ما كان بينهما من المواثيق
والايمان وحمل ملك الالمان له وفرا وافرا وأشبه المسلم بالكف عن الكافر كافرا
ووافقه على العبور الى الاقاليم الشاميه والبلاد الاسلاميه وعلى انه يسير في
بلاده الى بلاد ابن لاون وأعطاه عشرين مقدما من أكابر امرائه ليكونوا معه حتى
يصل الى المأمن رهائن وأمر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه وان يعاوضهم
من الخيل والعدة بما يرومونه وأقام لهم الاسواق وعرض عليهم الامتعة
والاعلاق فساروا في رفه ورفق وتقو بلاتوق فلما وصل الملعون الى بلاد
الارمن غدر بالرهائن وساقهم مجموعين مع الظعائن وتأول عليهم بان التركمان

سرقوا منهم فى طريقه ونكث جميع موثقيه ووصل ليفون بن اصطفانه بن لاون مقدم الارمن الى خدمته ودخل فى طاعته وكان بمفرده خاليا من عسكره بمعرده وذلك فى طرسوس فتمكنوا بها للبر بحوابها النفوس وقيل عن ملك الالمان أن يسبح فى النهر ويحط عنه ماعراه من الوضر والضر وكان شيخا مسنا قد عاد لكبر سنه شنا وحسب أنه اذا سبح سحب ذيل الاستراحه فكان موته فى تلك الراحه وهلكه فى تلك السباحه فانه عام فى الماء البارد وتورط منه فى أصعب الموارد وخرج وبقى مريضا الى أن خرج من ثوب البقاء وتحول الى فناء الفناء وتلقاه مالك بالزبانيه وحملوه الى نار الله الحاميه وسمعت نصرانيا يقول فى معناه كنت معه لما سلك فهلك وأعجله مالك الى نار عما ملك وذلك أن النهر ما كان فيه الا معبر واحد والعسكر فيه متزاحم متوارد فقال ملك الالمان هل تعرفون موضعا يمكن فيه العبور ويؤمن فيه العثور فقال له واحد ههنا مخاضة ضيقة من احترز فيها عن التيامن والتياسر عبر ولا يعبر فيها الا واحد بعد واحد اذا تثبت واستظهر فبدر الى تلك المخاضة ذات الجرية الفياضه ودخل الماء فطغى على ذلك النارى الطاغى وأعجل ذلك الباغى عن المباغى ورماه فى جريانه الى شجرة شجت جبينه وجبت جاشه وعثرته بحيث لم يؤمل انتعاشه فتعبوا فى اخراجه وأيسوا من علاجه ومات عدو الله شر ميتة وبلى شمله بتشتيته وحبله بتبتيته وخلفه ولده على خلف من أصحابه وأجناده لمكان الولد الذى خلفه فى بلاده وقيل انهم سلقوا ذلك الهالك فى قدر حتى تخلص عظمه وتهرى لحمه ثم جمعوا فى كيس عظامه وراموا بذلك اكرامه واعظامه ليحملوه الى كنيستهم بالقدس قمامه ويدفنوه على ما كان أوصى به ورامه ولما عرف ابن لاون بهلاكه وسكون حراكه وما جرى من الاختلال والاختلاف بعونه وانه لا تلافى لما فرط من تلفه وفوته فارقهم الى بعض قلاعه واتصل الضر بهم لانقطاعه ووصل كتاب من الكاثاغيكوس صاحب قلعة الروم يرغب ويرهب ويبرق ويرعد ويقول ويعدد ويدهده ويهدد ويرى أنه ناصح وللقصة شارح وان الامر

واضح وان الخطب فظيع فاضح وان هذا الملعون أول ما خرج من بلده أوصى فيه الى ولده ثم جاء الى بلد الهنكر فدخله غصبا وأوسعه نهبا حتى أذعن له وانقاد وبلغ بطاعته المراد وانه أخذ من ماله ورجاله ما اختار وتزود من عنده وامتار ثم وطئ أرض ملك الروم وداسها وتوسط ديارها وجاسها وفتح بلادها وملك قيادها وأحوج ملك الروم الى طاعته والزمه بالدخول فى استطاعته وأخذ منه من الذهب خمسين قنطارا ومن الفضة خمسين ومن الثياب الطلس المعدنية ما بلغ الالوف وتجاوز عن المئين وأخذ على سبيل الرهائن أربعين من خلصائه ومعروفى كبرائه وأخذ كل سفينة غصبا وصعب على ذلك البحر فى التعدية من مراكبه صعبا وانه لما عبر وفرغ من الخروج تلقاه بالخيل والدواب والابقار والاغنام تركمان الاوج ثم وقع بين التركمان وبينهم وجالوا حولهم ثلاثة وثلاثين يوما وهم يخطفون وهم فى طريقهم سائرون وعلى مقاتلتهم صابرون حتى قربوا من قونية فاعترضه قطب الدين ولد قليج ارسلان والتقى الاقران بالاقران وهزمه ملك الالمان ولما أشرف على قونية خرج اليه جموعها وطالت اليه بالحرب بوعها ثم اندفعت حيث ضم على الروع روعها وأنه هجم على قونية عنوة ونال منها حظوة وأقام خمسة أيام حتى استقرت بينه وبين قليج ارسلان قاعدة أكيدة وحصلت لكل منهما فائدة مهيدة وأخذ منه رهائن عشرين من أكابر دولته المتميزين وقدم كتابه الى ابن لاون بالجواز فى بلاده فتلقاه بما أعده لارفاده ونزل حين وصوله الى طرسوس على بعض الانهار ونام ساعة بعد تناول الطعام ثم انتبه وتشوق الى الاستحمام فحرك عليه الماء البارد مرضا وتشكى أياما قلائل مضضا ثم قضى وانقرض أربه وانقضى وخلفه ولده بعده واستمال جنده وكان ابن لاون قد سار قاصد القاء أبيه فلما عرف موته وجلوس ولده أضرب عن تلقيه وعرض عسكره فى اثنين وأربعين ألف مجفجف من كل سرحان أهرت وذئب أغضف وأما الرجالة فلكثرتهم تعذر العرض وغص بهم طول الارض والعرض وقد لبسوا الحديد للحداد على البيت المقدس وهجروا الثياب ولزموا المصاب وداوموا الاكتئاب وهم صابرون

على الشقاء والتعب لامل الظفر بالطلب ولما بلغت هذه الاخبار اضطربت الديار وارتاعت الانجاد والاغوار وقالوا هذا جانب لايطاق وأى جانب قصده عنه لا يعاق ولاشك أنه يتوسط بلاد الشام ويثلم ثغور الاسلام ويشغلنا عما نحن فيه من هذا الاهتمام وعزم السلطان على استقبالهم بالردى والرد وصدهم عن القصد ثم ثبت على رأى الثبات وتنظر الاوقات عما يتجدد من الحادثات وتقلقلت عزائم الذين بلادهم على طريق القادم وانه يعود كل منهم الى مكانه أخذا بحكم الحازم فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج ليجمع على طريق العدو ويزعج ويرهج ثم عز الدين بن المقدم الباسل المعلم ثم مجد الدين بهرامشاه صاحب بعلبك ليجمع ويأخذ على العدو المسالك ثم سابق الدين عثمان صاحب شيزر الليث الهمام القسور ثم البارو قية أسد الهياج ونجوم ليل العجاج ثم رحل الملك الافضل وقد عرض له ألم ثم بدر الدين والى دمشق وقد ألم به سقم ثم سار الملك الظاهر صاحب حلب لاضطرابها بغيبته وبهذا الخبر ولخوف الناس فيه أنهم على الخطر حتى غلت الاسعار واستعرت الغله وخلت الاماكن وتمكنت الخله ثم رحل الملك المظفر تقى الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبله ويثبت بقدومه عليها الرعية الخائفة المجفله وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخره ورتب السلطان منازل العساكر الحاضره وخفت الميمنة برحيل معظم من كان فيها مقيما ولحفظ النوب فى البرك مستديما فانتقل الملك العادل اليها وجاء الى منزلة الملك المظفر ونزل عليها واستقام الترتيب وترتب المقام واعتز الصادقون وصدق الاعتزام ثم مرض أكثر العسكر وخام للوخم وألم بالعسد لالم وكان بحمد الله المرض سليم العاقبة قريب العافيه مستعقبا الالطاف الله الواقية الوافيه ووقع المرض فى الفرنج وكان المبيد المبير والمدنى لاصحاب السعير السعير وعم فيهم الموت والوبا وكثر عن نبواتهم النبا وتقدم السلطان بهدم سور طبريه وهدم يافا وأرسوف وقيساريه وهدم سور صيدا وجبيل ونقل أهلهما الى بيروت

(عاد حديث ملك الالمان)

وأما ملك الالمان فانتحس ومرض أياما فى بلد الارمن واحتبس وهلك أصحابه جوعا ومنهم من عزم رجوعا ووقع الموت فى خيلهم فأذن لهم ففلوص ذيلهم وقدم الملك لمرضه والثبات جوهره بعرضه جوعه قدامه وساروا امامه وخرجوا الكثرتهم فى ثلاث نوب فى بيض وسمر وبيض ويلب ومعظم رجالهم حملة عصا وركاب حمير غير عارفين بطريق ولا متحفظين فى مسير والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم ويتألفون على مسالكهم ويتلفونهم ووصلوا الى انطاكية ووصل اليها الملك بعد أن ضاق به ويجمعه اليها المسلك وضاق به الابرنس صاحب انطاكية ذرعا ولم يجد لهم عنده مطعما ولا مرعى وطلب منه القلعة فأخلاها له ونقل اليها ماله وأثقاله وسأله أن يجعل طريقه على حلب فخاف وأبدى له الخلاف وقبل وصوله الى انطاكية فلت جوعه وجنوده وبليت بحشد التركمان حشوده واجتازت الفرقة الاولى منهم تحت قلعة بغراس فلقيت البوس والباس وخرج رجالها عليهم على قلتها وصدمتهم ببسالتها وأسرت منهم زائدا على مائتين وطمعت فيمن وراءهم من الفئتين وقيل انهم حسبوا ان بغراس باقية بحالها مع الداوية فجاؤا اليها حصرا باحمالهم وأموالهم السنية فلم يشعروا اليها الا بالبغال على الباب واقفه والجنى دان يرقب ان يكون له أيد قاطفه فخرج اليها وتسلمها بغير طعن ولا ضرب وتخلى عنها أصحابها لما عرفوا الحال ولم يعرجوا على حرب فاستغنى الوالى من ذلك اليوم من مال القوم ثم أنكر حتى لا يطالب بشئ منه وغفلت الايام عنه وذكر الامير علم الدين سليمان بن جندر فى كتابه أنه أنهض جماعة من أصحاب أمراء حلب وأصحابه ليقتفوا آثارهم ويكشفوا أخبارهم فوقعوا على خلق عظيم منهم فخالطوهم ولم يرجعوا عنهم وانقضوا عليهم انقضاض البزاة على الحجل وزأروا فيهم زئير الاسد فى النقاد وزاروهم بالاجل وأسر كل واحد من أصحابنا ثلاثة وأربعة وتركوهم متفرقة متفرعه وعادوا بالاسارى الى حلب وباعوهم فى الاسواق وامتلأت بالاسلاب منهم والاعلاق وطابت قلوب الرعايا وأنست من الله بما ظهر من ألطافه الخفايا وطمع فيهم أهل القرى والتقطوهم من الوهاد والذرى وما صدقوا بالسلامة حتى آواهم

الابرنس الى انطاكيه وأراح من آلامها الالمانيه وذابوا فى هذه الطرقات ذوبا وصب عليهم العذاب صبا اذا أخذوا صوبا وهلك بانطاكية الكند الكبير مقدم العسكر وتبعه الى سقر كبير من ذلك المعشر وحصل الابرنس بتلك الاموال المجتمعه والذخائر المودعه حتى قيل انه اغار غب فى الوصول الى بلاده ليحصل على سبده ولبده فاخلى له قلعته لينقل اليها خزائنه ففعل وما رجع اليها واحتوت يد الابرنس عليها ثم ساروا على طريق الساحل بالفارس والراجل وخرجت عليهم خيل جبلة واللاذقيه وسقتهم كؤس المنيه وألقتهم على البؤس والبليه فاغذوا فى السير حتى وصلوا الى طرابلس وقد نقص نصفهم وتم بعواصف البلاء نسفهم وبلغ أمدهم وانتهى مددهم وجبن الملك عن المسير عن الطريق لما لقيت جموعه فى طرقاتها من التفريق فركب البحر فى عدد يسير لا يزيد على ألف برعب قلب وقصور يد ورغم أنف واختلط مع الفرنج على عكاء فسقط اسمه وسقط حكمه وهلك بعد قليل ولم يحظ بنقع غليل وسألم بذكرها لانه فى مواضعها وذكر مصارف جماعته ومصارعها

(وكتبت الى الديوان العزيز فصلا)
(بخبر ملك الالمان عند ارعاب الارجاف به)

قد وصل الخبر بالداهية الدهياء والغمة الغماء والنكبة النكباء والشدة الدهماء والبلية البلياء وهى أن ملك الالمان ومعه ملوك الافرنجية وحشودها وقوامصها وكنودها وأحزاب الشياطين وجنودها والوية اللواء وبنودها وصل جارا على السماء ذيول قتامه مجريا فى الارض سيول اهامه ثائرا بأطلابه لطلاب ثاره سائرا بخيله ورجله كالسيل الى قراره وانه فى عصائب صلبان فى عصبيتها متصلبه وأتباع شياطين لارضائها متغضبه وأسراب سراحين على سرح الاسلام متوثبه وانه فى مئين من الآلاف الالاف للمنون وأقطاب الاعطاب الدائرة لدوائر سوء رحى الحرب الزبون وقد أوقدوا للفتنة نارا وأضرموا للشرك الداعى الى النار نارا فان حسرتهم على قمامتهم دامغه وقيامتهم قائمه والموت يدعوهم الى المقبرة التى يدعونها والآجال تليهم المنايا عم التى

يدعونها وكان خبر وصوله متداولا على ألسنة الاراجيف وتشيعه أعداء الله من قبل للترهيب والتخويف واستعدت العساكر الاسلامية للتوجه الى بلاد الروم فى الربيع ليقع النساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع باتفاق الجميع وانتظروا ورود خبر صحيح ويقين نبأ بأمر صريح حتى اذا صح الخبر سار العسكر ثم انقطعت الاخبار وتمادى الانتظار ومضت شهور الربيع اذار ونيسان وأيار وكانت كتب سلطان الروم قليج ارسلان وأولاده ورسلهم متواصلة بما ينبئ عن التعاضد ويبنى أمر الوفاء والوثاق منه على التعاون والتعاقد وهم بانهاء ما يصح عندهم واعدون ويزعمون انهم فى رد الواردين وارادتهم مساعدون فاخلف ذلك الوعد وضيع ذلك العهد ووصلت كتبهم بغتة فى هذا الاوان بما تأخر به الخبر عن العيان وقالوا انهم قد توسطوا بلاد الاسلام وانهم على قصد الشام ثم ورد الخبر بانهم صالحوهم وصانعوهم وأخلوا لهم الطريق وادعوهم ووسعوا لهم فى المضايق وسعوا فى أمن طرقهم من الطوارق وهذا حادث كارث وباعث فاجئ فاجع لاهل الحمية فى الذين باعث ونا كب لمقود العقول فى تعاظم ضرره وتفاقم خطره نا كث وقد تعين الجهاد على كل مسلم ومافى الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهم الفروض والخادم منفرد فى حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض وهو واثق بان بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه وان لذى يستبعد من النصر القريب يتسق ويتسع به سلكه ومسلكه ان شاء الله

(فصل فيه فى جواب أمير)

عرفنا خبر العدو المشؤم الواصل من جانب الروم وهذه هدية أهداها الله الينا وفضيلة خصنا الله بها حيث أقامنا فى مقابلة أعدى أعدائه وأقدرنا على مقاتلة من نازعه فى كبريائه وقد ساقهم الموت الى المقبرة التى يدعونها ولبتهم المنايا التى يدعونها ولا يدعونها ومعاقلنا بحمد الله قويه وصوارمنا من دماء أعداء الله رويه فيجب أن يكون فى جميع أموره محتاطا ويظهر بما يغتنمه الله من اسلابهم وأشلائهم اغتباطا

(فصل من كتاب الاستنفار)

قد عرف أن العدو الالماني المخذول قد وصل فما القعود عن هذا المقام معنى وما لمن تأخر عن نصرة الاسلام من ثمرة السعادة مجنى وهذا وقت نهوضه بجميع أهل بلاده وأوان بذل وسعه وجده واجتهاده فانه محضر لا يغيب عنه الامن ليس له عند الله خلاق وموقف يفي بعهد الله فيه من سبق له معه في السعادة ميثاق وانها الغنيمة أوفدها الله علينا وهدية أهداها الله الينا وفضيلة خصنا الله بها وأسعدنا بسببها بل هي بلية جلا وجه النعمة فيها بل قضية وفى الله في النجح بوعود توافيها بل ملمة اختارنا الله لدفعها وطاغية استدعى أولياءه لقمعها ونائرة كلفنا الله باطفاء جمرها وارداء جمعها فلينهض نهوض الكريم الى مساعدة الكرام وليخطب اهتمام العظيم بملابسة الخطوب العظام وليثب وثوب الاسد على الفريسه وليأتم للاسلام انتخاء ذوي الانفس الابيه والهمم العليه النفيسه وليكن أول سابق في مضمار الجد وأسعد طالع في أفق الجد فان الاسلام في انتظاره والمطالع مستشرفة الى اشراق أنواره لا زالت الاقدار جارية في اسعاد الدين والدولة باقداره

(فصل من كتاب)

قد أحاط العلم بما عرا من الملم وعرض من الخطب المدلهم ووصل من العدو الثائر ونزل من النازلة التي هي أم النوازل والدائرة التي هي أم الدوائر وقد آن للاسلام أن يسلم وللايمان أن يعدم وللتثليث أن يعلن وللتوحيد أن يكتم وللكفر أن يقدم وللهدى أن يحجم فقد قذف البحر من الفرنج بزبده والبر أتى أنبه من كل بلاد الكفر بسبده ولبده ووصل الالماني المخذول بعدده وعدده وهذا خطب قد دهم وعدو قد هجم وشر قد نجم وجرداهية قد وفد وجمع طاغية قد وفد في جيوش جائشه وجموع طائشه وجنود محشوره وبنود منشوره وخيول مجفجفه وسيول مجحفه وهذا أوان تحرك ذوي الحميه ونهوض أهل الهمم الابيه العليه فان القوم في كثرة ولا يقاتلون الا بالكثرة وهم مغترون بعلوهم معتزون بعتوهم مستنون في طريق العثرة والسبل اذا وصل

الى الجبل الراسى وقف والليل اذا بلغ الى الصبح المسفر انكشف والمجلس أولى من ولي تفريج هذه الغمه وكشف هذه الملمه حتى تخلف أمانى الالمانى وتبطش أيمان الايمانى وتخذل أنصار النصرانى وتجنى وتبزر رؤس الجنوى والبيزانى فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين وأين المهتدون فى نهج الرشاد المتبين وأين المسلمون وحاشا أن يكونوا للاسلام مسلمين وأين المقدمون فى الدين ومعاذ الله أن لا يكونوا فى نصرته على الموت مقدمين ولولا التقييد بهذا العدو الرابض لاطلقت أعنة النهضة الى العدو الناهض ولا بد من لقائه قبل تلفق الجمعين واراءة الملاعين وجوه حتوفهم ملء العين

(فصل فيه)

قد سد طريق الفلق فيلقه الطارق وزحف الى الحق الثابت باطله الزاهق وجال بالوجل وجاء بالوجيب وثار لثار الصليب السليب وقدو قد جرجمه ورنق فتق الصبح رقع نقعه وماض القضاء ختام قتامه حتى ختم على ضوء نهار الهدى ليل الضلال بظلامه والرجاء محقق ان الالمانى محقق بالمامه والاسلام مشفق من اسلامه والدين موفق بنصرة امامه وعصمة الله الواقية الوافية من ورائه وأمامه والله الكافل باعلاء أعلامه واحكام أحكامه

(ذكر الوقعة العادلية)

كان الفرنج لما صح عندهم وصول ملك الالمان الى البلاد وانه ملأ أحشاء الربا والوهاد بالاحشاد قالوا انه اذا جاء لا يبقى لنا حكما والصواب أن نشبع لنا قبل شيوع اسمه اسما لا سيما وقد خفت عساكر الاسلام ونقل أكثرها الى الشام فنحن ننتهز الفرصه ونحرز الحصه ونهتبل الغره ونهجم عليهم هذه الكره ونذيقهم المرة المره ونفرغ من شغلهم قبل مجىء القادم ونثبت بعز العزائم ونفل حدودهم بحدود الصوارم فخرجوا ظهر يوم الاربعاء العشرين من جمادى الآخره فى حشر بكر بحشر الساهره واسود بياض النهار من سوادهم وتراءت الآجام لنا متوافية بآسادهم وامتدوا الى المخيم العادلية واشتدوا بما استصحبوه من البليه فى كل ذئب أمعط وسيد قد تورط وسرحان سرح

وأفعوان كلح وجهنمي تجهم فهجم وجيمي أقدم وما أحجم وسعيري ناري استعار حدمة النار وسقري فوري عاد بعادة الاقتدار وباروني طالب للبوار واسبناري راغب في التبار وداوي معضل الداء وتركبولي غير تارك للبلاء ومرجندي كرار وفريري غير فرار وفارس يفترس الرجال وراجل يرجل الفرسان الابطال وأزرق زرقه الموت الاحمر وأغش يعشي واليوم أغبر وأشقر وهو أشق وأبقع اذا غوى في الوغى ما ترك ولا أبقى ودخلوا الخيم العادلية وتجاوزوها وقد كانت أخليت قبل أن يجتازوها ووقف الملك العادل بطلبه وعن يمينه ويساره أمراء الميمنة الذين تقربه مثل صارم الدين قايماز النجمي وعز الدين جرديك النوري وجماعة من المعروفين بالشهامه الموصوفين بالصرامه ولبث الملك العادل ابث المخادع المخاتل حتى يطلع من العدو على المقاتل فقادتهم الاطماع الى الانتشار وأفضى بهم الاعتزاز الى الاغترار فحينئذ بدأ بالحملة ولده الاكبر شمس الدين مودود وهو في كل وقعة يحضرها جاد مجدود فعضده والده وولده مساعده وساعده وحمل معه العسكر الحاضر قبل أن يتصل به العساكر فكسر الفرنج كسرة فرشتهم على الارض وذكرت الوقعة العارضة بوقوعهم في النار يوم العرض وكانوا قد بعدوا أكثر من فرسخ وأجفلوا ولم يلتفت أخ الى أخ وركبت العادلية أكنافهم وفلوا بهم أسيافهم وعفروهم وعرقوهم وبجوهم وبعجوهم وحكموا في رقاب الغلاظ منهم الرقاق وضربوا ممن أعنقوا اليهم الاعناق واشبعوا اللموت من لحوم الليوث وبثوا بعوث المنيه في تلك البعوث حتى رتعت في كلا الكلى صوار الصوارم وأرعد وأبرق بهم وعق بوارقهم غمام الغماغم وتعلقت بذوائبهم ذوائب الذوابل ووصلت بهم الى النجاح من المناصل فلم تترك اللهاذم لهاذماء وغادرها شلها بالعراء اشلاء ورأيناها كأنها أعجاز نخل خاويه وما أحسن أجسام أهل الهاويه وهي هاويه فكم جثة بلا راس وبنية بلا أساس ونحر قد نحر ودم قد أنهر ويد قد بتت وكبد قد فتت وعنق قد قطع وأنف قد جدع وودج وجد مفريا وظهر قد ظهر مبريا وحلقوم قد حلق وغلصوم قد فرق وداو قد دوي وبالدم

روى وصليبي كسر صلبه وقلب على صدره قلبه وحرى أثناء الحرب وغرب في نبع عينه النبع والغرب وكان السلطان قد قد ركب وخشى أن جانب الميمنة نكب وسير جماعة من كماة المماليك والامراء على مقدمته وانتظر الميسرة لتنهض في خدمته فوصل الى الوقعة سنقر الحلبي في العصبة العزيزيه وفاز من الغزوة بالحظوة السنيه وجاء علاء الدين بن صاحب الموصل في أثناء المعركه فعرف بركة سرعة تلك الحركه لانه أخذ حظا وافرا ولقى من النصرة وجها سافرا وانقضى الحرب ولم يركب بعد من رجال الميسرة أحد ولم تمتد منها الى قتال الكفرة يد ووصل السلطان وشاهد من مساءة الفرنج ما سره وعرف لطف الله وبره ونصره وعاين هنالك مصارع الاعداء ومشارع البلاء وكانوا مفروشين في مدى فرسخ على الارض وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل الى البحر بالعرض وكل صف يزيد على ألف قتيل وشاع القتل من الفرنج في كل قبيل ولما وصل السلطان رأى عماد الدين وابن زين الدين وامراء الميسرة قد عزموا على الدخول اليهم والهجوم عليهم فانهم ندموا على ترك الاسراع فراموا اتباعهم ليأخذوا بنصيب القتل بهم والايقاع فصدهم السلطان وردهم وشكر عزمهم وقصدهم وأشفق من مضرة تشوب ومعرة تنوب فان الدائرة كانت على العدو وقد فاز بالنصر الحلو وصفو المرجو وكانت النوبة بلا نائبه والغزوة بلا شائبه وقتل منهم زهاء عشرة آلاف ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشره فاغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسره ولما عرفت بالواقعه والنصرة الجامعه صدرت ثلاثين أو أربعين كتابا بالبشارات بأبلغ المعاني وأبرع العبارات وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضره ولا ترى البشائر شائره وركبت أنا والقاضي بهاء الدين بن شداد لمشاهدة ما هنالك من اشلاء صرعى وأجساد فما أعجل ما سلبوا وعروا وفروا وفروا وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتله وسمعناها وهى خامدة بالعبرة قائله ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشاء بالظلام فعدنا الى الخيام وأخذت الكتب التي عمقتها بالبشائر التي حققتها وجئت واذا السلطان قد استبطاني

وعدم اجابتي لما دعاني فاصبر ولا انتظر ولا ترقبني ان احضر ولا أمهل أن أعطي البشارة حقها واجلو بانوار المعاني أفقها وأبلغ بالبلاغة مداها وأسبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها وأصف بحدود الاقلام ما صنعته حدود السيوف وأروج نقودي عند السلطان وأغنيه عن الزيوف فابصرت عنده مشرفي المطابخ والابيات ومدوني الجرائد بالاثبات وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة في رقاع خفيفه بعبارات سخيفه وقد عطلت الحسناء من حليتها وعروها من بزتها وشوهوا جمالها وأحالوا حالها فذهب بها المبشرون وسار القاصدون فما كان لتلك الوقعة عند من وقف عليها وقع ولا تم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها نقع وأرادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسنوها ولو وردتهم بزينة عبارتي وبراعتي زينوها وفي تلك الحالة التفت السلطان الي وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد وعجل بها الانفاذ فقلت على سبيل العتب أنتم ما تريدون ما أكتبه ولا ترغبون فيما أرتبه وأهذبه فقال كان كتبت البشائر فهاتها حتى نهدي الى طرفاتها فقلت مافات فات وهيهات هيهات وأخرجت لمعاني من بشارات البلاد التي أنشأتها بالالفاظ والمعاني التي ابتدعتها وابتدأتها فسارت فسرت البعيد والقريب وخصت من جداها بالخصب الجديب وصدحت باسجاعها المنابر وصحت بسماعها المفاخر وظهرت بعباراتها العبر وبهرت بزبرها الزبر وعمرت بمعانيها المغاني وعمت مباهجها مناهج الاقاصي والاداني فما أصحها كسره وما أصحبها نصره وما أبينها محجه وما أبهجها حجه وما أفرجها سره وما أسرها فرجه وما أرجحها بالكفر صرعه وما أوضحها للاسلام شرعه

(فصل في ذكر حالهم)

لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الاكابر ومفارقة عدة كثيرة من العساكر خرجوا متجاسرين وامتدوا متقاطرين وانتشروا متغاورين وأغاروا والالواء ناشرين ووصلوا الى الجنبة الى الخيم العادلية فأخليت حتى دخلوه فتفرقوا فيها بجموعهم وتخللوها فركبنا اليهم وحملنا عليهم وتركناهم صرعى للعراء فوضى بالفضاء فما بكت عليهم الارض ولا السماء ورويت السيوف

من دمائهم قبل أن تشبع الوحوش من اشلائهم وظهرت لنا نعمة الله في بلائهم فصلوا
وحمى الاسلام بهلاكهم وضمهم أشراك الردى برداء اشراكهم وانجلت
المعركة عن أكثر من عشرة آلاف قتيل كافر وثبت حكم ادالة الاسلام وظهور
بأوضح دليل ظاهر ولو اتفق خروجهم من مراكزهم بأسرهم لكنا فرغنا
شغلهم وأخلينا بالنابتة أيد الله من أمرهم والآن قمع انطفاء جمرتهم وصحت
أمزجة العزائم بكسرتهم وتطرق القلة الى كثرتهم نرجو من الله أن يسهل
أمرهم العسير ويهون خطبهم الخطير وان ظهورنا عليهم قطع ظهورهم وعند
هذه الوقعة بهم حقق عثورهم والله تعالى يحقق تبارهم ودحورهم

(فصل فيه)

وصلوا الى الخيم العادلية في الميمنة الميمونة واشتغلوا باستباحة أحوالها المصونة
فاطلقنا عليهم الاعنة وشرعنا الى نحورهم الاسنة وبعنا النفوس لنتسلم
الجنة وفرشناهم على الارض وأدينا بارداتهم بعض الفرض وانجلت المعركة
عن عشرة آلاف قتيل مشرك وشملتهم المنون فكانهم جاؤا على موعد
وأروينا من دمائهم ظمأ السيوف وجعلنا اشلاءهم قرى الوحوش لا الضيوف
وأمن الاسلام بحمد الله من الخوف وأدرك الله بأخذ أرواحهم رمق
الملهوف وهذا دليل ظاهر على ركود ريحهم وخمود مصابيحهم

(فصل)

حملت عساكرنا عليهم وأحاطت بهم من حواليهم ورضتهم بالدبابيس والل
وتركتهم صرعى بتلك المروت وساحت بتلك الساحة دماء الدماء واكتسى
العراء بتلك الاشلاء وأفضى بذلك الفضاء جمرهم الى الانطفاء وأمرهم
الانقضاء ورتعت ثعالب الرماح من كلاكلهم في المرعى وانجلت المعركة
مهلكة عشرة آلاف فترى القوم فيها صرعى وطابت من نتن جيوفهم ر
النصر وحسنت من سماجة مرآهم وجوه الدهر والآن الان الله ش
شكتهم وقط شوك شوكتهم وهبت نكباء نكبتهم ونرجوا أن يسهل من أمر
ماتصعب ويؤلف بصدعهم من الاسلام ما تشعب

﴿فصل﴾

وصلوا الى الخيم العادلية فدخلوها وتفرقوا فيها بجمعهم وتخللوها وكان ذلك قبل تكامل ركوب العساكر وعوج بحارها لزواخر فحمل الملك العادل ومن هو قريب منه من الامراء والمماليك كولدنا الحسام بن لاجين وصارم الدين قايماز النجمي وبشارة وجرديك وعطفوا عليهم عطفة صدتهم عن الانعطاف وصرفتهم عن الانصراف وثارت آثارهم بوائر البواتر واحتوت عليهم الضوامر احتواء الضمائر على الاسرار بالحوافر الحوافر وفضتهم بالفضاء وعرتهم من كسوة الحياة بالعراء وعمت نعمة الاسلام ببلائهم وشفى الدين بدائهم وكان بقاؤه فى فنائهم ولو لحقت الميسرة لتكمل قطع دابرهم وأتى القتل على أولهم وآخرهم وانجلت المعركة من الكفار عن عشرة آلاف قتيل ملأت كل واد وسدت كل سبيل وقد ذلت عزتهم وضعفت قوتهم وعجزت قدرتهم ولما انقضت هذه الوقعة وتم للناهضين الينا الرجعة رأيت أحد مماليكي ونصله قد خضب وعزمه قد رضى بعد ما غضب فسألته كم قتل والى أين وصل فقال أما أنا فما أبقيت وخضت البحر وما توقيت وهذا غلامى قتل تسعه وشام من عارض نجيعهم نجعه وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا أقل من ألف فقتلوا أضعافا مضاعفه وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفه ومما يحكى من نوادر هذه الوقعه ان فرنجيا عقر لجنا المصرعه فعثر به راكب برذون بغير رفيق ولا عون فعرقب الفرنجي فرسه بسيف فى يده فنزل يجده مستدافى جدده وقتل ذلك الفرنجى وروى من دمه الهندي وحل من وسطه ثمانين دينارا فانقلب ربحا ما عده خسارا وامتلأت الأيدي بالاسلاب والاكساب وحصل من العدد مالم يكن فى الحساب وبيعت الزرديات ذوات الاثمان بالرخص وزادت أرباح أهل السوق بذلك النقص

وفى يوم الخميس الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ورد فى عصره نجاب من حلب بعد خمسة أيام بكتاب يتضمن نجح كل مرام ويخبر بأن عسكرا مجرا من الكفار خرج للغارة على الاطراف والاقطار فخرج اليه العسكر وأخذ عليه

الطريق وطاب ذلك الجمع في الهزيمة المضيق فلم يصح لهم رشد في منهاج ولم ينج منهم ناج فعضد ذلك الخبر هذا العيان وقام بهوان الكفرة البرهان وسر الخواص والعوام وخص وعم السرور وأنارت المطالع وطلع النور وشرع الفرنج في الخداع والمراسلة في أمر الجانبين عام الانتفاع وسألوا في الصلح والخروج من ليل الحرب في السلم الى الصبح وأذن لهم السلطان في الخروج للنظر الى أولئك الصرعى بتلك المروج وهي قد تورمت وأنتنت وجافت وحميت الشمس على جيفها وحافت وضاقتها القشاعم والخوامع وعليها أطافت فساءهم ما سرنا ونفرهم ما أقرنا

(ذكر ما تجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكندهري بالمال والرياش وما اعتمده السلطان من الاحتياط اشفاقا من التفريط والافراط)

ومازال الفرنج في وهن وضعف وتوزع بينهم وخلف حتى وصل في البحر كند يقال له هري وهو عندهم عظيم القدر فكمل بمن وصل معه نقصهم وأحيى بعد موت نفوسهم حرصهم وأفاض عليهم الاموال وحلى منهم بعد عطلها الاحوال ورصع بالرجال مراكز من صرع وقرع السن ندامة على من قلع وقرع وانفسح عزمنا عما كان فيه شرع فقد كان العزم بل الحزم أن نبادرهم على ضعفهم قبل أن يمدهم البحر بضعفهم فكان من تقدير الله تأخير ما وجب تقديمه والتواني فيما تعين تقديمه ولما وصل هذا الكندو تمكن وقوى أهل الكفر بكل ما أمكن أظهر أنه يكبس عسكرنا ليلا على غره وبدت منه أمارات كل شره وشره وشاع هذا الخبر على ألسنة الجواسيس والمستأمنين فاحضر السلطان أمراءه وخواصه المؤمنين الميامين واستشارهم فيما يقدمه من الصواب ويفتحه في المصالح الراجحة من الابواب فاشاروا باتساع الحلقه وادارتها كالمنطقه والتنفيس عن العدو بالتأخر عن قربه حتى يأنس الى الخروج لحربه فوافقهم السلطان على هذا الرأي وحسن في قلبه فرحل يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة الى منزله الاول بالخروبه واشتغل بالتدبير في الفوز بالنصرة المطلوبه

ونزل لعسكر على تلك الهضاب وحوالى سفوحها واحتوت كل جنة خيمة ممن حل فيها على روحها ورتب اليزك فى المنزلة الاولى كل ألف فارس بالنوبة فى يومين وضويق بأهل الصدق منهم أهل المين وندبر الترتيب وترتب التدبير وعرف فى اليزك أوقات نوبته وأوبته الصغير والكبير وأما عكا فالكتب مترددة اليها ومنها مع السباح والحمام اليها ومنها تحمل البطاقات على الجناح والمراكب تدخل اليها وتخرج واليها وعنها تعوج وتعرج وأخبار ملك الالمان متواصله بأن أنصاره له خاذله وأنه ضعف ووهى وانه الى انطاكية انتهى وانه تعوق هنالك وتوقع من مرامه الادراك وتوقف عن المسير واعتاض التعسير من التيسير ووقع الفناء فى جمعه وتعجل قمعه قبل أن يصل الى محل قمعه وانه قد اشتغل بالانفاق فى رجال الاستجناد والاستنجاد والاحتشاد والاحتشاد وأن أصحابنا بأمروتهم ويتلقفونهم ويتلقطونهم من الطرقات ويتخطفونهم ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستعافا ويجمع قطافا ونطافا وألطافا ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة فى جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبه وانه مستمر على المودة راغب فى المحبه ويعتذر عن عبور الالمانى وانه قد فجع فى طريقه بالامانى وانه لاقى من الشده ونقص العده ووصل المشقه وقطع الشقه ما أضعفه وأوهاه وألهبه وألهاه وأنه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ويكون مصرعه هنالك ولا يرجع وبث بما به كاده وانه بالغ فى أداء اجتهاده ويطلب رسولا يدرك به من السلطان سولا فاجيب فى ذلك الى مراده ووقع الاعتداد بما ذكره من اعتداده

((ذكر حريق المنجنيقات))

وفى رجب من السنة أنفق الكندهرى بعد وصوله ما وصل معه من المال فى الرجال فاعطى عشرة آلاف راجل فى يوم واحد ليجد وامعه فى القتال وضايق مدينة عكاء أشد مضايقه وأخذ القومص والكنود بذلك موافقه ونصب عليها كل منجنيق من الرمى غير مفيق رجومه للشهب بالشياطين ونجوم الحجارة تنقض من أرض الكفر الى سماء الدين فهى مجانيق مجانين ومبادين ثعابين ومسارح مراحين

فاشتد على أصحابنا بالبلد وقعها واحتد على صفعهم صفعها وقالوا كيف نجد من مناصبها المناص وهل نلقى من شؤم خصائلها الخلاص فاجمعوا على الاقدام وأقدموا على الاجتماع وأخذوا بالارتياء في ترك الارتياع وخرجوا بالفارس والراجل وأموا بالحق أمة الباطل وجاوزوا تلك المجانيق المنصوبة والستائر المضروبة الى خيامهم وخلفوها من ورائهم واللقاء من قدامهم فلما خلت المنجنيقات ممن يحميها خرج الزراقون من البلد ورموا النار فيها فاحترق جميعها وغرق في بحر النار صريعها وقتل في ذلك اليوم من الفرنج سبعون فارسا في اللقاء وقطع الواصلون اليهم عليهم طريق البقاء وأسر منهم خلق كثير من جملتهم أربعة من المعر وفين فيهم فارس كبير فما أمهلوه حين أخذوه حتى قتلوه ونبذوه فطلبه منهم الفرنج بالاموال ولم يعرفوا بالحال فأخرجوه اليهم قتيلا فأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلا فباتوا يندبونه نوحا ويذيعون سر تقدمه فيهم بوحا فخمدوا بعد ذلك الضرام وركدوا بعد هبوب ريح المرام وضربت عليهم الذلة وشجتهم عقودهم المنحلة وعقولهم المعتله وطمع فيهم الناس وعرا طمعهم الياس وصارت الخنادق تهدم والستائر تهتك وتضرم والحدود بالمصال تثلم والحدود بالنصال تلثم الى ليلة شعبان من السنه فآبت بالحالة الحسنه فان أصحابنا خرجوا على غره ومضوا الى القوم بانكاء مضره واحرقوا منجنيقين كبيرين قد نصبا بعد كل استظهار وأنفق على أحدهما كندهرى ألفا وخمسمائة دينار وكانت الليلة الاولى من شعبان مباركه ونعم الله لنا ونقم الله على العدو فيها متداركه

(ذكر وصول بطسة بيروت في العشر الاخر من رجب)

قد تواردت الشكوى من البلد أن الذخيرة قد فنيت وان الافكار باستدعائها عنيت وان الاجسام لفقدان قوتها ضنيت وأبطأ على السلطان وصول البطس المستدعاة من مصر بالغلات فرأى ان ذلك من تقصير الولاة وأفكر فيما يعجل به قوة وقوتا ويجعل له أجلا موقوتا فكتب الى والي بيروت عز الدين أسامه ان يعمر في كل مثابه عز الدين السامه ويعطى ويتزكى ويحتال في انفاذ ميرة الى

عكا فعمر بطسة كبيرة وأعدها وأجد من حزبه المانية فيها جددها وتولاها بخاق سمح وملأها بأربعمائة غرارة قمح ونقل اليها أنواع الطعام وأصناف الادام وقطيعا من الاغنام وهذه بطسة من الفرنج مأخوذه وهى بساحل بيروت منبوذه فأمر السلطان بترميمها ونقيمها واخذناء البغية منها وتكتيمها وأزيحت منها العله ونقلت اليها الغله وملئت بالشحوم واللحوم وبكل ماتدعو اليه الحاجة من المشروب والمطعوم وحمل فيها من أحمال النشاب والنفط ماجمع به فيها بين القوة والقوت ورتبت فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت وأرادوا أن تشتبه ببطس العدو فى البحر وأن لاينكشف للفرنج مالها من الستر فتصوروا رهبانا وصوروا صلبانا وحلقوا لحاهم ومحوا حلاهم وتعلقوا وتكونوا وتشبهوا بهم فى كل بزة لئلا يتخوفوا وشدوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا بها فى البحر بمراكب الفرنج مختلطين والى محاذاتهم ومحاذيتهم منبسطين والقوم لجهلهم لايشكون انهم من أهلهم ونسوا الحادث وأنسوا الحديث وتصوروا الطيب بصورة الخبيث ولما حاذوا بها عكا صوبوا نحوها وارجعوا نوقها والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول ماهذه طريقها وهى كالسهم النافذ قد سدد فوقها وقد عدت رفقتها وهى تكاد تعوقها فدخلت الثغر وادخلت اليه كل خير وعجب الناس منها وما تم لها من حيلة فى سير واجتزأ البلد بها شهرا ووجد منها لكل كسر جبرا فبالها من لطيفة قضينا منها الارب ولم نقض منها العجب

(ذكر وصول بطس الغلة من مصر الى عكا ظهر
يوم الاثنين رابع عشر شعبان)

كان السلطان قد كتب الى النواب بالاسكندرية على وجه الاستظهار بان يشرعوا فى تجهيز البطس الكبار ويملؤها بالغلات وأصناف الاقوات ويعمروها بالكماة الحماة الرماة ويرسلوها عند موافقة الريح الى الثغر فان خلصت اليه ولو واحدة منها أغنته بعد الفقر وعادت الايام على هذا الامر

واستبعد وصولها مع امتلاء البحر بمراكب الكفر وكاد اليأس يغلب والرجاء يضطرب وو ردت كتب أصحابنا بعكاء انه لا يبقى لنا ليلة نصف شعبان قوت ولا شك ان كتاب أجلنا الى هذا الامد موقوت فاشفقت النفوس واستشعر البوس وألمت القلوب وألمت الكروب ولجأنا الى الله الذي يجيب المضطر اذا دعاه ولا يخيب من رجاه ولا يضيع من استرعاه فلما كان ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان ظهرت من أقصى اللجة ثلاث بطس كانهن الاعلام واستبشر بظهورها الاسلام وقد زفت عرائس جواريها الحسان وخفت رواسي سواريها الثقال وذكرت بقوله تعالى وهي تجري بهم في موج كالجبال والريح تطردها طرد النعام والماء يرسلها على رغم أنف أهل النار الذين هم أضل من الانعام فما زالت حتى استقبلتها مراكب الفرنج وشوانيها وأحاطت بها تقاتلها من أقاصيها وأدانيها وهي تشق عليها وتسفها وتعوقها عنها وتعقها حتى برت منهم البر الايمان الايمان وهزأت بتلك المراكب المطيفة بها حبالها الرعان وعبرت والكفر خزيان ينظر ونهضت بالعز والعدو في ذيل الذل يعثر ووصلت الثلاث وهي سالمة والثلاثة راغمة والموحدة غانمة وقد فرج الله بها غمة الثغر ودفع ما ألم به من الضر وحمدنا الله على الموهبة التي أدركت الارماق وأدرت الارزاق وتلافت الارواح من التلف وحطت عن النفوس المشفية مشاق الكلف .

(فصل من كتاب الى سيف الاسلام في هذا المعنى)

كان كتب الينا أصحابنا بعكاء اننا حسبنا والى ليلة نصف شعبان لا يبقى لنا شئ نقتاته ونقاوتنا ببقاء القوت وفواته فبينا نحن في هذا الهم مفكرون ومن هذا الهم متنكرون اذ ظهرت للعيون بالقرة وللقلوب بالقرار والمسرة ثلاث بطس على ثبج البحر مستقرة يبعثها لطف الله بعثا وتحثها الريح القوية حثا كانها جبال باقبالها تروع ونسور أجنحتها القلوع وشعر الفرنج بها فضاقت مذاهبها وبرزت مراكبها ودبت عقاربها وقربت من البطس شوانيها وقويت في البطش أمانيها وحمى ما فيها من فيها من الرجال وهي تجري بهم في موج كالجبال وكان جواريها عرائس يزففن بما لهن من الجهاز وكان البحر المموج ثوب بنلك

الاعلام المنشئات معلم الطراز بل كانها تجار تحمل الصدقات الى ذوى الاعواز فجاءت فجاءة منسقة موسقة وأتى الاتى بها موافقة موفقة فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شينى شانئ وكانت كلاءة الله وعصمته لها خيرا من كل كالئ وجازت والكفر خزيان ينظر وفازت بالعزو العدو بذيل الذل يعثر وكان وصولها أوان انفاض الازواد وانفادها فملأت المدينة بغلاتها وأزوادها وعصمت ارماقها ودغت امرقها وقسمت أرزاقها وأشبعت جوعها وشعبت صدوعها وأنالت آرابها وأزالت اجدابها وخصتها بخصبها ومحت ابها بسحبها فأفاقت من الفاقة وأفرقت من الفرق وسكنت بعد القلق وعاد اليها بعد الغسق اسفار الفلق والحمد لله المغنى بعد الاعدام المدنى السنا بعد الاظلام المفنى بارلياته أعداء الاسلام

《ذكر عيسى العوام وما تم عليه فى العشر الاخر من رجب》

وكان رجل يعرف بعيسى العوام قد تردد بالكتب والنفقات الى عكاء ومنها فى ذلك العام وكان ناصحا أمينا بحفظ الاسرار ضمينا يسبح ليلا فى البحر ويعبر على مراكب أهل الكفر ويصل عامه الى الثغر ولكم خاطر بنفسه فلم واعتورته أسباب المتالف والآلام فما ألم واتفق انه عام ذات ليلة غير مكترث بما فى طريقه من أخطار وعلى وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار ومعه من نفقات الاجناد ودائع ومحقرات بضائع فعدم ولم يسمع له خبر ولم يظهر له أثر فظنت به الظنون وما تيقنت المنون وكانت له لاشك عند الله منزلة فلم يرد أن تبقى حاله وهى مجملة محتملة فوجد فى ميناء عكاء ميتا قد رماه البحر الى ساحلها وأذهب حق اليقين من الظنون بباطلها وبرأه الله مما قالوا وأحال الذى عليه أحالوا فقد وجدت على وسطه تلك الاكياس وتعجب من حاله الناس فلم يذهب بذهابه الذهب الذى صحبه وطهره الله من الرجس وعنه أذهبه .

《ذكر وصول ملك الالمان الذى قام مقام أبيه الى الفرنج بعكاء》

ذكرنا حديث الالمانى وملم حادثه وما أداه اليه من دواعى كفره بواعثه وكانت مسيره من انطاكية يوم الاربعاء خامس عشرى رجب واتى فى طريقه على

للاذقية الشجى والشجن والشجب وآذن ضعف خيلهم بضعف رايهم ووجدت
لهم مابين اللاذقية وجبلة ستون سبعون فرساقد عطبت وعلى أعواد عظامها
سود الغرابيب خطبت وقد استقبله المركيس وقصده التأنيس وان يهديه
بضلاله الى الطريق التى تؤمن طوارقها ويتسع عليه فيها مجال الامن وان
سلكت مضايقها فوصل به الى طرابلس فى العشر الاول من شعبان و وصل خبر
وصولهم فى سادسه الى السلطان وحزرهم من شاهدهم فى الطريق بخمسة
عشر ألفا وسمعنا فى حزرهم بالقليل والكثير خلافا ثم انتقل فى البحر الى عكا فى
موضع المحصر و وصل آخر النهار سادس شهر رمضان بعد ان عاين فى البحر من
اختلاف الهواء الهوان فلم يبق له وقع ولم يحصل لطارق القوم به رقع وأقام بين
جنودهم كاسد كنودهم وقال الفرنج ليته لم يصل الينا ولم يقدم علينا فانه لو
فى أقام موضعه وأمدنا بفيضه من منبعه لهيبت عظمته وعظمت هيبته
وأرعب روعه وراع رعبه و وجى مناوخشى من المسلمين قربه وقد قطع بنا
منذ وصل وحص لنا جناح نجاح حصل ووصل فى البحر وحده ولم يستصحب جنده
ثم وصل اليه لا اصحاب وتقطعت بهم الاسباب ثم رام أن يظهر لجيشه وقعا
ويبدى له نفعا ويشير لنقع غلة ثاره نقعا فقال الام القعود عن القوم وما بقى
الا النهوض اليهم من اليوم ولا بد من ضرب المصاف معهم وانى على الخروج
اليهم لادفعهم فقالوا انه أنت ما أرثت وهج قتالهم ولا أثرت نسج نصالهم ولا
حزبت بحزمهم ولا كربت بكربهم ولو حزبت بحزبهم لا صحب جامحك
لجماح صعبهم فابى ونبا وشب الشبا فلما عرفوا جهله وان صعب الامر عنده
ساوى سهله قالوا انه يبتدئ بالخروج الى البزل فلعلنا نوقعهم عند الاحاطة بهم
فى الشرك فدبوا فى راجل كرجل الدبا وخيل أغصت لوهاد والربا ومرجوا
فى المرج وطو وانك المدارج طى الدرج وأشعلوا الخرصان فى ليل النقع عوض
السرج وقربوا من تل العياضيه وعليه خيم البزكيه والنوبة فيها للحلقة
المنصورة الناصريه والعصبة الموصليه فلما بصرت بهم ثارت اليهم ودارت
عليهم وأنهضت بنات الحنايا من خدودهم الى الخدود وأوردت ظماء الظبي

منهم ماء النامور وأنبعث بالنبع من عيونهم العيون واستخرجت بالضرب من أعناقهم الديون وطيرت بطارة السهام الى الاحداق بهم الاحداق وخاطت الآماق وما أخطأت الارماق وصار كل سهم سهم شهم وخطر في محل خاطر أمرع من وهم وركب السلطان من خيمته وتقدم الى تل كيسان ووقف ينهض بعد الفرسان فلم نزل وجوه البيض تحمر وثنايا السمر تفتر وذيول النقع تنجر وصفحات الجو تغبر وارجاء رجاء النصر تخضر الى أن جن الظلام وكف الكفر وسلم الاسلام وكانت الدائرة على الكفره فأعرضت بالوجوه المتنكره وأبنا بالانوار المسفره ومن الالماني متألما ومن ظلمة حاله متظلما وبكلوم قلبه منقلبا متكلما وقد عاين ما عاناه من العناء وشق عليه ماشق من أمره من الشقاء وبلى بما بلى به من البلاء وعلم ماجهله واستصعب ما استهله وذاق ماضاق به ذرعه وكاد يتم في القتلى رصعه لو تم صرعه لكنه تجرع من الغصص ماسهل عليه الموت جرعه وتاب وما ثاب وأبى الرجوع الى اللقاء لما آبه وحينئذ جدوا في قتال البلد وحصاره واتباع ليل الجد فيه بنهاره

(ذكر برج الذبان)

وعند مينا عكاء فى البحر برج يعرف ببرج الذبان وهو فى حراسة المينا عظيم الشان وهو منفرد عن البلد محمى بالرجال والعدد وقصد الفرنج حصاره قبل مجيء ملك الالمان فى الثانى والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها ومراكب عظام وآلات أبرزوها ومكر مكروه ودبر دبروه وبغى غى بلغوا غاياته وريب رأى رفعوا راياته وشر شرك الهبوا شراره وأيد كيد أرهفوا غراره وعنان عناد أطلقوه ولسان ضرام أذلقوه ويد بطش ابسطوها وعقلة معالقة أنشطوها وأحد تلك المراكب فدركب برج على أس صاريه لا يطاوله طود ولا يباريه وقد حشى حشاه بالنفط والحطب وضيق عطنه لسعة العطب حتى اذا قرب من برج الذبان والتصق اشراقاته أعدى اليه بآفاته ورميت فيه النار فاحترق واحترق من الستائر والاخشاب مابه التصق وتستولى النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها ولم يقربوا منها فهل عليهم فيه الاتفاق ولم يعصبه

به التعلق وملؤا بطسة أخرى بأحطاب يسرى فيها النفط ويسرع بالهاب حتى يوقدوها وعلى السفن التى لنا بالمينا يوردوها فيعدى عدوانها وتنير وتسدى فيها نيرانها وهم فى مراكب من ورائها الحرب مستعدون وللشر مستمدون حتى اذا تم برجانهم فى البرج والمينا مناهم نالوا من الاستيلاء والاستعلاء غناهم فلما قدموا البطسة ذات البرج المعمور وصار الصارى ملاصق السور جاء الامر بعكس ما قدروه وأخفق ظنهم للادبار فيما دبروه كان الهواء كان شرقيا فلم تجد نارهم فى مطار برج الذبان رقيا بل اشتعل برج الصارى وتراجعت ناره الى أهلها وعاملت ذوى الجهل بجهلها وأوقدت بطسة الحطب من ورائها وتطايرت اليها شعل اذ كانها وعادت على الفرنج فالتهبوا وحمى عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا فانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يفرقوا واحتمى برج الذبان فلم يطر من بعدها عليه ذباب ولم يفتح للعدو فى الكيد له باب

((فصل مشبع فى المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى من كتاب الى سيف الاسلام باليمن))

وأفكر الافرنج فى أمرهم وأجالوا قداح الرأى من مكرهم وقالوا هذا البرج المعروف ببرج الذبان منفرد عن البلد فى وسط البحر منقطع المكان فاذا أخذناه تسلطنا على مراكبهم التى فى المينا واذا لم نؤثر بجيشنا أثيرا فلاى سبب جينا ومن حديث هذا البرج انه يحيط به البحر من جوانبه وهو قفل مينا الثغر على مراكبه وقد رفعناه وأعليناه وبالعدد والرجال قويناه وبالجرخية والرماة والزراقين والمنجنيقية ملأناه وبكلاءة الله وعصمته اياه عصمناه وكلأناه وقد حاموا حوله حولا فلم يجدوا على نيل غرض منه قدرة ولا حولا فعمدوا الى أكبر بطسة واتخذوا فيها مصقالا كانه سلم وهو فى مقدمها مركب مقدم وقد جعلوه بحيث اذا قربت الى البرج ركب رأس السلم على شرار يفه وصعد الرجال اليه فى تجاويفه وتعبوا فى ذلك أياما وأشبعوه توثيقا واحكاما وهو بمرأى من الاصحاب ينظرونه ويبصرونه ويستنجدون الله عليه ويستنصرونه

والقوم قد أصبحوا بتلك البطسة زاحفين وعلى ذلك السلم بعددهم واقفين حتى اذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط وتوالت أمطار البلايا من الجروخ والحجارات والمنجنيقات على أولئك الرهط ووجدت النار بسطة في البطسة ولم يسلم السلم وناب القوم من فجيعتهم بها المصاب الذي ألم بها وآلم وقتل منهم من باشر القتال ونزل العذاب بمن حاول النزال والحمد لله الذي آيات ظهور دينه متناصره ودلائل نصر أوليائه متظاهره ثم عمل الفرنج برجا عاليا في أكبر مركب وحشوه بالحطب وعملوا على رأس صاريه مكانا يقعد فيه الزراق ويتأتى له فيه الاحراق وقدموه الى برج الذبان وساطوا على جوانبه جوانى النيران وقصدهم بذلك احراق ستائر البرج المنصور ورأوا ان في ذلك هدم بنيانه المعمور وحسبوا ان الستائر اذا وقعت فيها النار تعذر على رجاله القرار وتعجل منهم للعذار الفرار وكادت الستائر تشتعل والخواطر تشتغل والحال تضطرب والبال يلتهب والقلوب تضطرم والكروب تحتدم فأهب الله من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس وأكبت لفرنج على الوجوه والرؤس ونعس جدهم وانعكس قصدهم وانقلبت الريح التي لهم عليهم وهبت مرامي العذاب اليهم

((فصل في المعنى))

ولما وقم الله القوم ذلوا لا طاقة لنا اليوم وعادوا وقد غرموا وزعموا وأخلف ما عزموا وزعموا واشتغلوا بعمل بطس لهم شحوها أحطابا وأدهانا وأخشابا واشعلوا فيها النار وألهبوها وأرسلوها الى مراكبنا في يوم ريح عاصف وصوبوها وأدنوها منها وقربوها وكادت سفننا تحترق ومراكبنا تفترق فأنزل الله الفرج وقت الشده وآمن من المخافة المحتدمه وانقلبت الريح عليهم وعادت مخالفة لهم بعد ان كانت موافقه وحالت تلك الحالة للعادة خارقه فاحترقوا بنارهم وشرقوا بعارهم وجذبت بطس أولئك الكلاب بالكلاليب وتوالت الطاف الله في تلك النوب المتناسقة مطردة الانابيب مستهلة الشآبيب

(ذكر الكبش وحريقه بعد تعب العدو في أحكامه
وتسويه طريقه)

واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة وآلة للغوائل غائلة في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش وله قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظين أقفال الاسوار المغلقة بها تفش فكم سور اذا نطحته طحنته وكم معقل حصنه الدهر حصنته وصحنته وهذه الدبابة في هيئة الخربشت الكبير وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد وكملوا لها أسباب الاحكام الشديد ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس وكسوها حذراً عليها من النار سائر لباس البأس فلم يبق للنار اليها سبيل ولا للعطب عليها دليل وشحنوها بكماة المصاع وحماة القراع ورماة الحدق وكساة الحلق وعفاة الحتف وجفاة الزحف ومجتنبي الزغف ومجتني العسف من كل مرحان لا ينظر الا من جار أرقم وكل شيطان لا يقتحم من الحرب الا جهنم وكل شجاع لا يعتقل الا شجاعا ولا يرى لغير النجيع الغانى قنئا ولا نجاعا فلما استدنت لهم هذه الدبابه وماجت بالحديد لجتها العبابه وأطافت بذلك الكبش تلك التيوس الشبابه وأمنوا عليها الحريق وأموا بها الطريق سووا بين يديها الارض ومهدوا الطول منها والعرض وسحبوها حتى سحبوها وقربوها أعينا بل أنفسا وقربوها فجاءت صورة يزعج مرآها وروضة يعجز مرعاها وآلة تروق هيئتها وعدة تروع هيبتها وبلي البلد من دنوها بالبلاء الداني وتغاشت وتحاشت دونها نفس الرامي وعين الرانى وقال أصحابنا هذه ما في دفع خطرها حيله ولا لبارق الظفر بها مخيله فكيف العمل وفيم الامل ومن للكبش العظيم وقطع راسه ومن لبناء الحديد ونقض أساسه فان كانت هذه الدبابة دابة الارض فهذا أوانها وماجاء زمانها ولقد قامت بها قيامة الحشر فقام برهانها ونصبوا على صوبها مجانيق ورموا بالحجارات الثقيلة ذلك النيق فأبعدت رجالها من حواليها وطردت المطرقين بين يديها ثم رموها للحرزم بحزم الحطب حتى طموا ما بين القرنين بحزره وقذفوها بالنار فترنم في أثنائها عجاج اللهب بزجره ودخلت من باب الدبابة فاشتعلت نار ضلوعها وشرع من فيها في الخروج بعد دخولها وشروعها وجاء

الفرنج تلك الليلة فباتوا بالبيات يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل المستوليات فأطفؤا نار الظاهر ولم يعلموا بنار الباطن ولم يجدوا إلى التمكن من اضلاعها من الحرق الكوامن وحين أخذوا الجر أخذوا الامر ورجعوا ولم يزل اللهب يأكل سقوفها حتى نزل على ماغطى الخشب من الحديد وفوقها وحينئذ خسفها المنجنيق فانهد ذلك النيق وصوح ذلك الروض الانيق ووهن ذلك التركيب الوثيق ونفقت تلك الدابه واحترقت تلك الدبابه وخرج من بالثغر المحروس باشرى الوجوه طيبي النفوس وقطعوا رأس الكبش واستخرجوا ماتحت الرماد من العدد بالنبش وحمل كل من الحديد ما أطاق حمله واستطاب لثلج صدره وبرد يقينه حره واستخف ثقله وقدر ماذهب من الحديد بمائة قنطار فقل في آلة لبست هذا المقدار وهو أعظم مقدار وعاد أصحابنا على عدوهم ظاهرين ولحزب الكفر قاهرين وكلهم ينشد وهو ينشئ وينشد جدا وحدا

ما زادت كباشهم ولم * أر من نزال الكبش بدا

وقنط الكافر وكفر القانط وسخط الشيطان واستشاط الساخط وعلم الفرنج حين حبطت أعمالهم وهبطت آمالهم ان الشقاء أدركهم والشقاق أهلكهم وان مدبرهم مدابر وان تدبيرهم مدمر وان آلاتهم غير نافعه وان نزلاتهم غير ناقعه والحمد لله ذي الطول العميم والفضل الجسيم الذي نعش عثار الثغر بعد ان تل للجبين فتلبنا قوله تعالى وفديناه بذبح عظيم وكان ذلك في يوم الاثنين ثالث عشر رمضان واحترقت البطسه يوم الاربعاء خامس عشره

وفي هذا اليوم وهو يوم الاثنين قدمت علينا عساكر الشمال يقدمهم ذو القبول والاقبال وهو الملك الظاهر صاحب حلب وقد استصحب معه الاجناد وجلب غناء عشيه وجدد بلقاء والده عهده ثم عاد وعاد بكرة الثلاثاء بمقدم جنده ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر وقد استكثر معه واستظهر وعز الدين بن المقدم ذو القدر الافخم والنجر الاكرم وحسام الدين حسين باريك وجماعة من الامراء من ذوي المكانة والبسالة والغناء وقدم الملك الامجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك وقد استصحب غلمانه

الا كاديش ومماليكه الترك وكان لذلك اليوم رونق وصفاء لم يشبه رنق وانفق في يوم الاثنين هذا من العدو على البلد الزحف الشديد في الخلق العظيم جعجبين يلتهبون بنار الجحيم وتركهم أصحابنا حتى قربوا من السور وأقدم العدو اقدام المتهور الجسور فلما ازدحموا وكثروا واضطرموا واستعروا غنت لهم الاوتار بين القسي فطاشت لها السهام ودعت اليهم الاقدار بحنين الحنايا فلباها في لباتهم الحمام وزادتهم من الزيارات الجروح وأخذت نيرانهم تبوخ ورضتهم المجانيق بالاحجار وآذنت عيون نجيمهم بالانفجار وخرج أصحابنا عليهم فشلوهم الى الخيام وفلوهم بحد الاقدام وأفضى الخرق بالعدو الى الخرق وأخلقت بجدة جدنا جدة أولئك الخلق

«ذكر حوادث تجددت ومتجددات حدثت»

وصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب ان صاحب انطاكية أغار على غره بشره وبشره ووصل الجاسوس بخبره وعاد البلاد مشرفة عليه من خطره فرتب أصحابنا له كمينا ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا فقتلوا أكثر رجاله وأطلت وباله في وباله وانهاض من تلك النهضه وضف من تلك العضه وفي هذا التاريخ القت الريح الى ساحل الزيب بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء للتخريب وفيها امرأة محتشمه غنية محترمه فأخذنا وأخذوا وأخذت وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت ومرنا ما ساء العدو وآتانا الله من احسانه المرجو

وفي عشيه الاثنين تاسع عشر رمضان وصلنا الى منزل يعرف بشفرعم وخص بهذا الرحيل الى شفرعم وكان سبب ذلك انه اثر المستأمنون الينا من الفرنج وأخبر والهم في عزم الخروج الى المرج هامعين للثار ثائرين الى الهيجاء مائعين في دأماء الدماء لحب اللقاء وصح هذا الخبر وصدق ووضح الحق وتحقق فاحضر السلطان الامراء الاكارم ورجال الحقائق الصراغم الذين هم له اعوان صدق لساعات أزمه وذخائر نصر عند اعتزامه فاستشارهم واستثاركوامن صرائرهم واستنبط دفائن ضمائرهم واستكشف منهم الصواب وتعرف

من جانبهم الجواب فقالوا الصواب ان يفسح لهم عن هذه المروج حتى يكون دخولهم اليها يوم الخروج فنصبحهم في اليوم الآخر ولا يتعذر بهم احداق العساكر وانما لا يقدرون على القصد دفعة واحدة الا اذا كانت أيديهم متساعدة وآراؤهم متعاقدة فان انفردوا عن الراجل وساقوا كسرناهم وأسرناهم وان توقفوا للراجل قصدناهم حيث نزلوا ولقيناهم وصددناهم وأجمعنا على أن نرحل الى شفرعم ونخيم على هضابه ونبطل على العدو ما كان من البيات في حسابه فخيمناهنالك على أحسن تعبيه وسنينا أسباب اللقاء أتم تسنيه ورحبت المنازل وعذبت المناهل وعادت معالم تلك المجاهل وحللنا التلاع والآكام وركزنا بتلك الاعلام الاعلام ونزلنا المقام الشتاء مستعدين ولاسباب التوقي من الامطار متجددين واضعينا على تلك الاطواد موطدين وعند تلك الاوتاد موتدين وتسنمت تلك الفروع وفرعت تلك الاسنمه وتمكنت تلك البنى وبنيت تلك الامكنه وتحركت تلك الجبال بسكانها وأحبت الرجال التوطن بها وسلت عن أوطانها ودارت الاسواق ودرت الارزاق وأنارت الآفاق وصهلت الصلادم على معالفها وصقلت اللهاذم لمراعفها ونوب اليزك بحالها تدور وتزود وتعبد رسم الحفظ والحماية وتعود والحرب تتناوب والزحف يتعاقب والاقران تتواقع والوقائع تتقارن والاعوان تتعاضد والاعضاد تتعاون والعتاق بصهيلها اصحاب الطراد تجمعهم والرفاق بصليلها السوق الجماجم تجمعهم والمقربات للاجراء صوافن والضوامر للشد ضوامن ومنى المناصل صلة القطع ورجاء الرجال نبع النصر في قرع النبع بالنبع والتوحيد للتثليث منازل والايمان للكفر مقاتل ولا كلام الا المكالم ولا سلام الا بالسلام فلا يسمع الا أسرج والجم وتقدم وأقدم وأصم وصمم وأضر وأضرم ولا تله حتى تلهب ولا تنج حتى تجب واقطع وصل واكتل بصاع المصاع وكل ولا تنفق والق وقاتل ولكل داع اجابه ولكل ساع اصابه ولكل سهم في المرمى فوق ولكل شهم في المرام سوق ولكل صعدة في الطعان صدعه ولكل قعدة للرماء قدعه ولكل عقدة بالضرب حل ولكل عدة في الحرب فل

ولكل عضب عض ولكل ذى حظ حض ومن له نصيب فى الشجاعة نصب فى التشجيع ومن له جرأة الهيجاء هاج الى الصريخ بالجد السريع والايام منا على هذه الحالة مندرجه ومياه الحديد بأمواه الوريد ممتزجه والفرج منتظر والنواظر متفرجه وتباشير صباح الصفاح فى دياجير القتام منبلجه ولله نعمة فى كل بليه وسر فى كل قضيه

(ذكر وفاة زين الدين صاحب اربل)

فى ليلة الثلاثاء ثامن عشرى شهر رمضان وما جرى بعده من الحال قد جرى ذكر هذا الامير وما تحلى به من الكرم والخير وهو يوسف بن علي بن بكتكين بن على كوجك ومن سعادة جده ما طلب غاية فى الكرم الا أدركها وما كان أمره يوم الحضور وأحظره يوم وفاته السرور فلقد كان جار الكتائب بارا بالاباعد والاقارب سارا باسداء المواهب دارا بأخلاف الرغائب مارا فى سبل المناقب قارعا على فلق النوائب وكان فى ريعانه الرائع وشعاعه الشائع وشبابه الطرى طرير الشبا وحبه لعقد السودد معقود الحبا فرضت الايام عرضه أياما وتلهبت القلوب منا للتلهف عليه وقد أمست مراضا ضراما وعدنه بطبيب السلطان فلم يأنس به ولم يسكن الى طبه لما كان يعلم من منافسة أخيه مظفر الدين فى موضعه وانه يتمشى بعصره فاكتفى بصاحب له يطبه يوافقه على ما يحبه وهو جاهل بمزاجه ذاهل عن علاجه فشب الحمام فى حمى شبابه ناره وأذوى غصنه غداه قلنا ما أزهى أزهاره وما أنضر نضاره ونقله الله من جناب الحياة الى حياة الجنان وعجل به ليجازيه لاحسانه بالاحسان وحوله من بين الاتراب الى التراب ومن دار الاغترار والاغتراب الى موطن الثوا بالثواب وآذن الزمان بعد الاجدا بالاجداب ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه وما ظهر عليه الغم حتى قيل انه سره موته ووافقه وقصدناه معزين على ظن انه جلس للعزاء فاذا هو فى مثل يوم الهناء وهو فى خيمة ضربها فى مخيم أخيه واحتاط على جميع ما يحويه ووكل بالامراء أصحاب القلاع ليسلموها وخشى ان يعصوا فيها اذا رجعوا اليها ويحموها وخدم بخمسين ألف دينار حتى أخذ اربل وبلادها ونزل عن حران

والرها وسميساط والبلاد التى معه وأعادها وزاده السلطان شهرزور وأحكم عسيره الاسباب والامور فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقى الدين لينزل فى منزلته بجنده وصحبه الميامين فوصل يوم الاحد ثالث شوال فخلى بعد العطل الاحوال وكان قد انفصل صاحب الجزيرة معز الدين سنجرشاه وذهب مغاضبا وكان السلطان له فى الانفصال عاتبا فاعاده تقى الدين من الطريق وقبح له ما استحسنه فى ترك الموافقة من عدم التوفيق وكان هذا سنجرشاه دخل يوم العيد بكرة للهناء فاستأذنه فى الانكفاء فخرج على حالته وسار وتبعه أصحابه و لج جماحه وتعذر اصحابه فلما اجتمع به تقى الدين رده و بذل فى صيانة منزلته عند السلطان جهده وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام وجد فى الاستئذان فى الرحيل منه الاهتمام وصدق الاعتزام وتقرر ملاله وتكرر سؤاله فكتب اليه السلطان

من ضاع مثلى من يديه فليت شعرى ما استفادا

فلما قرأ هذا البيت ما راوح فى الخطاب ولا غادى وغلت الاسعار عند الفرنج واستعرت الغلال وأعلهم ما عراهم وعرتهم العلل وباؤا بالوباء و بلوا من البلاء وغلوا من الغلاء وتضوروا من الضراء وشق من اثرهم استمرار الشقاء وعمت المجاعة الجماعة وعدموا الطاعة والاستطاعة وزاد جوعهم وزال هجوعهم وقصرت عن القرار بوعهم وأمحلت ربوعهم واستطال روعهم و بعثهم الرهب على الهرب واقعدهم على الشطط لكنهم أقاموا على الموت واستناموا الى الفوت و بلوا بأمور صعبة وهرب الينا منهم عصبة بعد عصبة وقد بادوا من الضعف البادى وأعداهم الضر العادى فمن سألناه عن مقتضى فراره ومقتض قراره يخبرانه طواه الطوى فنوى النوى حين النوى من حذر التوى وقد أنساه المحل الذحل وأبغض اليه حب السلامة الولد والاهل وكانت الغرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار والسعر من الزيادة لديهم فى استعار فما جاء الا كل ضعيف لا يقوى على النزاع والنزال ولا مسكة لاعتلاق رمقه من الاعتلال فقبلناهم وانفقنا فيهم وألفناهم بما يكف ضرهم و يكفيهم

فتقوّوا وتقووا وأثروا بعدما أقووا فمنهم من أسلم وخدم ومنهم من ندم وتندم ومنهم من غدا بجريرة وعاد ومنهم من ناصح فاستفاد

(ذكر نوبة رأس الماء وخروجهم بعزم اللقاء)

ولما ضاق بالقوم ذرعهم وأشرقهم جرعهم وعرقهم عرقهم وأخلفهم خلف عيشهم وضرهم ضرعهم وعيل صبرهم وعال ضرهم قالوا نخرج ونبلي ونصل ونصلي ونقصد ونصدق ونلتقي ونقلق ونقل ونقلق ونعز ونعزم ونهزو ونهزم ونجري ونجتري ونبري ونبتري ونزحف ونحفز ونزعج ونعجز ونجهد ونجهل ونحمي ونحمل ونقطع ونوصل ونثور ونثير وندور وندير وننتصف وننصف ونعفر ونزعف ونفرح ونحرق ونعفر ونعرق ونخرج ونحرج ونلج ونلجج ونضري ونضرب ونغلي ونغلب ونجن ونجني ونثني وننقي ونرد ونردي ونجد ونجدي ونقد ونقدم ونعد ونعدم ونصد ونصدع ونقد ونقدع ونجد ونجدع ونصر ونصرع ونسل ونسلب ونروع ونرعب ونبد ونبيد ونتصدى ونصيد ونظهر ونظفر ونرهق ونقهر ونقسو ونقسر ونسكر ونكسر نخرجوا في عدد خارج عن العد واستقاموا مع الاعوجاج على جد الجد وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال بعدما رتبوا على البلد من لازم القتال وأخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها واستصحبوا أنجاب الكريمة وأنجادها وكان النزول على تل العياضية فركبوا وأشعلوا القوم بنيران النصال وألهبوا فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا حفرناها عند نزولنا هنالك والجمعة الحامية المنبعثة على تلك البعوث ما تركت الانزال فباتوا حول القوم يرمون ويدمون ويشوون ويصمون ولما تصل خبرهم بالسلطان رحل الثقل الى ناحية القيمون وثبت الله القلوب على الأمن والسكون وبقي الناس على خيامهم جرائد وقد استعذبوا من مر الكريهة الموارد وركب العدو يوم الثلاثاء سائرا وقد عب عبابه زاخرا وهب غابه زائرا وطما بحره مائجا وسما جره مارجا وعبا كرنا في أحسن تعبيه ولدعاء القراع في أوحى تلبيه وقد امتزجت زجرات الجاوش بنعرات الجيوش والميمنة الى الجبل ممتده والميسرة الى النهر بقرب البحر

وصفوفها ممتدة ممتده والسلطان فى القلب كالقمر فى الهاله عليه اكاليل من أنوار الجلاله فسار حتى وقف على تل عند الخروبه على المهابة الحاليه والحالة المحبوبه ومقدمو ميمنته عظماء دولته صاحب دمشق ولده المبجل الملك الافضل وصاحب حلب الملك الظاهر وصاحب بصرى ولده الملك الظافر وأخوه الملك العادل فى آخرها والامراء بعساكرها يلى حسام الدين بن لاجين قايماز النجمى صارم الدين والامير بشارة صاحب بانياس وهو الذى لا يرجو منازلته الامن فيه بأن الباس ثم بدر الدين دلدرم الياروقى صاحب تل باشر وقد طال مباشرة الاسلام عما باشر وعدة كثيرة من الامراء يطول ذكرها على انه يطيب نشرها وعظماء الميسرة ومقدموها وأمراؤها ومقدموها الملك عماد الدين صاحب سنجار وهو العادل للاسلام وعلى الكفر جار وابن أخيه معز الدين سنجرشاه صاحب الجزيره والملك المظفر تقى الدين ذو السطوه المبيدة المبيره وسيف الدين على المشطوب الذى تشب بناره الحروب ونصب على العداة منه الكروب والهكاريه والمهرانيه والحميدية والزرزاريه وأمراء القبائل من الاكراد أقتال القتال وأجادل الجلاد ورجال الحلقة المنصورة واقفون فى القلب لابسى الحلق السرد خائضى بحر الحرب من كل فارس فراس وهرماس رماس وضيغم ضاغم وضرغام غارم وليث قضقاض ملوث بفضفاض وقسور قاسم وهزبر زابر زائر وأسد فى غاب الاسل وقارع فى القراع باب الاجل وقار ثعالب الخرصان وذباب الظبا من دم الاقران وقار على الثبات على قلق ثبات الشجعان وقارئ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ثقة بوعد القرآن وقارن حج النجح بعمرة عمره وبذله فى الجهاد للتمتع بعمر الجنان وسابق الى حلبة الشهاده وسامق على ذروة السعاده وملابس للروع مباسل ومماسل كالذئب الى ذب العدى عن الهدى بعاسل وسار الفرنج شرقى النهر لنا مواجهين وللكريهة غير كارهين حتى وصلوا الى رأس النهر وأشفقوا من بأس القهر فانقلبوا الى غربيه ونزلوا على التل بينه وبين البحر والجاليشيه الرماة منا حولهم جائله وعيون أعيانهم على نصال النبال سائله وجرح فى ذلك اليوم وهو

الثلاثاء خلق من أهل التثليث وما نبا عن كثير منهم ناب النائب الكريث والسلطان فى خيمة لطيفة بحيث يشاهد ولله منه المجاهد المجاهد وأصبح الفرنج يوم الاربعاء راكبين وعن سبيل اللقاء ناكبين ووقفوا على صهوات الخيل الى ضحوة النهار والراجل مطيف محدق بهم كالاسوار وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم وأرادوا يباسطونهم والسلطان يمد الرماة بالرماة والكماة بالكماة وهم ثابتون ثابتون ساكنون ساكنون ونحن نقول لعلهم يحملون ويغضبون فيجهلون فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم وتفريق جماعتهم وتفريج الغمة بنزع بهمهم وأحس العدو بالضعف وانه متورطا فى الحتف فارموا ليا ولعذره لذعره مبليا ومضى على مضض ومن بأشد مرض والنهر عن يمينه والبحر عن يساره وقد أيقن ان صح منه الثبات بانكساره وعسكرنا يصافحهم بالصفاح ويكفهم بالكفاح ويشعلهم بجمرات السهام ويباهيهم بخذمات الصرام ويحرقهم ويشويهم ويصميهم ويشويهم ويفيض على غدران السوابغ منهم جداول القواضب ويخيض فى دأماء الدماء منهم سوابح السلاهب ويغيض فى ماء الوريد منهم ماء الفرند ويغبط بنى الكفر فى الجمع بين الاختين عليهم ابنتى الغمد والزند وأدبروا مولين وأرخصوا من مهجهم ما كانوا له مغالين وعسكرنا يتبعهم ويعلق بهم ويقلعهم وهم مجتمعون فى مسيرهم محتمون فى تقدمهم وتأخيرهم يتحركون فى سكون ويتظاهرون فى كمون ويتطلعون فى غروب ويتقلبون بغروب ويتذوبون فى جمود ويتلهبون فى خمود وكلما صرع منهم قتيل حملوه وستروه وطمعوا مدفنه وطمروه حتى يخفى أمرهم ولا يصح لدينا كسرهم ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق وابلى المسلمون فى ذلك اليوم فى الجهاد بلاء حسنا وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا وقام اياز الطويل فى ذلك اليوم مقاما أقعد فيه من الكفرة كل قائم وأنبه به من العزائم كل نائم وكان مقداما هماما وأسدا ضرغاما يطير وحده الى الروع اذا أبدى له ناجذيه ويجيب المستصرخ ولا يسأله عما يدعوه اليه

وهو في كل يوم يصبح في سلاحه شاكيا ويباره عزمه ذاكيا ويقف بين الصفين ويدعو الى المبارزة والحين فما يبرز اليه الا من يصرع ولا يصل اليه الا من يقطع فعرفه الفرنج وتحاموه فما راموه بعد ذلك ولا راموه وبذل هذا اليوم جهده وفل في فل حدهم حده وأصابته جراحات وأصابهم اجتراحات وكذلك سيف الدين يازكوج ابلى في الجهاد ذلك اليوم ورقم بنصاله ونضاله القوم وخرج وبه جرح وفي قلب العدو وعينه من مهابة انتقامه واصابة سهامه قرح وأصبحوا بكرة الخميس وقد بكر الخميس وحمى الوطيس وسار في اسده العريس فأشرفنا عليهم واذاهم داخلون الى مخيمهم سائرون الى مجثمهم فعاد السلطان الى سرادقه حامد اخلاق خلائقه مسفرا في ليل العجاج فاق فيالقه واستعاد الانتقال الى معسكره واستزاد من الله الاقبال في مورده ومصدره وتحرز بتفرده عن ملوك الارض بعون ملائكة السماء وتفرد بعفره وكان مع الفرنج الخارجين لهم ركبس والكندهري وأقام ملك الالمان على عكا يبري ويفري

(فصل من كتاب في المعنى)

خرج الفرنج يوم الاثنين حادي عشر الشهر وانقبر من ملوكهم الحاضرين بالناقور ونقوة الظهور وفي مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كبير الى البحر فخرجوا الى شرقي النهر وباتوا بالقرب من مخيمهم على البلد وقد تخلف لحفظ حصره ألوف من أهل البلد ثم أصبحوا يوم الثلاثاء والنهر عن يمينهم والاسد سائرة بالاسل في عرينهم والحمية مشتعلة في عيونهم وعرانينهم ونزلوا رأس العين وتطرقها اليهم من عساكرنا المنصورة طارق الحين ولما أصبحوا وجدوها بهم محدقة وبنيران النصال والمناصل لهم محرقة وكنا نقول انهم يتحركون للمصاف والامر بالخلاف وانهم لسهام المنون من الاهداف وما دارت بهم الا الا الثبية تجول وتصول وتصيب وتصوب وتطيل وتطول وكانت الاطلاب واقفة تنتظر حملاتها وتستعدل وثباتها وثباتها فلما أبصر الفرنج ماحل بهم من العذاب عدوا الغنيمة في الاياب وشرعوا في طريق الذهاب

فعادوا من غربي النهر راجعين وساروا صوب خيامهم مسارعين وأصحابنا وراءهم يرمونهم ويشوونهم ويصمونهم وقتل منهم خلق وسرى في جيب خيامهم خرق ونزلوا تلك الليلة على الجسر وقطعوه وباتوا خائفين هائبين ورحلوا مصراخاسئين خائبين وخيولهم الناجية مجرحه وقلوبهم الراجفة مقرحه واشلاؤهم من كسوة الحياة عارية وبالعراء مطرحه وعرفوا ان حركتهم المهلكه وان هلكتهم في الحركه وأقاموا على الضر والزاد معدوم والبلاء لكل منهم منفرد وعليهم مقسوم ولا طعم لهم الا من لحوم الخيل وهم يدعون بالثبور والويل ومع كثرتهم قلوا غناء وضلوا رجاء وذلوا بلاء واعتلوا جدبا وغلاء ولما عاد الفرنج الى خيامهم خائفين من مراميهم مخفقين من مرامهم وأبصر المقيمون بها أصحابنا وراءهم يطلبون ارداءهم متعطشين الى دمائهم يرومون ارواءهم وثبوا على جيادهم وثاروا لمراد مرادهم ولاقوا أجمعنا بأجمعهم وفاضوا الفيضنا من منبعهم فاندفع الاصحاب حتى تبرزوا ثم ردوا عليهم الكرة فأثخنوا واجهزوا وقتل في تلك المعركة كند كبير وشيطان لنار شره من سعيره مستعير وطلبوا بعد انفصال الحرب جثته فأعطوها والتمسوا هامته فلم يجدوها وكان رجلا يعد برجال وسلبه قوم بأموال ولولا ما اتفق من الثبات مزاج السلطان ما سلم من سلم من حزب الشيطان ولله في كل قضية سر وفي كل بلية بر

(ذكر وقعة الكمين)

ومازال السلطان موفقا في آرائه متمرقيا بلا لاء آلائه ومن آرائه الراجحه ومساعيه الناجحه ومتاجره الرابحه انه رأى أن يرتب على العدو كمينا وعلم ان الله يكون لنجحه ضمينا فجمع يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال منتخبي رجاله ومنتضي أبطاله وخواص أتراكه وعوام فتاكه فانتخب منهم كل من عرفت سابقته وسبقت معرفته وأحدث في الجلاد جلادته وفي لقاء العدا عادته وعلت في القتل جهالته وأمرهم بأن يكمنوا على ساحل البحر بقرب المنزلة العادلية القديمه فضوا وأكمنوا الليلة اسبت متنبهي الهمة متيقظي

العزيمة وخرجت منهم عدة يسيرة بعد الصباح منادية بحي على الفلاح ودنوا من خندق القوم ونادوا الا قعود بعد اليوم وبطروهم سهاما وأسعروهم ضراما فطمع الفرنج فيهم وظنت انها الاقبهم وخالتهم صيدا قد سنح وسربا قد سرح فقطعت خنادقها وبثت علائقها وحثت سوابقها وأخاضت بحر الحرب سوابحها وقد أفاضت سوابغها وشامت صفائحها وتجردت عن رجالتها وتفردت بضلالتها وحملت بجهالتها وأقبلت بادلالها لا بدلالتها وتطارد أصحابنا امامها وانهزموا قدامها حتى وقفوها على الكمين وأوقعوها فى الهلاك المبين فخرج الكمين عليها وتبادر اليها فلم يستطع فارس منها فرارا ولم يطق من غرته ان يمضى غرارا وكانت فى مائتى قنطارى من كل مقدم باروني وبطل داوي واسبتاري فقتل معظمهم ووقع فى الاسر خازن الملك وعدة من الافرنسيسية ومقدمهم وملكوا وسلبوا وملك سلبهم وتقطع بهم سببهم ومارصلهم أربهم وجاء الخبر الينا فركب السلطان وركبنا وسار ووقف على تل كيسان فشاهد من الله هنالك الاحسان وجاءه مماليكه يقودون أولئك الاعزة بخزائم الذل ويجودون بما استخلصوه من ذلك الفل ويقدمون المقدمين من سراة الاسارى وتلونا لما شاهدناهم وترى الناس سكارى وما هم بسكارى فقد رضتهم الانوت وقضقضتهم الليوث وبعثتهم الى مصارعهم الظاهرة من مكامن الآجال البعوث ونزل السلطان الاسلاب والخيول لآخذيها وكانت بأموال عظيمة فما أعارها نظرة ولا ردد أمره فيها وفيها حصن كانها حصون وزرد موضون وخوذ منها ملذهب ومدهون وسيوف ذكور تتولد منها المنون وملابس رائقات تحار فيها العيون وابنا بالملوك مصفدينا وحمدنا الله الذى بارشاده هدينا وجلس السلطان فى خيمته على دست ملكه وقد انتظم له عقد النصر فى سلكه فمن كان عنده أسيرا أحضره فأنعم عليه وشكره وكنت عند السلطان جالسا وللحبير الحبور لابسا وقد جمع عنده أولئك الامراء وما أسعد الله الا فى تلك الساعة أولئك الاشقياء ودامت محاورته لهم مشافهة وأطعمهم بعد ما آنسهم كهه ثم بسطهم ببسط الخوان وأشبعهم وأرواهم ثم أحضر لهم كسوة وكساهم وألبس

المقدم الكبير فرونة الخاصه فقد كان الزمان قد برد وفصل الشتاء قد ورد وأذن لهم في أن يسير وا قلمانهم لاحضار ما بريدون احضاره ولاعلام من يؤثرون ان تعرف معارفه اخباره ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال وحفظهم بالقيود الاثقال

((فصل من كتاب بشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال))

ولما كانت ليلة السبت ثالث عشرى شوال كانت نوبة اليزك لاخينا الملك العادل فأشار بانفاذ عدة اليه تكون في الكمين وتقيم في المكمن اقامة خادرات الاسود في العرين فأنفذنا اليه من مماليكنا سرية سرت سرا واستسرت وسرت وقرت في مكمنها الى ان طابت الانفس بصنعها وقرت ولما أصبح الفرنج يوم السبت خرجوا على العادة عادين وللمنايا الى ناديهم منادين فاستطرد من حضر من العرب واليزكية قدامهم وأظهروا أنهم قد ظهروا عليهم وهربوا ورهبوا اقدامهم ومازالوا ينهزمون وهم وراءهم يقوون فيها رجاءهم حتى أبعدوهم عن المأمن وعبروا بهم عن المكمن فخرج عليهم الكمين من خلفهم وفتح عليهم أبواب حتفهم وأروهم وجوه المنايا في مرايا غرر الجياد ونزعوا عنهم لباس الجلد لباس الجلاد وفلقوا البيض بالبيض وفلوا الحديد بالحديد وأشعلوا نار الظبا في ماء الوريد وفضوهم بالفضاء وعروهم بالعراء ولتوهم بالمنوت وبتوا أعناقهم من حبل لو تين المبتوت فلم ينج منهم ناج ولم يبق منهم للبقاء راج وأسرت عدة من مقدميهم ومعروفيهم ومحتشميهم وكانت هذه بحمد الله نوبة بغير نبوه وكرة بغير كبوه وغزوة أذنت بأوفر حظره ووقعة أذنت بل أجنت كل نصرة نضرة عذبة حلوه والحمد لله الذي نزكوا نعمه بقبا الحمد وتوضح عوارفه لشاكريها جدد الجد ولولا مرضنا في النوبة الاولى التي خرجوا فيها بأجمعهم لما نجو بحشاشاتهم بل تعجل مصيرهم الى مصرعهم لكنا ما قدرنا في ذلك اليوم على الركوب وجلسنا على تلعة قريبة من المعركة ننتظر ما يكون من العسكر المندوب والآن بحمد الله قد توفرت حصة الصحه ولزمت منة المنحه وكذلك مرضنا عام أول شهرين والحمد لله على المهلة في السنتين فأقمنا مع

المقام وسقمنا في المقام وصبرنا وصابرنا وجاهدنا وجاهرنا ومقامنا في هذه المدة المديدة في بلد الغور والوخم فيه يقضي على ماء الصحة بالغور وبامنا الامن الثاث فاعانه الله غيث فضله المديمة ديمته الاثاث والحمد لله الذي أعان وأغاث

(ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهاد وعود من سار من العساكر الى البلاد على رسم الاستراحة والاستعداد)

ولما ثنت شمل الصيف الرفيق بشمول الشتاء العنيف وانحرف حرف الخريف كانحراف مضيف المصيف واشتعلت رؤس الجبال شيبا للثلج وحل الوحل الخيم جيشه البحر بالمرج والتحفت كل هضبة ببرد البرد واكتست الغدران من الجليد بازرد السرد ولبست سود الذرا بيض الفرا وجر السيل الذيل وجرى وطمر المطر هوادي الوهاد وقبض أنامل الانام عن البسط للجهاد وجمد النحر وخمد الجمر وارتعدت الفرائص وارتعدت الاخامص وقرست الايدي وأمسى الجو بالجوى المدي يعدو ويعدي وحل الهواء بالوهاد عقود القوى وعقد المترفون على حب الاصطلاء الحبا واشتغل الملوك بملازمة المثاني ومنادمة الموانى ومناقلة المناقل ومعاقرة العقار ومسامرة لسمار ومد اناة الدنان واجتناء الجنان ومناغاة الغواني ومناجاة المثالث والمثاني وملابسة السوالف والسلاف وملامسة اللطائف والالطاف فلت نار عزم السلطان حد الشتاء العاتي ووقف مع عزائمه الماضية وهجر من مثى الى المثاني وماصده البرد عن مقصده ولارده عن مورده ولم يحتفل باحتفاله ولم يبال ببلاله ولم يكترث بكارثه ولم يحدث أمر الحادثه فاغناص الاصطلاء بحر الحرب عن الاصطلاء بناره وجرى على عادته في مصابرة الاعداء والجري الى اقاصى مضماره ومالهاه عن الله ولارفض فرضه وسما الى سماء الالاء وأرضاه لما طهر بدم أنجاس أعدائه أرضه واستمر على بذل جهده في الجهاد ووفى بعهده ولم يثنه جفاء العهاد وقال انما أرباً بهذا الارب، وأرى راحتي في هذا التعب ويقيني بقيني في ثلج صدري بلطف الله عنف الثلج ومايبرد قلبي

مع تقلب الحر والبرد الابرد النصر والفلج لكنه رأى ان مقام العساكر يجمعها وصرفها عن العود الى البلاد ومنعها يؤذن بملالها واختلال أمورها وانحلالها والفرنج قد أمنت غائلتها وتكفى فى مداومة قتالها فى نوبها مقاتلتها فاذن للجماعة فى الانصراف على المواعدة فى المعاودة فى الربيع والرجوع الى مراد الروع المربع وليأخذوا أسباب الاستعداد لاوقات الاستدعاء وليستكثروا من الرجال المحققين فى نصرة الحق للرجاء من أهل الغنى والغناء والمضارب والمضاء فسار صاحب سنجار عماد الدين زنكى خامس عشرى شوال يوم الاثنين وتلاه صاحب الجزيرة ابن أخيه سنجرشاه ليكونا مصطحبين وسار بعدهما ابن صاحب الموصل علاء الدين غرة ذى القعده وما انصرفوا الا بالتشريف والخلع المعده وشيعهم السلطان بكل مكرمة شائقة شائعه وخلعة رائقة رائعه ومستعملات مصر ومصوغات تبر وخيل عتاق وخير واطلاق

(فصل من كتاب الى صاحب الموصل عند عود ولده اليه وينعت بالملك السعيد علاء الدين)

ما كان أسعدنا بقرب الملك السعيد وما أجدنا بانارة نوره وأوفر حبورنا بحضوره وأصدق شهود صدق ولائه بحكم شهوده وما أبهج الاسلام بنصرة ناصره ونجدة وليه وودوده ولقد تمت بايامن أيامه وبركات مقامه فى العدو نكايات وظهرت لاولياء الله من ألطاف كفايته آيات ووقعت بالمشركين روعات وراعت وقعات وقد أردنا أن نستظهر بمرافقته ونبنى الامور على موافقته فما أيمن سعده وما أسعد عنه وما أوقر وزنه وأغزر حزنه لكننا عرفنا شوق المجلس الى اجتلاء سناه بمقتضى آدابه التى استكمل بها أدوات الارتقاء فى مطالع علاه فقد فاق بسداد رأيه الكهول وما أزكى الفروع الطيبة اذا أشبهت الاصول وما أسعد الملك بالملك السعيد علاء الدين أدام الله علاءه ومسر بفضائله أولياءه وقد توجه والقلوب معه متوجهه والنفوس لغيبته متكرهه والعيون لترقب ورود البشائر غير منتبهه والايام لظلمة الاستيحاش بالليالى متشبهه والموارد الى أن يمن الله بعوده تنبهه

والالسن بذكر أخلاقه الطاهرة والافاضة فى شكر محاسنه الزاهرة متفوهه والخواطر فيما تملته أيام الاستعاد به من مبهجات آلائه متنزهه ولا شك انه يصف بلهجته الفصيحة ما اقتناه من المتاجر الربحه وقدمه من المساعى النجيحه واستجمعه فى الغزاة من مغازيه الصحيحه وأبداه فى البأس من بسالته المشيحه وأطلعه فى ليل العجاج من صبيحة بهجته الصبيحه وله فى كل نصرة وهبها الله للاسلام أوفى نصيب فقد أصمى مقتل الكفر بكل سهم مصيب وهو لمستصرخ الهدى أسبق مجاب وأسرع مجيب وان الله له بسفور صبح سعادته ووفور نجح ارادته أفضل مثيب

(ذكر ما تجدد بعد ذلك فى هذه السنة)

لما هاج البحر وماج وأظهر الارتجاج والانزعاج نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها وأخلوا ساحل عكا من اربابها وارهابها وخلا للناوجه البحر وغابت عن الساحل مراكب الكفر فاشتغل السلطان بانفاذ البدل الى البلد من الثابتين فى الجلاد على الجلد فانتقل الملك العادل بمخيمه الى جانب الرمل ونزل قاطعا نهر حيفا فى سفح الجبل لتسهيل طريق من يسيره الى البلد من البدل فان المقيمين فى عكا شكوا أمراضا متمرضه وأعراضا مرضه وكثرة السواد مع قلة النفقه والزاد وكان فى البلد زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدم وجندى وأسطولى وبحرى ومتعيش وتاجر وبطال وغلمان ونواب وعمال وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا واذا عاينوا خوفا على الموضع موهنا أو توانوا وما وهنوا فرأى السلطان ان يفسح لهم فى الخروج رفقا بهم ورآفه وما أفكر ان فى ذلك مخافة وآفه فقد كان فيه أمراء أمروا الامر وألفوا الصبر ومانعوا الحصر واجترؤا وتجاسروا وصبروا وصابروا وحاربوا وحربوا وجاروا وجربوا وزاولوا وأزالوا وحاولوا وأحالوا وعرفوا مكامن المكايد وكشفوا كوامن المقاصد وأخذ كل موضعه فى الحرص على الحراسه وشاعوا بالسماحة والحماسه وكان فيهم من يطعم وينفق ويجمع الرجال وقلوبهم بعطائه لم يفرق مثل حسام الدين أبى الهيجاء السمين فانه انفق ما ادخره من الالوف والمئين مستمرا على انفاق لا تعتريه فيه خشية املاق

وهناك ستون أميرا ومقدما وكلهم يرى المغرم فى سبيل الله مغنما وكانوا يتقنعون بالعوام وكثرة الناس فى جذب المجانيق والاعانة على ما يتفق فى الحصر من التضييق فلما خرج الخواص خرج معهم العوام وتبدد بتبدد نظمهم النظام وألزم السلطان جماعة من الامراء بالدخول فخدموا على أن يعفيهم بالدخول فلم يقبل منهم بدلا وألزم بنقل الازواد لبعض حتهم كلا فلم يدخلوا الابعد لأى وقد بلغوا فى الرأى الى أقصى غاى وأكثرهم صرف رجاله المعروفين المتخلصين واقتنع بمن استجد استخدامه من المترخصين وأذهبوا الايام بالمدافعه وأبطؤا عن فرض المسارعه والملك العادل هناك يحثهم ويحرضهم ويعينهم على تحصيل المراكب لهم وينهضهم حتى لم يبلغ من دخل عشرين أميرا مقدمهم الاحد سيف الدين المشطوب على بن أحمد وأمر السلطان بالمناداة فى الابطال البطالين ليحضروا لقبض النفقات وكان يحضر الجاووش فى كل يوم مئين ويصبح نواب الديوان فى أمرهم مرتبين لحرصهم على توفير الدرهم وبخلهم بالنفقة ويعدونها من المغرم ومعظمهم من نصارى مصر ومن هو مصر فى نصرة النصارى وفى تعسير ما يجب تسهيله وتعقيد ما يجب تحليله لا يجارى ولا يبارى وكل واحد منهم للقبط قطب وفى الخبط خطب وللشر شرك وفى الحس حسك وللمشرك مشارك وللدين تارك فارك ولهم أخلاق أخلاق وطباع بالطبع اغلاق تأوى للبخل والتبخيل الى التأويل وتقلى لتكثير السوء فى الخير سوى التقليل وهم جالبون للغى طالبون للبغى كاسبون للذم مناسبون للضم والملم فيهم متولى الخزانه ترى الشح بما يجود به السلطان من الامانه وأصنعهم فى الكفاية عندهم أمنعهم للاطلاق وأعدقهم بالحذق أقدعهم وأعقدهم للحق أقدعهم وأجودهم أرداهم وأضلهم أهداهم وهم متفقون فيما بينهم على الخيانه مختلفون فى الظاهر لابداء الصيانه وكان يحضر هؤلاء لعرض البطالين واستخدامهم ويوحشونهم بخطابهم وينفرونهم بكلامهم ويقابلونهم بالجبه ويعاملونهم بالنجبه ويواجهونهم بالسوء ويسوؤنهم فى الوجه ويشتطون فى طلب الضمان ويشترطون ما ليس فى الامكان ويطردونهم بقبيح الزجره ويكسرونهم فى صحيح

الاجره والسلطان يجود جود السحاب ويأمر بالعطاء الحساب ويحدث النواب ويجد فى بعث الاصحاب ويقول أنفقوا ولا تخشوا اقلالا وانهضوا الرجال خفافا وثقالا ولا تؤخر واشغل اليوم الى غدا مهالا أو اهمالا ولا تقدموا على هذا الفرض فرضا ولا نفلا ولا تعتقدوا ان لنا أهم من هذا الشغل شغلا ونواب الديوان على عادة جهالتهم وعادية ضلالتهم فقبل العطاء غير مضطر فقير ومادخل الثغر الا قليل من كثير وماصح من البدل الابعضه ومقضى حق الواجب المتعين فرضه وكان هذا من أقوى أسباب الضعف وأوفى دلائل الخلف وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه فى سنة سبع فانه عام كل مادبر بضرر على الثغر لا بنفع وأقام الملك العادل على البحر لازاحة علل الداخلين واراحة قلوب الواصلين حتى عاد الفرنج بمراكبهم وانقطع بوصولهم الطريق من جانبهم واقتنع البلد عن اليه تحول وعلى حفظه من الله بعصمته عول

وبتاريخ يوم الاثنين ثانى ذى الحجة وصلت من مصر بالغلة بطس سبع وكان لها للحاجة اليها وقع وقبل قدتم بها للجائعين شبع وانقلب أهل البلد الى البحر لمشاهدتها ومعاونة جماعتها ومساعدتها ونقل مافيها من بضائع وحوائج وسلع روائج ومأكول ومطعوم ومشروب ومشموم فقد طال بذلك كله عهدهم وانتهى الى الغاية جهدهم فلما تسامعوا بالبطس تسارعوا الى الملتمس فعلم الفرنج بانقلاب أهل الثغر الى جانب البحر فزحفوا زحفا شديدا وحملوا جندلا وحديدا وأتوا بسلالم لينصبوها على الاسوار وصارت عكا وهم حولها كالمعصم فى السوار ورقوا فى سلم واحد متزاحمين وللضيق متصادمين فاندق بهم السلم المنصوب وسطا بعصابتهم المعصوب بها انصب سوط العذاب المصبوب وتدارك الناس وتلافوا وتلاقوا وتعاطوا كؤوس المنايا وتساقوا ورأوا غمرات الموت فزاروها ودارات حول رحى الحرب وأداروها واستحلوا شهد الشهادة فشاروه وألفوا الاجل كامنا فأثاروه وتواثبوا عليهم تواثب السباع على الضباع ورفعوا القرى العواسل الجياع نار القراع وأطالوا ابشبا العوالى للعوالى باع الاشباع وأتبعوا عيون النجيع من عيون الجميع على جداول البيض وأفاضوا فيوض الدم

القانى بالصارم المفيض وقتلوا وسفكوا وفتكوا وهتكوا وردوهم على أعقابهم ناكصين ومن حبابهم ناقصين ولاشتغال الناس بكشف ماعرا من الغمه وأظل من الظلمه والتهائهم بنقل الغله عن نقل الغله تركوا البطس بحالها مملوءة بغلالها حتى هاج البحر فضرب بها الحشف وأذهب بكسرها كل ما فيها وأتلف وغرق من كان فيها وأتى الغرق على لامنعة التى تحويها حتى قيل هلك بها زهاء ستين نفسا عدموا ولم نجد لهم حسا ناموا والقدر منتبه وذهلوا وحكم القضاء اليهم متوجه وفى ليلة السبت سابع ذى الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكاء على فصيلها فهدمته وثغرت الثغر وثلمته فبان منها الضوء لاهل الظلمه فتبادروا اليها طمعا فى هجم الثلمه فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم وصدوا عنها بنحورهم وبنوها بأبدانهم الى أن بنوا ذلك البدن وعمر واماخرب وقووا ماوهن وقتلوا وجرحوا من العدو خلقا وأوسعوا بالمضايقة فى كل ذى خرق خرقا فانجلت الحرب عن طريح صريع وجريح الى الهزيمة سريع وطالع للعقير قريب وعاد الثغر أقوى مما كان وأحكم وكل ذلك بجد بهاء الدين قراقوش حيث كان المقدام المقدم وهذا الامير قراقوش لما ضجر الامراء وضجوا وطلبوا الخروج ولجوا أقام ولم يرم ولم ينحل عقد ثباته ولم ينخرم وفى ثانى عشر ذى الحجة هلك ابن ملك الالمان بمرض الجوف ولعله من عرض الحوف وأدرك أباه فى الدرك الاسفل من النار وأبصر فى جهنم مصاير أمثاله من الكفار وزاد بهلاكه ألم الالمانيه وانسدت بموته فرج الفرنجيه وتبعه فى السفر الى سقر كند كبير يقال له كند نيباط دافع القدر فما قدر وهلك منهم بالامراض المختلفة العدد الكثير واشتغلت بهم الجحيم واشتعلت عليهم السعير وفى يوم الاثنين ثانى عشرى ذى الحجة عاد المستأمنون من الفرنج الذين أنهضهم السلطان فى براكيس ليغزوا فى البحر ويكونوا أيضا الناجواسيس فرجعوا وقد غنموا وغلبوا وكسروا وكسبوا وسروا وأسروا وقشروا فظفروا وذكروا انهم وقعوا بحراقة كبيرة ومعها براكيس وفيها تجار فرنج ومعهم من المال الجليل النفيس وأسروا التجار وأخذوا المال وجرت تلك المراكب وجذبت الى الساحل فاذا هى مشحونة بالكرائم الجلائل من كل

آنية مطبوعة ذهبيه وحلية مصوغة نضاريه وآلة فضيه وأباريق وأكوابه وأقدح وأطباق وموائد وسبائك وصفاح وكاسات وطاسات ومرافع وشربات فوفر السلطان عليهم هذه الاكتساب ولم يحرمهم حيث حرموا الكفر هم الثواب وأظهروا بهذه النهضة انهم مناصحون ولهين الايمان مصافحون فلما أكرموا بتلك المكرمه أثنوا على اليد المنعمه وأسلم منهم شطرهم وحسن بينئذ كرهم وببركات الكرم السلطانى كرموا وأنسوا وأسلموا وكانوا قد أحضروا برسم الهديه مائدة فضة عظيمه وعليها مكبة عاليه ولها قبة غاليه ومعها طبق يماثلها فى الوزن ويتعذر وجود ذلك للملوك فى الخزن ولو وزنت تلك الفضيات قاربت قنطارا فما أعارها السلطان طرفه احتقارا وقال لهم خذوها فانتم بها أولى وكان أول من أسدى هذا المعروف وأولى وكنت عنده جالسا وبلطفه مستأنسا فقلت له ما أظن فى الوجود ملكا يسمح بمثل هذا المال خصوصا وقد أغنمه الله من الحلال فتبسم لقولى غير معجب به وما قضيت العجب مما قضاه كرمه من أربه وفى الرابع والعشرين من ذى الحجة أخذ من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسون نفرا فخلا لنا نصرا وعلا نجما ولاظفرا وفى الخامس والعشرين منه أخذ أيضا بركوس فيه من الفرنج مقدمون وروس وهم نيف وعشرون منهم أربعة خياله فمنهم من الامير خياله ومعهم ملوطه مكللة باللؤلؤ منوطه وبأزرار الجوهر مربوطه قيل انها كانت من ثياب ملك الالمان وأسير فيه رجل كبير قيل انه ابن أخته وهو كبير الشان وفى هذا الشهر كان قدوم القاضى الاجل الفاضل رب الفضائل والفواضل من مصر فاشرقت المطالع وأشرفت الصنائع وبشرت المطالب بنجاحه وغزرت المواهب بسماحه وغابت بحضوره مكارمه المكاره ونزع بلبسه افضاله لباس الخمول ذو الفضل النابه وأعاد روح السلطان باعادة الروح الى سلطانه ومر بمكانه واقترن احسانه باحسانه وظهرت فى وجهه به الطلاقه وفى قلبه العلاقه وروى رايه برى رايه وتلقن آيات النصر من نص آيه وانتعش عثارى بمقدمه وانتقش خط نجارى بكرمه وولى عطلى وحيا أملى وقوى عملى ووضح منهاج مناى وصح مراج غناى ونبه قدرى ونوه بذكرى

وسعى فى رفع رتبتى وزيادة راتبى وسن غربى وأسنى غاربى وأقربنى وقربنى واستكتب الحظوظ بالحظوظ كما كان استكتبنى فعشت ونعشت وفرشت بساط الغنى فرشت ولولا اننى قويت به لاقويت ولولا انه أولانى عارفته لما عرفت ولاتوليت فانا شاكر نعمه عمرى وعامر كرمه بشكرى

(ذكر جماعة من المستشهدين فى هذه السنة)

استشهد فى عكا سبعة من الامراء كل منهم سبع ماله فى لقائه للقرن طمع ومن جملتهم سوار من المماليك الخواص ومن ذوى الاخلاص وكان هذا سوارا فى كل حرب مساورا ولكل هول مباشرا وبكل بوس عبوس باشرا بجنانه سهم عائر فاذا هو الى الجنة سائر وكذلك عدة من امراء الاكراد كانوا من الآساد ففازوا بحظ الاستشهاد وخرج اسطولنا فى هذه السنة بشوانيه المعبئة المحسنة ليكبس شوانى الفرنج فى مواضع الربط واحراقها بقوارير النفط فخرجوا الى شوانينا بشوانيهم ولقوا عواديها بعواديهم وظفرت أساطيلنا وطالت ووصلت اليها وصالت ونالت من الظفر ما نالت وأحرقت للكفر شوانى برجالها وغرقتها بأبطالها وكان عند العود تأخر لنا شينى مقدمه أمير مبارز كالاسد الخادر لا يحصر الا للفريسة ولا يبرز وهو يعرف بجمال الدين محمد بن أركز فشين الشينى وشانه وما أعانته أعوانه وامتلأت بالاعطاب أعطانه واضطربت للانكار أركانه واضطرمت بأهل النار نيرانه فتواقع من فيه الى الماء واحترزوا من البلاء بالبلاء ووقف الامير على قدم جلده يجالد ويجدو يجاهد وقد أثقله بلبس البسالة الحديد وخف به العزم الشديد السديد وقد دعاه الى أمنية المنية الذكر الحميد والاجر العتيد فما ارتاع للروع ولا استطاع الانقياد بالطوع ولا مكن العدو من مكانه وأخذ مع الشانى بشانه ولولا ان ملاحيه جبنوا وفروا ومناصحيه خذوه وما قروا لجنى بسيفه ثمر النجاه لكن الاجل قطع عليه طريق الحياه فاجتمعت على مركبه مراكب الجمع وسدوا عليه سبل البصر والسمع وقالوا خذ منا الامان واستأسر وهون الامر عليك ولا تعسر ويسر فالعاقل يختار البقاء على الفناء والوجود على العدم وأنت فى عين الهلاك ان لم

تعطنا اليد ونثبت على هذه القدم فقال ما أضع يدي الا في يد مفسد ملكم الكبير ولا يخاطر الخطير الا مع الخطير فحواله كند أرضاه وأراد ان يشركه فيما الله قضاه فلما دنا اليه أخذ بيده ولزمه وعانقه وقوي عليه وما فارقه ووقعا الى البحر وغرقا وترافقا في الحمام واتفقا وعلى طريق الجنة والنار افترقا فارتوى الشهيد السعيد بماء النعيم وصلى الكند الكنود بنار الجحيم واستشهد أيضا في ذلك اليوم الامير نصير الحميدي جرح فقضى حميدا وشهد مقامه في الجنة شهيدا وسعى دهره حتى قضى سعيدا ولم تخل وقائع هذه السنة من استشهاد جماعة من أمراء العسكر وسعداء المعشر وكرماء المحشر وندماء الكوثر وحلفاء المفخر واستشهد يوم تاسع جمادى الاولى القاضي المرتضى ابن قريش الكاتب وكان صدرا تتجمل به المراتب جريا جاري القلم بليغا بالغ الحكم مهيبا يخشى مرهوبا لا يغشى وهو في أهبة من المهابه وكتيبة من الكتابه صوبه في الصواب منتجع وخطابه في الخطب مستمع ولرأيه ري وريا وتدبيره للامور بتنفيذ الاوامر السلطانية دينا ودنيا ولم يكن له في الكفاية كف ولم يزل للحروف الخطوب بقلمه رف وكان رجل دمشقي بنابلس له ملك بدمشق فدثر كه ورغب في ابتياعه القاضي المرتضى ليملكه فتقاضى قاضي نابلس مرارا باحضاره فلما حضر رغبه في البيع على ايثاره باضعاف الثمن ونقد دنياره فانفصلا على التراضي ونجح سعي القاضي للقاضي وبكر البائع الى سلام المشتري ووثب وثوب الجترى وطعنه بمديته وهو آمن في خيمته وقتل به قتل اللعين أبي لؤلؤة بالفاروق وخرج من الخيمة كالسهم في المروق فلقي قاضي نابلس فقتله ومضى بسلك سبله فادركه الناس وقتلوه وكاد يفلت لولم يعاجلوه ففجع المنصب بعصابه وناب عنه أخوه مع نوابه

ودخلت سنة سبع وثمانين والشتاء لم يشت له شتات شمله وعقد البرد لم يقرب محل حله وللغيث عيث وللزوردالي بيع دبث وللسحب سح وللفضح شح ولعين الشمس غض ولوجه الغيم وض ولايدي العارض بسط وقبض وللنواظر البرق تنبه وغمض وللواجد البرد كنز وعض ولفص الفصل ختم وفض وكل

صادف بحر كانون كنون وكل ماء بالجليد كأنه زرد مسنون وللأوحال أحوال وللأهواء أهوال وللشمال شمول وما للقبول قبول وللجنوب ذنوب وللدبور فى ادبارها واقبالها هبوب وللصبا صبابات وصبابات وللندى الندى جنايات وسرايات وللجو الجوى آيات ونكايات وللغمائم غماغم ولهام الربا من هامى الرباب غمائم وللنكباء نكبات ولشباشب اط شبات والرواعد رواعف والهواتن هواتف وللأرواح رواح وغدو وحركة وحدو ومجيء وسلو ونزول وعلو ونصفة وعتو وللرعايا لعرايا من الرياح الجيارى رذايا أذايا وخبايا المروج النابتة فى زوايا الثلوج النازلة خفايا والعواصف القواصف عواص غير قواص والعارض عارض للحب فى الغراس عراص والقوارس قوارص والخوالس خوالص والبحر فى هيجانه والغيم فى هطلانه والسلطان مقيم بخيمه على شفر عم ولطف الله به قد خص وعم والملك العادل سيف الدين نازل على الساحل عند نهر حيفا التجهيز البدل فى المراكب الى عكاء والسفن تدخل اليها بالازواد وتعود وترجع اليها بالاجناد ويحرص ويحرض ويرسل الى السلطان ويستنهض والسلطان يفاوض النواب فى ذلك واليهم يفوض وفى كل يوم يعرض الرجال وينفق فيهم الاموال والامر مستمر والقرار مستقر والبزكية زكيه وسنتهم فى المناوبة سنيه ولوافح عزماتهم ذاكيه ونوافح مكرماتهم ذكيه والمماليك الخواص ومن خصهم وعمهم الاستخلاص يغادون القتال ويراوحونه ويكافون العدو ويكافحونه ويجاورونه ويجارحونه ويبرحون به ولا يبارحونه والعدو على عكاء حاشد ولضلالة ضلاله ناشد يحتمون ويحمون ويرامون ويرمون ويدنون ويشبون ويحبون الى الكفرة بسوط العذاب ويصبون وقد قسموا الادوار على الاجناد والابراج على الامراء واستقبلوا النعمة فى البلاء والسعادة فى المشقة التى تعدها الاشقياء من الشقاء ان وجدوا اغرة اهتبلوها أو استوعروا كرة استسهلوها أو صادفوا املة صدفوها أو لقوا غمة كشفوها أو صرفوا أوجههم الى نائبة صرفوها

(ذكر ما تجدد من الحوادث وتكرر للعزائم من البواعث)

فى يوم الاربعاء تاسع المحرم سار الملك الظاهر قاصداً بلاده صافياً بالعزم المصمم والرأى المحكم وفى ثالث صفر عزم من بقى من أصحاب الاطراف السفر فان السلطان رخص لهم فى ذلك فانتهضوا فى عودهم الى بلادهم المسالك وأقام السلطان فى أصحابه وخواصه وملازمى بابه وملابسى جنابه ورجال رجائه وخلص أوليائه ومقربى أمرائه وفى هذا اليوم رحل الملك المظفر تقى الدين ليتسلم ما فى شرقى الفرات من البلاد التى كانت مع مظفر الدين مضافة الى ميافارقين فصارت معه جبلة واللاذقية والمعرة وحماة وسلمية والرها وحران وسميساط والموزر وميافارقين وشرط معه ان يحافظ على عهد صاحبى آمد وماردين والبلاد المظفرية كانت قد بقيت الى هذه الغاية مع كثرة الطالبين لتلك الولاية مضنونا بها على الخطاب غير ممنوح بشىء منها الطلاب فابه ما رامها من المملوك أخى السلطان وأولاده من يشرط الفسحة له فى استضافة ديار بكر الى بلاده ويقال له لا سبيل الى قصد أحد ولا انتزاع بلد ولا ازالة يد فان أرباب البلاد أكثرهم لنا معاهد وعلى ودنا معاقد وفى شغلنا مساعد فأما من هو عنا متقاعد ومنا متباعد فما هذا أوان مكافاته ولا زمان كف آفاته وهو منا فى حصر مخافاته وهذا العدو الكافر شغلنا به مستغرق وعزمنا فى قمعه متحقق فلا تثير علينا من المنتم الكاشح والحاسد الحاشد من يشغلنا عن هذا المهم الفرض والرأى الراشد فقال تقى الدين أنا لى فى ذلك الجانب ميافارقين فاذا أخذت حران وسميساط والرها أدركت من تكثير العساكر تقويتها المشتهى وبلغت المنتهى وأنا أدخل على الشرط وعنه لا أخرج وأجمع العساكر والى نصركم أعرج وآتيكم بعد أشهر بأوفى عسكر وأكرم معشر من لابسى سنور وملابسى مورد فى الروع ومصدر وما زال يستعطف السلطان عمه ويسترهف فى تخصيصه بتلك الولاية عزمه ويسأل ويتوسل ويرسل ويتوصل حتى أخذ دستوره واستكتب منشوره وسار على انه يسرع ايابه ويحكم فى العود أسبابه وانما يلبث ريثما يقسم تلك البلاد على مقطعيها ويرسم ترتيب نوابه فيها ثم يطلع علينا طلوع السحاب ويأتى بالاتى العباب ويعرض عساكر لا تدخل فى الحساب وسارع الى الرحيل

وسار بعد ما استشار وبالله استخار

وفي يوم السبت رابع صفر وصل كتاب الملك المجاهد الجواد الماجد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه وهو الجري الذي اذا جارى اضرابه من الملوك في حلبة المجد لم يدركوه ولم يشركوه ومضمون الكتاب انه خرج في آخر المحرم على جشير العدو بطرابلس واستاقه ولم يطق الكفار لحاقه واقتطع لخاصه منه أربعمائة رأس تلف منها في الطريق أربعون غير ما كان أصحابه منها يقتطعون وانه غنم أيضا ابقارا وآب قارا وسار بالغنيمة سارا وأهدى لي من ذلك بغلة سرجية عالية فارهة فرنجية وقال رسوله لما أبصرها واستحسنها قال تصلح للعماد وانه اذا ركبها زينها وفي ليلة هذا اليوم وهو السبت كبت الريح سفينة للفرنج على ساحل الزيب وغالها المكبت وكان فيها من الفرنج خلق فغرق في بحر الاسر من لم يسر اليه في البحر غرق وفيهم امرأتان سبيتا وما هديتا بل أهديتا وشاهدت الاسارى قدام السلطان وقد أحضروا وافردهم على الذين أسروا

وفي أول ليلة من شهر ربيع الاول خرج أصحابنا من البلد على العدو بالناب الاعضل والناب الاعصل وكبسوه في مخيمه وخيموا عليه في مجثمه فما انتهوا لهم حتى أسروا من الفرنج وقتلوا جمعا وأوسعوهم الى نضو بقواقمعا وعادوا سالمين غانمين كاسرين كاسبين ومعهم اثنتا عشرة امرأة في السبي وعرف الله لهم حق ذلك السعي

وفي الاحد ثالث هذا الشهر شهر سلاح الحرب أهل الكفر وخرجوا على اليزك وكانت النوبة للحلقة المنصورة خواص السلطان مساعير المعترك وعظمت الوقعه ونجمت الروعه وصدمت الصدعه واحتدمت على الفرنج بنارها الصرعه وهلك منهم عالم كثير وقتل منهم مقدم معروف كبير ولم يفقد منا الا خادم رومي صغير عثر به في الحملة فرسه فلم ينتعش واستشهد ليعيش في الآخرة من في الدنيا مات في سبيل الله ولم يعش وهذا الخصي كان غلاما من الفحول ناهضا على الكفر للاسلام بحمل الذحول وانتهى الينا أن الفرنج على عزم الخروج ليحتشوا ويحتطبوا مما حولهم من المروج فلا مرعى لدوابهم ولا عاف وان لم يتلافوها

ولا حشاش خشوا عليها التلف فأمر السلطان أخاه الملك العادل أن يذهب ويقصد الساحل ويكمن بعسكره وراء التل الذى كانت فيه قديما منزلته وهنالك نصرت وقعته ووقعت نصرته ومضى السلطان بنفسه فى خواصه وأجناده وأقاربه وأولاده فكمن وراء تل العياضيه فى العصبة المنصورة الناصريه وذلك يوم السبت تاسع شهر ربيع الاول مستظهرا بصحبة ولده الملك الافضل ومعه أيضا أولاده الصغار ليستأنسوا بالحرب ويدمنوا على مباشرة الطعن والضرب فعرف العدو الخبر فما أقدم على الخروج ولا جسر فضربت للسلطان على التل خيمة حمراء فبات فيها وحوله الملوك والامراء ووصل اليه من بيروت خمسة وأربعون أسيرا من الفرنج أخذوا بالمراكب فى البحر من اللج وفيهم شيخ هم هرم عمره فى الكفر منصرم قد طعن فى السن ووهن كالشن وانحنى كالحنيه وما أمن من المنيه وتحاماه الحمام وعامت فى بحر لياليه وأيامه الاعوام وهو ممسوخ الحليه ممسوح اللحيه قد بلى مما بلى وقلى من طول ما لقى وسئم حياته وسئم وعدم لذاته ولذاته وما عدم وكم جاوز قرنا وعبره الى قرن وبارز قرنا ونازله بعد قرن حتى لم يبق منه الا هابه ولم يرقب منه الا ذهابه فتعجب السلطان من مجيئه من البلاد الشاسعه واختياره الضيق على الارجاء الواسعه فسأله كم بينه وبين وطنه ولاى سبب حركته من سكنه فقال أما بلدى فعلى مسافة شهور وانما خرجت بقصد كنيسة القيامه لاظفر بالحج المبرور ففرق له ومن عليه بالاطلاق وأخرجه من ذل الرق الى عز العتاق ورده الى الفرنج راكبا على فرس ولم يرقتله ولا أمره حيث رأى نفسا متهمة بنفس وسأله خدام أولاده الصغار ان يأذن لهم فى تجريب سيوفهم بجرح الاسارى الكفار فلم يأذن لهم فى ذلك وأباه فأرضى كل منهم بامتثال الامر اباه فقيل له لاى سبب منعتهم من ثواب الجهاد المغتنم فقال لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم فانظر ما تحت هذا القول من الرأفة والكرم

(ذكر جماعة وصلوا من عسكر الاسلام)

أول من قدم من العساكر الاسلامية علم الدين سليمان بن جندر وكان بحلب المقدم المومى وهو شيخ له رأى وتجربه ومنزلة كبيرة ومرتبه ومعه حصنا عزاز وبغراس وللسلطان بقربه ومجاورته الاستئناس فقدم فى شهر ربيع الاول فى عسكر وأبيضه وأسمره وبيضه ومغفره وجنى جنده وسنى سنوره وجلبه ولجبه وزمره وعصبه وبيارقه وبلبه وبوارقه وسحبه وقدم فى ذلك التاريخ بقدومه الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه صاحب بعلبك وقد استصحب معه مماليكه الترك وقد نوى بالمشركين الفتك ولسترهم الهتك ولدمائهم السفك فوصل بقواطعه وقواضبه وصوافنه وسلاهبه وطلائعه ومقانبه وحضر من المحاسن بكل مايعرب عن مناقبه وقد زين ليل القساطل من اسنة العوامل بكواكبه وأظمأ جواده ليرده دماء أهل الكفر فانه بعدها من مشاربه فمن ذلك اليوم من القادمين والمستقبلين بذلك الفضاء جيش زرت الرباعليه جيوبها وغطته من العجاج بالرداء وجرى ذلك الوادى من الاجناد والامراء بسيل خيل تردد أماء الدماء وخرق ذلك الخرق أوعن فى حافاته الحرق ومن عاداته بعداته الحرق ومن آفاته عند موافاته من فرق الكفر الفرق ومن علاقته عند الظماء ان لا ترويه الا العلق ومن صبابته بالسير الى عناق الاعداء بسواعد سيوفه الحبب والعنق ومن شيمته عوض التغلف بالعبير التضمخ بالنجيع ومن ديمته وبل النبل من الاحداق والنواظر فى نواضر حدائق الربيع ومن صنعته اسماء حنين الحنية بسهمه واسماع انين المنية تحصمه وجلونا فى ذلك اليوم فوارس لاعرائس وفوانس لاعوانس وقدم بدر الدين مودود والى دمشق بعد ذلك فى سابع عشر شهر ربيع الآخر وبشر بورود العساكر ووصول الجمع الوافر

((ذكر وصول ملك افرنسيس لنجدة الفرنج على عكاء واسمه فليب))

وفى ثانى عشر ربيع الاول وصل ملك افرنسيس الى القوم وصان حبلهم وشملهم من البت والشت وكان وصوله فى بطس ست حملت من الفرنج كل ذى شؤم ومقت وقد كانوا يهددون بوصوله وصوله ويقولون لنا من تهديده ووعيده ما يجرى على

قوله وانه اذا جاء حكم وأحكم ونقض وأبرم وقدم ماقدم به من المال وأقدم ونحن منه على مواعده فهو يأتينا بكل نجدة مساعده وجدة عن الفقر مباعده فقلنا لهم رب صلف تحت راعده وماهذه الاراجيف منكم بواحده فلما وصل فى العدد القليل والنظر الكليل أعجبتنا قلته وتشابهت عندنا عزته وذلته وقلنا مايكاد تصل صولته أوتدوم دولته

((نادرة))

وكان مع هذا الملك باز أشهب كأنه عند ارساله نار تلتهب ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله وأفلت من يده وطار وحشا حشاه البازالذى نار النار ووقع على سور عكا وحزن الملك يوم سروره بفراقه وأبكى واستجابه فما استجاب وأبى وما آب وثبت وما ثاب فبصر به أصحابنا فأخذوه والى السلطان أنفذوه فابدى للسرور به الاهتزاز وجعل بتشريفه بزة من بزالباز وأظهر به احتفالا وعده للظفر والنصر فالا وبذل فيه الملك ألف دينار فما أجيب ولا وهب له ولاهيب ومابيع ولاعيب

((خبر نادرة فى غنيمة وافرة))

كان المستأمنون من الفرنج الينا تسلموا مراكب يغزون فيها ويجرون بجواريها وينهضون بسواريها ورواسيها وينهشون بعقاربها وأفاعيها ووصلوا الى ناحية من جزيرة قبرس يوم عيدهم وقد جمع القس فى كنيسة لاهلها شمل قريبهم وبعيدهم فصلوا معهم فيها صلاتهم ثم أغلقوا أبواب الكنيسة عليهم ليأمنوا افلاتهم وأسروهم بأسرهم وسبوهم وبغتوهم من البلاء بما أتوهم به وبلوهم وكنسوا كل ماكان فى الكنيسه من الاعلاق النفيسه وقبوا على قسيسهم وعادوا بها وبهم الى مراكبهم ولاذوا باللاذقيه وباعوا بها كل ماأخذوه من البيعة ومن الجملة سبع وعشرون نسوة سبايا وصبيان وصبايا فباعوها رخصا واقتسموها خرصا وزادوا بما نالوه حرصا واستغنوا بما استغنموه وأثروا بما آثاروه وأثروه وفرحوا بما راحوا به من مغنم وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم أربعمائة درهم وفى سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من

العسكرية السرية فاقتطعوا قطيعا من غنم الفرنج غنيمه وخالطوهم في خيامهم وامطروهم من وبل النبل ديمه وركبوا بأسرهم بخيلهم ورجلهم في اثرهم فلم يظفروا بطائل ولم يرجعوا بحاصل

﴿خبر وصول ملك الانكتير واسمه ليرت الى قبرس واستيلائه عليها﴾

وصل الخبر ان ملك الانكتير وصل الى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر في الجمع الوافر حاملا جموعا كالسيل الجارف في البحر الزاخر وتقدمته الى الجزيره مراكب وشوان على قصد الجزيره فخرج صاحب قبرس اليها واستولى عليها وغنم أموالها وصدم رجالها فلما وصل ارهف حد عزمه وأفضى فيض غيظه الى غيض حلمه وهو مغضب غير مغض مريض من ألم الحقد ماله سوى التشفي شاف مرض فلبث مفكرا ومكث متحيرا وتروى متخيرا فرأى أن قبرس في يده فاستجن من جده في جدده وناشب القتال وواظب النزال وقارع بالنصال النصال وحلت المنايا حباها لاحتباء البيض بالاعناق واعتناق الغلاظ مع الرقاق ونفذ يطلب من الفرنج على عكاء نجده ليجد شدة ويوجد شده فنفذوا اليه جفرى أخا الملك العتيق في جموع مترافقة الرفيق وامتدت الحروب واشتدت الكروب ورأى ان فريضته تعول وان حالته تحول وان شغله يطول واتفق أيضا أنه كان رام الروم من الفرنج الفرج وخطب كل واحد من ضيق الخطب المحرج المخرج فتراسلوا في الصلح وخرجوا من ليل الحرب المظلم في سنا السلم الى اسفار الصبح واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتير وانفاعمانم من التقريب والتقرير وحمل له هدايا وتحفا سنايا ووسع له الازواد وبذل له الامداد فأخذه في مأمنه وأبرزله مكره من مكمنه وغله ثم غله وشده وماحله وجازاه لما أعزه بأن أذله وغادره بغدره في القد والقيد ومابطشت يد عادمة الايد كيد الكيد واستولى بالاستيلاء عليه على ملك الجزيره وغرق في جمات أمواله الغزيره وسيأتي ذكر وروده وما تم به لاحزاب الشيطان وجنوده

و بتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر يوم الاحد وصلت من ثغر بيروت كتب مبشرة بالنجح المتجدد وهو أن أصحابنا أخذوا عند الثغر عمرا كبهم الغازية فى البحر من مراكب الانكتير جسه وطراده ولم تكن لولا اباء رجالها للضيم معتاده وبخزام القهر مقتاده وكان فيها خلق كثير من نساء ورجال وذخائر أخاير من عدة ومال وأثقال وأنفال وأخشاب وآلات وأحمال وأحوال وفى الطرادة أربعون رأسا من الخيل الجياد قد جلبوا البلاء بجلبها من البلاد فحيزت وحيزوا وأجيزت الى بيروت وأجيزوا فأما السبايا فقد أخرجن على البيع بالنقود والنسايا وأما الاسراء فقد عمتنا بخصوص ضرائهم السراء

وفى يوم الخميس رابع جمادى الاولى زحف العدو الى البلد بالجد والجلد والعدد والعدد والمدى والمدد والجمع المحتشد والجمر المتقد والبيض واليلب والبيض والقضب والسمر السلب واللجب والجلب والصياح والضجيج والعجاج والعجيج والوشيج بالوشيج والامر المريج والقصد بالقصد والزغف والزرد والحديد والعديد والقريب والبعيد والاتباع والعبيد والاوباش والاوشاب والكلاب والذئاب والسباع والضباع والضوارى الجياع والاساود والاسود والزرق والحمر والسود ودبوا ودبوا وشبوا وسبوا وصابوا وصبوا ونابوا ونبوا وعبوا وعبوا وجابوا وجبوا وزحموا ورجوا واقدموا وتقدموا وقدموا سبعة مجانيق وقربوها ونصبوا فيها ونصبوها فعلت كأنها قلاع وارتفعت على التلاع كأنها تلاع وهى فى الجو متراميه وبالجوى راميه وفى السماء ساميه ولاهل النار الحاميه حاميه مرتفعة على مرافعها مقتلعة بمقالعها منقضة أحجارها لانقضاض الجدار منفضة أسوارها لانفضاض الاسوار حاصرة حاصبه حاملة ناصبه قائمة قاعده بارقة راعده صادمة صادعه صارمة صارعه حبالى من الجبال أجنتها وحنايا للحنين على سهامها من الحجارة رنتها ومراضع فى حجورها الاحجار ومرابع تنهد بدوائرها الربوع والديار حوامل على الطلق صوائل بالفلق على الخلق عطايا للمنايا روايا خبايا ها البلايا فى كفاتها آفاتها وفى حركاتها ادراكاتها وللتعذيب عذباتها

وللترهيب جذباتها وما أعظم جنايات جنادلها وأظلم غرابات غوائلها وهى الروائم الروامى والحوائم الحوامى والهوادم بالهوادى والصوادم الصوادى ودواعى العوادى ونواعى النوادى والنواعب بالنوى والجوائب بالجوى والصوائب بالمصائب والنوائب بالشوائب اذا جذبت جذت واذا قذفت أقذت واذا طوحت طرحت واذا حلقت حلقت واذا أطارت أبارت واذا ألقت ألقمت فشق على أصحابنا بالبلد شقاقها وكادت تفتح اليه الطرق طوارقها وطراقها فاستصرخوا بنا واستنهضوا وحضوا على حظنا وحظهم وحرضوا واستنفروا واستنصروا واستعدوا واستدعوا فاصبح السلطان راكبا فى العساكر طالبا شغل العدو الكافر الحاضر الحاصر وسير من كشف هل للعدو كمين أو كيد دفين ثم وقفت العساكر عنه ومر الى تل الفضول بالقرب وشاهد الجانبين وكيفية رفعها والنصب ونكايتها فى الضر والضرب وعرف أماكن القتال ومكامن الرجال وكلما شاهد الفرنج عسكرنا قد أطل وأظل ذل جمعهم وكل وترك الزحف وانفل واذا عادوا عادوا وعدوا وأثاروا فى الحرب وأسدوا

(قصة الرضيع)

كان لصوصنا فى الليل استلبوا طفلا من يد أمه وفطموه رضيعا له ثلاثة أشهر فى غير أوان فطمه واستعملوا بحكم الجهاد فى جنح الظلام جناح ظلمه وفجعوها بواحدها وساعدها وكدروا صفو مواردها وقطعوا عنها فلذة كبدها وأسعروا عليها جذوة كمدها وحرموه در لبنها فدر دمعها وأبعدوه عن مناغاتها ومناجاتها فوقر عن كل حديث سمعها فخرجت والهه وللحياة كارهه وللخد خادشه وللوجه خامشه معولة مولوله مذهلة مشتعلة قد شدهت ودهشت وتاهت واستوحشت قد سلب عقلها مذ سلب طفلها وغاب ذهنها مذ غاب ابنها وتكرر بالحنين والانين ترجيعها وتردد للقلوب مما فجأها وفجعها من الكروب تفجيعها وهى نائحة فى كل ناحيه نادبة فى كل ناد نادية لكل فؤاد حادية فى كل واد فلم يشعر السلطان الا بامرأة بالباب واقفه وبالنحيب هاتفه وللدموع حادرة بتصاعد أنفاسها ومن الخلق مستوحشة لذهاب استئناسها

فارضة صدرها بتقطيعها ضارعة لفقد رضيعها معولة على الطفل معولة على اللطف متنكرة من النكر متعرفة الى العرف فاحضرها السلطان وهي باكيه ونارا كتنابها اذا كبه تحدر عبراتها وتتصعد زفراتها وتتاهب حسراتها تبكي ببكائها وتشتكي من دائها وتنشد ضالتها وتطلب مهجتها وتسأل عن حشاشتها وتشتعل نار قلبها على فراشتها فلما شاهدها السلطان حريبة حزينه مسكينة مستكينه متحننة متحنتة مولعة مولهه موجعة متوجعه سمع شكواها وفهمها ورثى لبلواها ورحمها ورق بلطفه للطفل الرقيق وسلك بفضله طريق التوفيق وطلب الرضيع فقيل له انه بيع واضيع فان آخذيه باعوه بثمن بخس ولم يعرضوه في سوق بز ولا سوق نخس فمازال يبعث ويبحث عنه ويلوم باذله كيف لم يصنه حتى جيء به في قماطه وقد كاد يلف في عباءة اعتباطه فلما أبصرت واجدها ضمت عليه ساعدها ودعت وعدت وشدت يدها به وشدت فاعادها وبنواله أفادها وبردها بردروحها واساما أساء الاسى من جروحها وقروحها ورد وحها بروحها وفرع دوحها واغناها بغنائها للشكر عن نوحها وظهر سر سرورها عليها ببوحها وشيع معها من أوصلها الى موضعها وقد اجتمع شمل المرضعة بمرضعها ومارد الطفل الا بعدما اشتراه من مشتريه بثمن يرضيه وهذه نادرة من جملة أياديه

﴿ذكر انتقال السلطان الى تل العياضيه﴾

لما أصر الفرنج على مضايقة عكا في كل يوم وخطبوا امتناع منامهم في ابتياعها بكل سوم وواظبوا ركوب بحر الحرب بكل خوض وعوم ودار واحول حمى دارها بكل حوم ولم يكن بد من ركوب السلطان بالعساكر اليهم في كل بكرة وعشي وارهاب القوم بكل حدهر هوب وجد مخشي وكانت المسافة نائية والآن فهي دانيه انتقل السلطان الى تل العياضيه بعساكره وأثقاله بالكليه بالعزائم والصرائم الماضية المضيه الراضية المرضيه ولم يكن انتقاله دفعة واحده بل مهد له قاعده فان يوم الثلاثاء تاسع جمادى الاولى بلغه أن القوم قد عاودوا العوادي وردفوا من ضلالتهم الهوادي وضايقوا البلد أشد مضايقه وعالقوه أجد معالقه

فأمر الجاووش حتى نادى وباكر الغدو بالعساكر وغادى ووصل بالفارس والراجل الى الخروبة وقوى اليزك وألزم المقدمين والامراء بحفظ نوبهم الدرك وقدم جماعة من الخيل لعل العدو اذا عاين قلتها خرج بالكثرة وتورط فى العثرة فلم يشتغل بها بالاولم يلتفت اليها جنانا بل انصرف على عناده ولم يصرف نحوها عنانا واشتد على البلد زحفه واشتد عسفه فساق السلطان بالعساكر وهجم ونزل العدو الحصار وأحجم فلما جاء الظهر رجع العدو الى مخيمه والسلطان على قصد العدو الى مخيمه ولما وصل الى تل الخروبة ونزل فى خيمة لطيفة لاجله مضروبة وصل من اليزك من أخبره ان العدو لما علم انه قد انصرف عاد الى أشد ما كان فيه وزحف وانه قد أرعب وأرعف وأرهق وأرهف وألهى وألهب وألهف وأرهب وأرهج وأعجز وأزعج وثار وأثار وألحم الملحمة بناره وأنار فبعث السلطان هذا الخبر على ان بعث الى العساكر بالخيم فأعادها واستنهض الى الفريسة آسادها وأجرى فى حلبة الحمية جيادها ودعاها الى طعن يبرح بالذوابل وضرب يرغ أعطاف المناصل وأمرها من الحرب بأمرها وأدارها من مرى أخلاف الدم بأدرها ثم سار آخر ليلة الاربعاء عاشر جمادى الاولى الى تل العياضية قبالة العدو وضرب خيمته بأعلاه ظاهر العلو والعدو بالحصر والزحف مصر مصر وعلى عنائه وعناده مستمر والسلطان فى كل يوم يصابح القوم بالقتال ويماسيهم ويراوحهم ويغاديهم ويفاتحهم ويباديهم بضرب كما اشترطته حدود الظبا وطعن كما اقترحته كعوب القنا وقتل كما تمنته المنيه ورمى كما حنت اليه الحنيه هذا ومجانيق الكفر على الغى مقيمه وللرمى مديمه وبالاحجار متقاطره وعلى الاقطار ماطره وللجلاميد بالجلاميد قارعه وللصخور بالصخور قالعه وتمكن الفرنج بها من الخندق فدنوا منه دنو المحنق وشرعوا فى هجمه وأسرعوا الى طمه وداموا يرمون فيه جثث الاموات وجيف الخنازير والدواب النافقات حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ويحملون اليه موتاهم وأصحابنا فى مقابلتهم ومقاتلتهم قد اقتسموا فريقين وافترقوا قسمين ففريق يلقى من الخندق ما ألقى فيه وفريق يقارع العدو ويلاقيه

﴿ذكر وصول ملك الانكتير﴾

وفي يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور أشاع أشياع الكفر من السرور وعقدوا حبا الحبور ووصل ملك الانكتير وأظهروا انه في الجمع الكثير والجم الغفير وكانت معه من الشواني خمس وعشرون قطعه كل واحدة منها تضاهي تلعة وتوازي قلعه وأحدث في القلوب روعه وأرث في النفوس لوعه ولمعت لنا من خيامهم تلك الليلة نيران زائده وأنفاس للشرار متصاعده وألسنة للشعل نضناضه واشعة على الجو مفاضه فكأنما أوردت الجحيم لقدوم وارد نارها وأوصلت لوصول أولئك الشرار شرارها وأورت لهم أوارها وشاهدنا تلك البسيطة قد بسطت على أهل الدجا جبر الاضواء وهتكت عنها الهتك ستر ظلام ضلالهم الظلماء فعرفنا كثرتهم بكثرة نيرانهم ولما كانوا من أهل النار قامت النار ببرهانهم وأنبتهم باتيانهم واضافتهم في مكانهم وملك الملك بأمره أمرهم وأراهم ان بيده نفعهم وضرهم وملاعين الملاعين وأطال لتطاولهم أشطان الشياطين وحفر للمكايد آبارا وأثر في المكر آثارا وأرث للشر نارا وأثار لنصرة النصرانية ثارا وتحدث الناس بحادثه وحديثه وبما تأثرت القلوب به من تأثيره وتأريثه وارتابوا وارتاعوا والتاحوا والتاعوا وغدت الالسنة ترجف والقلوب تجف وكاد الباسل يجبن والباطل يخشن والحق يلين والدين يدين والسلطان قوى الجنان روى الايمان صاف يقينه واف دينه شاف نصحه كاف نجحه مسفر لعين الاسلام صبحه مسرف في قلب الكفر جرحه ماض عزمه قاض حكمه مثبت جيشه بثبات جاشه عامل لمعاده وناصر الحق في معاشه متأن في تفكره متأن في تدبره متوكل على ربه في نصرة دينه متوسل اليه في تأييده وتمكينه لا تروعه المخافات ولا تخيفه الرائعات ولا تزعزع الخطوب طود وقاره ولا تنفض النوائب ختم ذماره ولا يلين للشدائد ولا يستكين للروائع الرواعد وكم سكن الاسلام بحركاته وأخصبت الايام ببركاته ونام الانام ليقظاته وأمنت مصر والشام بنهضاته فاراعه ما عرا ومادر أعزمه لما درى ولا رد وجهه عما قصد ولا صدف رأيه عما عليه اعتمد بل ازداد قوة بصبره وازدان

بسر بره لكشف أسرار الغيب مستنيره وعمد الى السماء فاستعار من أنجمها أسنة الذبل ودلف فى الارض فوهب تربها للقسطل وأعلم ملك الانكتير ان جمع كفره للتبتير وان نشاط سره للتفتير وان أسنة أهل التوحيد مولعة من نحور أهل الاشراك بهتك الستير وركب فى مراكب حاملات المنايا الحبالى كنائبها لتحتبى أعناق العدا وطلاها وتتصل بقواطعها وقواضبها بخيل تأبى الضيم مثل آبائه ونحر مثار النقع ينوب عن لوائه ووجه كلمع البرق فى ضيائه وقلب كصدر العضب فى مضائه وأقام السلطان على هذه الحاله ساميا فى مطالع الجلاله لم ينض سلاحه ولم يخفض جناحه ولم يركز رماحه ولم يردع للروع مراحه

(ذكر غرق البطسه)

كان السلطان قد عمر فى بيروت بطسه وزادها من العدد والآلات بسطه وأودعها من كل نوع ميره وملأها غلة وذخيره وأركب فيها زهاء سبعمائة رجل مقاتلة لعكا من كل من طهر ونزكى وشكره الاسلام اذا الكفر منه تشكى فلما توسطت لجج اللجه وتورطت على نهج المحجه صادفها ملك الانكتير بحكم قضاء الله والتقدير وأحدقت بها شوانيه وعدتها عواديه وقاتلتها نصف نهار وهى لا تذعن لاقتسار فاكبت من العدو مراكب وجبت لها غوارب وأحرقت وأغرقت وهتكت وخرقت وفرقت وما فرقت وقتل من الفرنج خلق عليها وما امتدت يد عدوانهم اليها فلما يئست من سلامتها وزلت عن استقامتها وانحلت عرى وثاقها وانحطت ذرى اعتلائها واعتلاقها ومالت الى الاستسلام وجالت على الاصطلام قال مقدمها علام نسلمها والموت بالعز خير لنا من الحياة بالذل والشح بالدين أحب الينا من البذل فنزل الى البطسة تخرقها ومانع عنها حتى أغرقها وسعد أهلها وافترقت وسيجتمع فى دار النعيم شملها ووصل الينا خبرها اليوم السادس عشر من جمادى الاولى فقلنا الدهر يومان نعمى وبؤسى ومابرح الان على ذلك حتى يزولا وكانت هذه الواقعة أولى حادثة للوهن محدثه وللهم مورثه وللنار الاسى مؤرثه

(ذكر حريق الدبابة)

وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة قد أظهرت لها في الشر غائلة ولها أربع طباق شدها على الارتباط باق ولها من الاحكام باس ولباس وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس وقربوها الى أن بقيت بينها وبين البلد أذرع خمس وفي طباقها سباع ضوار وذئاب طلس وبلي البلد منها بكل بلية ورزي بكل رزية وكانت هذه الدبابة على العجل ليقربوا بتقريبها أسباب الاجل فباتت القلوب منها على الوجل وكاد أصحابنا يطلبون الامان وخضع كل أبي واستكان فقارعوا عندها أشد قراع وصاعوا أجد مصاع وتوالت عليها من مساعير الرهط قوارير النفط وهي تضرب في حديد بارد وتضرب عن كل شيطان مارد وتنبو عن الاحراق وتنبي عن الاخفاق حتى بدرت قارورة انقضت على شيطانها كالشهاب فأخذت الدبابة وقلوبهم قبل جسومهم في الالتهاب فعوذناها بسورة والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى نجاء من انقلاب القارورة قرار القلوب ومن حر أنفاسها برد النفوس وكشف شعاعها ظلم الكروب ونزعت بشاشتها عن الوجوه لبوس العبوس وأنارت نارها لنا بكل نور ولهم ببوار قوم بور ودبت شعلها في أضلاع الدبابة وجنوبها فأحرقها الله احراق أهلها بذنوبها وكما أضاءت الآفاق بنيرانها أظلمت بدخانها فجلت لنا بياض النصر في السواد فكأنه سواد الناظر أو سويداء الفؤاد بل سواد المداد يأتي من أنواره بالامداد فجلا حريق هذه الدبابة صدأ قلوبنا المغتمة بالبطسة الغريقة وأحمت نارها في حمايه الحق حمية حماة الحقيقة فانما احترقت الدبابة يوم وصول خبر غرق البطسة فكان تشميتنا لتلك العطسة

﴿ذكر وقعات في هذا الشهر﴾

كانت العلامة بيننا وبين أصحابنا في عكاء عند زحف العدو دق الكوس حتى اذا سمعناه جددنا في الزحف الى العدو بالنفائس والنفوس ولما أصبحنا يوم السبت التاسع عشر من الشهر سمعنا من كوس البلد نعراته ونظرنا من جانب العدو مثار غبراته فعلمنا زحفه وعملنا في حتفه وضرب الكوس السلطاني اصراخا لصراخ ذلك الكوس فتمايلت أعطاف ذوي الحمية من حميا العزائم لا من حميا الكؤس

وركب السلطان فى كل مشمر للبرد مضمر للعرد فضفاض السرد قضقاض كالاسد الورد مشتاق الى الطرد ملتاح من ماء الوريد الى الورد من الترك والاكاديش والعرب والكرد يهوى الى الاقران هوى المصلتات الى الرقاب ويظمأ الى ارواء الاسل الظماء فيطيل صدى الخيل العراب وكل عمل كأنه نزيف الحميا بعيد السماء من الارض بركضه شاحبة المحيا وكل ضرب تكاد تفيض مضارب نصله من خفة الطرب لولا وقاره وكل طلاع مع النوب لا ينام ثاره ولا يثبت فى الجفن غراره وكل منصلت ينير فى ظلام العجاج بنجوم الاسنة وكل مطرد يعيم السوابح السوابق فى بحور الاعنه وكل رام فروج المأزق حتى تفرى بأيدى المذاكى وكل شاك فى السلاح مشكور فى اشكاء الحق الشاكى وكل مصمم مصمم دروعه غير محقبه وسهامه غير مجعبه وسيوفه غير مقربه وقبابه لمداومة اجراء قبه غير مضروبه وسار السلطان وقد اسودت لوقع السنابك جوانب جحفله وابيضت بلمع الترائك مذاهب قسطله واشتبهت فى النقع الوان خيله وامتدت الى قرار اللقاء أعناق سيله فكأنما غارت الشمس من شموس شمسه فتوارت بالحجاب وعدا النقع فى وبل النبل من حساب السحاب وولجت العساكر عليهم فى خيامهم وحملت ليالى القتام الى أيامهم وغالت الصدور عافيها حتى وصلوا الى القدور على أثافيها وهتكوا وفتكوا وأدركوا وسفكوا فتراجع الفرنج وأصطفوا على خنادقهم ووقفوا بقنطارياتهم وطوارقهم واجتمع عسكرنا لملهم يحمون ويحملون ويعلون من دمائهم وينهلون ودخل الظهر وحمى الحر فافترق الفريقان وتراجع الى خيامهم الجمعان

((وقعة أخرى))

وفى يوم الاثنين الثالث والعشرين من الشهر ضايق أهل الكفر البلد على الحصر وكانت الوقعة بالوقعة السابقة شبيهه وكانت من أشدها واجدها كريهة غير انه فى هذه النوبة عرضت نبوه وكادت تتم كبوه فان الفرنج لما تراجعوا عن البلد وجدوا فئة من عسكرنا داخل خنادقهم فحملوا عليها بسباق رجلهم وراكبى سوابقهم فانتشب الحرب واشتجر الطعن والضرب وكثرت الجراحات وكرثت

الاجتراحات واستشهد ممن عرف من المسلمين اثنان تسلمهما رضوان الى الجنان وقتل من المشركين جماعة أسرع بهم مالك الى النيران

ومن عجائب هذه الوقعه أن رجلا من مازندران من أهل الرفعه وصل فى تلك الساعة وافدا واستأذن وقت السلام على السلطان ان يقدم مجاهدا فحين شهد الوقعة استشهد فلقى الله بعهده كما عهد

(وقعة أخرى)

وفى يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر خرج العدو فارسا وراجلا ورامحا ونابلا وامتدوا من جانب البحر اطلابا وتحزبوا فى ذلك الفضاء أحزابا وركب السلطان من مجالس عادته الى مجال سعادته موفقا ان اداء عبادته فى ابارة العدو وابادته وتقدمت المقدمة وأقدمت وحمت نار اقدامها وما أحجمت ومازالت نجوم النصول تنقض وختوم النحور تنفض وعيون العيون ترفض وديون الذحول وحقوق الحقود تقتضى وابكار الدروع بحدود الذكور تفتض فى شعواء حضرها الشباب الغائب ونكباء لها من الذوابل ذوائب وبحر تسبح فيه السوابح وشرب بكأس المنية منها المهج غوابق صوابح وغبراء أساود نبالها تواثب عن عقارب القسى وثعالب لهاذم صعادها تتلاعب فى أراقم السمهرى وذباب ظباها تطن فى مسامع الذئاب وعقبان راياتها تحلق الى مطالع السحاب وغدران سوابغها تفيض عليها جداول القواضب وغربان سوابقها تغيض فى غطامط الغياهب وأرواح اغمادها البارية عن الاجسام بريه وقلوب آسادها الضارية على الردى جريه حتى دخل على لبس النقع الليل وجرى من ديمة الدم السيل والتفت لما التفت بالخيل الخيل وأفرج المأزق عن قتلى جر عليها من السوافى الذيل واستشهد من المسلمين بدوى وكردى ولكم وقع من المشركين رددى له فى الهاوية هوى وعليه من زفير جهنم دوى وأسر من العدو فارس بفرسه ولأمته وقونسه وتفرق الفريقان عن المعترك عند معتكر الدجى وقد عم من الشجب ما شجا

(وقعة أخرى)

وأصبح العدو يوم الاحد التاسع والعشرين وقد أخرج من جانب النهر راجلا في عدد رمل يبرين بقواطع بيرين وقواضب بفرين وطوالع غروب في الطلى بغربين و بالردى بغربين وانتشروا ممتدين وامتدوا منتشرين فلقيهم البزل بكل من يزكيه عند شهوده مضاء كالقضاء و يوافقه القضاء في المضاء وكل ممتقل للردينى أخف الى الوغى من سنانه وكل مشتمل للمشرفى خضيب الغرار ريانه وكل ملتثم بعثير حصانه معتنق لعطف مرانه وكل صبح كالصباح نضارة وجهه فى شعوبه مدفونه وكل قارح على قارح شرارة عزمه فى سكونه مكنونه وامتد راجلنا امامهم وأثبتوا اقدامهم اقدامهم وطال القتال وطارت النبال وحاضت الذكور وفاض التامور وأعمى العثير وعم العثور وأسروا منا واحدا فاحرقوه فصعب نوره بين يديه الى دار القرار وأسرنا منهم واحدا فاحرقناه فشبت به تلك النار الى النار وشاهدنا النارين فى حالة واحدة تشتعلان والصفان واقفان يقتتلان

وفي يوم السبت الماضى هرب خادمان ذكرا أنهما لاخت ملك الانكتير وانهما كانا يكتمان اسلامهما فى سر الضمير وأخبرا انها زوجة صاحب صقلية فلما هلك صادفت فى الاجتياز بها أخاها هذا الملك فألزمها بأن تتبعه واستصحبها معه وقد راما النجاة من تلك الفاجره لنجاة الآخره فاكرم السلطان وفادتهما وأجزل بالاحسان افادتهما

((ذكر المركيس ومفارقته القوم ووصف السبب فى ذلك))

وفى الاثنين انسلاخ الشهر ذكر عن المرقيس انه هرب الى صور وانه كشف للجماعة المستور ونزلوا وراءه قسوسا وألقوا عليه من الضلالة فى الاستمالة دروسا فنبا قبوله وانقطع وصوله وكان سبب نفاره وموجب استشعاره ان هنفرى كانت زوجته ابنة الملك الذى هلك والقدس فى يده وعادتهم انه اذا مات ملك ينتقل ملكه الى ولده وسواء فى هذا الميراث بين الذكور والاناث فيكون الملك بعد الابن اذا لم يخلف ابنا للكبرى فاذا توفيت عن غير عقب كان للصغرى وكان الملك العتيق كى أخذ الملك بسبب زوجته الملكه فعزلوه عن الملك لما

احتوت عليها يد الهلكه وبقيت هذه زوجة هنفرى فأصبح المركيس عليه يجترى ويقول لست من أهل الملك لتكون الملكة لك زوجه ولا بدلى من تقويم هذا الامر حتى لا أبقى فيه عوجه وغصبها منه وصرفها عنه واتخذها له عروسا وأحضر لنكاحها قسوسا وقيل انها كانت حبلى ولم تخرج من حبالة الحبل فاشغلتهم حرمة الرحم المشتغل وادعى المركيس ان الملك انتقل بها اليه وان أمر الفرنج بشرعهم فى يديه فلما جاء ملك الانكتير تظلم اليه هنفرى والملك العتيق فانفتح بذلك له الى مؤاخذة المركيس الطريق فاستشعر المركيس منه وما قر وأخذ معه الملكة وفر

(ذكر من وصل فى هذا التاريخ من العساكر الاسلامية)

وفى يوم الاثنين انسلاخ جمادى الاولى قدم عسكر سنجار وقد سد بسواد عديده النهار وأفاض ببياض حديده الانوار ومقدمه مجاهد الدين برنقش الشهم الشديد والسهم السديد والالمعى اللوذعى والكميش الكمى والنقاب النقى والعف التقى وهو ذو همة فى الغزو عاليه وعزمة بالمضاء المضى حاليه وقيمة فى سوم السلطان لقربه غاليه وسريرة خالصة صافية من الكدر خاليه وأكرمه السلطان فى استقباله بنفسه واقباله عليه بأنسه وسار بعسكره الى أن وقف تجاه العدو من جانب البحر بما يلى الذيب وقد أحسن فى عرضه التدبير والترتيب ثم عاد فى خدمة السلطان مكرما الى جنبه مقدما على صحبه فأنزله فى خيمته وخصه بواكرامه وتقدم اليه بالنزول فى ميسرته وفى (يوم الاربعاء) ثانى جمادى الآخره وصل جماعة من عسكر مصر والقاهره بالعدة الوافرة والقوة الظاهره مثل علم الدين كرجى الذى يسرع الى لقاء أقرانه ولا يرجى وكسيف الدين سنقر الدووى ذى الزند الورى والسيف الروى وأمثالهما من المماليك الناصريه والمساعير الاسديه أسد العرين الشم العرانين الغر الميامين (وفى عصر هذا اليوم) وصل علاء الدين بن صاحب الموصل الى الخروبة ونزل بها ليصل بكرة الى المعسكر بالعساكر فى أحسن أهبها فركب السلطان اليه ولقيه وعاد وكمل لكرامته وضيافته الاستعداد وأصبح يوم الخميس فى خيمه سائرا

بأستاده فى عربه مقبلا بكل فارس من جيشه فارس من خببه فى غاب كأنهم أجادل والجياد مراقبها وخيل كأنها الظلماء والسنابك كواكبها ونقع كأنه الآنى والمقربات قواربه وبحر تصادم منا كب الآكام منا كبه وتملأ الوهاد طوالعه وغواربه عاريات غروبه عاليات غواربه ثقال مذا كبه بأعباء عواليه كأنما نهضت لاذكاء نار الهياج حواطبه وعبرت علينا كتائبه وأعربت عن مناقبه مقانبه وتلقاه من أولاد السلطان الملك المعز فتح الدين اسحق وهو من جلتهم البحر بل الغيداق والملك المؤيد نجم الدين مسعود وهو كاسمه مسعود مجدود وتلقاه الامراء والعظماء والخواص والاولياء وساق على تعبيته واجابته دعوة الاسلام وتلبيته الى جانب البحر ليرعب أهل الكفر وعرض وتعرض وعلم العدو بأنه اليه نهض واستنهض ولما انفصل السلطان أخذه معه الى خيمته وأحضر له أسباب تكرمته وآنسه بانبساطه ونظمه مع أصحابه فى سمط سماطه وأجلسه الى جنبه وعقد له حباحبه وخصه بخلع وثياب وحصن عراب وما يليق به من كل باب وانصرف عنه ونزل على ميمنته نزوله عام أول فى منزلته (وفى يوم الجمعة) رابع جمادى الآخرة وردت من مصر كتيبة ثانية صارفة أعنة خيلها الى الجهاد ثانية ساطية على الكفر بأسها جانيه وقد علمت الوقائع انها الثمرات اليانعة من ورق الحديد الاخضر جانيه فما نزلت حتى عرضت على العدو مقانبها وأبرزت لعينه قناها وقواضبها وأرت برسل المنية اليه قسيها ثم جاءت وألقت بمضاربها عصيها وكانت العسا كر تتوارد والجموع تتوافد

﴿ذكر ضعف البلد﴾

والفرنج قد ضايقوا البلد مضايقة آيست منه وأسلت القلوب عنه والمجانيق قد رمت شرافاته ومحت اليها بآفاته وأعادت جوانبه مهدومه ونواجذه مهتومه وانحطت عنه بمقدار قامه فلم يتمكن أحد عليه من اقامه وضعف البلد والجلد وخلا بالهم عليه الخلد وقد حفظ القوم من جانبنا خنادقهم ووكلوا بها قبالتهم ونحن لا نألوا فى الجهاد جهدا ولا نترك جدا ولا نجد من

مضايقتهم بكل نوع بدا وجاء الخبر ان ملك الانكتير قد أشفى من المرض وأشرف من المضض حتى حلق رأسه حلق لحيته واستلق لانتظار منيته فتثبط الفرنج وتثبتوا وسكنوا وسكتوا الى أن يركب فيركبوا ويثب فيثبوا وكان فى هذه الفترة للبلاد بقاء رمق وزوال فرق وانتعاش عثره وانجبار كسره وانطفاء جمره وانسداد ثغره

(فصل من كتاب الى صاحب الموصل فى شكر وصول ولده ووصف الحال فى ضعف البلد)

قدم علاء الدين دام علاؤه فى مقدمى الجنود الانجاد ووقف اجتهاده على موقف الجهاد وما أكرمه قادما فى المقام الكريم وعظيما خاطبا دفاع الخطب العظيم ووصل فوصل جناح النجاح وأنشر الصدور بما صدر به لها من نشر الانشراح وجاء والكريهة ذاهبة بالارواح والحرب ساقية طلاء الطلى فى صحاف الصفاح وقد برزت بنات الاغماد الذكور على أكفاء الكفاح لنكاح الهام بالسفاح وشارك فى الجهاد وشد الازر وسدد الامر وآزر وعضد وظاهر وأسعد ولا خفاء عن العلم بحال الفرنج فى هذه السنة واجتماع ملوكهم وكثرتهم وتوافد أمداد حشودهم وقد استشرى شرهم واستضرى ضرهم وأعضل خطبهم واستفحل أمرهم واشتغلوا منذ وصلوا بنصب منجنيقات وتركيب آلات ودبابات وزحفوا الى بلد عكا بجمعهم وقد دوا بجمرهم وأخذوا فيه نقوبا وحكموا فى الاسوار من الاسوار بضرب المجانيق ضروبا والثغر الآن قد أشرف والعدو قد أسرف وكلما زحف الى الثغر زحفت العساكر الاسلامية اليه وهجمت عليه والعدو بخندقه محتجز وفرصة الغفلة عنه منتهز ومن هجوم الموت عليه فى مجثمه محترز ولم يبق الا أن يتدارك الله الثغر بلطفه ويجريه على المعروف من عادة نصره وعرفه والمجاهدون فيه قد هانت عليهم المهج ووضح لهم فى ثبات جنانهم المنهج وفى كل يوم يسدون بأشلاء لهاجين عليهم الثلم ويجلون عنهم عجاجة؟ ..بونه من نيران

الخطب الاظلم والعدو قد لج والحديد من قرع الحديد قد ضج والبلد مشف والبلاء عليه موف والمأمول من الله أن يأتى من نصره بما ليس فى الحساب وأن يعيد ما جمح من أمر الاصحاب الى الاصحاب ويكفى هذه النوبة الصعبة فهو كافى النوب الصعاب

(فصل فى وصف عسكر عماد الدين)

وصلت العساكر التى وفت بعدتها المناجده ووافت بعدتها المنى جده واقبلت اقبال الآساد فى عرين الوشيج وماجت موج البحار فى غدير الزغف النسيج واستهلت استهلال الرواعد البوارق وألمت بالعدا المام العوادى الطوارق ولقد جاءت فى وقتها منجدة من جده موجدة للانتقام من الكفر بكل موجده واستظهر الاسلام بظهورها وسفرت وجوه النصر بسفورها فاحجم الكفر باقدامها وانتظمت أحداق المشركين فى عقود سهامها وخيمت مضارب المضاء بمضارب خيامها وفض بالقضاء ختام قتامها وما أشكر الدين والاسلام لعزائم عماده وغياثه وأبعث أمداد الظفر لاهتزاز نصل نصره وانبعاثه

(فصل فى الاستنفار)

قد عرف أن العدو قد احتشد بجميع ملوكه وغصت مسالكه وطرقه بطوارق سلوكه وهو حديد الشوكه شديد الشكه قد لج فى حصر الثغر ونصب آلاته وركب عليه منجنيقاته ووالى الضروب من الضرب وأخذ منه مواضع فى النقب وقد أشفى على خطر عظيم وخطب جسيم واذا لم يصل فى هذا الوقت فتى ومن أتى فى غير الوقت المحتاج اليه فما أتى وهذا أوان رفض التوانى ونهوض المسلمين من الاقاصى والادانى والوصول بكل ما يقدر عليه من العسكر والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الاظهر والجد الاوفر وهذا يوم الحاجة وأوان الضروره والنهوض بعسكره الى نصرة عساكرنا المنصوره ولا يجنح الى عذر فلا اعذار أوقات ولا يلتفت الى غير هذا المهم الذى ليس للمسلمين اليه سواه التفات وكيف يتأخر عن هذا الموقف الكريم وهو كريم ويتقاعد عن هذا المقام العظيم وهو عظيم

(ذكر خروج رسل الافرنج)

كان قد خرج منذ أيام رسول وسأل أن يكون له الى السلطان وصول فاجتمع به
الملك العادل والافضل وقالا له لا يمكن لقاء السلطان لكل من يرسل وما كل
مقصود عليه يعرض ليعلم فى الاول هل هو مما يقبل أو عنه يعرض فاعلمهما الحال
وعرفهما ما سبب الارسال فاحضراه بالنادى السلطانى فمثل بين يديه وأوصل
تحية ملك الانكتير اليه وقال هو يؤثر بك الاجتماع ويطلب بك الاستماع فان
أعطيته أمانا خرج اليك وأورد مقصوده عليك أو شئت كان الاجتماع بنا فى
المرج خاليين من مقتضيات الحرج وكلانا عن عسكره منفرد ولحديثه فى
الخلوة مورد فاجابه السلطان وقال اذا اجتمعنا فهو لا يفهم بلسانى وأنا لا أفهم
بلسانه ونحيل بالبيان على ترجمانى وترجمانه فيكون ذلك الترجمان رسولا
فلعله يرد برسول ويصدر رسولا فلما لج فى الطلب وألح فى الارب استقر أن يكون
الحديث مع الملك العادل وان تنجع من عنده وسائل الرسائل ودخل وقد أخذ
أمانا وانقطع بعد ذلك زمانا فشاع عندنا أن ملوكهم منعوه ومن ركوب الخطر
فزعوه فانفذ ملك الانكتير رسوله بعد أيام ينكر ما شاع من تأمر الفرنج عليه
وأحكام وقال الامور مفوضة الى وأنا أحكم ولا يحكم على وانما تأخرت بسبب
مرض عرض فأفاتنى الغرض ثم قال الرسول من عادات الملوك المهاداه وأن
دامت بينهم الحرب والمعاداه وعند الملك ما يصلح للسلطان فهل تأذنون فى حمله
وقبوله وأخذه من يد رسوله فقال الملك العادل نقبل الهدية بشرط المجازاه
واستدامة المكافأة والموازاه فقال عندنا بزاة وجوارح قد لقيتها فى سفر البحر
جوائح وقد ضعفت فهى طلائح روازح ونريد طيرا ودجاجا تصلح لطعمها فاذا
استوت حملناها الهدية على رسمها فقال العادل لا شك أن الملك مريض وقد احتاج
الى دجاج وفراريج ونحن نحمل له منها كل ما اليه احتيج فلا تجعل حاجة طعم
البزاة فى طلبها حجه واسلك غير هذه المحجة محجه وانفصل حديث الرساله على قول
الرسول هل لكم حديث نقلناه أنتم طلبتمونا لا نحن طلبناكم وما لنا معكم حديث
قديم ولا حديث ثم انقطع حديث الرسالة الى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة
فخرج من عند الملك فى الرسالة مقدم ومعه أسير مغربى مسلم وأحضره على سبيل

الهديه وأوصل الى السلطان ماحمل من التحيه فشرفه بخلعته واعتمد له بهديته ثم خرج يوم الخميس تاسع الشهر رسل ثلاثه وما كانت رسالتهم تسفر عن مقصود بل فيها رثاثه وغثاثه وهؤلاء طلبوا للملك فاكهة وثلجا ولم يسلكوا فى غير هذه الحاجة نهجا فأكرمهم السلطان بما سألوا ووفر لهم منه ما حملوا وسألوا أن يتفرجوا فى الاسواق ففسح لهم فيه على الاطلاق

(ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر)

وكان غرض الفرنج من تكرير الرسالات تفتير العزمات وهم مشتغلون بموالاة الرمى بالمنجنيقات وتسوية المنصوبات وتعبية الآلات وتعديل العرادات وتثقيل الجارات حتى تخلخل السور وحان انهدامه وتخلل وبان انثلامه وتزعزت أركانه وتضعضعت أبدانه وكاد يهى ليهوى ولا يبقى ولا يقوى كى يثوى وأهل المدينة قد كثر تعبهم لكثرة النوب ولقلة العدد والجرح ناتئ والسهر ناهك والعمل دائم والخال لازم والقلوب قلقه والظنون مخفقه والمتاعب شاقه والمشاق متعبه والاحوال متصعبه والاهوال مرهبه وكانت فى البلد منجنيقات تنصب وتفيض بها قوى الرجال وتنصب فلما اشتد الزحف وزاد الضعف احتاجوا الى رجال المنجنيق للمقاتله والتناوب على المنازله وهنالك ظهر أن العدد لا يفى ولا يفى وان القليل لا يكفى ولا يكفى وان خروج من كان فى البلد لاجل دخول البدل لم يكن صوابا وان تقصير النواب ابتداء فى الاعطاء جاب فى الانتهاء اعطابا ولما علم السلطان سابع جمادى الآخرة يوم الثلاثاء بما عليه البلد من غلبة البلاء زحف بعسكره ولج حتى ولج خنادقهم وطرق اليهم بوائقهم ونهب من خيامهم ما طرف وأسرف فى ارجافهم بما أشرف وحمل الملك العادل بنفسه مرارا وأجرى من الدم أنهارا وأراهم بالنقع النهار ليلا وبالبيض الليل نهارا وأمسى السلطان تلك الليلة شاهدا لم يذق طعاما ولم يستطب مناما ثم أمر بدق الكوس سحرا حتى عادت العساكر الى الركوب والقساور الى الوثوب والفوارس الى الفرس والانداب الى الندوب وأعادت الى الطلوع غروبها بعد الغروب بكل من يلقى الجيوش على الجيوش ويرمى الوحوش

على الوحوش ويرعف الصدور بصدور الرواعف ويبشر بالامن عن مواقفه المخاوف وكل من للضرب فى جبينه شامه وللطعن فى جنبيه علامه على خيل كامثال القنا تحمل القنا وضمر كالحنايا تهوى هوى السهام الى الوغى

فى غداة صباحها فى حداد * نسجتها أيدى المطهمة القب

وظلام يجلوه بريق اليمانية القضب فجرى ذلك اليوم من القتال أشد مما كان أمس واتصل من طلوع الفجر الى غروب الشمس

وفى هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة مضمونها أن العجز بلغ بهم الى غايته وانتهى الضعف بهم الى نهايته ولم يبق الا تسليم البلدان لم تعملوا شيأ ولم تنجعوا فى الذب عنه سعيا فضقنا بهذا الكتاب ذرعا وقلنا لا حول ولا قوة الا بالله لا نملك لانفسنا ضرا ولا نفعا والسلطان من هذا فى أمر عظيم وهم مقعد مقيم وهو مجتهد فى بذل وسعه سائل من الله لطف صنعه معاود الى الحرب فى كل صباح طائر الى اللقاء بجناح كل نجاح وفى هذا يوم الاربعاء بعث العساكر على اللقاء ودخل راجلنا الى خنادقهم وخالطوهم وتقابضوا على بسيطة واحدة وباسطوهم وذكر أنه وقف فى ثغرة من تلك الثغر افرنجى كانه جنى مستشيط للشيطان نجى وهو يدافع ويمانع ويكافح على تلك الثغرة ويقارع فاتخذ طارقته لجسمه سدا وصار لسهام المنيه هدفا وهو كانه مما نشب فيه النشاب القنفذ وتلك السهام من لبس الحديد لا تنفذ فلم يزل واقفا الى أن أحرقه بقارورة النفط زراق فاسى وهو حراق ووقفت أيضا امرأة بقوس من الخشب ترمى وتدمى اصماءها وتدمى فلم تزل تقاتل حتى قتلت والى سقر انتقلت

(ذكر خروج سيف الدين على المشطوب الى ملك الافرنسيس)

ولما تمكن الفرنج وتكاثروا على عكاء من جانب وعروه بكل نائب وقل أصحابنا فيها لكثرة من استشهد وجرح وقلة البدل الذى كان قد اقترح ونقب العدو الباشورة حتى وقعت منها بدنه وزادت المخافة فلم يبق معها أمنه . خرج المشطوب الى ملك الافرنسيس بأمان وحضر عنده بترجمان وقال له قد علمتم ما عاملنا كم به عند أخذ بلادكم من النزول عند طلب أهلها الامان على مرادكم وانا كنا

تؤمنهم ومن المسير الى مأمنهم نمكنهم ونحن نسلم اليك البلد على أن تعطينا الامان ونسلم واذا فعلت هذا فقد حزت المغنم فقال ان أولئك الملوك كانوا عبيدى وأنتم اليوم مماليكى وعبيدى فارى فيكم رأيى من وعدى ووعيدى فقام المشطوب من عنده مغتاظا ولم يلبث لحظه وأغلظ له فى القول عملا بقول الله تعالى وليجدوا فيكم غلظه وقال نحن لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا فيكون مصرعكم قبل مصرعنا ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسين ومتى عرف أن الاسد يسلم العرين

﴿ذكر هرب جماعة من الامراء والاجناد من البلد﴾

ولما عرف رجوع المشطوب ولم يظفر بالغرض المطلوب قال جماعة من الامراء قد ضجروا وابهاهم فيه من التعب والعناء هذا الامير الكبير والمستشار والمشير قد اشتغل باله فواه ماباله وعمرو ابركوسا ورأوا فى هربهم رأيا منكوسا وربما فى دار البقاء مجنوسا وذلك ليلة الخميس التاسع وقربوا عليهم الامر الشاسع وجاؤا الى العسكر مختفين ومن رفقائهم فى نسب الوفاء والوفاق منتفين فنمى الى السلطان الخبر بهرب الجماعه وانهم خرجوا الله وله عن الطاعه وانهم جبنوا عن بذل الاستطاعه وخفض واعنهم صيت الشجاعه وأبدلوا الاضاءة بالظلمة والحفظ بالاضاعه وكان فيهم من الامراء المعروفين وذوى الشهامة الموصوفين عز الدين أرسل وهو الذى كان المثل بشهامته يرسل وحسام الدين تمرتاش بن جاولى وهو شاب أول ما توفى والده وجاولى وسنقر الوشاقى من الاسدية الاكابر ومقدمى العساكر وكل منهم محفوظ بالاقطاع الوافر فقطع السلطان اقطاعاتهم وأقطعها وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهه ومنعها واستعاد أرسل بالاسدية ثم بالملك الافضل المفضل المؤمل وتوسل ابن جاولى بالملك العادل وكلهم توسل بفضل الاجل الفاضل فلم تعد معيشتهم ولم تعذب عيشتهم وعادوا ممقوتين وبحدود ألسن الذم منعوتين وبضعف القلب وقوة النفور منعوتين وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبى نقيب الجاندارية الناصرية ومقدمها فشفع فيه على أنه يضمن على نفسه العودة ويلتزمها فعاد

فى ليلته وأسقط عنه المذمة بأوبته ووقع بعد ذلك فى الاسار واستفكه السلطان بعد سنة بثمانمائة دينار

((فصل من كتاب الى مظفر الدين صاحب اربل فى المعنى ووصف الحال))

قد سبقت مكاتبتنا اليه بشرح الاحوال وما نحن عليه من رجاء النصر الذى هو متعلق الآمال وان ملوك الفرنج بجموعهم قد وصلوا ونازلوا الثغر واحتفلوا والآن فان منجنيقاتهم هدته بكثرة الضرب وكثرت ثلم السور فى مواضع النقب وعظم الخطب واشتدت الحرب وأشفى البلد وأشرف واشتفى العدو عافيه أسرف ولما لج العدو فى الزحف واستسهل فى التطرق الى البلد طريق الحتف ركبنا فى عسكرنا اليه وهجمنا عليه لكنه بسوره وخندقه محتم والى مطمعه البعيد من أمره مترتم ولما عاين أصحابنا بالبلد ما عليه من الخطر وانهم قد أشفوا على الغرر فر من جماعة الامراء من قل بالله وثوقه وأعمى قلبه فجوره وفسوقه ولقد خانوا المسلمين فى ثغرهم وباؤا بوبال غدرهم وما قوى طمع العدو فى البلد الا هربهم وما أرهب قلوب الباقين من مقاتلته الا رهبهم والمقيمون من أصحابنا الكرام قد استحلوا مر الحمام وأجمعوا أنهم لا يسلمون حتى يقتلوا من الاعداء أضعاف أعدادهم وانهم يبذلون فى صون ثغرهم غاية اجتهادهم وكانوا قد تحدثوا مع الفرنج فى التسليم فاشتطوا واشترطوا فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم فى القوم وبسطوا فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب والله تعالى يسهل تنفيس ما هم فيه من المكروب ونحن وان كنا للقوم مضايقين وبهم محدقين وعلى جموعهم من الجوانب متفرقين فانهم يقاتلوننا من وراء جدار ويعلمون أنهم ان خرجوا الينا فى تبار والهجوم على جمعهم مستصعب ممتنع والعسكر على مركزهم منا ألف مجتمع ولله قدر لا يرد وقضاء لا يصد وسر لا يشارك فى علمه وأمر لا يغالب فى حكمه وعلى الله قصد السبيل ونجح التأميل وتدقيق ألطافه فى دفع الخطب الجليل وما توفيقنا الا بالله وعليه توكلنا وهو نعم الوكيل

((ذكر ما جرى من الحال))

وفي ذلك اليوم وهو الخميس زحف الخميس وحمي الوطيس وتحرك بالضراغم الخيس واسود الجو وانسد الضو وانقضت القضب انقضاض الشهب واشتبهت الدهم والكمت بالشقر والشهب واختضبت البيض وتألق من بوارقها الوميض ورقصت قدود السمر على غناء الصواهل وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل فللدروع من الضرب قعاقع وللعواصف الالوية زعازع ولغربان الرماح نعيب ولغران المقربات لتقريب النصر البعيد تقريب ولحريق الظبا معمعه ولرحى الحرب الزبون جعجعه واللاحقات سابقة ولاحقه والسمر بحبات راعدة وبارقه وشموس الترائك على بدور الاتراك شارقه ونبال النبل من عيون أعيان الكفر مارقه وأيدي الاسنة هاتكة لحرز النحور سارقه وثعالب الاسل في لبة الاسد ضابحه وشاوي الملدان من نجيع الاقران غابقة صابحه في رايات يحاذيها ذراع الفلك فتفود عقبانها العقبان وصفاح صفاحها شعاع الشمس فيكسو لجينها العقيان وتقدم السلطان الى الامراء فترجلوا ونازلوا حين نزلوا وهجموا على الضراغم في آجامها واحوجوها بحد الاقدام الى احجامها ونصب صارم الدين قايماز النجمي علمه على سور الفرنج بيده ووقف عنده بجلاده وجلده ووصل في ذلك اليوم عز الدين جورديك ومعه من النورية المماليك فترجل وقاتل وأبلى وأضرم نار الوغى وأصلى وما ترك من جهده شيأ ولا خلى وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد منتظرا النجح الامل البعيد فقد كنا تواعدنا مع أهل البلد انهم يخرجون تحت الليل رجالة وعلى الخيل ويسرون بأجمعهم على جانب البحر مسرى السيل ويذبون عن أنفسهم بسيوفهم وينجون بأنفسهم وعز أنوفهم ولو صح هذا الموعد لنجح المقصد لكن الفرنج اطلعوا على السر فاضطلعوا بالشر وحرسوا الجوانب والابواب وارتابوا بما أراب وكان سبب علمهم اثنان من غلمان نهاربين خرجا الى الملاعين واخبراهم بجلية الحال وعزيمة الرجال وأصبح العسكر يوم الجمعة العاشر وقد جمع من الخيل والرجل المعاشر واقفة على ترتيبه صفوفه مرهفة على عدوه أسنته وسيوفه ودام ذلك اليوم على التعبية وقوفه ولم يتحرك من القوم ساكن

ولم يظهر من العدو كامن بل خرج ثلاثة من الرسل واجتمعوا بالملك العادل فعادوا بعد ساعات ولم يفصلوا قصما من أقسام الرسائل وانقضى النهار والعسكر بالعدو المحيط بالبلد محيط ولاذى مقامه عقامه محيط وبتنا على تلك الحاله وأهل الهدى مراصدون لاهل الضلاله وأصبحنا يوم السبت وقد ركبت الافرنجيه وتدرعت وتحزبت وتجمعت حتى ظننا أنهم على عزم اللقاء فهاجت العزائم منا الى الهيجاء وخرج من بابهم أربعون فارسا ووقفوا واستوقفوا واستدعوا بعض المماليك الناصريه فلما عطف اليهم اليه عطفوا وأخبروه أن الخارج صاحب صيدا فى أصحابه وهو يستدعى نجيب الدين أبا محمد العدل لخطابه وهذا العدل من أمناء السلطان وقد أنس الفرنج به لتردده فى الرسالات نحوهم فى سالف الازمان فلما حضر أرسله الى السلطان ليتحدث فى خروج من بعكاء بأنفسهم بحكم الامان وطلبوا فى مقابلة ذلك مالا يدخل تحت الامكان وزادوا فى الاشتطاط وتناهوا فى الاشتراط فانفذ السلطان الملكين العادل والافضل ليفصلا المجمل ويجملا اذا احز المفصل فتردد العدل مرارا ووجدتهم على الاضرار اصرارا ولم تقر قاعده ولم تظهر فائده وانفصلوا على غير قرار وعادوا والامر بغير امرار

(ذكر جماعة من العسكرية وصلوا)

فى يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر وصل سابق الدين صاحب شيزر وفى يوم الاربعاء بدر الدين أيوب بن كنان وقد حشد وحشر وفى يوم الخميس أسد الدين شيركوه وقد أبهج بقدومه العسكر وفى هذا التاريخ ضعف البلد وعجز من فيه ضعفا لايمكن تلافيه ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم وباشروا الاسنة المشرعة اليهم بنحورهم وشرعوا فى بناء سور يقطع جانبا حتى ينتقلوا اليه اذا شاهدوا العدو غالبا

(ذكر ماطلبه الفرنج فى المصالحة على البلد)

وكانوا اشترطوا اعادة جميع البلاد واطلاق أسارهم من الاقياد فبذل لهم تسليم عكاء بما فيها دون من فيها فلم يفعلوا وبذل لهم فى مقابلة كل شخص أسير فلم

يقبلوا وسمح لهم برد صليب الصلبوت اليهم فانفصلوا عن الامر ولم يفصلوا

(ذكر استيلاء الفرنج على عكاء وكيفية دخولها)

وفي يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخره ماجت الفرنج ببحور جموعها الزاخره وسالت الى ثغر البلد سيل الآتي الى القرار وطلعت في السور المهدوم طلوع الاوعال في فرج الاوعار وانحدر عليهم أصحابنا انحدار الصخور المدهدهه وفرسوهم فرس الآساد المحرجة المكرهه وردوهم أقبح رد وصدوهم أقطع صد ومازالت الكرات تتناوب والحملات تتعاقب حتى كلت الرجال وفلت النصال وعرفوا أن الفرنج يستولون وعلى أحد منهم لا يبقون ولا يخلون فخرج سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وحسام الدين حسين بن باريك وأخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا باموالهم وأنفسهم على تسليم البلد ومائتي ألف دينار وألف وخمسمائة أسير من المجهولين ومائة أسير من المعروفين وصليب الصلبوت وعشرة آلاف دينار للمركيس وأربعة آلاف دينار لحجابه فلم نشعر الا بالرايات الفرنجية على عكاء مركوزه وأعطاف أعلامها مهزوزه وماعندنا علم بما جرت عليه الحال وما أحد منا الا والبال منه قد عراه لوبال وعم البلاء وتم القضاء وعز العزاء وقنط الرجاء ولوت أعناق المسار الادواء ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره الى تقي الدين وما عن له في سفره فانه مضى على أن يعود بأضعاف عسكره فاشتغل بقصد خلاط وأثار في ديار بكر الاختباط والاختلال والاختلاط وتأخرت عساكرها عن القدوم فنتج تأخر نصف العساكر فوات الغرض المروم وكذلك لم يكن في البلد عدد يقي بصونه وما كان يضبطه السلطان الى هذه الغاية لو لم يكن الله في عونه ونقل الثقل تلك الليلة الى منزله الاول بشفرعم وأقام بخيمة لطيفة متأهبا على ما تم ثم انتقل سحرة ليلة الاحد تاسع عشر الشهر الى المخيم صابرا على حكم القضاء المبرم وحضرنا عنده وهو مغتم وبالتدبير للمستقبل مهتم فعزيناه وسليناه وقلنا هذه بلدة تمت فضة الله وقد استعادوها عداه وقلت له ان ذهبت مدينة فما ذهب الدين ولا ضعف في نصر الله اليقين وما وعكت بعكاء القلوب الا ولكربها يوم النصر على الاعداء تنفيس

ولوحشتها بعد هذه الحادثة الموحشة تأنس ولهذا الدين وان تداعت قواعد بقعة من بقاعه بالعزايم قاعه تأسس وخرج فى هذا اليوم أقوش رسولا ندبه بهاء الدين قراقوش يخبر ماقرروه من القطيعه ووصف كيفية المحنة القطيعه وقال أدركونا بنصف المال وجميع الاسارى وسليب الصليب قبل خروج الشهر وان تأخر شئ من ذلك بقينا تحت الاسر ونصف المال يصيرون به الى شهر آخر فاحضر السلطان الاكابر وفاوضهم فى ذلك وشاور فقالوا اخواننا المؤمنون ورفقاؤنا المسلمون وهل لنا عذر ونحن لهم مسلمون فتقبل السلطان تحصيله وتعجيله بجملته وتفصيله

(وأنشأت فى استيلاء الفرنج على عكاء هذه الرسالة وسيرت بها كتبا)

قد عرف أمر عكاء وان العدو قصدها ورصدها ونزلها ونازلها وقابلها وقاتلها وبرك عليها بكلكله وحفل عندها بجحفله وتواصلت اليها جموعه أفواجا وجلب البحر نحوها على أثباجه أمثال أمواجه أمواجا وجاءت رابضة أمامها ضاربة خيامها ملهبة بها اغرامها ملهبة فيها ضرامها وانتهت المدة الى عامين كل عام تحمل مدود البحر من أمدادها تجارا وبرد الماء باهل النار مستصحبين من ماء الحديد الجامد نارا وتصل مراكبهم كأنها الاعلام السود والامواج ناشرة بيض اعلامها ماشية بالهابا كأنها مازجة اصباحها باظلامها وتتنافس ملوكهم الباغيه وطواغيتهم الطاغيه فى الورود بنفوسها ونفائسها والوصول بما انفضت فيه كنائن كنائسها مستخرجة ضمائر خزائنها مستفرغة ذخائر مكامنها موضعة ظعائن ضغائنها مستبضعة متاع متاعبها مسرعة الى معاطن معاطبها وترد بقناطير أموالها وجماهير رجالها ومساعير مصالها ومشاهير أبطالها ويحدقون بها من برها وبحرها ويجثمون بين سحرها ونحرها ومازالوا يقاتلون أبراجها بالابراج ويسومون جدتها بالانهاج ويرومون علاج كرامها بمرامات الاعلاج ويقارعونها البلاء ونهارا ويلقمون أفواه خنادقها أحجارا ويناجونها بألسنة المجانيق الطوال ويطيرون اليها على جناح الحمام كتب الآجال ويكاتبونها اقراعا ويدبون اليها للمضايقة خطا وساعا

ويناطحونها بالكباش ويعاقرونها من حرابهم وحرابهم بكلاب الهراش وحيات الهراش ويرامونها بكل منجنيق عظيم الخلق كأنه حامل على الطلق لا تلد الا أمات الدواهي ولا تدع الراسخ الراسي اذا قابلته غير الواهن الواهي ويقتل الله منهم العدد الدهم والجمع الجم ويهلك ألوفا حتى يعود نافرهم للمنون ألوفا وقد تجاوزت عدة القتلى منهم في هذه المده سوى من هلك بالضايقة والشده خمسين ألفا وقولا لا يتسع فيه المعبر بالبيان بل يتصفحه المحرر بالعيان الى هذه السنه والحالة في تحقيق قمعهم وتفريق جمعهم جارية على الوتيرة الحسنه واشتعلت في قلوب أهل النار نار البواعث وتحدثوا في الحادث وثاروا للثار وزاروا بالزار وانبرى ملكا افرنسيس وانكتير وملوك آخرون دبروا أحكامهم وأحكموا التدبير وجاؤا في مراكب بحرية حربيه وبطس حمالة فرنجيه وأجروا في البحر منها السيول وجروا من ذوات الشراع عليها الذيول وحملوا فيها الخيالة والخيول ووصلت كل قطعة كأنها قلعه وكل بطسه كأنها تلعه وكل سفينة فيها مدينه وكل مجرة على سماء البحر بنجوم الرجوم مزينه فأحدقت بالثغر من البر والبحر وأحاطت بمركز الاسلام دائرة الكفر وأطافت منها الاسواء بالاسوار والظلماء بالانوار ومنعت الداخل والخارج وسدت على ناقل الميرة وحامل السلاح الموالج والمناهج وزاحفوه بكل منجنيق كنيق وكل برج وثيق وكل دبابة كأنها دابة الارض التى تقوم عندها القيامه وكل سلم لا ترجى معه السلامه وكل آلة آلت ان الفتح منها بالحتف وأقسمت أنها تقسم سهامها لذوى الحفز بالزحف هذا والعدو قد حفر من جانبنا رعمق وسور وخندق وتدرع بأسواره وخنادقه وتستر عن طوارق البلاء بستائره وطوارقه فلا يخرج منه الى معاركه ولا يدخل اليه أضيق مسالكه وهو متحرز متحرس متترس عاص على الهجم عاس على العجم لا يقصم سده ولا ينثلم حده ولم تزل الحالة تتمادى والواقعة لا يبيدها لا يتمادى والمدى يتطاول والمدد يتواصل والقضية تترامى والرمية تتقاضى ومقاتلة الثغر صابرون مصابرون مكابرون مضاربون فمن مستشهد عدله الجرح

ومن مستجد عطاله القرح ومن دام بالجرح درام عنه ومن نازع فى القوس نازع منه ومن متعرض للموت خوف عار عارض ومن ناه عن السلم آمر بالحرب ناهض ومن ندب فيه ندوب ومن ضرب فيه من أثر الضرب ضروب حتى فنى الحديد من قرع الحديد ومجت الشفار الظامئة ورد الوريد هذا وعدد المقاتلة فى كل يوم ينقص وظل المصابرة يقلص والعدم يتمكن من الوجود والقيام للاثخان فى زى القعود وكاد البقاء يودع الباقين والمنون تلاقى الملاقين فلم يشعروا الا وبعض المقدمين المشهورين قد تأخر وتستر واستشعر الذعر فتعذر وتحذر واستبدل الجبن من الشجاعه واستحلى العجز من الاستطاعه وقدم العصيان على الطاعه وظن انه لا نجاح له فى الدزعه ولا نجاة له الا فى الهزيمه وجنب أمثاله من الجبناء وجمع الى أمره جماعة من الامراء فخرج بهم من الثغر فارا وذهب على وجهه معهم مارا ورهب فهرب وحسب فتعب فاضعف قلوب البقية استشعارا وأعدمهم عدم قراره قرارا لكنهم ثابوا الى صبرهم وثبتوا على أمرهم ودفعوا مكر العدو بمكرهم ومارسوا على مصابرة ومكابره ومقارعة ومعاقره ومكافحة وملافحه ومواقفة ومواقعه ومطاحنة ومناطحه وجالد على الخنادق التى طمت ورمى فى خروقها التراب ورمت وطرقها العدو بالسوء الى السور وطرق الظلمة الى النور وهجم على البنا بالديجور وكشف نقاب عروس البلد بالنقب وأسعر بساعيره حر الحرب حتى ثلم حمى الثغر وكلم حاميه وأشرفت مراميه وكثرت ندوب نقوبه وكربت خطاب خطوبه ودخل العدو فى النقب فلم يجد لكونه مجدلا أو مجرحا مخرجا وتوغل فى الباب فوجد باب الخلاص المرتجى مرتجا وكل من أصحابنا قد سد الثغرة بنفسه ولاقى الوحشة بأنسه وفارق لوصال أهل الجنة أهله وأثبت فى مستنقع الموت رجله ولم يزل النقابون يوسعون ويعثون ويعلقون ويحشون ويحرقون ويجمعون ويفرقون حتى تساقطت الابدان فعادت تلولا وتعانقت الاسياف فزادت فلولا وتكشفت الوجوه لقبل الطعان وبردت بحرارة الدم قوائم اليمانية فى الايمان وبرت بمجالدة أجلاد الشرك أيمان أنجاد الايمان وأصحابنا لا يهولهم الهائل ولا يميلهم الى الحذار

الجدار المائل ولا يزعهم الخطب الوازع ولا يردعهم الرعب الرادع يواصلون بالقواطع ويتواقعون على الوقائع ويردون بغربهم الطالع ويفدون بحدهم الدارع اذا انتظموا مع العدو نثروه واذا انضوا اليه أقعدوه وعثروه واذا صعد اليهم حدروه واذا بادر اليهم بدروه وندروه حتى أقاموا منه عوض أبدان السور أبدانا وكم تركوا على تلك المصارع من جانبها جثمانا وما زالوا يقتلون ويقتلون وينهلون من ورد النجيع ويعلون ويصلون ويقطعون ويشعبون ويصدعون ويكيلون بصاع المصاع ويجيبون للعمر الراحل داعي الوداع ويتناجون بألسنة المناصل ويتقابلون بوجوه الصواقل ويتشاكون بكلام الكلام ويتلاقون بلام السلام ويتساقون بحاف الصفاح ويتماشون بجراح الرماح ويتحلون ضرب الضراب ويجتلون صفحات الصفائح من قراب الرقاب الى أن انتقل القتال من السور الى الدور ومن الستائر الى الستور ومن الطوارق الى الطرق والسطوح ومن المضايق الى الفساح ومن المراقب الى السفوح حتى لم يبق من المجاهدين الا سبائك زحوف وترائك حتوف وبقايا طرائح ورذايا طلائح وموقوح رائح ومشقوق ضرائح قد فصلتهم المشرفيات وخاطتهم الخطيات ورشقتهم القسي القاسيه ورشفتهم الظبا الظاميه لا ينهض قويهم من الكلول ولا يفري فريهم من الفلول وقد شغلوا بسد تلك المضايق ورد أولئك الخلائق فما شعروا الا وقد دخلت من أقطارها وتوغلت من أسوارها وازدحم العدو في مشارعها وسبلها ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ولما عرف العدو الداخل والعادي الواغل ان القوم مستقتلون والموت مستقبلون وانه لا طاقة له بمقاومتهم ولا قوام له بطاقتهم وانهم لا يسلمون وهم يسلمون ولا يبقون وهم يتقون أعطاهم أمانا أخطر من المخافه ودخل على الاغارة باسم الضيافه وعز أصحابنا بما بذلوه من الوسع وما هانوا وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ولا مرد لما فيه لله من المراد ولا مدفع لحكمه في البلاد والعباد وان ذُهبت مدينة فلم يذهب الدين وان غاض معين فما غاب المعين وان ارتاب المبطلون فما فارق الحق اليقين وان فتح المرتج فما فات المرتجى وان

اذلهم الديجور فلا بد ان يسفر عن الصبح الدجى ولا يشمت عدو الاسلام بما جرى فعند الصباح يحمد القوم السرى

«فصل من كتاب الى قطب الدين بن نور الدين بن قرا أرسلان»

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر فى هذه السنة من مدد ملوكه وكثر على نهار الاسلام باظلام ليل الكفر وحلوكه فالاسلام ينشد ظهيره ويطلب الدين لكشف غمته من ابن نوره نوره وهذه عكا التى كنا عنها ندافع وعن ثغرها نمانع وتجرى دماء الواردين فى البحر لقصدها فى بحرها ونرد للردع عنها مكايد العداة فى نحرها قد تمكن منها الكفر على كره من الاسلام واحتاج من أبى اسلامها بعد ان صابر وصبر الى الاسلام وكانت مودودة فعادت مؤده وصارت مغصوبة بعد ان كانت عاربة من الكفر مردوده واذا أفكر من خذلها وما أخذلها وغاب عنها وما حضرها علم أنها أسيرة اهماله وأخيذة اغفاله وحاشى ان يكون المجلس بالغيبة عنا راضيا وعن النجدة عند تحقق الحاجة اليها متغاضيا وما بقى للفرنج مع استيلائها على الموضع الا زاندقوة فى المطمع والمطمع وقد عزمنا على المصاف وصدمة الكافر بالجد الكافى الكاف والله كافل دينه بالنصر والمردى بمكره أهل المكر وما هذا أوان الونى بل هو زمان استنجاح المنى فان العدو الغادر قد آن أوان ان يقهر وليل الهدى قد قرب ان يسفر

«ومن رسالة أخرى فى استدعاء مظفر الدين من اربل تشتمل على حادثة عكا ووصف الحال الجارية فيها»

قد علم ما دهم المسلمين من العدو الكافر والطاغية الحاشد الحاشر وانه ورد من البحر بكل من للكفر فى البلاد والجزائر وما قصده الا بيضة الاسلام وحوزته وان الله تعالى هو الذى تكفل بذلة أعدائه وعزته ولا شك انه عرف ما تم منه على عكا بعد ذبنا عنها فى هاتين السنتين والمضايقة للفرنج ممن بعكاء ومنا بين المصارين وانهم كلما دبروا أمرا دمرناه وكلما حققوا كيدا أبطلناه وكلما قدموا منجنيقا أخرناه وعطلناه وكلما ركبوا برجا أحرقناه وكلما كشفوا حجابا خرقناه

وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله حتى لم يبق لمكرهم مكر ولا لكيدهم مجال ولم يتسق في هذه المدة لهم حال وقتل منهم في عدة دفعات زهاء خمسين ألف مقاتل من فارس وراجل ولم نشك في استيصالهم بالردى وان حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى وحسبنا انهم بائدون فاذا هم زائدون وظننا انهم هالكون فاذا هم في نهج القتال سالكون وهم حطب نار الحرب وطعم الطعن والضرب وكـ بذلوا أرواحهم على حب المقبره وحصلوا تحت العجز لزعمهم انهم يأتون بما فوق المقدره ولما دخلت هذه السنة أشفقنا على من في عكا من الاصحاب والاجنا وقلنا هؤلاء قد بذلوا في الجهاد ما كان في وسعهم من الاجتهاد ورأينا أن نجد للبلد البدل وان نسد ونسد بما يتأنفه الخلة والخلل وكان فيه أكثر من عشرة آلاف رجل من كل ذمر مشيح وكمي بطل فخرج هؤلاء ولم يدخل البـ مثل تلك العده ولم يكن أيضا من دخل بتلك الجدوى وتلك الشده فان البحر قد استصعب لها منع راكبه وحمى جانبه ووصل العدو وعجل مراكبه فاكـ البلد بمن فيه وما فيه كفايه واتكل على الله الذي عصمته من كل واقعة و وجاءت ملوك الفرنج خلاف كل عام في جد واعتزام وحد واهتمام وجمع له ونار تجلبها العدو من جهنمه وضرام وغرام بالواقعه وعرام واحتشاد لمدا واحتدام وباس واقدام وناس وأقوام وحشد ملأت بها سفنها وأخلت منه مدنها ووصل ملكا افرنسيس وانكتير وقد أحكما التدبير وأجلبا بخيلهما ورجلهما وأناخا بكلكل كلهما وبركا بثقلهما وزحفا بجدهما وجهلهما ووافوا بكل برج وثيق وكل منجنيق كنيق وكل آلة غائله ودبابة للابدان حامـ ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقا على موضع واحد وأهبطوا حجارات السور بكـ حجر صاعد وباشروا الباشورة بالهدم والخندق بالطم والسور بالنقب والـ وخرج من نقابي البلد من ارتد عن الدين وأعان نقابي الملاعين حتى وقف أبدان السور وأبراجه وتبادر الى الثلم أعلام الكفر وأعلاجه وأصحابنا مع ذلك ثابتون ناكبون كابتون قد سدوا تلك الثغر بنفوسهم وجعلوا جدارا للفرنج وجراحاتهم مغافر رؤسهم وكشفوا وجوههم لتقبل السهام وتلقفوا من

وقع بيضها بحمر اللثام رشف شفاه الشفار دماءهم وتشكر ملائكة السماء
سماحهم بالمهج وسخاءهم كلما انتظم وامع العدو انتثر وكلما نضوا التلقيه عثر
وكلما طلع اليهم ردوه بقربهم وكلما اجتمع به فرقوه بطعنهم وضربهم وهم
يواقعون ويوافقون ويكافحون ويلافحون وكل قد وقف في موقف الكرام
وسل نصله وأثبت في مستنقع الموت رجله وودع للجنة في لقاء أهل النار أهله
فخانهم بعض الامراء الجبناء وأخذ للحياة بترك الحياء وفر من البلاء الى البلاء
وحسب النجاة في النجاء وهرب في بركوس قد أعده لذلك اليوم وآثر على جراح
السيف جراح السب واللوم واستصحب أمثاله واستتبع وأبعد في فراره وأبدع
وأضعف بضعف قلبه قلوب الباقين وأطمع أفاعي الكفر في نهش الراقين على أن
الاصحاب ما آذنوا بالاصحاب ولم يقابلوا الضراب بالاضراب وما زالوا يواصلون
بالقواطع ولا يرتاعون للروائع ولا يرعون مقام المقامع ويطالبون من
الارواح بالودائع حتى انتقل القتال من السور الى الدور ومن القوارع الى
الشوارع ودخل العدو المدينة على علم بالحرب شبيهه وأمن أخوف وأخطر من
كريهه وقطيعة فظيعه كل منه لها غير مستطيعه ولولا ما اتفق بعد قضاء الله من
الاسباب الموهنه لم تكن عكا بالممكنة للعدو ولا المذعنه وان ذهبت المدينه
فالدين لم يذهب وان عطبت فالاسلام لم يعطب وان ملكت واحتلت فما اختل
الملك وان سلكت ووهت فما وهى السلك واغاثه الله بها العزائم الراقده وأجرى
مياه الهمم الراكده وبعث الحميات الناعسه وحرك النخوات المتنافسه وكما
أظهر عجزنا عن قدرته وقدره سيظهر عزنا بنصرته وظفره ونحن الى الآن كما
كنا محدقون بخنادقهم آخذون بمخانقهم نوسعهم الرمي في مضايقهم ونجذبهم
في كل يوم الى مصارعهم ونكدر بعلق نجيعهم صفو مشاربهم ومشارعهم فما
خرج منهم من دخل وما انقطع الا من وصل وما أصحر الا من نبا به عرينه وعرسه
وما برز الا من واراه من بطون الخوامع رمسه فهم مقيمون لا يرعون مخيمهم
ولا يرومون أن يعبروا بحشهم وما أشوى عرائض المضارب الا لقرنهم من

مضارب القواضب وهم مع ذلك يرجفون تارة بالخروج الى المصاف وآونة بالنهوض الى بعض الاطراف وفى كل ذا القاصدين ان شاء الله دمارهم المعجل وبوارهم المؤمل فانا نعترضهم أين واجهوا ونواجههم أين اعترضوا ونعترهم أين نهضوا ونثيرهم للموت أين ربضوا ورعبا غرتهم عكا فطمعوا وطمعوا واتفقوا على المصاف واجتمعوا ووقعوا على نار الحرب وقوع الفراش وتعوضوا مصارع أمثالهم بالثرى لهم وثير الفراش فان برز العدو فالمنون له بارزه والعزائم له مناجزه والعساكر الاسلامية اليه وعليه زاحفة حافزه والمجلس أولى من يقتضى ويحتمى والى هذا المرام من قهر الكفر يرمى وينتمى ويصل بجمعه الالهام الملتهم ويجمره الملتهب المضطرم وبعدده المحتد المحتدم وبفيلقه الفالق ترائك العدا السابق السابق فى نار الوغى سابق الظبا الخاص الحاسد بحدود الشفار سنابل الطلى وهو لاشك ينهض ويستنهض من وراءه ويستدعى من اذا ناداه أجابه وجاءه

(ذكر لطف من الله فى حق خفى)

كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنة قد عمل ترجمة تفرد بها القاضى ابن قريش لمكاتبته الاصحاب ليكتب بها اليهم ويعود بها الجواب فلم يبق المكاتبة ابتداء وجوابا بخطى وخرج حكم عكا فى الكتابة عن شرطى فقلت لاصحابى ما صرف الله قلمى عن عكا الا وفى علمه ان الكفر اليها يعود وان النحوس تحلها ويرحل عنها السعود واستعاذنى الله من استعادتها وردها الى شقاوتها بعد سعادتها ولقد عصم الله قلمى وكلامى وعرف شيم مخايل ألطافه من شيمى وهذا قلم جمعت به أشتات العلوم مدة عمرى وما أجراه الله الا بأجرى فالحمد لله الذى صانه وعظم شانه وما ضيع احسانه وهو للفقه والفتيا ومصالح الدين فى الدنيا وما عرف الا بعرف فما صرف الا عن صرف وما فارقه الا فى نجح وما فارقه الا عن صح وما تجارته الا ربح فهو عين الدولة وأمينها ومعين الملة بل معينها بمداد يستمد امدادها وبسداده للثغور سدادها ودواته دوام المعضلات وبعقده حل المشكلات وبخطه حط عوادى الخطوب وبقطه

قط هوادى القطوب وببركته برء الامراض وبدره در الاعراض وبدره انتظام عقود العقول وبدراريه ابتسام الاقبال والقبول وبجريه جرى الجياد للجهاد وبسببه سعى الامجاد للانجاد وبحركته سكون الدهماء وببركته ركون الرجاء فما كان الله ليضيعه فى صون ما لا يصونه وعون من لا يعينه تخفت على عكاء من وقوف قلبى عنها وكان قد ألهمنى الله فانه سانه ولم يصنها وشكرت الله على هذه اللطيفه والعارفة الطريفه

(ذكر ما جرت عليه الحال بعد استيلاء الفرنج على عكاء من الوقائع)

وفى يوم الخميس انسلاخ جمادى الآخره خرج الفرنج من جانب البحر بالعدة الوافره وانتشروا بالمرج الى الآبار التى كان حفرها العسكر فضرب القوس السلطانى فثار العثير وقام المحشر وأنهض السلطان الى النزال من قواه وأتبعه عدد ثلاه وقد طار غراب الغبار ونبرقعت بالتراب عراب المضمار وشبت الوغى بكل شبوب غمائم سوى فارسها راكبها وتعبر الشمس من نسج حافرها نقابها فى غاب كالقواضب يروون القواصب وطوالع من الغروب بعد نفى الغوارب غوارب وحمل على ابطال الباطل حماة الحق فردوا الكفر بذلك الخرق المتسع متسع الخرق وانهزم الفرنج فحالت العرب دونهم وحالت بينهم وبين أسوارهم وأحالت عليهم منونهم وصرع عوازها خمسين رجلا كروا عليهم بكاسات المنون نهلا وعللا وردوهم الى مراكزهم ولم يبن لقادرهم فضل على عاجزهم ثم كر الفرنج على المسلمين كرة عظيمه كادت تحدث هزيمه فوقف أصحابنا وثبتوا ثم وثبوا وأسعروا نار الحديد وألهبوا ونظموهم بالقنا ونثروهم بالظبا وفرشوا منهم قتلى على الربا واحتبت سيوفهم بالاعناق والطلى وحالت من حياة العدا الحبا ودخل القوم الى خنادقهم ووقفوا وراء أسوارهم باثارة عثيرهم آثار عثارهم وانتصف الاسلام من الكفر فى ذلك اليوم بعض الانتصاف وأخذ النصر على المصافاة بمصالحة المصاف وفى يوم الجمعه ثامن رجب جاءت الرسل فى تقرير القطيعة المقرره لخلاص الجماعة المستأسره وأخبروا ان ملك أفرنسيس سار الى صور ورتب الدولة نائبه وولاة الامور وانه قد عزم على العود الى بلاده بعد

ماجرى الامر بعكاء على مراده وانه وكل المركيس فى قبض نصيبه ورضى بتدبيره وترتيبه فانهض اليه السلطان ورراءه رسولا بتحف تليق به يستخرج ضمائره فيما هو من أربه ونقل خيمته يوم السبت العاشر الى تل بازاء شفرعم وراء التل الذى كان عليه نازلا وحل الموضع الذى حله وخلى الذى أخلاه عاطلا ومازالت الرسل تتردد والرسالات تتجدد والاراء والآراب تجتمع وتتبدد حتى أحضر مائة ألف دينار والاسارى المطلوبين وصليب الصلبوت ليوصل ذلك كله الى الفرنج فى الاجل المضروب والوقت الموقوت ووقع الخلف فى كيفية التسليم والتسلم وكيف يحصل الوثوق بالكفار مع تحمل هذا المغرم فقال السلطان أسلمه اليكم على أن تطلقوا أصحابنا أجمعين وتأخذوا بباقى المال على سبيل الرهن قوما معينين فأبوا الا أخذ الجميع فى الزمن السريع والوثوق بأمانهم وأمانتهم والتفويض فى أصحابنا الى خيرتهم فقلنا لهم تضمنكم الداوية فادخلوا فى الضمان وساء فيهم ظن السلطان وقال اذا سلم اليهم من غير شرط الاحتياط عليهم كان فيه على الاسلام غبن عظيم وعار الى الابد مقيم فلو أيقنا خلاص أصحابنا وعرفنا بنجاتهم انتظام أسبابنا سمحنا لهم فى المال بصليب الصلبوت والاسارى والمال وبقى الامر وقفا الى أن انقضى الاجل وانتهى الترم الاول وجاء الرسل وأبصروا الاسارى حضورا والمال موزونا موفورا وظنوا ان صليب الصلبوت قد أرسل الى دار الخلافة فليس له وجود فسألوا احضاره وهم شهود فلما أحضر خروا له ساجدين وأقروا به شاهدين وعرفوا أن الشرط بالوفاء مقرون وان الاداء بخلاص أسارانا مرهون وظهرت علامات مكرهم ولاحت أمارات غدرهم وفى يوم الاربعاء العشرين من رجب أخرج الفرنج الى ظاهر المرج خياما ضربوها وقبابا نصبوها وخرج ملك الانكتير الى خيمته ومعه خلق من خيالته ورجالته

(ذكر غدر ملك الانكتير وقتل المسلمين المأخوذين بعكاء)

وفى عصر يوم الثلاثاء السادس عشرى رجب ركبت الفرنجية بأسرها وخرجت عن مستقرها وسارت بخيلها ورجلها وجحفلها وحفلها وجاءت الى المرج الذى

بين تل العياضية وتل كيسان ونفذ اليزك وأخبر السلطان وركبت العساكر نحوها متسابقة متلاحقه وشامت صوارم صادقة وعزائم صادقه وكان الملاعين قد أحضروا أسارى المسلمين في الحبال واقفين وحملوا عليهم وقتلوهم أجمعهم وألقوهم على مصرعهم فحمل عليهم العسكر وهاجهم وضرب بأمواجه أمواجهم وقتل منهم خلقا وأوسع فيهم خرقا واستشهد منا كردي جندي وبدوي وكلاهما من الموصوفين بالشجاعه وهو من ماء الرحمة على الكوثر روي فلما انصرف العدو الى خيامه وركد الروع بثار قتامه شوهد المستشهدون بالعراء عريا واغاعروا ليكتسوا من حلل الجنان التي أكرمهم الله بها وشيا ومضى الناس اليهم فعرفوا معارفهم ووصفوا في سبيل الله مواقفهم وما أكرمهم رجالا وأحسنهم في الشهادة والسعادة حالا ولما غدر الفرنج بسفك الدماء وهتك ستر الوفاء تصرف السلطان في ذلك المال وبسط فيه يد النوال وأعاد أسارى الفرنج الى دمشق لتعاد الى أربابها وترجع الى أيدي أصحابها فانهم كانوا جعوا من أهل البلد للحاجة اليهم فلما استغنى عنهم ردوا عليهم وأعيد صليب الصلبوت الى الخزانه لا للاعزاز بل للاهانه فان غيظ الكفار بحفظنا للصليب شديد والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا وأنفذوا بعد رسول رسولا فما وجدوا قبولا ولا صادفوا سولا

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها وعبرت النهر وفارقت البحر وضربت بينهما الخيام وأنبتت من الرماح المركوزة على سباعها وضباعها الآجام فقيل للسلطان ما حركة القوم الا قصد عسقلان فجاشت همومه وعب عبابه واجتمع بناديه لاجالة قداح الرأى أصحابه ومع سحابه وصح حسابه وحكم فأحكم وبرى فأبرم واستشار وأشار واستنار وأنار واستورى زناد الآراء وامترى مراد الامراء وقال هذا العدو طغى واستكبر وأضحى له الافق وأفاق وأصحر وقد تحرك بعد سكونه وظهر بعد كمونه وغرته عكاء فطمع في عسقلان واسترق جانبنا الخشن الشديد عليه واستلان وهذه

جموعه بارزه وأمو به راكزه وعوراته باديه وثوراته عاديه ونكراته معروفه وغدراته موصوفه وكنا نقول اذا برز نبارزه واذا خرج نناجزه واذا فارق مكانه نتمكن من تفريقه واذا ركب الطريق نركب الى طريقه واذا توجه الى موضع أوضعنا الى مواجهته وأغرينا ألسنة الاسنة بمشافهته ومسافهته والآن ألان الله لنا الشديد وأدنى علينا البعيد وأخرج العدو من الضيق الى السعه وأبرزه من وراء الاسوار والخنادق الممتنعه وان لم نلقه فى طريق مسيره ونجد فى التدبير لتدميره وصل الى عسقلان فصار لنا منها شغل عكاء وأصعب وحينئذ تتعب وصدعنا بها الاشعب فقالوا هو يسير بالبحر محتميا وعن النهج منتئيا ويقصد الساحل ويقتصر المراحل والذى يلى الساحل فى الطرق اما آجام وغياض غافة متأشبه واما رمال وتلال ضيقة متنكبه وهنالك مواضع يمكن فيها مضايقته على المضايق ومواقعته بالعوائق فتقدم السلطان الى علم الدين سليمان بن جندر وأمير من أهل الخبرة آخر بالمسير الى تلك المناهج ومشاهدة ما لها من المخارج والمولج وكشف المواضع التى يلقى فيها العدو ويؤمل بمقاتلته فيها من الله النصر المرجو فسارا ينفضان تلك المسالك ويكشفان الاماكن التى تكون معارك وتغذها للبار المرام مبارك ولمدار المراد مدارك وعادا وقد ظفرا ببقاع وبقاع وعينا على أماكن ومكامن ومواطئ ومواطن ووقع الاجماع على الاجتماع على اللقاء والقراع فى مذاهب تعينت ومسارب تبينت وسهول عرفت وحزون وصفت وصمم العزم على أن الفرنج اذا ساروا سرنا على عراضهم واستقمنا على جدد الجد فى اعتراضهم واعتراضهم

(ذكر رحيل الفرنج صوب عسقلان ورحيلنا للقائهم)

وفى سحرة الاحد غرة شعبان أضرم الفرنج فى منازلهم النيران وأصبحوا على الرحيل والاصوات مختلطة بالصهيل والارض مضطربه والسماء محتجبه والقباب تقوض والعياب تنفض والجعاب تنثل والهضاب تنقل والذئاب تعسل والزغف يفاض والحتف يخاض والخيل تسرج والسبل تعرج وذوائب الذوابل تنشر وانياب النوائب تكشر ولواء اللأواء يعقد وضرام

الضراء يوقد والبيارق تخفق والبوارق تأتلق والأودو والجوجو
وللحديد نبوج وللعديد تموج وقد ثارت الجواء وفارت الجأواء ودجت
الاضواء ورجت الضوضاء وسال الوادي وعدت العوادي وسار الاعادي
وعلم السلطان تدبيرهم وعرف مسيرهم فرعدت كوساته وغردت
بوقاته وصاحت طبوله وصاحت سيوله وانسحبت ذيوله واضطربت خيوله
وبرقت لوامعه وأشرقت طوالعه ومضت عزائمه ومضت صوارمه وحلقت
العقبان الى مطار مطارده وتألقت الخرصان في معاقل معاقده وسار
وأرضه جرد الضوامر وسماؤه نقع الحوافر في بحار سوابح تموج على شكائمها
اللعاب وغدران سوابغ كزلال لمعه الحباب ومجر مذهب الجوانب
مشتعل القواضب وقب معقودة السبائب مقودة الجنائب معصوبة الهوادي
هادية العصائب وعرب ملوية العمائم بالذهب ملوثة البرود بالقضب وترك
كالاقمار في هالات الترك ومماليك في حامات الملوك عتاق الوجوه على
الوجيهات العتاق قد خلقوا للثبات مع قلق الاخلاق وأعاجم على العراب
هضاب على هضاب وكرد يحصون الدروع محتمين وبقباب اليلب متحصنين
في مسرودة الحلق مسدودة الحدق تقهقر عنها اللهاذم وتقهقه اذا فلت بها
الصوارم وجيش يصيب العدو ولا يصاب ويعيب الاقران ولا يعاب من كل
ناصر للحق على ضامر للسبق خارق للدقع راقع للخرق فائق الرتق راتق للفتق
معتنق الى الضرب ضارب للعنق وفيلق همه فلق الهام وجحفل ملتهم للجحفل
اللهام يحوي كل أغلب عبل الذراع وأشم رحب الباع خواض الكتائب
فياض القواضب رواض الرعان نضناض السنان موار العنان فوار الجنان
قائد الخيل ذائد السيل رائد النيل وهاجت العساكر وماجت الزواخر
وزأرت القساور وأزهرت الزواهر وتناوحت جذبات الحديد وعذبات الحرير
واشتبه سهك المأذي بعبيق العبير وكانت نوبة اليزك في ذلك اليوم للملك الافضل
وهو في نخبة الجحفل بدر رليل القسطل وشمس يوم المحفل فوقف لهم وقفا
أثرهم وألهبهم نيران النصال وأسعرهم وقطع طريقهم وقصد تفريقهم وسطا

على أوساطهم ونادى بإيراء زناد ارتباطهم فانقطعت أواخرهم من أوائلهم
وسدد سهام المنون إلى مقاتلهم وأرهق إليهم الأجل وأحرق عليهم العجل وطرق
نحوهم الوجل وانهزم من تقدم ولحق الأول وانعكس من تأخر وانخذل وانخزل
وأوقد نارا على أهلها مشتعله وترك تلك الوقعة للمشاهدين الحاضرين مشغله
ونفذ إلى والده يستنجده حتى يسرع إليه مدده ويقول إن أمددت بألف
ما أبقيت من هؤلاء واحدا ومتى يتفق مثل هذه الفرصة لو أرى لي مساعدا
وترددت إلى السلطان رسل استنجاده واستمداده وهو متحقق أنه لو ساعده
القدر بالقدرة لمرى در النصر على مراده فسار من كان حاضرا من العسكر على
عزم إنجاده وإسعاده ثم قيل للسلطان ما كان ركبنا بنية المصاف في هذه المرحله
والناس قد سبقوا إلى المنزله وهنالك عند قيساريه الحرب أمكن والقلب إلى
انتهاز الفرصه أسكن وأبطؤا عن الإصراخ فآذن روع الفرنج بالإفراخ
وعرف ملك الانكتير بما تم على ساقته وأن الأذى وراءه في عاقته فصرف عنانه
وصرف عناده وعاد بحماته لحمى عدده أمداده والملك الأفضل قد بذل
وسعه وأوضح في الجد شرعه وقتل من وصلت إليه يده ولقد كان يضعف
عدد الأعداء لو تضاعف عدده وبقي يتلهف على ما فاته من الفرصه وأعوزه
من حصة تلك الحصه فقد انهاض بانتهاضه جناح الكفر وكاد يفتح لارتجاجه
تاج النجاح في النصر ومن جملة من كان مع الملك الأفضل من خواص الأمراء
والمماليك سيف الدين يازكوج وعز الدين جرديك واتفق قولهم على أن العدو
كان قد انكسر وتبدد نظامه وتبتر وأنه لو اتصل بهم مدد لم يبق من الأعداء أحد
ونزلنا تلك الليلة بالقيمون في الوقت الميمون وعلى الساقة المنصورة لحفظ
الأثقال لتؤمن على ما يخاف فيها من العدو والغاره علم الدين سليمان وحسام
الدين بشاره ورحلنا يوم الاثنين ثاني شعبان ونزلنا بقرية يقال لها الصباغين
وبقربها عزلة يقال لها عيون الأساود وأمر السلطان للمشورة بحضور أوليائه
وأمرائه الأماجد الأساود والفرنج لما وصلوا إلى حيفا وقد وصل إليهم الحيف
وساق ساقتهم السيف وخاصروا من نواجذ النصال وأنياب النبال أقاموا

بها حتى يندمل جريحهم ويستريح طليحهم ونهب بعد الركود بحهم وركب السلطان الى الملاحة وهى بعد حيفا منزلة القوم وكشف ما حواليها بالحوم وعرف هل عليهم منها مدخل وهل يصاب منهم فيها مقتل ثم عاد الى منزلته وأقام بها يوم الثلاثاء وسير الاثقال الى مجدل يابا ليلة الاربعاء وأصبح راحلا فأحل حياه بأرض الأسى ماحلا ونزل على النهر الذى يجرى الى قيساريه وعسكره قد طبق تلك البريه وكان العدو قد تحول الى الملاحه ومكث بها للاستراحه وأقام السلطان بتلك الناحيه يتحول من رابية الى رابيه ويرهف للقاء الفرنج بحضه وحنه كل عزمة نابيه وأتى مرارا بأسارى خطفوا من مواقفهم وقطفوا من منابتهم وطرق الانكدار الى ثواقب ثوابتهم فأمر باراقة دمهم واطاحة رممهم وأخبره بعض الاسارى انهم يوم رحلوا وصلوا الى حيفا حيارى وطرح منهم وجرح كثير سوى من أخذ فهو الآن أسير وهلكت بين عكاء وحيفا أربعمائة فرس ونجوا منكم بأنفسهم على آخر نفس ولو انكم كبستم كبتم وأعز يتموهم من الحياة لو انكم بهم التبستم

(فصل من كتاب الى مظفر الدين بذكر ما جرى بعد الرحيل
من عكاء الى هذه الغاية لاستدعائه)

ولما فرغ العدو من شغل عكاء حسب ان كل بيضاء شحمه وان كل سوداء فحمه فرحل على صوب حيفا واقعا فى حيفه باخنا على حتفه بظلفه زاعما انه على قصد عسقلان خذله الله وخيبه فى قصده وزعمه وهو حاصل منا على صده ورغمه وكان رحيلهم مستهل شعبان ومهلك أنكتيرفا نذهم الى البوار ووافد أهل النار الى النار ولقيناهم من بواترنا بواتر التبار وقد رحلنا فى عراضهم لاعتراضهم وتعثيرهم فى طريق انتهاضهم ولقوا يوم رحيلهم من اليزكية الزكية كل نكاية فيهم شديده وكل روعة لهم مبيده فانهم قطعوا ساقة العدو عن اللحاق بمقدمته وفلوا عن الحدة فى الحركة حد عزمته وقتلوا خيلا وخياله وفوارس ورجاله وقدروا وتمكنوا وجرحوا فأثخنوا ونهبوا وسلبوا وأخذوا رؤسا قطعوها وقدوا نفوسا قلعوها وغنموا أقمشة وأسلحه وحصوا من اللاحقين بهم قوادم

وأجنحه ونزلوا على نهر حيفا وقد تم عليهم الحيف وتحكم فى فلهم السيف فاقاموا
الى هذه الغاية لمداواة جريحهم ومواراة طريحهم واراحة طليحهم واثارة ماركد
من ريحهم وقد رحلنا وسبقناهم الى طريقهم عازمين على تبديدهم وتفريقهم
وتشتيتهم أيدى سبا وتمزيقهم فقد تمكنت بتأييد الله أيد الابد من سبيهم وقتلهم
والله يجمع شملنا لتفريق شملهم وما يجدده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطه
ولاعدائنا من غبطه الا ونبادر ببشراه الى المجلس لتقوى فى نصرتنا عزيمته
وتشيم بارق التوفيق فى مواقفنا شيمته وتروض مواحل الامال مع أوان الديمة
الربيعية ديمته ويغلو فى سوق رواجه من الدين ما ظن انه رخصت قيمته وكيف
لا يأخذ ذلك الكريم بثار الاسلام وقد سبيت من عكاء كريمته واذا تأمل عرف
ان الخطب عظيم وما الدفع الا العظيم والهم مقيم وما رفعه الا بأسه المقعد المقيم
وسيقتضى دين هذا الدين الغريم الزعيم

(وقعة قيساريه)

وفى غدوة الاثنين تاسع شعبان جاء من أخبر برحيل الفرنج السلطان وانهم
سائرون ثائرون وعلى أجنحة الجرد طائرون وحول رجالتهم بخيلهم دائرون
وهم فى جميع الهام وقد انقسموا ثلاثة أقسام كل قسم راجله بخيله محفوظ
وبأعين القسمين الآخرين من خلفه وقدامه ملحوظ وكان السلطان تقدم
من الليل بركوب الخيل فركب فى كل خواض للغمرات فياض بالعزمات
رواض للجامحات نهاض بالجانحات ملتثم مع اللثم بالنقع والدجى ملتحف لولا
الروع بالحلم والحجا مقتحم فى حومة الوغى مضطرم بجمرة الظبا على نزائع
ينقلن الردى على صهواتها وصواهل يقذفن الحمام من لهواتها ويكشفن
الظلام بجبهاتها ويبارين الصفاح بصفحاتها وتعاسل الرماح باعناقها
وطلاتها وفيهم من رجال الحلقة المنصورة كل سابق الى المنون على سابق
وكل تائق الى المأزق مازق وكل طائر فى الغبار على سابح وكل غابق بالنجيع صابح
فى عراب متمطيه بالعراب ورقاق متخطيه الى الرقاب وسار العدو ومسرتا بريه
ونباريه ونجرى عليه ونجاريه والجاليشيه ترمى وتدمى وتصمم وتصمى وتطور

السهام تقصد من الاحداق أوكارها والاوتار تنشد بالازنان أوتارها وهم في لباس حديد سد على السهام المنافذ واشتك النشاب فيهم فاشبهوا القنافذ وكانت هنالك بركة كبيرة ومياهها غزيرة وهم على عزم ورودها والاحاطة بحدودها فخلأناهم عنها وأبعدناهم منها وكان الحزم تركهم حتى يخرجوا الى الفضاء فيدخلوا من تمكننا منهم تحت حكم القضاء لكنهم ارتابوا وارتاعوا وطلبوا النزول بها فما استطاعوا فانحرفوا الى الساحل وانصرفوا بالفارس والراجل واجتمعوا سائرين وساروا مجتمعين ومازلنا نلزمهم ونهزهم ونحفزهم ونحزهم حتى تمت مرحلتهم وعمت مقتلتهم وتثلمت الصفاح وتحطمت الرماح وأجرت الانهار الجراح وجرى بالارواح السماح وحضر السلطان مع الجالبشيه ناج الارادة نافذ المشيه ونزلوا على نهر يقال له نهر القصب وقد انصبوا الى النصب وما كانوا يرجون وما كادوا ينجون ولما نزلت بهم في مسيرهم النوازل نزلوا وحين وليتهم نصالنا ومناصلنا انعزلوا

(مقتل اياز الطويل)

واستشهد في ذلك اليوم الهمام المقدام الاسد الضرغام الطاعن الضارب الباسل السالب الغضنفر الهرماس الفارس الفراس أياز الطويل وطالما عرض نفسه في سوق الشهاده وأقدم اقدام الساعي الى السعاده وكان الى الصريخ أسمع منتصت ولعطاس النقع أسرع مشمت والى ضيف الحمام أسبق متلفت ولسيف الاقدام أرشق مصلت لا يروعه الروع اذا حفزته عزمته ولا يهوله الهول اذا همت به همته وهو أول من يركب وآخر من ينزل ويدبر سواه وهو يقبل ويسابق الى المضار ولا يمهل وهو أبدا يدعو الى المبارزه ويعدو على المناجزه ويقف بين الصفين على صافنه ويرحل على مطايا المنايا من بنات كنائنه الى مقاتل المقاتلين ظعائن ضغائنه فما برزاليه الامن برزت اليه منونه وفاضت بالدم من عيونه عيونه فكم كف الكفر كفها وبكر للنصر زفها وأنف للشرك جدعه وذى أنف للفتن صرعه ولبه للغضنفر صبحت لثعالب رماحه وطلية للمتغشمر طنت فيها أذبة صفاحه وأجفان

الاقران نبتت فيها أهداب سهامه ووجوه للشجعان تفصلت فى حساب حسامه فلما جاءه الاجل ما أجل ولكن الى الجنة به عجل فان حصانه خانه وما صانه فعثر به حالة الاقدام وخلاقره فى حالة الحمام ولم يخف لثقل الحديد للقيام وطعن وضرب وأتاه من الكوثر سلسبيله فشرب ولما أدركه الاصحاب ألفوه وقد فات ورافق فى عليين الاحياء فى سبيل الله لا الاموات ونزلنا نحن بعد انقضاء الحرب على البركة شديدى الشوكة حديدى الشكة ثم رحلنا ونزلنا على أعلى نهر القصب فى أوله وهو الذى نزل العدو فى أسفله وتقاربت ما بيننا تلك الليلة المسافة وعندنا الامن وعند العدو المخافة ولما أصبح السلطان يوم الثلاثاء مكث على الثبات والهدو ينتظر ما يكون من خبر العدو وأقام الفرنج على حالهم لتعبهم وكلالهم ولاسباب منهاجراحاتهم عدموا منها منهاج راحاتهم وكذلك ما ملكهم من رعب الهلاك والابتراك فى الارتباك

(وقعة لعز الدين بن المقدم)

وكان عز الدين بن المقدم فى ساقة اليزك مستيقظا للحفظ والدرك فبصر بجماعة من الفرنج مقبلين ركبوا بغير عدة مسترسلين ولاخبار عسكرنا مستشرفين وهم بما تم عليهم غير متخوفين فعبر اليهم النهر من ورائهم واستظهر عليهم فى اقائهم فقتل منهم عده ولقوا منه شده وأسر ثلاثه قبل أن ينالوا اغاثه ثم ركب الفرنج اليه وحملوا عليه وكانت وقعة عظيمة جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمة وأحضر الاسارى عند السلطان بحزام الذل والهوان فاخبروا أنه جرح بالامس منهم ألف وسرى فيهم وهن وضعف وقد جرى عليهم أمر عظيم وبلاء مقعد مقيم ورحلنا وقت الظهر وعبرنا شعراء أرسوف فى الطريق الوعر ونزلنا وقت غروب الشمس بعد الخروج من تلك المذاهب على قرية يقال لها دير الراهب ومضى السلطان جريدة الى قرب أرسوف وأطال هناك الوقوف حتى رأى أرضا فى طريق العدو تصلح للقائه والاحداق به من أمامه وورائه وأقام يوم الاربعاء فى ذلك المنزل والعدو فى منزله الاول

(ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكتير)

كان فى اليزك علم الدين سليمان بن جندر قد ظهر فيه واستظهر فراسله العدو على أن يتحدث مع الملك العادل ويجتمع به وينزل على أربه ويعرب عن مطلبه فاجتمعا يوم الخميس على التأسيس ثم تحدثا فى الحوادث وعوادى الحروب العوائث وان السلم متعينه والسلامة فيهما متبينه والمصالحة مصلحه والفائدة مترجحه قال وما جئنا الا لاصراخ أهل الساحل فوقعنا فى الشغل الشاغل فان اصلحتموهم واصطلحتم استرحنا واسترحتم فقال له الملك العادل ما الذى فيه تحاورونه تحاول فقال رد البلاد برد البلاد وسلوك مسلك الاسعاف والاسعاد فقال العادل هذا لا مطمع فيه وهذا رسم باطل حقنا معفيه ودون حدود البلاد حدود الحداد وخلط القتام وخرط القتاد وصرف عنان صرف العناء الى المنصرفين بالعناد وأدركه حكم الحمية والحفيظه وعلى من جل غيرته فى الكلمات الكالمات الغليظه وكان الترجمان بينهما هنفرى بن هنفرى فلما سمع ملك الانكتير ماراعه ما استطاع سماعه وثار ثورة الحنق الحرق وآل اجتماعهما الى التفرق

(وقعة أرسوف)

لما عرف السلطان من أخيه الملك العادل ما جرى بينه وبين ذلك الطاغيه وانه مصر على تلك المباغى الباغيه جمع يوم الجمعة وقت الاصباح الاصحاب واستحضر من أمد غابه من غاب وأمر برحيل الاثقال وأقام فى رعيل الرجال وركب فى نجم أنجاب وعرب على عراب وكرد على جرد وكل سابق ورد على سابق ورد على خيل من سماتها آثار الطعن وعلى جبهاتها أنوار اليمن با كباد غلاظ على العدا ورقاق حداد على الطلى ونبال مصمية ابان المصمم ورماح لان لدنها ضغم الضيغم المعلم فاقام العدو بسواد قومه بياض يومه وبات وقد فارق جفنيه غراراته له ونومه فلما أسفر صباح السبت رابع عشر شعبان ركب العدو على صوب أرسوف وقد ضم الرجال والفرسان وهو سائر فى لبل حالك وسيل سالك وخيل حالك وحزب الشيطان وحرب الايمان وأصحاب الجحيم وأقطاب الضلال البهيم وخطاب الخطوب وانداب الندوب وكفاة الكفاح وصفاة الصفاح وأجناس الكفار وانجاس الداويه وأرجاس الاسبتار وكل غيران غيور وانه

وأفعوان معتقل أفعوان وكل أرقم في جلد أرقم وكل أزرق أشقر على أدهم فاحدقت به أحلاف عساكرنا احداق النار بالحلفاء ونقلت بنور ضوامرها الارض الى السماء وخاضت الغمرات وأفاضت الجمرات وأقامت المهيعات وشبت نيران الهنديات وأهبت رياح العربيات وألهبت شعل اليمانية وألهبت بها مقل الفرنجية وجال عليهم في الجاليش الترك على الاكاديش وأحدقت سهامها كالاهداب بالاحداق وبرزت بيضها لمعانقة الاعناق ولمع شرار النصال في دخان العجاج وخرقت بنات الحنايا الخرق حجاب العجاج وأفضى فيض ينابيع النبع الى اعجال الاعلاج فان الفرنج أغذوا في سيرهم وجدوا واحتدموا واحتدوا واصتدوا وقربت منهم الاطلاب واختلط بهم الاصحاب وتعانقت الرقاق والرقاب وأحرج القوم وتقطعت بهم الاسباب وقربوا من أرسوف وقد لاقوا منا الحتوف والخوف وضاق خناقهم وحان بهم ارهاقهم ونشبت الجاليشية فيهم بالنشاب وشبت نيران المرهفة في أولئك الاوشاب فاحتملوا في جلودهم الجرح ومن أجلادهم الطرح ووجدوا الموت الغالي مترخصا وأيقنوا بالدمار ولم يجدوا مخلصا وعرفوا أن البلايا عليهم متصلة غير منفصلة وان قواهم لما فوق ما القوة من النكاية غير محتملة فحملوا على الاطلاب المنصورة حملة واحدة زحزحتها عن مواضعها وكادت تخلعها شوارع القطاريات عن مشارعها لكنها تحيزت الى القلب المنصور وفازت من وجوه النصر بالصفور واستشهد في تلك الفورة الثائرة والثورة الفائرة سعداء استقبلوا بالاسنة الاسنة وأجابوا دعوة الله بان لهم الجنة فاصرعوا حتى صرعوا ولما أشرعت اليهم الرماح أشرعوا ثم كرت عليهم نخب الرجال كرة اردتهم وردتهم وصدقتهم عن الاستنان في جدد تلك الحملة وصدتهم وفرت منهم فوارس واتعست معاطس وفرشت بالعراء لهم أشلاء وأثخنوهم طعانا ورماء فنزلوا في أرسوف وقد كسروا وخسروا وقتل قوم منهم وأسروا وفي ذلك اليوم ثبت على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين وحل في أصحابه أسد العرين وسد الى نحورهم الشوارع وقلع منهم قلائع وثبت عسكر الموصل وكذلك قايماز النجمي في

موضعه الاول وكانت العساكر فى شعراء أشبه وشجراء متشبه فلما
رأى العدو اندفاع المسلمين قدامهم لم يأمن رجعتهم واقدامهم فعاد وعبر
أرسوف ونزل قريبا من الماء وبات السلطان تلك الليلة على نهر العوجاء وأقام
العدو يوم الاحد فى موضعه منكوبا بتعب تبعه ثم رحل يوم الاثنين سائرا
الى يافا ليستدرك بها فارطه ويتلافى ونازلتهم العساكر بالنوازل الى أن نزلوا
وقطعوا اطرقاتهم حتى وصلوا

(فصل من كتاب السلطان الى الديوان العزيز يشتمل على ذكر
الوقائع المذكورة بعد الرحيل من عكاء)

سار وافى مواضع مالم يزل عليهم فيهم سبيل ولا لقداح القراع فى مجالها مجيل
وعساكرنا تضايقهم فى كل مضيق وتطرقهم بالبلاء بل المنايا فى كل طريق
وهم على البحر لا يفارقونه ومن المورد الى المورد فى كل مرحلة لا يتجاوزونه فان
المياه قريب بعضها من بعض ومسيرهم بمقدار مسافة ما بين المنهلين واذ الزوال
يبعدوا بين المنزلتين وكانت لنا الى هذه الغاية معهم فى كل بقعة وقعة وفى كل
مرحلة مقتلة وفى كل منزلة منازلة وأوردناهم الردى فى كل مورد وقصدناهم
بالشدائد فى كل مقصد وسلبناهم الحمام فى كل سبيل وساء صباحهم ما فى
كل مغدى ومقيل وطريقهم على البحر كلها مضايق وأجم ورمال ومواضع
لا يتسع فيها المجال ولا يتهيأ قتال وكلما وجدنا فسحة ضايقناهم وأرهقنا حدود
العزائم والصوارم وأرهقناهم وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفر فيها يبور
ودائرة السوء على أهله بنا تدور وماء أهل النار يفيض بأسنا عليهم بفور ولولا
أن الله تعالى قد أخر موعده فى نصر أوليائه وقهر أعدائه لوقع الفراغ من شغلهم
وشملت نعمته لنا بتبديد شملهم فى يوم رحيلهم عن عكاء أرهقتهم البزكية الزكيه
ونكأت فيهم امنهم الرمية بل المنيه وكان الولد الافضل يومئذ متولى اليزك فتولى
اسعار لهب المعترك ووقفهم فى المضيق على الطريق وباشر جمعهم بالتفريق
وقطع آخرهم عن أولهم وعاق الساقة عن الوصول الى منزلهم وبتر وبتك
وقتل وهتك وقتل وسفك وطلب وأدرك وعبر الفرنج نهر حيفا لما دهمهم من

من الامر واحتموا بالمنزل الوعر ووصل عسكرنا وقد تمنعوا بالنزول وتجمعوا
في الوعور عن السهول ولم يبق اليهم نهج للوصول وأقام الفرنج في تلك المنزلة
أياما وقد نالت معاطسهم ارغاما حتى استجدوا عددا واستنجدوا مددا
واستجدوا ممن وراءهم عددا وأحكموا التدبير واستأنفوا المسير ومنها يوم
انفصالهم عن قيسارية بارزتهم الرماة وبرزتهم بالمبرية وأنفذت اليهم رسل المنية
وقتلت منهم مقتلة جيدة ولم تزل السهام الى مقاتلهم مصوبة مسددة الى ان
احتموا بالنزول وحلوا عقد تلك البلية عنهم بالحلول وقد قتلت من خيلهم عدة
آلاف راس لم ينفصل راكبها الا وهو من ثوب النجيع كاس ثم كانت المياه في
طريقهم متقاربة المناهل والمسافات غير متباعدة المنازل فاذا نزلوا بالمنزلة
ارتزوا الى المنزلة ولاذوا هم أهل النار بالماء وقادهم العجز عن الاحتمال الى
الاحتماء ثم استقلوا منتصف شعبان سائرين على البحر بعادتهم وعادتهم
شاكين في منعتهم ممتنعين بشوكتهم وشكتهم والخيل تجري بهم جريان السيل
والراجل يلتف عليهم في مثل سواد الليل والعساكر الاسلامية جائلة في عراضهم
مائلة الى اعتراضهم موقفة في مرامها مفوقة لسهامها محرقة أهل الجحيم بضرامها
وللمناشب فيهم النشاب وأعجزهم وأزعجهم وأحرجهم بكثرة النكاية فيهم وأرهجهم
كابروا وصابروا الى ان وصلوا أرسوف وقد شارفوا الخوف وقاربوا الحتوف
فحملوا بجملتهم حملة واحدة وجاؤا كالسحاب بارقة وراعدة واندفعت الاطلاب
الاسلامية امامها ولم تثبت قدامها حتى أبعدوا بجملتهم في حملتهم وتفردوا
بحركتهم في معركتهم وظنها السلطان هزيمة وبانت بالعاقبة انها كانت عزيمة
وكان القلب المنصور ثبت فئة للمتحيز وموئلا للمتفوز المتحرز ووقف الاخ العادل
ثابتا قلبه نابتا طلبه وكر عليهم في حزبه ذوي الحمية والانف ولابيه
والهمم العلية كرة ردتهم واردتهم وصدتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم
واستدركت مفرط في النوبة من النبوة واستمسكت بما استأنفته في العزمة من
النبوة وقتلت منهم كندا كبيرا وعددا كثيرا وعاد نظيم هامهم بالعراء نثيرا ونزلوا
بارسوف واحمى للانوف فذل جندهم وقل كندهم وهذا طاغوتهم الهالك

بسيف سيف الدين كان مطاع أولئك الملاعين وابليس تلك الشياطين والمعروف بسيرجال واستمر حكمه قبل وصول ملوك الاشراك وتحت حكمه عدة كثيرة من القوامص والبارونية ونفذ أمره على الداوية والاسبتارية وكان من عظم شانه وفخامة مكانه انه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتشمين فاقتل حتى قتلوا ولابذل روحه حتى بذلوا وجزع ملك الانكتير لمصرعه وفزع من ورود مشرعه ونزلت العساكر الاسلامية على الماء وهو بعيد من مخيم الكفار وخيمت عليه بحكم الاضطرار ثم رحلوا وقصدهم العسكر فصادفهم بقرب يافا وكل منهم استدرك بقصده اياها تلقه وتلافى فحال دونهم لقدح منونهم مجيلا ومن جمعهم بقمعهم مديلا وعلى قومهم بقومهم مخيلا حتى باسطهم في ميادينها وخالطهم في بساتينها ورابطهم بالاسود في عرينها وأسرى الحين الى سراحينها فما وصلوا المدينة الا وقد تخطفوا من حولها واستولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب وهولها وخافوا من فريضة مسئلة النكاية وعولها وماصدقوا كيف نجوا وأفلتوا وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا وعلموا أنهم ان خرجوا أخرجوا وان سلكوا اهلكوا وزعموا أنهم اذا صبروا املكوا

((ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج الى يافا))

رحل السلطان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ونزل بالرملة واجتمعت الاثقال كلها به في تلك الرحلة ورحل ايلا وأصبح على يبنى وجاوزها الى نهر أمر أن الخيام به تبنى وزرنا بيبنى قبر أبي هريرة رضوان الله عليه وتبادر الناس للتيمن به اليه ورحل ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر وشرع فيما عزم عليه من الامر

((ذكر خراب عسقلان))

لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الامراء وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء وأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها للعجز عن حفظها على مابها ووافقه الجماعة وقالوا قد ضاقت عن صونها الاستطاعة فان هذه يافا وقد نزلوا بها وسكنوا فيها مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ولا سبيل الى حفظ

المدينتين ولا تفى الحال بحماية البلدين فان كل واحد منهما يحتاج فى حفظه الى عشرين ألف مقاتل والى الاستكثار لاجل ذخائره من كل حاصل فانظر الى أصوب الرأيين فقدمه وأبصر أخطر الداءين فاحسمه واعمد الى أشرف الموضعين فحصنه وأحكمه وتيقن أن عسقلان اذا وصلوا اليها وهى سالمة تسلموها واستظهروا بها وأحكموها وتقووا بها على سواها وبلغوا من بغيتهم وبغيهم الى منتهاها واقتضت الآراء اقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الامراء حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم ومن قصده على عزم ووصل السلطان الى عسقلان وشرع فى هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان ولو حفظت لكان حفظها متيقنا وصونها ممكنا لكن وجد كل له متجنبا متجبنا وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين وعادت بعد ذلك بعصرة المسلمين وقال من تعلل واعتذر عن دخولها وحل عقد عزمه عن حلولها تدخلها أنت أو أحد أولادك فتدخلها أتباعا للمراد لك فحينئذ لم يجد بدا من نقض أسوارها وغض أنوارها وفض سوارها وتعفية آثارها وتطفية نارها ولو كان وقع الاعتناء بابتنائها مذ يوم فتحها واقتنائها لما تطرق الى أبدها خلل ولا الى يدها شلل ولا الى حدها فلل ولا الى ودها ملل وقد ركبت اليها وطفتها واستحسنتها واستلطفتها ورأيت سورها قبل فصم سواره ونورها قبل ذبول نواره فما رأيت أحسن منها ولا أحصن ولا أحكم من مكانها ولا أمكن وسكانها كانوا فى رفاهيه فانتقلوا منها على كراهيه وباعوا أنفس الاعلاق بابخس الاثمان وفجعوا بالاوطار والاوطان وساءت أسواؤها ونأت أنواؤها وأناخت لأواؤها وباخت أضواؤها وسمع غناء المعاول فى مغانيها المعوله ورأيت دائرة الزلزال فى دورها المتزلزله وناحت تلك النواحى ومسحتها المساحى وجرفتها الجارف وأخافتها المخاوف ونكرتها المعارف وبهرجتها الصيارف ونعقتها النواعب ونابتها النوائب ونزلتها النوازل وغالتها الغوائل وسفتها السوافى وعفتها العوافى وخلت مدارس آياتها من التلاوه وتخلت مجالس مكرماتها عن الطلاوه وصوحت مجانى مبانيها وطوحت معانى مغانيها ودجت مجالى معاليها وعادت

مقاوى مفارقها ووقفت على طلولها واستوقفت وأسبلت عليها وأسفت وتلهبت وتلهفت وشاهدتها وقد حسرت وحفيت ومحي سنا محاسنها وخفيت وبكيت تلك الربوع وأهديت لسقياها الدموع فلقد أصيب الاسلام بعروسها وعبست الوجوه لعبوسها حين تم تقويضها فلما خلت مساكنها من سكانها وتخلف بالبيوت رماد نيرانها رحل السلطان يوم الثلاثاء ثانى شهر رمضان ونزل على يبنى بعد أن ترك سور عسقلان وقد تعذر أن يبنى ونزل يوم الاربعاء ثالث الشهر بالرمله وتفصيل جمله باد على التفصيل والجمله وأمر بتخريب حصنها وتخريب لد وبذل كل فى ذلك الجهد وركب جريدة الى البيت المقدس وأتاه يوم الخميس وأعاد اليه رسم التأنيس وخرج منه يوم الاثنين ثامن شهر رمضان بعد الظهر وبات فى بيت نوبه وقد نال عمارته من مصالح القدس المنوبه وعاد الى المخيم يوم الثلاثاء ضحوه وقد أكمل من كل ما رامه حظوه وفى يوم الاثنين ثامن شهر رمضان وصل صاحب ملطيه معز الدين قيصرشاه بن قلج أرسلان ملتجئا من أخيه وأبيه الى السلطان فتلقاه الملك العادل وجاءته منه الفواضل وأقام فى الخدمة السلطانية مده واستجد بها جده وقوة وشده واستظهر بالمصاهره وقوى منها بالمضافره فانه تزوج بابنة العادل وعاد بتاريخ مستهل ذى القعدة تاج الوسائل

وفى هذا التاريخ وهو يوم الاثنين خرج ملك الانكتير فى خيالته متنكرا ليكون الحشاشه لهم وحطا به مخفرا فخرج عليه الكمين ونشب به اللعين وجرت قتال عظيم وكان لاصحابنا موقف كريم وكاد الملك يؤخذ ويوقذ والطعن فى لبته ينفذ ففداه فارس من أصحابه بنفسه وشغل طاعنه عما عليه من حسن لبسه فاشتغل به وأسره وأفلت اللعين وأخفى أثره وقتل وأسر من خيالته جماعه وانهزموا من أمر تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم هيم ناعه وجرت أيضا يوم الجمعة ثانى عشر الشهر حرب بين اليزكيه وبين أهل الكفر سفرت لنا بها وجوه النصر وقتل مقدم لهم معروف بالشجاعة موصوف ورحل السلطان يوم السبت ثالث عشره ونزل على تل عال عند النطرون وهى قلعة منيعة معجبة

للظنون والعيون فامر بهدمها وهدمها وفل غربها وثلمها وأشاع بها الاقامه وأفاض فيها على العسكر الكرم والكرامه وتمكن الناس هنالك من الاحتياط على الانفال وانفاذ الجمال لنقل الازواد والغلال

(فصل من كتاب الى الديوان العزيز فى وصف مطاولة الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والسلاح)

قد تمكن العسكر طول البيكار وانضاه قتال الكفار بالليل والنهار لاسيما فى هذه السنين الاربع فانه لم يبرح فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولا مربع ولا مشتا ولا صاف الاحيث صف العدو وصاف وقد تكررت عليه الزحوف وتعثرت به الحتوف ونفلت منه السيوف وتحللت به الصفوف وتغضت بآحاده الالوف وتغضت لجنى بيضه وسمره من ورق الحديد الاخضر القطوف حتى سئم ومل وضجر وكل وكم عقد عزمه وحل وأنهل نصله من دم الكفار وعل وأمل النصر فقال عسى ولعل وأما خيوله فقد أجهدها الجهاد وأنضاها الطراد وفرى جلودها الجلاد وعزت منها لكثرة الجراح الجياد وأعادت شهبها كناحدود البيض الحداد وحيث داخلها الرعب من خروج الجروح للجروح وتفريق السهام منها بين الجسم والروح صارت تنفر من رنة الجنبه وانه المبريه كان عندها للاوتار أوتارا واظا رات النصال فى لباتها أوكارا أوكانها المارآت انها تباريها فى المطار وتجاريها فى المضمار ثارت لادراك الثار وهذا سبب ماحدث من النفار وماعادت الآن تدخل على راجل الكفار وأما العدد فقد فقدت بالكليه وعدمت وتكسرت وتحطمت وتقصفت وتقصمت وتقصدت وفنيت قبل المقاتل بها وفى بدمن استشهد استشهدت وأما النشاب فانه قد فنى بعد أن اتخذ من أخشابه جميع ما وجد واقتنى وقد عدمت أشجاره فى منابتها وأعوزت أخشابه من مناحتها ونفضت الكنائن وانفضت منه ومن كل ماىذخر الخزائن ومابرح الصناع فى الممالك بمصر والشام ومايجرى مجراها من بلاد الاسلام يبرون ويريشون وينصلون ويعملون ويكملون ويحملون واحتيج فى هذه السنين التى استمر

بها القتال الى أحوال كثيرة لايفي بها الصناع ولا يرفعها العمال وحسبها ان
صولها أعدمت من حديدها المعادن وخلت من ذخائرها الاماكن هذا
الخادم قائم باداء هذا الفرض وحده مستوحش في قطع دابر المشركين غربه
وزمه وحده وما استمر على مساعدته وموازرته ومعاقدته الا صاحبا
الموصل وسنجار وكلاهما عن سنن الاسعاف والاسعاد ما جار فهو يحضر تارة
نفسه وآونة بولده ويستمر من جد الموازرة على جدده ويواظب بعدده
عدده ومدده في مطاولة مدده

(ذكر ما تجدد لملك الانكتير من المراسلة والرغبة في المواصلة)

وصلت رسل ملك الانكتير الى العادل بالمصالحة على المصافاه والموافاة في الموافاه
والاة الاستمرار على الموالاه والاخذ بالمهاداه والترك للمعاداه والمظاهره
بالمصاهره وترددت الرسل أياما وقصدت الشاما وكادت تحدث انتظاما
واستقر تزوج الملك العادل بأخت ملك الانكتير وان يعول عليهما من الجانبين في
التدبير على أن يحكم العادل في البلاد ويجري فيها الامر على السداد وتكون
الامرأة في القدس مقيمة مع زوجها وشمسها من قبوله في أوجها ويرضى
العادل مقدمي الفرنج والداوية والاسبتار ببعض القرى ولا يمكنهم من الحصون
التي في الذرا ولا يقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان ولهم منا أمان
واحسان واستدعاني العادل والقاضي بهاء الدين بن شداد وجماعة من الامراء
من أهل الرأي والسداد وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز
الدين بن المقدم وحسام الدين بن بشارة وقال لنا تمضون الى السلطان وتخبرونه عن
هذا الشان وتسألونه أن يحكمني في هذه البلاد وأنا أبذل فيها ما في وسع الاجتهاد
فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب وما أخر الجواب وشهدنا عليه بالرضا
وحسبنا انه كل الغرض وانقضى وذلك في يوم الاثنين تاسع عشري رمضان وعاد
الرسول الى ملك الانكتير لفصل أمر الوصله وازاحة الجلة وازاحة العله
واعتقدنا ان هذا أمر قد تم ونشر انضم وصلاح عم وصلح أدم وحكم مضى
واستحكم به الرضا وان الانثني غيل الى الذكر وتزيل وساوس الفكر وان

بركوب الفضل النزول عن الذحل وان الشكر يجلب الشكر ويبدل بالعرف النكر وان الوفاق يؤمن من الوقائع وان القراع يقضي بانقضاض القارح القارع وان الحرب بكسر الحاء وحذف الباء سلم وان غرم العرس في العسر يسر وغنم وان هذا الاخ لتلك الاخت كفو وان هذا العقد للخرق المتسع رفو وان الكدر يعقبه صفو وان التزويج ترويج وتقويم لما فيه تعويج وشاع الذكر وضاع النشر وذاع السر وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤسهم فقصوه على قسوسهم وقسروا على عروسهم فجبهوها بالعذل واللذع ونجهوها بالقدع والقذع وقالوا لها كيف تفجعينا بالجمع ملم مؤلم وتسلمين بضعك لباضعة مسلم فان تنصر تبصر وان تسرع فانعسر وان أبى أبيناه وان أتى أتيناه وان خالف خالفناه وان حالف حالفناه وأي وجه ههنا للائتلاف ونحن لاختلاف الدين ندين بالخلاف فرهبت بعد ما رغبت وبطلت بعد ما طلبت وسلت بعد ما سالت ونزت بعد ما نزلت وكرهت وكانت شرهت وكانت اكتحلت فودت أنها ما رهت فأرسلت الى الرسول وأقبلت عليه بالقبول ثم تصلبت في القسم وأقسمت بالصليب أنها مجيبة الى التقرير والتقريب وانها مسارعة الى التمكين لكن بشرط الموافقة في الدين فأنف العادل وعدل عن استئناف الحديث وأبى الله أن يجمع بين الطيب والخبيث واعتذر الملك بامتناع أخته وانه في معالجتها وتعرف رضاها في وقته وكان قد استقر مع تمام العهد وانتظام العقد مفاداة كل أسير بأسير كبير بكبير وصغير بصغير وبشر أولياء الطاغوت بصليب الصلبوت فبطل التدبير وعطل التقدير وذلك ثاني يوم العيد

وفي يوم العيد وهو الثلاثاء أعد السلطان من الليل خلع الاكابر حتى سارت اليهم بكره وأحدث بحسن احتبائه لكل عين وقلب قرة ومسره ثم استدعاهم الى سماطه ونشر لهم بساط نشاطه وجلس الملك معز الدين قيصرشاه بن قلج أرسلان عن يمينه وأعزه بتقريبه وتمكينه ويليه حسام الدين خضر أخو صاحب الموصل ولسمو منزلته دنو المنزل وعلاء الدين بن اتابك الموصل عن يساره وهو يؤثره باختصاصه ويخصه بايثاره ومجاهد الدين برنقش مقدم عسكر سنجار

جالس والاكابر كلهم هناك في منزلته منافس ثم تفرق الناس بأنس جامع وعرف شائع وعرف ضائع

(ذكر نزول السلطان جريدة بالرملة ليقرب من العدو ومواقعته له في كل يوم)

تواتر الخبر بأن الفرنج على عزم الخروج وانهم على الاجتماع في تلك المروج فسار يوم الاثنين سابع شوال وقد أركب العسكر للقتال فلما بلغ قبلي كنيسة الرملة جبل الحال حالي الحلة خيم وبات ونوى البيات والاثبات وجاء الخبر في غد بأنه خرج العدو الى بازور في أو فرمدد وتسارع العسكر اليهم وتكاثروا عليهم وقربوا من خيامهم وأخذوا عليهم من ورائهم وأمامهم وناشبوهم بالنشاب وكاثروهم بالاوباش والاوشاب فركب الفرنج اليهم ركبة أوجبت رهبة وحملوا على الناس حملة واحدة وحلت بجاجة عليهم عاقدة فاندفعوا بين أيديهم فادركوا صعا فاطمعوا فيهم وفقد من المسلمين ثلاثة بالشهادة وكانت معاتهم الى السعادة وكذلك في كل يوم يركب السلطان ما يخلو من وقعة ولابد للكفار فيها من صرعة

(ذكر وقعة الكمين)

وفي ليلة الاربعاء سادس عشر شوال أمر السلطان رجال الحلقة المنصورة بأن يكمنوا في جهة عينها في المواضع المستورة فكمنوا وأمنوا وصبروا وانتظروا وخرجت الفرنج للاحتشاش وباشروا اغترار انحصارهم في الاحصار بالانتعاش ولقيتهم اعراب على عراب بصوارم في اياديهم كانها بروق في سحاب فركبت اليها من الخيام ورحبت في ترحيب صدورها بصدور الحمام فاندفعت العرب أمامها وحققت انهزامها وما قدرت على قصده وضع الكمين لانسداد الطريق بالاساد الشم العرانين دون العرين فرت العرب في جانب والكمين في جانب والخيل تركض بسالب من سالب وناهب من ناهب ونجا العرب وفاتهم الطلب وحضر وأسارى ونهاب وافراس واسلاب فأما أصحابنا في الكمين فانهم أبصروا الفرنج ناهضين وفي المعترك راكضين تشربوا ظنا انهم على قصدهم فلما بصروا بهم نشبوا بردهم على وردهم وركضوا اليهم

على بعد فاتبعوا الخيل بما يدوا فيه من احضار وشد ووصلوا الى الفرنج والجياد قد ازحت والقوى قد نزحت فاضطروا الى القتال وقاتلوا على الاضطرار وقتلوا جماعة من كفاة الكفار واستشهد ثلاثة من المماليك الخواص الكبار وهم اياز المهرانى وجاولى الغيبدى وصاروو ومروا فى جنات النعيم بما اليه صاروا وأسر من الفرنج فارسان معروفان وأحضرا عند السلطان وانفصلت الحرب وقت الظهر وعاد حزب الاسلام عن حزب الكفر وجلس السلطان والقلائع تعرض عليه والخيل تقاد اليه والاسارى يحضرون بين يديه وأخوه العادل عنده جالس وكلاهما لاخيه مؤانس

(ذكر اجتماع العادل بملك الانكتير)

وفى يوم الجمعة ثامن عشر شوال ضرب الملك العادل بقرب اليزك لاجل ملك الانكتير ثلاث خيام وأعد فيها كل ما راد من فاكهة وحلاوة وطعام وحضر ملك الانكتير وطالت بينهما المحادثة ودامت المنافثة والمنافثة ثم افترقا عن موافقة أظهراها ومصادقة قرراها ومضى الملك واستصحب معه الكاتب العادلى المعروف بالصنيعة ليتفقد الاسارى الذين بيافا ويتدارك أمرهم ويتلافى وكان قد وصل صاحب صيداء من صور برسالة المركيس وانه رغب فى سلوك نهج التأنيس وأن يكون للسلطان مصالحا وله على الطاعة مصافحا حتى يقوى يده على ملك الانكتير وينفرد هو بالملك والتدبير وعرف ملك الانكتير بالحال فوصل رسوله أيضا بالاحفاء بالسؤال ومضى العدل مع صاحب صيداء الى المركيس على شرائط قررت ونسخ أيمان حررت وأمارات الملك فلم تسفر عن المقصود ولم يجر من تلونه الا على المعهود وكلما أبرم عهدا نقضه ونكثه وكلما قوم أمرا عكسه وعاثه وكلما قال قولا رجع عنه وكلما استودع سرا لم يصنه وكلما قلنا بنى خان واذا خلنا أنه يزين شان وعن كل خزى أبان وفى يوم الاحد سابع عشرى شوال عاد السلطان الى المخيم بالنطرون وأقام على الثبات والسكون وفى يوم الخميس مستهل ذى القعدة سار ابن قليج أرسلان صاحب ملطية مودعا وركب السلطان وسار معه مشيعا وعقد له

على ابنة الملك العادل بصداق مائة ألف دينار ومضى وقد حصل على ذخائر من استبشار وافتخار واستبصار واستنصار ويسر ويسار

ورحل الفرنج يوم السبت ثالث ذى القعدة وتقدموا الى الرملة ونزلوا بها وخيموا فى أقطارها وسوّوها ولم نشك فى أنهم على قصد القدس بأهل الرجز والرجس وأقام السلطان وفى كل يوم له سرايا للكفر منهار زايا ولنا فى كل يوم وقعة شديدة وفتكة بالكفر مبيدة وما يخلو يوم من أسرى نقاد وغنائم تستقاد ثم توالت الامطار وتوعرت السهول وتوحلت الاوعار فعزم على الرحيل وأمر بالتحويل

((ذكر الرحيل الى القدس يوم الجمعة الثالث والعشرين من ذى القعدة))

وركب السلطان يوم الجمعة والغيث نازل والنصر شامل وفضل الله متواصل ونحن معه سائرون ومن بركة الجهاد الى بركة القدس صائرون والقاضى بهاء الدين ابن شداد يسايرنى وفى مسئلة من الخلاف يباحثنى ويناظرنى حتى وصلنا الى القدس قبل العصر وقد نشر للسلطان لواء النصر ونزل بدار الاقساء المجاورة لكنيسة قمامه ونوى بها الاقامه وشرع فى تحصين المدينه لتحصيل السكينه وصلى يوم الجمعة مستهل ذى الحجة فى قبة الصخره وضجت الالسنة فى الدعاء له بالنصره

وفى يوم الاحد ثالث ذى الحجة وصل حسام الدين أبو الهيجاء من مصر بعسكر مجر وتبعته بعد ذلك العساكر المصرية ووصل الخبر بنزول الفرنج بالنطرون وآذن ذلك بتزاحم الافكار وتراجم الظنون وتزايل السكون وجرت يوم الخميس سابع الشهر وقعة تم على العدو بها صرعه فان السلطان نفذ تلك الليلة الى اليزك قريب بيت نوبه عدة من الفرسان مجرة لم يستصحبوا الا جنيهم الجنوبيه فوقعوا على سرية للفرنج بيتاً صلوها وأسروها وقتلوها ووصلوا بزهاء خمسين أسيرا الى القدس وعاد ذلك منا ببرد القلب وطيب النفس وكانت بشرى عظيمه ونعمى كريمه وحسنى عميمه وكذلك سابق الدين صاحب شيزر ومن معه من العسكر واقعهم يوم العيد فقتل من مقدميهم ستة وأسر أربعة ونزل بالمعركة

منهم مصرعه وكسب منهم خيلا وكسبهم ويلا

﴿ يوم عيد الاضحى بالقدس ﴾

كانت الوقفة بمكة يوم الجمعة في هذه السنه وتضاعفت للحجيج الحسنة على الحسنه غير أن العيد بالقدس كان يوم الاحد فلم ير ليلة الخميس الهلال أحد ونصب السلطان خارج قبة الصخرة الخركاه الخاص وصلى الناس في القبة العيد وملؤا حواليها العراص ثم انصرف السلطان وقد برّ عمله ودر أمله ووفر أجره وأسفر فجره

﴿ وقعه ﴾

في يوم الجمعة خامس عشر ذي الحجة أغار على طريق الفرنج بالرملة سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وكلاهما بجد في الجهاد ولا بقصر وأخذا غنائم وأموالا وساقا خيلا وبغالا وكسبا أحمالا وأثقالا وأسرا ممن كان مع القافلة لاثنين ووقفوا بين يدي السلطان على ركب الذل جاثين وتوالى على الفرنج النهوض والنهوب وكثرت منهم الكروب واستعرت فيهم الحروب وزادت الكروب وضاقت عليهم الارض واستولى على عقود عزائمهم النقض ورأوا أنهم قهروا فقهقروا وأحاط بهم البلاء من الجوانب فاصبروا ورحلوا الى الرملة عائدين وباسهول من الحزون عائذين فان الثلوج دامت على أولئك العلوج وصدتهم عن الدخول والخروج ونزلت بهم النوازل في تلك المنازل فنفروا راحلين الى السواحل وذلك في يوم الخميس الثامن والعشرين من ذي الحجه فطابت قلوبنا بما وضح في لنصر من المحجه وثبت للحق على الباطل من الحجه

﴿ ذكر ما اعتمده السلطان في عمارة القدس وحفر خندقه وتجديد سوره واعادة رونقه ﴾

وفي هذا اليوم وصل من الموصل جماعة من الحجارين وعدتهم خمسون رجلا اذا اجتمعوا قطعوا جبلا وقد سيرهم صاحب الموصل الى القدس للعمل في الخندق وتعميق الحفر والقطع في الصخر وقد سفرهم بنفقه وجعلهم من الاحسان على ثقه واصحبهم بعض حجابه وانداهم بندى سحابه وسير مع المندوب مالا يفرقه عليهم في رأس كل شهر ويتعاهدهم في كل يوم . . . . سنه

وأنواع صنعتهم بكل حسنه وصمم السلطان على حفر خندق جديد عميق وانشاء سور وثيق واحضر من أسارى الفرنج قريب ألفين ورتبهم فى العمارتين وجدد أبراجا حربية من باب العمود الى باب المحراب وأنفق عليها من المال ماخرج عن الحساب وبناها بالاحجار الكبار الثقال فجاءت أرسى وأرسخ من الجبال وكان الحجر الذى يقطع من الخندق يستعمل فى بناء السور واذا تكملت العمارة على مارتبه للقدس المعمور كان آمنا من قصد العدو المدحور وفى عصمة الله من المخوف المحذور وقسم بناء السور فى مواضعه على أولاده وأخيه الملك العادل وأمرائه وصار يركب كل يوم ويحض على بنائه ويخرج الناس لموافقته على حمل الحجر الى مواضع البناء ويتولى ذلك بنفسه وبجماعة خواصه والامراء ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية وحواشى العسكر والاتباع والرعية والسوقية وكنت أركب فى عدتى بأتباعى وأحفظ قلب السلطان فى نقل الحجر وأراعى فبنى فى أقرب مدة ماتعذر بناؤه فى سنين وبذل جهده فى التحصين لتأمين المؤمنين

((ذكر من توفى من الاكابر والمعروفين فى هذه السنة))

((وفاة تقى الدين))

توفى الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخى السلطان يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان وهو على حصار ملازكرد من عمل ارمينية وقد سبق ذكر مسيره الى بلاد الجزيرة لاستمداد الامداد الكثيرة واستجناد الانجاد والاستنجاد بالاجناد والجمع من جميع الجهات للجهاد والعود سريعا بالحشود الجامعة والجموع الحاشدة والجيوش المترادفة المترافدة والجنود المتوافرة المتوافدة والقواضب القاصلة والهواضب الهاطلة والمصافحين بالصفاح والمختالين فى أعطاف المراح بأطراف الرماح والحاملين الجبال على الرياح والمتعطشين الى انجاع النجيع لارواء الارواح ومكث السلطان على انتظاره متوجسا الاخباره متوحشا من ابطائه متعطشا الى انبائه منتظرا لوفائه فلما أخذ الفرنج عكا نسب ذلك اليه واحتسب الله عليه

فأما تقي الدين فانه عن له أن يمضي الى ميافارقين واستصحب البهاء عسكر ماردين ونفذ الى السويداء وانتزعها من أيدي أصحابها واستحوذ على جميع ما بها وحاصر مدينة حاني فتملكها وكانت له مقاصد في ديار بكر فادركها واقتطع بلادا من ولاية ابن قرا ارسلان واقطعها وأرعب القلوب بما ابتدأ به وابتدعه وروعها وتأخرت عنا بسبب ذلك عساكر ديار بكر وحصلت منه على عذر وذعر وراعت هيبته وهبت روعته ودبت الى الخواطر مخافة اخطاره وشبت في القلوب لوافح ناره وارتجت تلك الآجام من زاره وازورت من مزاره وبليت تلك البلاد ببلائه وهابت الاعداء هيبة أعدائه وزلت الاقدام لاقدامه وانخفضت الاعلام لاعلاء أعلامه ونفى عدله من جبلة الجور جبلة الجور وأذهب بذهابه اليها فوران الفتنة على الفور ودخل قلب قلب وحكم في عداته الغلب القضب وقصد عسكره عسكر بكتمر فكسره ثم سرح بالاحسان وأطلق من أسره ففار بكتمر واشتعل بنار الانف انفه واعتلق باذن الشنف شنفه واتقدت حميته وحميت نخوته وغيرته غيرته وعيرته رعيته وأودعته الهم همته وحركته عزمته فاجتمعت جماعته وأمته أمته وما أرجأه تجمع رحاله رجاله وما أبطأه عن اغاثته ابطاله وأجناه ثمر الطاعة أجناده وأنجاه بجهد الاستطاعة أنجاده وجر عسكرا مجرا وساق الى الحرب بحرا وأوقد بالجمع جمرا وجاب بيضا وسمرا ودهما وشقرا وصوارم بترا وصواهل ضمرا وانهض كمته وكماته وحشد رعيته ورعاته وذوي حميته وحماته وساكني ولايته وولاته ونسوره وبغاثه وسماته وغثاثه ومتانه ورثاته وشباعه وغرثانه وجاء في سواد اسود منه الجو وانسد بظلمه الضو وتحلى بنجومه ليل العجاج وتجلى بسفوره صبح الهياج وأبرق وأرعد وتحدر وتصعد وسار بين الآكام بالآكام وضاهى الاعلام بالاعلام وأذكى مذاكيه الجياد وأجرى ضوامره وهواديها قد ملأت الوهاد وأدنى الى الآساد الآساد وأغرى بالجلاد الاجلاد وجذب الجماح عرانه وجلب الكفاح رعانه وأشرع للمواح رماحه وأطلع في سنا الصباح صفاحه وماجت غدران دروعه وهاجت غدران جموعه ومالت

المران وجالت الاقران وسال المرت ومرت السيول وتسهلت الوعور
وتوعرت السهول وانفض الفضاء وانقض القضاء واشتكت الارض من
الحوافر الحوافر وقعا فأثارت لفرط تألمها على شرط تظلمها الى السماء نقعا
وحثت في وجه الفلك ترابا وحثت لأرباب الارباب طعانا وضرابا وخاف على
خلاط واختلاط من المخافه فقصر الى الملك المظفر طول المسافه فلما عرف اصحار
خادره وانتشار بوادره وانتهاض قوادمه وارتكاض صلادمه وانقضاض
شهب قواضبه وانفضاض دهم سلاهبه اصطفاه عن اصطفاه من الانجاد
الانجاب وفض على الفضاء سحاب السحاب وبسط على البسيطة رداء الردى
وأعدى بعلوه على العدا وركب في كل ضرب بعد الضرب ضربا من الضرب
وكل بطل لحق المبطل محق الطلب وكل باسل سالب من كباش الاقران القرون
وكل عامل بعامل عين بالمنى وعيون المنون وكل شجاع أشاجعه وصائل القواطع
وكل مقدام قوادمه عوائق الوقائع وكل طائر بأجنحة السوابق زائر بأسلحة
البوائق محلق بخوافي الخوافق مطرق الطوارق الطوارق وكل ذمر مشيج
بالاذمار شجيج وكل قاس قوسه عاطف وكل راع نصله راعف وكل صادع عزمه
صادق وكل رام لحظ سهمه الى المقاتل رامق وأبدر جاء الرجال بأياديه وقوى
عزائم أوليائه لاضعاف أعاديه ورغب بالرغائب وأملى ضيوف الآمال بفيوض
أمواه المواهب وحثى المنتخين وانتخب المنتخبين وأقدم في كل مقدم مقدام
وضيغم ضرغام وهمام همام ومعتقل أسمر يرشف ظلم القلوب ومشتمل
ابيض يكشف ظلم الحروب وكل من يخال الطعن ضرب القداح الضرب بحد
السوام وكل من ينال اعتزاز الحد بحد الاعتزام وكل من يعد أقاحي البيض
شقائق ويصل بها اذا فارقت أغمادها المرافق وكل من عنانه في عين الجماح
وسنانه مرود عيون الجراح وكل من ذبال سمهريه يلتهب وذباب مشرفيه
يضطرب ووجوه صوارمه تبكي وتضحك وعيون لهاذمه تفتك وتبتك ولحاظ
سهامه عن حواجب قسيه ترمي وسواعد سيوفه من أيدي الايد تغدو وتدمى وكل
أشعث الهامة ذي همه تشعب صدع كل مله وكل شهم شيظمي أباجي

مجرب محرب مقرب على مقرب مظهر على مطهم جار بعرجم بار بغذم ضار بارقم جواد حليم تحمد في الوغى جهلاته على جواد كريم تدعو الى الردى صهلاته وكل بحر مستلئم بغدير وكل من عنده اذا لبس الحديد انه لابس حرير فلما ابصر عسكر خلاط بعسكره اختلاط ودلوا استدرك الغلاط وجاش وطاش ورام من عثرته الانتعاش وولى هزيما ولوى هشيما وأغنم العسكر التقوى سلاحه وخيله وجر على تراب الذلة ذيله وظفر الملك المظفر بالملك وأسلم العدا الى الهلاك وقيد اليه أمراء أسروا وأصحاب كسروا فأطلق سراحهم وأمرض بتشريفاته جناحهم ثم رحل من صحراء موش وساق الى خلاط الجيوش ثم بدا له من حصارها فأقرها بسلب قرارها وعرج على قلعة شميران فتشمر لها وفتح مقفلها وكان مجد الدين بن الموفق وزير خلاط بها محبوسا ومن حياته يؤوسا فاصه واستخلصه وكسر حتى طار منه قفصه وانه لمن أعجب القصص لو شرحت قصصه ثم راح الى ميلاز كرد ونازلها بالتضييق وقاتلها بالمنجنيق وحشد اليها الامداد وأورى فيها من عزائمه الزناد وجاءته عساكر أرزن الروم منجدة من جده موجدة لها من موجده تقدمها الملكة ماما خاتون بنت سلدق كانها في الاهبة والابهة من ملوك سلجق ووفد الى تقي الدين الجنود ووافقته السعود وخافته في غاباتها الاسود وغربت به العقول وعلقت به العقود وتوطدت له البلاد وتوطأت وتهيبت وتهيأت واستدنته الممالك القاصيه وأطاعته المقاصد العاصيه وتشنفت له مسامع الاقطار بأقراط السمع والطاعه وعم الامحال تلك المحال فقص بما أفاضه من فواضله مجاعة الجماعه ورجي وخشي واعتفي وغشي وامتلأت الطرق بالوفود والجنود وتوالت اليه أمداد البأس والجود فبيناهو في غفلة من القدر وغفوة من الكدر وغرة من الغير وقد ألهاه حديث الدنيا عن الحادث الداني وجنى الحياة عن الموت الجاني وزيادة الامل عن زيارة الاجل ونزل المنى عن نوازل المنون وسكن الاتراب عن التراب المسكون ظهر له سر الغيب المكنوم وأدركه القضاء المحتوم ومرض أياما ثم قضى وانقرض عهده وانقضى وكتم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته الى أن خرج من

ذلك الاقليم وجاوزه وفاته وفتحت ميلاز كرد بابها وسلم الرب أربابها وخرج ولد تقي الدين بعسكره وماله سالما وجد في مقام والده باظهار شعاره قائما وجاءت رسله الى السلطان تسأله في ابقاء بلاد أبيه بيده حتى يبقى مستمرا على جدده وطلب من السلطان الميثاق له بأغلظ الايمان فلم يقبل الشرط واشتط فشط وجلب له الشطط السخط وأقام على التباعد ولم يتدارك بالوصول ما منه فرط ونسبوه في استيحاشه الى العصيان وسعوا له في أسباب الحرمان حتى انتدب له الملك العادل فمضى لاحضاره وجرى الامر على ايثاره وسيأتي ذكر ذلك في حوادث سنة ثمان

(وتوفي في هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين
ابن أخت السلطان)

توفي بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان يوم وفاة تقي الدين فأصيب السلطان بابن أخيه وأخته في يوم واحد وكلاهما له أقوى ساعد وأوفى مساعد فيالله من حسام أغمد وهمام ألحد وركن وهن وكنز دفن وبحر غاض وزند هاض وصبح كسف وبدر خسف اقتدغامت الايام لغممه وثكلته الدولة ثكل أمه فانه كان واحدها وعضدها ومعاضدها وهو الذي فتح نابلس وأبقاها السلطان معه وأبقى فيها من سنن العدل ما شرعه وقد سبق في الكرما ذكره وذكر في المكارم سبقه وفرط حذقه ووصفت مقاماته ورقمت بصفاته فان له مواقف في الجهاد مشكوره ومقاطف لجني النصر مشهوره فقطع الاجل عليه طريق الامل وأعاد حلية الزمان به الى العطل وأوهن عقد شبابه الطرى وحله وثلم حد شباه الطرير وفله ومازال في غزواته مثيرا للترب الى أن سكن عليه التراب وسكنه وطالبه الثرى بحق خلقه منه فاسترهنه وغارت عليه الارض بانطلاق سموه الى السماء فاعتقلته ووجدته في أوج الفلك في النيرات فنقلته وما كان أذكاه وأزكاه وأصحه وأصحاه وأبهجه وأبهاه وأضوعه وأضواه وأوعاه للفضائل وأحواه ولقد فجعت به صديقا صدوقا وشفيقا شفيقا ورفيقا رفيقا فلهفي عليه من شهم توطن التراب وسهم أصيب بعدما أصاب وجواد بلا حساب

لم يخطر بالبال من رزنه حساب لكل أجل كتاب

وتوفي في هذه السنة علم الدين سليمان بن جندر وقد سبق ذكره في غزواته ومواقفه ومقاماته وكان في الخدمة مقيما والسلطان الى الانس به مستنيما فعرض له مرض استأذن لاجله في العود الى وطنه بحلب وسمح له السلطان بجميع ما طلب وتوجه من القدس سادس عشر ذي الحجه واستقام على المحجه وقضى نحبه عند قربه من دمشق في قريه غباغب وستر التراب منه المناقب ووصل الخبر بوفاته الينا يوم الخميس ثامن عشري الشهر

وفي هذه السنة قتل بأتابك مظفر الدين قزل أرسلان بن ايلدكز في همذان ليلة الاحد مستهل شعبان

كان تولى الملك بعد وفاة أخيه المعروف بپهلوان في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ونجحت اراداته وربحت سعاداته وصلحت عاداته وكان السلطان السلجقي طغرل ابن أرسلان تحت حكمه وهو ابن أخيه لامه وله اسم السلطنة ولقزل حكمها وله معوها ووسمها فأنف السلطان من كونه تحت حجره وبحكم نهيه وأمره فانه لم يكن له صاحب ولا غلام الا من عنده ولم ينفرد منذ تولى بحله وعقده فهرب وحده تحت الليل واتصل به بعد ذلك من انضم اليه من الخيل ودام غائبا في نواحي دامغان مده واشتد مصابه وأصابه شده فاتصل به عدة من مماليك پهلوان الخواص وسلكوا معه نهج الاخلاص وأعادوه الى سرير ملكه واتسق أمره في سلكه وقويت يده وتأيدت قوته واجتمعت كلمته وتكلمت في الامر والنهي جماعته وهيبه قزل أرسلان ولازم ذعره وأخذ منه حذره وتنافس الامراء ومماليك پهلوان الذين تبعوه وأعلوا شأنه ورفعوه وسعى بعضهم ببعض وقابلوا كل ابرام من مكرهم بنقض وقالوا له هؤلاء البهلوانية يغتالونك وبالسوء ينالونك فبادرهم قبل أن يبطشوا وعثرهم قبل أن ينتعشوا فسمع مقالهم وتبع محالهم وقتلهم بحضرته وهم غارون وساءهم باغتيالهم وهم بالمغالاة فيه سارون فنفر منه كل آنس وحفظ نفسه كل منافس وزال بشره وبقي بوجه عابس وفارقه بنو البهلوان بجنايته على مماليك أبيهم ولقوه بتأبيهم وقصده

قزل أرسلان فأزعجه وأخرجه من دار مملكته وأحرجه وأجلس سلطانا آخر موضعه وكدر عليه بالشوائب والنوائب مشرعه وخطب لمعز الدين سنجر بن سليمان شاه وأطعمه وأطمعه وأرضاه بالاسم وأجراه على الرسم وكان سلطاننا وعقد له الصداقة بصدق الاعتقاد وانتظمت بينهما أسباب الاتحاد وكان السلطان طغرل اذا خلت همذان من قزل أرسلان يعود اليها ويتولى عليها ثم اذا عرف قربه بعد واذا علم بعده قعد وشرع بقتل أصحابه بالتهم ويشتفي النهب لشدة النهم فقتل فخر الدين رئيس همذان وبث العدوان وقتل وزيره العزيز بن رضي الدين المستوفي لأمر توهمه ولخاطر لم يكشف مبهمه فالجأه الزمان الى الوصول الى الامير حسن بن قفجاق وشكا اليه من أهله وأصحابه الشقاق فخرج معه وآزره وضافره وظاهره بعد أن صاهره وزوج أخته منه وحمى جانبه وذب عنه وراسل سلطاننا قزل أرسلان حتى يصالحه ويصافحه على الوفاء ويسامحه وكاد أن يتم الصلح ويسفر بعد ليل الفتنة الصبح فلما تقاربا للمصالحة تحاربا واتهم كل واحد منهما الآخر فتواثبا وأوقع قزل أرسلان به وبالتركمان وعادت الفتن ملتهبة النيران وساق السلطان طغرل الى همذان فمضى وراءه قزل أرسلان فخرج اليه ثقة بما سبق من الايمان فصرف عنانه وقبضه وأعرض عنه واعترضه وحبسه في بعض القلاع وأبعد عينه وأثره عن الابصار والاسماع فانفتل له المملكة واستقر منه السكون والحركة وكانت أصفهان منذ توفي البهلوان قد اضطربت واحتربت واقتربت الساعة بها وخربت وقتل في ثلاث أربع سنين منها في محاربة العوام ألوف وتوالت بها حتوف وزحوف وكانت الشحن من جانب قزل على الشافعيه وقووا أيدي الترابيه في تخريب المدرسة النظاميه فأحوجت الضرورة الى ان أصحابنا دعوا بشعار السلطان ووجدوا القوة به امام قوته والامكان فلما اعتقل طغرل واستمر أمر قزل مضى الى أصفهان فأخذ رؤساء الاصحاب في الحال وأجرى عليهم حكم القتل والاعتقال ثم عاد الى همذان وقد قوي وروي ونال ما هوي ونشر من أمره ما كان طوي

وجلس على سرير الملك وضرب النوب الخمس ووجد بعد عدم من يوحشه الانس ولها ولعب وشرب وطرب وغفل عن القضاء المشتبه ونام عن القدر المنتبه واغتر بالعيش الرفه وحلم عن الخطب السفه وبات في قصره وقد غاب في سكره وهو بين خدمه وحشمه وعسه وحرسه وعتقائه وارقائه ومستخصيه ومستخاصيه فوجد على فراشه وهو قتيل ولم يدر كيف قتل ولم يكن عليه سبيل ونسب قتله الى الاسماعيلية تارة والى الخاتون الاينانجية أخرى والله أعلم عاقبة حكمه أخرى ولما أصبحوا قتلوا اصاحب بابه وحل العقاب به دون أربابه وجلس قتلغ اينانج بن البهلوان موضعه وجمع له ملكه ومنعه ومضى أخوه نصرة الدين أبو بكر الى اذربيجان وأراتيه سائقا اليها واستولى عليها وأما السلطان فانه أيس منه وسلا من كان يواليه عنه فنصبت له امرأة متولى القلعة ودبرت في خلاصه وهونت على زوجها أمر استصحابه واعتياصه واستعانت بمن أعانها وأعلت باعلاء شأنه شأنها ولما برز دخل مدينة تبريز وكانما الكبير أخرج الابريز ثم جمع ومضى على سمت همذان فلقى قتلغ اينانج وعسكره بين أوه وزنجان فكسره وهزمه وفل حده وثلمه ومضى الى همذان وجلس على سرير ملكه وذلك في سنة ثمان وسيأتي ذكر ذلك ان شاء الله

وتوفى في هذه السنة بدمشق من المعروفين من أصحاب السلطان صفى الدين أبو الفتح بن القابض وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب ولقد كان سريا وبالحمد حريا وفي حلبة المكارم جريا ومن الخيانة في ولايته بريا ومن العار عريا ولم يزل زنده ضيائه وريا وكانت له سياسة ورياسة ونفس ونفاسة ورأى وفراسة وفطنة وكياسة ومروة وفتوة وثبات جنان وقوة وكان قدم السلطان أيام عدمه وهو في كفالة أبيه وعمه فلما ملك مصر أمرجه في أموالها وحكمه في أعمالها حتى نال المنى ووجد الغنى فقال له قد اكتفيت واستغنيت وان صرفت الآن بما باليت فاصرفني عن العمل فقد نلت غاية الامل فعاش غنيا ومات جثريا وورث السلطان بعض ماله وذلك ما فضل عن افضاله فانه فرق على مماليكه املاكه وماله وأغنى بعد وفاته عما بذله حاله

وفى هذه السنة فى شهر ربيع الاول توفى الحكيم الموفق ابن مطران وكان بارعا ظريفا تظيفا عفيفا وفقه الله فى بدايته لهداية الاسلام ونال أسباب الاحترام وتقدم عند السلطان وماشانه كبر وهو كبير الشان وكانت له دراية ودراسه وذكاء وفراسه ولم يزل متلطفا فى طبه متعطفا بحبه متحببا الى القلوب متقلبا من قبوله فى المحبوب صبيح البهجة فصيح اللهجة صحيح الحجة بوضوح المحجة ولم يزل له عند السلطان وذوى الجاه جاه ولجده انتباه ولمداواته بالشفاء شفاه حتى حان أجله وخان أمله وبان عنه حلى حاله وبان عطله وكانت له عندى يد أذكرها وأشكرها وعارفة أعرفها ولا أنكرها وذلك انى فى ذى القعدة سنة ثمانين كنت متوجها فى خدمة السلطان وفى صحبته متوليا للانشاء منفردا عن تبعه فلما وصلنا الى بعلبك انقطعت عنه بها المرض عرض وشكا جوهرى العرض وانتهى اليه بدمشق ما ألم بى من الالم فتقسم فكره من خبر السقم وركب ووصل فى يومه حتى أدركنى ومرضنى وماركنى وداوانى حتى أبللت وأزال الله انحراف مزاجى بطبه فاعتدلت وصحبنى الى دمشق وسبق الى أوليائى بالبشرى وشكرت الله على النعمى وكذلك كان يطلب مرضاتى فى جميع مرضاتى فلما رض الطبيب لم ينجع فى مرضه الطب وتوفاه الرب

وفى آخر هذه السنة توفى الفقيه العالم الزاهد نجم الدين الخبوشانى بمصر وهو الذى بنى المدرسة عند ضريح الامام الشافعى رضوان الله عليه وأحيى شعار التوحيد وبنى أمره على التشديد والتشديد وحفظ شمل الشافعية من التبديد وكان السلطان مجيبا له الى كل ما يستدعيه ويقضى له من الحوائج ما يقتضيه ووقف على المدرسة التى بناها وقوفا وأعطاه فى بنائها الوفا فلما توفى طلب المدرسة جماعة من العلما فلقوا بالاباء ثم شفع الملك العادل فى صدر الدين على بن حويه وهو شيخ الشيوخ ويعرف فى العلم والعمل بالرسوخ فكتب باله ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله وذلك فى أواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسه وبدلت الوحشة من الانسه

(فصل كتب الى بعض الاكابر فى الدخول الى القدس)

اتفق دخول الشتاء وتوالى الانداء وتوافر الانواء وشح الارض وسح السماء وانقطاع الجلب واتصال الغلاء وبعد الراحلة لقرب الاعداء وملل العساكر لدوام الهيجاء والمقارعة واللقاء وكانت مدينة القدس محتاجة الى توفر الهمم على شحنها بالرجال والميرة والقوة والعدة والذخيرة ورأيناها من حسن المدن وأحصنها وأحكمها وأوجدناها جدتها بعد عدمها ورتبنا بناء سوارها على جوانب أودية وسفوح متى تم لم يبق فيه الطمع من طموح وهذا أمر الله وفى طاعته وحفظ بيته ولنصرة دينه ولاعلاء كلمته ولحماية أمته وما نافيه الا السمره وما رجاؤنا الا الاجر والمغفره وما نصيب الا نصيب واحد من المسلمين المجدين والمؤمنين المعدين للدين فما أسعد من ساعد فيه ووفى باسعاف عافيه هذا والكفر قد أناخ بكلكله وحفل بجحفله وبرز الى الاسلام بكليته وعراه ببليته وقامت قيامته لقيامته وثار لثار قمامته ورمى مهجته على الموت لمقبرته والبيت المقدس الذى شرفه الله وكرمه وعصمه كما عصم وحرم حرمه مقام الانبياء المرسلين ومقر الاولياء والصديقين وموضع معراج سيد المرسلين ورسول رب العالمين وفيه نزل جبريل بالبراق وصعد المصطفى صلى الله عليه وسلم الى السبع الطباق وأهدى الله ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الاشراق الى الآفاق وهؤلاء الملاعين قد أغذوا القصد وأعدوا الورود وردة وقد فرض فى هذا الاوان رفض التوانى واستدعاء ذوى الحمية من الاقاصى والادانى وان لم تتساعدوا فى الربيع القابل على انهاض الجحافل صعب الامر واشتد واحتدم الخطب واحتد

(فصل فى شكر صاحب الموصل على انفاذ الجصاصين لحفر الخندق)

قد أصبح البيت المقدس يقدس ويسبح ويعرب من فضيلة نجده ويفصح فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح رجاؤه الحامون بحفر خندقه رجاه وما فيهم الا من أبان عن جده وأبان بجده والان الشديد بشده وثلم الحديد بثلم الصخر وهده وهذه لا شك مقدمة لما وراءها من نتائج النجدات وجدوى سابقة للواحق فى مناهج الجدات وعارفة معرفة فى قمع العداة باجراء العادات فى انجاز

العدات وللعدو انتظار لعدات بحربه وارتقاب وومضات جمر تحت رماد كيده وشك أن يكون لها التهاب والهمة السامية لا تفتقر في هذا الباعث الى باعث وعند عزمه حديث كل حادث

وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة كتبت منشور حسام الدين سياروخ النجمي بولاية القدس

وكانت ولاية القدس مذ يسر الله فتحه وحقق للأمل فيه نجحه وأطلع لليل النصر صبحه الى الفقيه ضياء الدين عيسى مفوضه وصعاب أعماله وشعاب أحواله بنضرة آرائه ونصرة آلائه مروضه وقد استناب فيه أخاه الظهير ظهيرا ولم يزل رواؤه وبهاؤه به شهيا شهيرا الى أن استشهد في شعبان سنة خمس وثمانين وتوفي الفقيه عيسى في ذي القعدة منها وانتقل الى عليين فأبقى السلطان نوابه من بعده محافظة على عهده وكان الامير سياروخ بالقدس مقيما وللنظر في مصالحه مستديما وبضم من أمره ما يراه منشورا وكتبت له في التاريخ المذكور باستقلاله منشورا الحمد لله الذي أقصى من المسجد الاقصى من داناه من الكفر ودنسه ونزه البيت المقدس من رجس أعدائه المشركين بأيدي أوليائه الموحدين وطهره وقدسه وانطق محرابه ومنبره بتلاوة الذكر المبين وأسكت الناقوس وأخرسه نحمده على ما عصمه من الحوزة وحرسه وفرجه من الشدة ونفسه ونسأله أن يصلي على نبيه محمد المصطفى الذي شرع الدين وشرحه ومهد الشرع وأسسه وبطل الكفر وعطله وأرغم الشرك وأتعسه وعلى آله وأصحابه الذين أعلى الله بهم منار الحق وأضفى ملبسه وأصفى مورده وأزكى مغرسه وبعد فانا مذ فتح الله لنا بيته المقدس وخفض باعلاء أعلامنا راية الكفر ونكس وكسا بأيامنا وجه الدين البشر من بعد ما كان تعبس وخصنا بفضيلة فتحه وجعل لنا به الحظ الاجزل الافضل الاكرم الانفس ما نزال نطلب وليا لله يكون له واليا ويعود عاطله بتأثير احسانه وحسن آثاره وايثاره حاليا ويرجع بنظره الشافي وتدبيره الكافي ما انخفض من منار الهدى عاليا ولا يزال على بال منا أن نحيي به من رسوم الايمان ونجدد من معالمه ما ظل بمقام أهل الضلال

به دار ساباليا وقد اختبرنا الامير حسام الدين فالفيناه لاهلية هذه الولاية جامعا والى مضمار السبق فى هذه المكرمة مسارعا ووجدناه بأعباء الامانة ناهضا ولزبد المناصحة والمحبة فيه ماخضا ماحضا فاستخرنا الله تعالى وعولنا عليه فى ولاية مدينة القدس وأعمالها وعلقنا برأيه الراجح وسعيه الناجح مهام أشغالها وحكمناه فى تحصيل مصالحها وتسهيل مناهجها وسداد ثغرها وسداد أمرها ورعاية أمورها وعمارة حرمها وسورها وتطويل باع ساكنها وتأهيل رباع أماكنها واسكان مواطنها وتوطين مساكنها وتطهيرها من أدناس أدنى الناس وتعميرها بالعدة والعدد والشدة والقوة والباس فليتول ذلك بقوة ناهضة ونهضة قويه ورويه مبصرة وبصيرة رويه وليستشعر تقوى الله التى تقوى بها العزائم وتتوفر منها المحامد وتكمل المكارم جاريا على مقتضى الشرع فى كل مايحله ويعقده ويقدره ويعهده ويصدره ويورده والله عز وجل يوفقه ويسدده ويعضده

ودخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بالقدس فى دار الاقساء بجوار قمامه وأظهر بها التقوية البلد الاقامه وقد قسم سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده فشرعوا فى انشاء سور جديد محدق به مديد وكان يركب كل يوم مع مشمس مضح فينقل الصخر على قربوس سرجه فيستن الاكابر والامراء فى نقل الحجارات بنهجه فلو رأيته وهو يحمل حجرا فى حجره لعرفت أن له قلبا كم حمل جبلا فى فكره ولقد جد فى حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور وانشرح صدره لانضمامها الى صدره حتى باشر صدور مالكه بها الصدور وما اغلو دار بينها فى الجنة بنقل حجارتها ليكون ما كافى دارها وقمر افى دارتها وكل بناء قلت حجارته ووقفت عمارته ركب وبكر اليه وجمع الحجر بنفسه وأجناده عليه فاذا كنى انتقل الى موضع آخر ونقل اليه الحجر ولقد بنى به فى غرفات الجنات الحجر وأثر رواة سيرته الحسنة منه الاثر وما أعمر احسانه وأحسن ماعمر وداوم البكور بالركوب وعرض وجهه الكريم للشحوب والتزم الامر التزام الوجوب ولان له الصخر لين الحديد لداود وجد فى فض جدته وأفاض الجود وكان حجر

الخندق صلد الايتأتى قطعه ولا يتهيأ بكل آلة صدعه فاتخذ من الفولاذ قطاعات واخترع على الحدادين آلات فأمكن الصلد ووهن الجلد وتيسر الصعب ولان الصلب وصرخ الصخر لما خاف الحفر وضج الحديد لجلد الجلمود وصفا قلب الصفا لاصاخة الصخود وأعولت المعاول وجدلت الجنادل وسمعت الصماء صوت السطو وخرج جرح الاساءة اليها عن الاسو وفلقت القطع وقطعت الفلق واتسع الضيق وتعمق الخندق وطاب العمل وطال الامل وحزّ الحزم وحزن الحزن وركنت القوة وقوى الركن فلا ترى الاسو رايعلو وخندقا يسفل وبناء يسمو وحفرا ينزل وبرجا يسقف وبدنا يشرف وحجارة تبنى وعمارة تثنى وكلسا يحرق وأساو ثق وطاقا يعقد وروا فا يمهد وطلاقات تطلق ومرامى تخرق وستائر تحجر وحفائر تقعر ومصاعد تهندس وقواعد تؤسس ومعارج تسفح ومخارج تفسح ومواج تسرب ومدارج ترقب حتى أحكم المكان بكل ما فى الامكان واتصلت الابراج بالابدان مشيدة الاركان والسلطان يشرف فى كل يوم على عمل قوم فيمدحهم باحسانهم ويجازيهم باحسانه ويعبر جنان المتولى من قوة جنانه ويدركه بما يستأنفه من عمله ويحلى بالفضل ما يبدوله من عطله وكان ذلك دأبه مدة اقامته وقد جد غرامه بغرامته بل يرى أن كل مال ينفقه ذخر باق وانه ان فاق كريم فبانفاق وما عنده خشية املاق بل يده جارية باطلاق جوائز وأرزاق وانه تجلى له أعماله الصالحة يوم يكشف عن ساق وان وفق الله واستمر ما دبره فى حفر الخندق وبناء السور بقى بيت الله المقدس مع الاسلام على عمر الدهور ولا يبقى عليه لمسلم فزع ولا فيه لكافر طمع ولو عاش بخت نصر لعرف عجزه وسلب عز الاسلام عزه ورأى من المعجزات ما حيره وقهقر عن البأس الذى ان ثبت له قهره فسبحان الذى أقدر السلطان على ما أعجز عنه الملوك وهداه من الفضل الى نهج ضلوا فيه السلوك

(ذكر الحوادث مع الفرنج فى هذه السنة)

رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة الى عسقلان ونزلوا يوم الاربعاء

بظاهرها وتشاوروا فى اعادة عمارتها وكان سيف الدين باز كوج وعلم الدين قيصر والاسدية نازلين فى بعض أعمالها مجدين فى نقل غلالها وركب ملك الانكتير عصر يوم الخميس ومعه حزبه من جند ابليس فشاهد خانا على البعد وما عرف ما عنده من العسكر المعد فساق متوجها الى تلك الجهة وجد وتبعه عسكره وامتد فما شعر أصحابنا الا بالكبسة وقد غشت فما ارتاعت قلوبهم بل ثبتت وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الافطار فارغة الافكار من شغل الكفار وكانوا نازلين فى موضعين مقيمين فى منزلين فلم ير العدو الا أحد القسمين فقصده بحزبه وأطلق عنانه لحربه فعرف القسم الآخر هجوم العدو فهجروا مهاد الهدو وركبوا الى العدو فدفعوه حتى ركب رفقة وهم المقصودون واجتمعوا وهم المسعودون وردوا العدو شوطا وصبوا عليه من عذاب القراع سوطا ثم تكاثر الفرنج عليهم وتواصلوا وسبقوا اليهم فاندفعوا من بين أيديهم والفرنج تبادرهم وساقوا أثقالهم قدامهم وقد ثبت حفظها على الاقدام أقدامهم وما فقد من أصحابنا ممن عرف الا أربعه ونجا الباقون وخواطرهم لاجل أولئك متوزعه وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها وهون ضررها

وبتاريخ الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان على عادته فى نقل الحجاره والجد فى العماره ومعه الملوك أولاده والامراء والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد والاولياء وخرج كل من بالبلد وجاء المدد بعد المدد وهو قد حمل على سرجه واستوى فى نهجه والناس ينقلون معه على خيولهم فى قفافهم وذيولهم ولما دخل الظهر نزل فى خيمة ضربها ولده الملك الظافر بالصحراء وأحضر فيها السماط لمن يدعوه من الامراء فحضر على ذلك السماط وأحضر طعام مطابخه وبسطه على ذلك البساط وكنت قد مضيت فردني وبتقريبه أدنى فلما فرغ وفرغنا وبلغ مراده وبلغنا صلى هناك الظهر وركب عائدا الى داره آيبا بإيثاره وحسن آثاره فائزا بسرور أسراره وخير اختياره

((ذكر نكات سرايا سرت وبرت وبرت))

كان عز الدين جرديك تجرد فى سريه سريه بارية رقاب ذوى الغلول من الغل

ريه فاغارت يوم الاربعاء الحادى عشر من المحرم على يبنى، وفيها الفرنج بنية السكنى فغنمت اثنى عشر أسيرا وخيلا ودواب وأثاثا كثيرا

وفى يوم الثلاثاء ثانى صفر أغارت السرية وفيها جرديك وعسكر القدس وجماعة من المماليك على ظاهر عسقلان وأوقدت بنار صرها على الكفر الخذلان وغنمت ثلاثين أسيرا قيدت فى الاغلال سوى ما كسبته من الخيل والبغال

(سرية فارس الدين ميمون القصرى)

باتت ليلة الاحد رابع عشر صفر بتل الجزر وسرت حتى أصبحت على يبنى وكمنت وصبرت الى أن استرسلت الفرنج الى الطريق وأمنت ثم ظهرت على قافلة للفرنج عبرت فكبست وكسبت وكسرت وأسرت وأخذتها بأسرها مع رجالها وبغالها وأحمالها وأثقالها ثم أغارت على يافا فقتلت وفتكت وسفكت دماء وهتكت وعادت بالغنيمة والسبايا واستغنت بنقودها عن النسايا وعجز جماعة من الاسارى عن المشى فضربت أعناقهم وأوجب ذلك للباقين فى المسير اعناقهم وعادت سالمة سالبة غانمة غالبة

(ذكر خروج سيف الدين على بن أحمد المعروف بالمشطوب من الاسر)

قرر على نفسه قطيعة خمسين ألف دينار فأدى منها ثلاثين وأعطى رهائن على عشرين ووصل الى القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر فقام اليه واعتنقه وتلقاه بالوجه الباشر واقطعه نابلس وأعمالها وحلى بإيالته لها أحوالها وعاش الى آخر شوال من هذه السنة وتوفى الى رحمة الله بأعماله الحسنة فعين السلطان ثلث نابلس وأعمالها لمصالح البيت المقدس وتشييد ركن سوره المؤسس وأبقى باقيها على ولده وتركه فى تصرفه ويده

(نكتة)

لما خرج المشطوب من الاسر تلقاه ولده روى السرى قوى الازر فوجده على زى أولاد الاتراك مضفور الشعر فبدأ منه الانكار والاكبار وقال ما للاكراد فى شعورهم هذا الشعار فقطع ضفيرته وقصر وفرته فتطير الناس من قطع شعره على أبيه وقالوا هذا دليل مصابه الذى يأتيه

﴿هلاك المركيس بصور﴾

اضافة الاسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الآخر فاستوفى رزقه لموافاة أجله ووصل الى الباب قاطع أمله وقد دعى الى جهنمه ومالك على انتظار مقدمه والجحيم فى ترقبه والدرك الاسفل من النار فى تلهبه والسعير فى تسعره ولظى فى تلظيها المنتظره وقد قرب أن تكون الهاوية له حاويه والحامية عليه حاميه والزبانية فى ايقاع العذاب به لمنزل الرجز بانيه وقد فتحت النار له أبوابها السبعة وهى جائعة الى التهامه وهو ملته بالاكل يستوفى الشبعه فأكل وتغدى وما درى أنه يتردى وأكل وشرب وشبع وطرب وخرج وركب فوثب عليه رجلان بل ذئبان أمعطان وسكنا حركته بالسكاكين ودكاه عند تلك الدكاكين وهرب أحدهما ودخل الكنيسه وقد أخرج النفس الخبيثه وقال المركيس وهو مجروح وفيه بقية روح احملونى الى الكنيسه فحملوه وظنوا أنهم حاطوه لما نقلوه فلما أبصره أحد الجارحين وثب اليه للحين وزاده جرحا على جرح وقرحا على قرح فأخذ الفرنج الرفيقين فألفوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين فسألوهما من وضعكما على تدبير هذا التدمير فقالا ملك الانكتير وذكر عنهما انهما تنصرا منذ ستة أشهر ودخلا فى ترهب وتطهر ولزما البيع والتزما الورع وخدم أحدهما ابن بارزان والآخر صاحب صيداء لقربهما من المركيس واستحكام ملازمتهما أسباب التأنيس ثم علقا بركابه وفتكا به فقتلا شر قتله وجهل عليهما أشد جهله فيالله من كافرين سفكا دم كافر وفاجرين فتكا بفاجر فلما ظل المركيس مرمسا وفى جهنم منكبا منتكسا تحكم ملك الانكتير فى صور وولاها الكندهرى وعذق به الامور ودخل بالملكة زوجة المركيس فى ليلته وادعى انه أحق بزوجته وكانت حاملا فما منع الحمل من نكاحها وذلك أقطع من سفاحها فقلت لبعض رسلهم الى من ينسب الولد فقال يكون ولد الملكة فانظر الى استباحة هذه الطائفة المشركه ولم يعجبنا قتل المركيس فى هذه الحاله وان كان من مواغيث الضلاله لانه كان عدو ملك الانكتير ومنازعه على الملك والسرير ومنافسه فى القليل والكثير وهو

يراسلنا حتى نساعده عليه وننزع ما أخذه من يديه وكلما سمع ملك الانكتير ان رسول المركيس عند السلطان مال الى المراسلة بالاستكانة والاذعان وأعاد الحديث فى قرار الصلح وطمع فى ابل ضلاله باسفار الصبح فلما قتل المركيس سكن روعه وروعه وذهب ضوره وضوعه وطاب قلبه وآب لبه واستوى أمره واستشرى شره وكان قد تعصب لمضادة المركيس للملك العتيق فأظهر له ود الشفيق الشقيق وولاه جزيرة قبرس وأعمالها وسدد بسداده اختلالها فلما هلك المركيس عرف أنه قد أخطأ فى تقويته وخشى أنه لا يسلم من حاديته ولا يأمن من غائلته فلما عدم عدوه وجد هدوه وآب سكونه وثاب جنونه وغاض غيظه وحض حظه وفاض من منبع الشرك قظه ومع هذا لم يقطع محادثته ولم يحدث مقاطعته وجرى رسل مراسلته ورمى سهم مخادعته ومخاتلته ولم ينزل عن ادعاء صداقة الملك العادل وتصديق دعوته وراسل فى طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فانه يبقى لنا مدينته وقلعته سوى كنيستهم المعروفه بقمامه فانهم يعتقدونها الملتهم الدعامه فأبى السلطان أن يقبل هذا القرار وأبدى لهم الانكار وسامهم أن ينزلوا عن يافا وعسقلان ويأخذوا على ما بقى فى أيديهم الامان

((ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم))

وهذه قلعة الداروم على حد مصر وكانت منها مضرة كبيرة لما كانت مع الكفر فلما فتحت حفظت وتركت وأبقيت وبالميرة والذخائر والرجال مليت وخربت عسقلان وغزة دونها وسلمها علم الدين قيصر على أن يصونها فلما شرع الفرنج فى اعادة عمارة عسقلان ترددوا مرارا اليها وداروا حولها وأشرفوا عليها وأنفق السلطان فى جماعة وقراها وشد بالنجدة قلوب أربابها ثم نزل الفرنج عليها بقضهم وقضيضهم وسمرهم وبيضهم وفارسهم وراجلهم وصارمهم وذابلهم ورامحهم ونابلهم واشتد زحفهم عليها ونهوضهم اليها عشية السبت تاسع جمادى الاولى بعد ان أخذوا فيها نقبا وخرقوه وحشوه وأحرقوه وطلب أهلها الامان فلم يجدوا وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم يجدوا ولما عرفه

الوالي أنهم مأخوذون وانهم موقوفون موقوذون عمدوا الى الخيل والجمال والدواب فعرقبوها والى الذخائر فاضرموها وألهبوها وفضوها بالسيف وعرضوا أهلها على الحيف وأمروا منهم عدة يسيرة وكانت هذه النوبة على الاسلام كبيرة ثم لم يلبثوا بها ولم يرغبوا فيها ورحلوا عنها وتنحوا عن نواحيها ونزلوا على ماء يقال له الحسى وقد طاش بهم الغى والبغى وذلك في يوم الخميس رابع عشر الشهر وقد أنسوا بما ظنوه من أسباب الغلبة والقهر ثم تركوا خيامهم وساروا على قصد قلعة يقال لها مجدل الحباب فخرجت عليهم أسد اليزكية المكمنة من الغاب فقاتلتهم قتالا شديدا وتركتهم بحد الحديد بديدا وغادرت حبل قصدهم الجديد جديدا وكرت عليهم فكررت في ردهم عن جهتهم ترديدا وقتل منهم في جملة من قتل كند كبير وأتاهم من مباريهم الهم مبير وعادوا مفلولين مثلومين مخذولين مهزومين مثلولين مهضومين ثم رحل الفرنج من الحسى يوم الاحد سابع عشر الشهر وتفرقوا فريقين وبعضهم مال الى عسقلان وبعضهم جاء الى بيت جبرين فتقدم السلطان الى العساكر والامراء بأن يكونوا لهم مبارين وفي يوم السبت الثالث والعشرين نزلوا بتل الصافية بجموعهم الوافرة الوافيه ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنطرون فأرجفت الالسنة بأنهم على قصد القدس على حسب تراجم الظنون ثم ضربوا خيامهم يوم الاربعاء على بيت نوبه واجتليت نيرانهم المشبوبه وسرت منا اليهم السرايا وتوالت عليهم البلايا وأظهر السلطان مقامه بالقدس لتبعد وحشة المقيم فيه من قربه بالانس وفرق الابراج والابدان على الامراء والاجناد وذوي القوة والاستعداد وأمرهم بنقل الازواد ثم زال الرعب وطاب القلب وخرج الناس الى خيامهم يتخطفونهم ويعسفونهم ويخيفونهم وجرت وقعة بعد وقعه وكبسناهم دفعة بعد دفعه ومن ذلك أن بدر الدين دلدرم كان في اليزك ليلة الجمعة التاسع والعشرين فبعث من أصحابه والعسكر الى طريقهم من دافامن لزم الكمين فجازت بهم فرسان من الفرنج مستقيمون على النهج فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا وفازوا وانتصروا وفي يوم السبت نزل الناس اليهم وقاتلوهم في خيامهم

وألهبوهم بضرامهم وركب العدو وساق الى قلونية وهى ضيعة من القدس على فرسخين ثم عاد بائد الشأن بادى الشين وعساكرنا قد ركبت أكتافه وهى تقطع أطرافه وتهز أعطاف البيض لحز أعطافه وفى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخره خرج كميناً فى طريق يافا على السابلة العابره فظفروا وفازوا وحوروا وحازوا وكسروا وأسروا

(ذكر كبسة الفرنج عسكر مصر لواصل)

كان السلطان يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله ويدعوه نجدة لاهل القدس على الكفر وأهله فضرب العسكر خيامه على بلبيس مدة حتى اجتمع الرفاق وتهيأ لمن تأخر عن السابق اللحاق وانضم اليهم التجار وحصل لهم بكثرتهم الاغترار وللعدو لقدومهم الانتظار وعنده بجواسيسه الاخبار فجاء الخبر من اليزكية الى السلطان ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة ان العدو وملك الانكتير ركب فى سبعمائة فارس وألف تركبول ومعه ألف راجل وسار عصر يوم الاحد سير مخادع مخاتل ولا يدرى أى جانب قصد ولاى نائب رصد فجرد السلطان أمير آخر أسلم خوفاً على الواصل ليسلم وندب معه الطنبة وعدة من العادليه وأمرهم بأن يأخذوا بالناس فى طريق البريه فعبروا على ماء الحسى قبل وصول العدو اليه واتصلوا بالقوم وأخبروهم بأنهم كشفوا الماء ولبس أحد عليه وكان مقدم العسكر المصرى فلك الدين أخو العادل ولم يسأل عن المراحل والمنازل وقصد أقرب الطرق وغفل عما يعرو من الفرق والفرق ونزل الاحل على طرق أخرى سائره ورأى الامنة ظاهرة واوجه السلامة سافره وجاء ونزل على ماء يعرف بالخويلفه ولامانى تغره بالمواعيد المخلفه ونادى تلك الليلة انا جزنا مظان المخافه وفزنا بالسلامة من الآفه فلا رحيل الى الصباح فاغتر الناس بالنداء الصراح وناموا مسترسلين وباتوا متغفلين فصبحهم العدو عند انشقاق الصبح بالصدمة الشاقة والحدمة الحاقه وعاق ابن ذكاء بذكاء بنت الداهية العاقه فجاءهم بجاءه والصبح لم يبد اضاءه والخيط الابيض من الخيط الاسود لم يتبين وحبوب الاعين من هبوة الغفوة لم يتعين وكل غرار فى جفنه قار وكل قلب بأمنه

سار وكل جنب على فراش وكل عاش له النعاس غاش فلما انتبهوا بهتوا وطلبوا أن يقلقوا فما اتفقوا وركب كل منهم على وجهه وربما كر بكرهه وفيهم من ركب بغير عدة حصانه وأسلم اخوانه وغلمانه وانهزموا نحو الانقال فاوقعوا العدو وهو وراءهم على الجمال والاحمال فوقع العدو في سوابقها واشتغل بها عن لواحقها فتفرقت في البريه وعاد معظمها الى الديار المصريه ومنهم من عاج الى طريق الكرك فلم يقع في الشرك ولم يحصل في الدرك فأخذ الكفار جمالا لاتعد واحمالا لاتحد وكانت هذه نكبة عظيمه ونائبة عميمه ونوبة ذات نبوه وكبة ذات كبوه ووقعة ذات روعه وعولة ذات لوعه فظنت الظنون وأرجف المرجفون وقالوا قد حصل للفرنج من الظهر ما يحملهم وينهضهم ومن المال ما يثير طارهم ويحرضهم ومن الآن يقابلهم وبأي عسكر وعدة نقاتلهم ووصل الجند ملوبين منكوبين منهوبين فسلاهم السلطان عن أموالهم بما قوى من آمالهم وحضهم على الحظ من الاخذ بثارهم والجد في دمار القوم وبوارهم ولها الملاءين بما ملأ العين من المال عن القيل والقال والقيل والقتال وحلا لهم ماحاولوه من الحال وجرى هذا كله والملك الافضل والملك العادل غائبان وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة في الاتيان

((ذكر سبب غيبة العادل والافضل وماجرى لهما من الاول))

كان الملك الافضل طلب من والده البلاد قاطع الفرات ونزل عن جميع ماله من الولايات وانه اذا عبر الى الرها وحران ملك تلك البلدان وعناله من بها من ملوك الاطراف ودان ورحل من القدس في ثالث صفر وقد أزمع السفر ووجه عزمه الماضي المضي مقد سفر وأقام في دمشق حتى استعد واستجدى من أبيه ماكمل به الخزانه واستجد وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار سوى ما أصحبه برسم الخلع والتشريفات من مستعملات ثياب ومصوغات نضار ثم سار في مجر مجر سيل خيله جار ذيل نقعه على المجره شاغل بالسير والسرى أمراء ذوي الامره بادية على صفحات صفاحه نضرة النصره ووصل الى حلب وقد مرى أفاويق التوفيق وحلب واحتفل أخوه الملك الظاهر لقدومه وقام له بسنن الكرم ورسومه

ورحب للترحيب به صدره وجنابه وسحب على روضه سحابه وأصحب فيض فضله سحابه ووقف لخدمته ماثلا وهز عطف الابتهاج اليه مائلا وأحضر له مفاتيح بلده وقدم له كل ما في يده ولم يبق من الجميل شيئا الا عمله ولا نوعا من الفضيلة الا كمله وعرض عليه الحصن العراب والتحف والثياب وخلع على خواص أصحابه وعوام أجناده وخصهم وعمهم من الجود بامداده وعول أن يسير معه الى الجهة التي يقصدها ويساعده على الضالة التي ينشدها وسمع ناصر الدين ابن تقي الدين بما أقلقه ودفع منه الى ما أزعجه وأرهقه ووصل رسوله الى الملك العادل وهو بالقدس لاجيا الى ظله راجيا الفضله لائذا بجنابه عائذا ببابه مستجيرا بارعائه مستجيبا لدعائه مفوضا ما حل به الى أنوار آرائه مروضا ما حل أمره بانواء آلائه فاحتمى لهواحتمله وقوى على تقويته أمله وخاطب السلطان في حقه واستعطفه وشفع في أمره واستشفعه وقال انا أمضي اليه وأستحضره وأؤمنه مما يحذره وتبقى هذه السنة عليه حران والرها وتشد من رجائه بذلك ما وهى وتعطيه في السنة الاخرى حماة والمعرة وتكفي المضرة والمعرة ثم قرر السلطان مع أخيه العادل ان يأخذ تلك البلاد ويحويها ويملك حوزتها ويحميها ويكف عنها ويكفيها واستقر ان ينزل عن اقطاعاته بمصر ونصف خاصه واذا أخذ تلك البلاد فما يجاوره يجتهد في استخلاصه فابدى على الرضا بذلك وجه كراهيته واعتياصه واستزاد قلعة جعبر فتمنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر من أبيه بأضعافها واستظهر وتقرر مسير الملك العادل في العشر الاول من جمادى الاولى وكتب السلطان بعود الملك الافضل لقاء هذا راجعا وذهب ذاك مسارعا ووصل الى حران والرها ففاز من تدبيره بالنجح المشتهى وبلغ من مراده الى أمد الامل المنتهى وعاد في آخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن تقي الدين ووصل في هذا الشهر الى دمشق ابن صاحب الموصل علاء الدين وصاحب آمد بن قرا أرسلان قطب الدين وعسكر صاحب سنجار ومقدمه مجاهد الدين يرنقش واجتمعت بدمشق في هذا الشهر عساكر بها الاسلام يأنس والكفر يستوحش وأقامت تنتظر مسير الملك العادل لتسير في خدمته وتجلى راياتها

فى مطالع رايته

(ذكر رحيل ملك الانكتير صوب عكاء مظهرا انه على قصد ثغر بيروت)

لما تعذر على الفرنج قصد القدس وعرفوا أن مرضهم به فى النكس ورأوا ان ثغر بيروت قد براهم وعراهم من القوة ما منه عراهم وانه قد قطع عليهم طريق البحر بمراكبه وقد جمعوا عصائبه ونوائبه فقالوا أخذ هذا البلد هين وقصده متعين واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه وخلا القدس من جهة كتائبه وجرة مضاربه فنبادر اليه من يافا وعسقلان من بجد فى غلبه الامكان فلما عرف السلطان ما عزموا عليه من القصد ودبروه من الكيد أمر الملك الافضل بمباراة القوم فى الرحيل وقطعهم بكل سبيل عن تلك السبيل وسبقهم الى مرج عيون حتى اذا تيقن من قصدهم المظنون سبقت العساكر الى بيروت ودخلتها ونكت الفرنج ونكبتها وحولتها وكتب السلطان الى العساكر الواصلة الى دمشق ان يكونوا مع ولده وان يضموا أمدادهم الى مدده ونزل بمرج عيون والفرنج بعكا بعد لم تجاوز ولم تعد

(ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وفتحها)

ولما رحل ملك الانكتير وسار وخلى وراءه الديار نزل فى مدينتى يافا وعسقلان جمعا من منتخبى الرجال والفرسان ووصاهم بالجلد فى حماية البلد فانتهز السلطان فرصة الغيبة وأوفد الى مساغ رجائهم غصة الخيبة ونهض بعسكره الحاضر ولم يتمهل لانتظار العساكر ووافى يافا ووفاها بكيل المنجنيق أحجارا وأراق دماء وساق دمارا وزحف الناس وحفز الباس وفرعت المدينة ورفعت منها السكينة وقتل من بها ومسح وأخذ ما بها وكسح ووجدت الأحمال المأخوذة من قافلة مصر فأخذت وحملت وعات الايدى والسيوف من الدماء والاموال ونهلت ونفضت كنائس وتظفت خزائن واخرجت دفائن وولجت مكامن وحصل استمتاعنا بأمتعه وانتفاعنا بكل منفعه وامتلاء لبلد الكافر بالمسلمين وبقيت القلعة وطلب حماتها الامان ليكونوا الها مسلمين وكان الناس قد سبقوا اليها وقرب ان يستولوا عليها وذلك يوم الجمعة العشرين من رجب وقد شارف

من فيها الشجب فلما طلب الأمان رد الناس وكفوا فظن ان الغنيمة تصفو فانه خرج البطرك الكبير ومعه جماعة من المقدمين الاكابر على ان يدخلوا تحت حكم الاسار ويسلموا جميع المال والعدة والذخائر على أن يطلق كل واحد منهم بأسير ويفدى صغير بصغير وكبير بكبير وشرعوا في الخروج آحادا او عشرات وعصبا متفرقات في ساعات حتى دخل الليل فاستمهلوا الى الصباح وطلبوا واقترحوا من يقف لحفظهم فبذلنا لهم ما عينوه من الاقتراح ومازال يخرج منهم من يستندعى زيادة التوثقه وتنفيس خناقهم بالمضايقات المرهقه حتى وصل ملك الانكتير في البحر في مراكب في سواد الليل بل ظلمة الكفر ودخل هو القلعة من الجانب البحرى ونادوا بشعار الغدر فاكتفينا منهم عن حصل في الاسر وندمنا كيف خرجت اللقمة من الفم ولا نفع بعد فوات الفرصة للندم ولو أن السلطان توقف في تأمينهم واستمر على توهينهم لقلعت أساس تلك القلعه ونفضت رقعه تلك البقعه ولقد كان ذلك فتحا عظيما وفضلا من الله عميما فقد امتلأت الايدى بغنائم المدينه ووهت أسباب قواهم المتينه واستعيد مانهبوه من الكبسة المصريه وفزنا بالغنائم السنيه وقتل من أقام بالبلد وأسر وكشطنا جلد تلك المدرة وبشر وحصل في البلد من مقدمي القلعة نيف وسبعون وتركو وهم بالثبور يدعون وكان القصد في الاول رجوعهم عن قصد بيروت وخشى على فرصة حفظها أن تفوت فمن الله تعالى بحصول المقصود وفزنا بجنى الجهاد بغير بذل المجهود وجرى الامر على الوجه المحمود وانما وقع التندم كيف لم يقع في أخذ القلعة التسرع والتقدم فتعاصت بعد الاذعان وتعذرت بعد الامكان وجمحت بعد الاصحاب وجنحت بعد الاكثاب وأفلتت وقد وقعت في الحباله واستقلت بعد العثرة والاستقاله وضعف الفرنج من تلك الكره وآذن نشاطهم بالفتره وما انتعشوا ولا انجبروا من تلك العثرة والكسره وعاد السلطان وخيم على النطرون والعسكر قار القلوب قرير العيون وجاءاليه الملك الافضل ولده والملك العادل أخوه وأسفرت بالمسار الوجوه وكان ولده الملك الظاهر أيضا قد وصل وفي

هذه الغزاة حضر وبينها حصل وكذلك كان قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا ارسلان حاضرا وأخذ من السعادة حظا وافرا وحصل بيده جرح بئس ان يؤمى وظن نهك النعمة بؤسى ثم اندمل جرحه وعازت قداحه وحاز السنا قدحه وأقام السلطان حتى اجتمعت العساكر ولحقت أواناها الا واخر ووصل الملك المنصور ناصر الدين بن تقيه في بيضه وسمره ومشرفيه وسمهريه هذا والملك العادل متأخر في المخيم بسبب عارض السقم ومسلم الالم ورحل السلطان ونزل بالرملة والعساكر في عدد الرمل والاسلام قرير العين من أهله بجمع الشمل والفضاء قد امتلأ والقضاء قد اجترأ والقدر قد اسعد والسعيد قد قدر والنصر قد أبدى الصفو وأذهب الكدر ونهك البريه قد حوت البريه وجمعت العسكرية والكمت الجاريه والكماة الجريه والاعراب والعراب والحرب والحراب والاجاود والجياد والاساود والآساد والبياض والسواد والعدد والاعداد

(فصل في وصف الحال من كتاب الى الديوان العزيز)

الخادم حاله على ما انهاه غير مرة في مرابطة أهل الكفر مستمره وأفاويق النصر على حفولها تارة وبكئها أخرى مستدره والحرب سجال وللاسلام في مضمار الظفر مجال وقد تجاوزت القصة عن حد الانهاء وكلما شارفت القضية الانتهاء عادت الى الابتداء والحادثة متصلة والواقعة مستقبله والنعمة من الله في اجراء أوليائه على أجل عاداته بانجاز عداته في قمع عداته مؤمله وما ينقضي يوم الاعن نصرة تجدد ونعمة تمهد وجمع للعدو يتبدد وجرح نكاية فيه يتوقد وخد لسيف من حده بدم الشرك يتورد وفتح بكر من الحرب العوان بلقاح البيض الذكور يتولد وآخر ما تم في هذه الايام من مرهجات الكفر ومبهجات الاسلام حظوة حلوه ونوبة ما الهانبوه وهي أن الفرنج لما أعجزهم قصد البيت المقدس ولم يستقم لهم ما سولوه في الانفس عكسوا زعمهم ونكسوا عزمهم وعادوا خائبين ونكصوا هائبين واستأنفوا مكيدة أخرى وشرعوا في شر خلف الشرك به مجرى واجمعوا على قصد مدينة بيروت وتآمروا على الانجاه نحوها أعداء الله أولياء الطاغوت فسارت العساكر الاسلامية على مباراتهم لمضايقتهم في مضايق

طرقاتهم وتجرد الخادم في خواصه ووافي يافا موفقا من الله تعالى ان مدد نصره اليه يتوافى وحل اليها من معتقلي نبات الاسل ومشتملي بنات الخالق الاسد والعرين فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين فأخذها بالسيف عنوة وأعاد ضرام النيران بها جنح الليل ضحوه وأتى القتل والنهب على من وجد فيها من الكفار واستخرج ما بها من الاموال والعدد والادخار وخلص من المسلمين من كان بها في الاسار وأضحت الفرنج فيها بارى بالتبار وطلب من بالقلعة الامان على أن يسلموا من القتل ويسلموا للاسر ونزل البطرق والفطلان والمرشان وجماعة من المقدمين خرجوا ودخلوا تحت القهر فبينا هم مشتغلون بالنزول ومنقطعون الى الوصول جاءهم الغوث في البحر وظهر منهم أمارة الغدر ورجع العدو عن مقصده ورده الله وخذله ونصر الاسلام وأخذه ومرعه بايسره له وأجذله ونال سيف الدمار من سبب دماءهم عله ونهله وكان المقصود ردهم عن موردهم وصدهم عن مقصدهم فاربى ما قيضه الله من فتح الهدى وحتف العدا على الارب واهتزت أعطاف البيض والسمر المنتشية من كأس نجيعها للطرب والقوم الآن قد اشتغلوا بعصابهم واجتمعوا الضم ما انتشر من أسبابهم وراسلوا في الصلح على أن تخلى لهم عسقلان فما أجيبوا وعلوا بجهلهم انهم ما أصابوا فيما دبروه لادبارهم فاصيبوا والعساكر الاسلامية اليوم عليهم مجتمعه ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعه وقد آن أن تحل معاقدهم معاقلهم التي هي ممتنعه وكل ما يجدده الله من علو يظهر وعدو يقهر ونصر يزهر ونصل بالظفر يشهر فهو ببركات الاستمساك بطاعة المواقف الشريفة الامامية الناصرية وبحمد الله وبمن أيامها وفضل انعامها دلائل النصر ظاهره وأسباب الظهور متناصره ووجوه الآمال بتشر نجاحها وتيسر ما في اقتراحها سافره

﴿ذكر الهدنة العامة﴾

لما عرف ملك الانكتير ان العسكر قد اجتمع والخرق عليه قد اتسع وان القدس قد امتنع وان العذاب به وقع خضع وخشع وقصر الطمع وعلم أنه لا قبل له بمن أقبل ولا ثبات مع الجحفل وقد حفل فاظهر انه ان لم يهادن أقام واستقتل ولاشر

استقبل وانه عازم على العودة الى بلاده لامور مردها يعود الى مراده والبحر قد آن ان يعتم راكبه ويسنم بالامواج غواربه فان هادنتم وطاوعتم تبعت هواى وان حاربتم وعصيتم القيت ههنا عصاى واستقرت نواى وقد كل الفريقان ومل الرفيقان وقد نزلت عن القدس وأنزل عن عسقلان ولا نغتر وابهذه العساكر المجتمعة من الجهات فان جمعها فى الشتاء الى الشتات ونحن اذا أقمنا على الشقاق والشقاء رمينا أنفسنا على البلاء فاجيبوا رغبتى وأصيبوا محبتى وأودعونى العهد ودعونى وادعونى وودعونى فاحضر السلطان امراء المشاورين وشاورهم فى الامر وأظهرهم على السر واستطلع ماعندهم من الراى وسرد لهم الحديث من المبادئ الى الغاى وقال لهم نحن بحمد الله فى قوه وفى ترقب نصرة مرجوه فأنصارنا المهاجرون والبناذو ودين وكرم ومروه وقد ألفنا الجهاد وألفينا به المراد والفطام عن المألوف صعب ومانصدع الى اليوم بتأييد الله لنا شعب ومالنا شغل ولا مغزى الا الغزو ومانحن ممن يشوقه اللعب ويروقه اللهو واذا تركنا هذا العمل فما العمل واذا صرفنا عنهم الامل فقيم الامل وأخشى ان يأتينى فى حالة بطالتى الاجل ومن ألف الحلبة كيف يألفه العطل ورأيى ان أخالف رأى الهدنة ورائى وأقدم بتقديم الجهاد اعتزازى واليه اعتزائى وما أنا بطالب البطاله فارغب عن استحالة هذه الحاله وقد رزقت من هذا الشئ فأنا ألزمه ولى بتأييد الله من الامر أجزمه وأحزمه فقالوا له الامر على ماتذكره والتدبير ماتراه والرأى ماتدبره ولا يستمر الاماتمره من الامر ولا يستقر الاماتقرره وان التوفيق معك فى كل ماتعقده وتحله وتورده وتصدره غير انك نظرت فى حق نفسك من عادة السعاده وارادة العباده واقتناء الفضيلة الراجحه والاعتناء بالوسيلة الناجحه والانف من العطله والعزوف للعزله وانك تجد من نفسك القوة والاستمرار وبقينك يعرفك بالامانى الادراك فانظر الى أحوال البلاد فانها خربت وتشعثت والرعايا فانها تعكست وتعلثت والاجناد فانها نصبت ووصبت والجياد فانها اعطلت وعطبت وقد أعوزت العلوفات وعزت الاقوات وبعدت عنا العمارات وغلت الغلات ولاجلب الامن الديار

المصريه مع ركوب الاخطار المهلكة فى البريه وهذا الاجتماع مظنة التفريق ولا يدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق فان المواد منقطعه والجواد ممتنعه والمترب قد ترب والمعدم قد عطب والتبن أعز من التبر والشعير لينه وجد وان كان غالى السعر وهؤلاء الفرنج اذا يئسوا من الهدنه بذلوا وسعهم فى استفراغ المكنة واستنفاد المنه وصبروا على المنية فى طريق الامنيه وأبوا فى الاقبال على دينهم قبول الدنيه والصواب ان نقبل من الله الآية التى أنزلها وهى قوله وان جنحوا للسلم فاجنح لها وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها وتكثر فى مدة الهدنة غلاتها وأثمارها وتستجد الاجناد عدتها وتستريح زمان السلم ومدتها فاذا عادت أيام الحرب عدنا وقد استظهرنا وزدنا ووجدنا القوت والعلف وعدمنا المشاق والكلف فى أيام السلم نستعد للحرب ونستجد أدوات الطعن والضرب وليس ذلك تركا للعباده وانما هو للاستجداء والاستعداد والاستجاده على ان الفرنج لا يفون وعلى عهدهم لا يقفون فأعقد الهدنة لجماعتهم ليخلوا ويتفرقوا وقد شقوا عصا القوا وما يقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومه وينقل بالملازمه ومازال الجماعة بالسلطان حتى رضى وأجاب الى ما اقتضى وكانت قد بقيت بين العسكرين منزلة واحده والعجاجات على الطلائع متعاقده فلو رحلنا رحلناهم وعلى الهلاك أحللناهم لكن مراد الله غلب وأجيب ملك الانكتير من الصلح الى ما طلب فحضرت لانشاء عقد الهدنة وكتبت نسختها وعينت مدتها وبينت قضيتها وذلك فى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لاول أيلول لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وحسبوا أن وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر وتتصل أمدادهم على الحشد والحشر وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر والسهل والوعر والبدو والحضر وجعل لهم من يافا الى قيساريه الى عكا الى صور وأبدوا ما تركوه من البلاد التى كانت معهم الغبطة والسرور وأدخلوا فى الصلح طرابلس وانطاكيه والاعمال الدانيه والنائيه

(فصل من كتاب الى الديوان العزيز فى شرح نوبة يافا

ثم افضاء الامر الى عقد الهدنة

قد سبقت مطالعة الخادم بانهاء حاله وما هو لا يزال مستمرا عليه من جهاد العدو وقتاله وما كان عليه الكفر من الجمع الملتهم والجمر الملتهب والحشر والحشد المضطرم المضطرب وانهم على قد اجتمعوا اقصد البيت المقدس وعزموا على بذل المصونين من النفائس والانفس وسلكوا في القصد كل طريق وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميق ودنوا على ظن ان جنى الفتح لهم دان وان شبا الحتف عنهم وان ولما قربوا عرفوا أن المرمى بعيد المرام وانهم لا يستطيعون مقاومة عسكر الاسلام فنكصوا على اعقابهم ونكسوا ما ضربوه من آرائهم وآرابهم وعلموا عقبى ما جهلوه وقطعوا من أسباب العزم ما وصلوه ونكثوا من عقد القصد ما أبرموه وشرعوا في أمر آخر توهموه ومضوا واستأنفوا الاستعداد واستنهضوا الامداد وحصنوا بلادهم وجمعوا فيها اطرافهم وتلادهم وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعه والعدة النافعه والشوكة الرادعه والشكة القاطعه واستظهروا فيهما بكل ما قدروا عليه من المنعة الحاميه ورجال الصبر على النار الحاميه ثم سار بحشودهم المجموعة وجموعهم المحشوده وظلال الضلال الممدوده وصلال الصلادم المقوده مستمطري شآبيب الانابيب مستنفري سراحين السراحيب وتوجهوا على سمت ثغر بيروت بنية الحصر وغفلوا عما أجراه الله لاوليائه على أعدائه من عوائد النصر ولما نما خبرهم وطار شررهم وخيف ضررهم أنهض الخادم العساكر المنصورة الى مقابلتهم ومباراتهم ومقاتلتهم ونزل في مماليكه وخواصه ورجال الاقدام ذوي استخلاصه على مدينة يافا فأخذها بالسيف عنوه وجب بها من سنام الكفر ذروه وحل منه بغزوته اليها عروه واستكمل للاسلام بتملكها حظوه وقتل كل من دونه وسبي وناب المشركين عما بني مجده ومضى حده فيه وما نبا وغنم من أموالها المسلمون ما خف ونفل وأسر من وجد فيها وقتل ونهب من آلات الحصر ما خرج عن الحصر وابتذل كل ما صين من الغلال والعدد والمال الدثر للذخر وطلب أهل القلعة الامان من القتل خاصة دون الاسر وشرطوا انهم لا يمكنون من الدخول اليهم من

جاءهم للنجدة من البحر وأخرجوا على سبيل الرهينة مائة رجل من محتشميهم
وكنودهم ومقدميهم مثل البطرك الكبير والقسطلان والمرشان ومن يجري
مجراهم من الفرسان فلما أصبحوا جاءهم ملكهم في البحر فغدروا وامتنعوا من
انقيادهم للعجز حين قدروا وخيم العدو هنالك في جموعه وندب الى عسكره من
يأمره برجوعه ووافت في البر جحافله جافله وتواردت في الاسراع الى الصريخ
ظلماناً جافله فأجرى الخادم على الرهائن حكم الاسترقاق وسيرهم الى دمشق في
أقياد الوثاق ورجع الى القوم فهزمهم وردهم الى عكا بعدما نكى فيهم وأفضل
من دمائهم البيض وأبكى وعاد الى العدو ونزل عليه وكدر الموارد لديه حين
زحف اليه واجتمعت من أهل الاسلام العساكر وانبعث على المشركين
في المضايقة الدوائر ورجا المؤمن وخاب الكافر وجالت بأوجالها الضمائر
لما جالت عليهم الضوامر وعاينوا العذاب الواقع وعدموا الدافع وشاهدوا
المصارع فما زالت رسلهم تتردد بالضراعه وبذل الطاعه والنزول عن
الاشتطاط والدخول تحت الاشتراط والغبطة بما هز له الاسلام عطف الاغتباط
واحتوى عليه يد الاحتياط وكانوا يجابون الاباء الاباء ولا تلقى رسلهم الا بتصميم
عزم اللقاء حتى حضر أكابر الدولة وأمراؤها وأولياء الطاعة وألباؤها وأشاروا
بعقد الهدنه والانتهاز فيها الفرصة الممكنه واستقرت المهادنة على ما أعز
للاسلام الانوف وأذل من الكفر الرقاب ورجع وأنجح من أهل الايمان
الآراء والآراب بعد أن نزلوا عن البلاد والمعاقل التي تملكوها وبعدوا عن
الطرق التي سلكوها وسألوا الامان على الاماني التي استدركوها وما أدركوها
وسلموا عسقلان وغزة والداروم ويبنى ولد وتل الصافيه وغير ذلك من الاعمال
والاماكن الوافرة الوافيه واقتنعوا بيافا وعكا وصور واستبدلوا من تطاولهم
وقدرتهم العجز والقصور ورأوا عزهم في ذلهم وصونهم في بذلهم وسلامتهم
في سلمهم وغناهم في عدمهم ولانوا بعد الاشتداد ودانوا للانقياد وهانوا
بعد الاعتزاز وهابوا بعد الاغترار وأقروا بعد الانكار لتعود جفونهم الى الغرار
وأمورهم الى القرار وخلوا ديارهم وأخلوها وما سألوا عن حب الاوطان

والاوطار وسلوها ومدة الهدنة التي أخذ بها اليد وأعطوا اليمين ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين ووضعت الحرب أوزارها ورحضت عباءة السلم أوضارها وأخذت من أهل النار نارها وقصدت الفرنج من وراء البحر ديارها ولا شك أنهم يستعدون في هذه المدة ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة ويستجدون عزمة العوده وقد شرع الخادم في تحصين الثغور وامرار الامور وابرام معاقد المعاقل واحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل واتمام أسوار القدس وخنادقه حتى يبقى على الدهر آمنا من طروق العدو وطوارقه واعادة الاعمال والاحوال الى عادة عمارتها وحلية نضارتها واجمام العساكر واراحتها ليوم تعبها الذي هو عين راحتها ولقد كان الخادم للسلم متنكرها ولا يرى أن يكون كشيمة ملوك العصر عن الغزو مترفها لكنه أجمع من عنده من الامراء وذوي الآراء على أن المصلحة في المصالحة راجحه وان صفقة الكفر فيها خاسره وصفقة الاسلام رابحه وان في اطفاء هذه الجمرة وخمود وقدتها سكونا عاما وأمنا تاما وتفريقا لجمع الكفار لشمل النصر عليهم ضاما فهي سلم أنكى من الحرب فيهم وانها تقصيهم من هذه الديار بل تنفيهم والى متى تجتمع هذه الاعداد الهائلة لهؤلاء الاعداء وتتفق هذه الامداد المتواصلة من أهل النار في الماء وما صح لهم هذا الجمع على التكسير الا في خمس سنين وما وافى اليهم مددهم من ألوفه سوى مئين وكل ما كان لهم من أموالهم في بلادهم نقلوه وأنفقوه وأيقنوا ان مرامهم صعب وتحققوه فمتى انفضوا انفضوا وقد آن أن يرفضوا ويرفضوا والى أن يتفق مثل هذه الجموع ويعزم ذاهبهم على الرجوع يكون الاسلام قد استظهر بقوته واستكثر من نجدته ومن جدته فرأى موافقة الاجماع وقبل مناصحة الاشياع وتفرق جمع الكفر وبائخ جمره وأمن نكره ومكره وانشرح صدر الاسلام وتضوع نشره وتوضح بسنا النصر فجره

(ذكر ما جرى بعد الصلح)

عاد السلطان الى القدس وعادت عادة سعادته واشتغل باتمام السور والخندق

وتكميل عمارته وفسح للفرنج كافة فى زيارة قمامه فجاؤا ووجدوا الامن
والسلامه وزاروا وازروا ولما عجزوا أن يجتازوا سألوا أن يجتازوا ففسح
لفريق من بعد فريق وتوافوا فى طريق وراء طريق وقالوا انما كنا نقاتل على
هذا الذى وجدناه مع الصلح ومازلنا سائرين فى ليل القصد حتى وصلنا الى الصبح
وكان ملك الانكتير راسل السلطان وسأل منع الفرنج من الزيارة الا لمن وصل
معه كتابه ورسوله ورغب فى أن يجاب سؤاله فى ذلك ويصاب سوله فقيل
مقصوده أنهم يرجعون الى بلادهم على حسرة الزياره فيبقون على الاستنفار
والاستثار ومن زار برد قلبه وتنفس كربه ولم يبق له فى مشقة العود أرب
ولم يتصل له بهذه الديار سبب فكان الامر كما حسب فاعتذر اليه فى الجواب الذى
كتب وقيل له أنت أولى بمنعهم وردهم وردعهم فانهم يصلون الينا وافدين
ولزيارة الكنيسه قاصدين ومايقتضى كرمنا ان نرد الوفود ولا نبلغ من يقصدنا
المقصود ومرض ملك الانكتير مرضا ألهاه عما اشتهاه ولم يبلغ فى هذا الغرض
الى منتهاه وركب البحر وأقلع وعجل فى مفارقته وأسرع وسلم الامر الى
من يليه وهو الكندهرى ابن أخيه من أمه وهو ابن أخت ملك أفرنسيس
من أبيه وتبعه فرنج الجزائر ولم يقف الاول منهم على الآخر

《 ذكر ما عزم عليه السلطان 》

عزم على الحج وصمم وكتب الى مصر واليمن بما عليه عزم وأمر بان يحمل له فى
المراكب كل مايحتاج اليه من الازواد والنفقات والثياب والكسوات فقيل
له لو كتبت الى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك وعرفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر
أنت منه برىء ويعلم أن قصدك فى المضى مضىء والوقت قد ضاق ويبلغ الخبر
الآفاق ثم هذه البلاد اذ تركتها على ما بها من الشعث لم تبرم من حبلها المنتكث
وهذه المعاقل التى فى الثغور حفظها من أهم الامور ولا يغتر بعقد الهدنه فان
القوم على ترقب المكنه والغدر دأبهم وملء البغى اهابهم فمازال الجماعة
بالسلطان حتى حلوا من العزم ماعقده وأطفؤا من نار جده فيه ما أوقده
فشرع فى ترتيب قاعدة القدس فى ولايته وعمارته وتهذيب عمله ومعاملته وكان

الوالى بالقدس حسام الدين سياروخ وهو تركى يقتدى به فى زهادته وحسن سيرته الشيوخ وكان فيه دين ولين وحبله فى الخير متين ولم يزل مستوفيا لحق الامانه مستعفيا من الولايه لطلب الصيانه فانصرف حميدا أثره كريما مورده ومصدره وفوض السلطان ولايه القدس الى عز الدين جرديك وقال تم ديك فى الامور يغنيك عن ان نهديك وانما اعتمدنا عليك لاجتماع خلال الكفاية والشهامة والديانة فيك فتولى آخذا بالحزم فى تثبتك وتأنيك وتروبك وتأنيك وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والدار وم وما والاها فخرج اليها وتولاها وأمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين واعانة المقطعين وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر الى أعمال عسقلان ليعيد اليها الزراعة والعمران وسأل الصوفية عن أحوالهم وآذن سؤله عنها باجابة سؤلهم وسؤالهم فانه كان وقف دار البطرك مجاورة قمامة لهم رباطا وجعل لهم كل يوم فيه سماطا وزاد فى الوقوف وحكمهم فى الانفاذ بالمعروف وكان قد جعل كنيسة صندحنا عند باب الاسباط للفقهاء الشافعية مدرسه وردها بنية على التقوى مؤسسه وزاد فى أوقافها ووفر موادتلادها وطرافها وأمر بان تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمامة بيمارستانا للمرضى واتخذ فيها بيوتا فيها حاجات أصحاب الامراض على اختلافها تقضى ووقف مواضع عليها وسير أدوية وعقاقير عزيزة الوجود اليها وفوض القضاء والنظر فى هذه الوقوف الى القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم وعول منه على أمين كريم

(ذكر خروج السلطان على عزم دمشق من القدس وعبوره على الحصون)

خرج السلطان من القدس ضحوة الخميس خامس شوال وقد دبر الاحوال وأقام بعدله الاعتدال وأفاض الفضل والافضال وجاوز ناحية البيره وقد جلا جلاله سنا راياته المنيره وبات على بركة الداويه بالهمة الرويه والعزمة القويه ونزل على نابلس ضحوة يوم الجمعه وجمع شتات مصالحها المتوزعه وكثرت الاستغاثات على سيف الدين على المشطوب صاحبها وانه قد طرق الرنق الى مشاربها وزاد فى رسومها ونوائبها فاقام بها الى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالمها واضعف

بالعدل والاحسان مباسمها وأسقط رسومها الجائره وأمات سننها الضائره
وأضفى بها شرعة الشريعه وأضفى ظلال الرعاية للرعية في مراعيها المريعه
ورحلنا بعد الظهر وبتنا ليلة الاحد عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديه
ورتعنا في مروجها الانيقه وأصبحنا راحلين ونزلنا ضحوة على جبنين وهنالك
ودعنا المشطوب وداع الابد فانه انتقل بعد أيام الى رحمة الواحد الصمد وكانت
وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال ورحلنا يوم الاثنين وجئنا ضحوة
الى بيسان وأزال حلول السلطان عنها البؤس وأشاع الاحسان وصعد الى
قلعتها المهجورة الخاليه فابصر قللها العاليه وقال هذه اذا عمرت دامت في
حصانة الحصانه وكان جبلها الوثوق به مستودع الامانه والصواب بناء هذه
وتخريب قلعة كوكب ولم يزل حتى بين كيفية بنائها ورتب ووعد باحكامها
واعلاء أعلامها ثم ظهر ظهرا وبات على قلعة كوكب وشاهدها وصعد نظر
رأيه فيها وصوب ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ونزل بظاهر طبريه وقت العشاء
وهنالك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الاسر وتلقيناه بالبشر والبر
وأقمنا بها يوم الاربعاء لتوافر الانداء وتواتر الانواء ورحلنا بكرة الخميس ونزلنا
بقرب قلعة صفد تحت الجبل وصعد السلطان اليها وأمر بتسديد ما فيها من الخلل
ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الجش وهي
عامرة محتوية على سكانها كأنها العش وسرنا منها وخيمنا على مرج تبنين وبتنا
بأحوال قلعتها معتنين وأصبح السلطان جوالي حيطانها باحوالها محيطا مغتبطا
قراقلعتها ولاسباب اختلالها مميطا ووصى الوالي بعمارتها وجعل مصالحها بكفايته
منوطة وسدادها بسداده منوطا ثم رحلنا بكرة السبت وجزنا على قلعة هونين
ونزلنا من الجبل وبتنا على عين الذهب واجتمعنا بالثقل ورحلنا يوم الاحد
وخيمنا بمرج عيون وجلس السلطان على عادته معنا في تدبير الممالك تلك الليلة
وسهرت العيون ورحلنا عصر يوم الاثنين وواصلنا السير بالسرى وقطعنا في
الطريق الوعر الوهاد والذرا وعبرنا بين جبل صيداء بيسرة وجبل وادي التيم بجنبة
على الضياع والقرى وعرسنا على مرج نافيانا مقابل مرج القنعبه ودفعنا الى

سلوك المسالك الصعبه ثم أصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل الى البقاع من تلفيانا فخيمنا على جسر كامد والسلطان مشغول فى طريقه من تقرير العمارات وتحرير سنن الحسنات باقتناء المحامد ثم غدونا يوم الاربعاء وخيمنا بناحية قب الياس وقد أصحرنا الى الفضاء وأقمنا ذلك النهار راتعين من الفواضل السلطانية فى النعماء ولما جن الليل جمعتنا الحضرة السلطانية الانوار وسرت أسماعنا منه أسماء رجال الفضل والكرم وسنتهم لا الاعمار ودخل السلطان يوم الخميس الى بيروت وأنجز بالوصول اليها وعده الموقوت ونزلت الاثقال على مرج قليطية بالبقاع وأقامت خمسة أيام على الاستراحة والابداع

(ذكر وصول السلطان الى بيروت ودخول بمند الابرنس صاحب انطاكية عليه والاستجارة به وذكر أسامه)

ولما وصل السلطان الى بيروت تلقاه واليها عز الدين أسامه بكل ما توفرت به الكرامه واستقبل الاصحاب بصدر رحيب وظل خصيب وسماحة أريب وصباحة لبيب وفتحت الاهراء على غلاء الغلات بالثغور ورفع أغلاقها وسبلها وما قيد اطلاقها وقرى وأضاف وأدنى القطاف وأسنى النطاف وتلطف فى الهدايا وأهدى الالطاف وفرق على الصغير والكبير التحف وأحضر للسلطان ولكل من معه الطرف وأغنى وأقنى وأعدم فى الجود الموجود وأفنى وأعطى الخيل والمماليك والجوارى والملابس وبذل النفائس وزف على أكفاء المحامد من أبكار المناقب العرائس وأظهر فى مكان الشدة الرخاء وفى مظنة الضن السخاء وأهب فى اعصار الاعسار لرجال الرجاء من سماء لسماح الرخاء وأحضر كل ما عنده مما كسبه فى الغنيمه جريا على كرم الشيمه من الجوخ الافرنجية والثياب البندقيه والهنابات الفضية والاكواب اللجينيه والسروج واللجم والاكسية والحزم والمهاميز والملابط والغفافير والعروض والدراهم والدنانير ففرق من ذلك ما جمعه ورفع الى كل منه ما أسمى قدره ورفعه وما انفصل عنه الا كل مواصل بشكره ساجل أمثاله بذكره

مضوع كل نادللكرام بنشره وقام بالسلطان و بكل من صحبه مدة مقامه وأعجب وأعجز ماصدق من اهتمامه

((ذكر وصول الابرنس بجندود خوله على السلطان))

ولما أراد السلطان عن بيروت الانفصال وذلك فى يوم السبت الحادى والعشرين من شوال قيل له ان الابرنس الانطاكى قد وصل الى الخدمه مستمسكا بحبل العصمه داخلا فى حكم الذمه فثنى عنانه ونزل وأقام ومار تحل وأذن للابرنس فى الدخول وشرفه فى حضرته بالمثول وقربه وآنسه ورفع مجلسه وأظهر له البشاشة والهشاشه وسكن من روعه الحشاشه وكان معه من مقدمى فرسانه أربعة عشر بارونيا ووهب كلا منهم تشريفا مصريا وأجزل لهم وافر العطاء وأبدى بهم الاعتناء وكتب له من مناصفات انطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار وخص أصحابه بعبار وأعجبه استرساله اليه ودخوله عليه بغير أمان فلا جرم تلقاه بكل احسان وودعه يوم الاحد وفارقه ووافق مراد السلطان ابه مراده وافقه وانصرف المذكور مسرورا بين أمرته مذكورا محبوا بالمنح والمنن محبورا

((ذكر وصول السلطان الى دمشق))

لما خرج السلطان من بيروت يوم الاحد بات بالمخيم على البقاع واحضرنا تلك الليلة فى نادى فضله للمؤانسة والامتاع وتجاذبنا أطراف الآراء وهززنا منه أعطاف الآلاء واستدنينا قطاف النعماء وقد قرب الدخول الى البلد والوصول الى الاهل والولد وكل يقترح مقصودا ويقصد اقتراحا ويظهر الى سكنه ومسكنه ارتياحا وانبساطا فرحلنا يوم الاثنين وعبرنا عين الجر وبتنا على مرج يبوس وقد شرح الله الصدر وأطاب النفوس ووصل الينا من أعيان دمشق من سبق للتلقى والاستقبال وأظهروا بقدومنا أسباب الاحتفاء والاحتفال وجاءتنا فواكه دمشق وأطايبها واغتصت بالواصلين الينا مسالكها ومذاهبها ورحلنا يوم الثلاثاء وبتنا بالعراده وجرى المتلقون فى التحفى بالتحف على العاده وأصبحنا يوم الاربعاء ودخلنا الى دمشق وقد أخرجت أثقالها وأبرزت

نساءها ورجالها وكان يوم الزينه وخرج كل من بالمدينه وحشر الناس ضحى
وأشاعوا استبشارا وفرحا وكانت غيبة السلطان عن دمشق أربع سنين فى الجهاد
طالت فاهتزت بقدومه واختالت وقرت بقضائه الاعين وأقرت بفواضله
الالسن وداعت أسرار السرور وراقت حبرات الحبور وطابت الانفس
وغابت الابؤس وانجلت المكاره وتجلت المكارم وافترت المباسم وهنيت
بموسمه المواسم وتهودت التهانى وهديت الامانى وغنت المغانى ولذت المجانى
وسفرت المجالى وظفرت المعالى وتحلت الاحوال وعلت الآمال وراج الرجاء
وارجحت الارجاء وفاض الجود واستفاضت السعود وعم العدل وتم الفضل
وأشرقت الآفاق وأفاق الاشراق وكرم الفضلاء وفضل الكرماء وحل فى
القلعة حلول الشمس فى برجها وقد جلت أوجه السعود بأوجها وأخذت بحار
سماحه فى موجها وسلكت المناجح فى نهجها وجاءت المنائح فى نجحها بفوجها
وصفت شرعة الشرع لواردها وضفت حلة الكرامة على وافدها وفتحت
مرتجات أبواب الآلاء لمرتجيها واستجدت عادات انجاز عدات الجوائز لمستجديها
ويسر اليسار لاسعاف العافى ونمت على ألسن الانام أوصاف الصافى وجلس
السلطان فى دار العدل فأعدى المستعدى ولبى المستدعى وأجاب وأجار وأنال
وأنار وجاد وأجاد وبدأ وأعاد

وفى هذا الشهر خلص بهاء الدين قراقوش من الاسر واجتمع بنا يوم وصلنا الى
طبريه ولقى من السلطان الالطاف الخفيه ووصل معه الى دمشق وأقام الى أن
خلص أصحابه من الاسر وتوجه الى مصر وقد صان نفسه ببذل ماله وأخرج
ثروته ودخل فى اقلاله وخرجت السنه والسلطان فى أسنى سناته وأبهى جلاله
وأجلى بهائه والناس راتعون فى رياض نعمائه ورسل الممالك الغربيه
والشرقيه عنده يخطبونه ويطلبونه وينتظرون عزمه ويرقبونه وهو يعدهم
بانحسار الشتاء وانكساره وابتسام ثغر الربيع وافتراره والتهاب زهر ازهاره
وانتهاب مسرح اشجاره وانتباه عيون بهاره واندلاق غدران عراره وانتلاق أنواء
نواره وانطباق نواظر غماره واصطفاق أوراق أشجاره واتفاق كلمه واتساق

نظامه وانتثار منظومه وانتظام منثوره وانفجار صبح اسفاره وانفراج وجه
سفوره واجتماع لفيف أعشابه واستماع حفيف أقصابه والتماع بريق سحابه
واتساع طريق صحابه وانشقاق شقائقه وانعقاق عقائقه واشتمال شمائله
واقتبال قبائله وتأرج صبا صباحه وتبلج صباح صباحه وتورد وجنات جنانه
وتوقد جمرات ثمرانه وتبسم ثغور أقحوانه وتنسم ضمير ضيمرانه وتصور خدود
تفاحه وتدور نهود رمانه واخضرار آس عذاره واحمرار خد جلناره وتشنف
أقطار النادي بأقراط قطار الندى وتفوف حافات الوادي بالوشي الوشيع من
حوك الرباب حول الربا فاذا طاب النسيم ونسم الطيب ودعا البلبل ولبى العندليب
وتعطر عبير الربيع وتصور الشقيق كأنه تخمر من عجين الصبيع ووافق مراد
المرعى من المراد المريع وحلا الجنى اللجيني وحلى النضير النضاري وبقل العذار
البنفسجي واشتعل الخد الجلناري الناري ونجم في الروض النجم السماني المائي
وابتسم الثغر الاقاحي وتنسم الضوع الصباحي وتحرك العرف السحري
الشجري وتأرج النشر الروضي وتبلج البشر الوضي وانتشى النشأ الشمالي
الشمولي وانتعشت عاثرات أعشاب الشعاب وقابلت القبول خطبة الفضل
بفصل الخطاب وصبت الصبا في محل خطيئة المحل بصوب الصواب فحينئذ آل
جناح الاصحاب الى الاصحاب وصرفت أشاجيع الشجعان وأعنان أهل الايمان
كل مواج العنان رواج السنان ونزعت النزائع الى الخلاب وارتشفت القواطع
بشفاه الشفار ضرب الضراب واجتمعت العساكر وعسكرت الجموع وسرت
الطلائع وسر الطلوع ونهض أهل الجد وجد النهوض وفاضت المنابع ونبعت
الفيوض وضرب السرادق السلطاني حيث النصر ينزل والسعد يقبل واليمن
يشمل والنجح يسهل والظفر يمثل والامر يعتدل والجد يسمن والهزل يهزل
والعزم يولى والوني يعزل ويعم العدل مع اعتدال الزمان كل مكان ولا يتنفس
الا بحديث الطاعة من يحدث نفسه بعصيان وأقمنا على هذا العزم الى آخر
السنه والاجفان مغضوضة على طيب السنة وظل البرد الشديد مديد والجلد
واه والهواء جليد وحد الشتاء في الأذى ثبت حديد والجبال قد اشتعلت رؤوسها

شيبا والثلوج قد زرت على أعناق أطوادها جيبا والجو في نظم ونثر والثرى من الثرات مثر والهتون ناكب ناكث والهتوف ساكن ساكت والمزن مزين والحزن حزين وللسماء سماط وللنشاص نشاط وللسحاب حساب وللبرق والرعد انتضاء وانتحاب وللبرد من نجمه برد وللمطر في نهجه طرد وللغيث عيث وللوحل ريث وكانون قد أكن الربا وشباط قد شب الشبا والنار محبوبه مشبوبه وحدود الشكب مذروبه وخدود الترب مضروبه والسلطان مشغول بالصيد والقنص منتهز في العمر للفرص مبتز بالبزاة والصقور حشاشات الوحوش والطيور بكل جار جارح وطائر طارح يدني أجل الجأل وحمام الحمام كأنه غريم لها لاهي الغرام وكل شهم ينقض انقضاض السهم ويبط بطن البط بالحزم وأكثر الجلوس بدمشق في دار العدل وأعز لمنتجعيه دار الفضل وحكم وقضى وأسخط بالحق وأرضى ووقف وأمضى وما منع بل أعطى وأصاب وما أخطا وجاد وأجاد وأبدى وأعاد وأوفد وأفاد وأحسن وزاد وأغنى وأقنى وأجدى وأسدى وأولى وولي وأجار وأجاز وحاز وفاز وقرب العلماء وأكرم الفضلاء وفضل الكرماء وتكلموا عنده في المسائل الشرعيه وظفروا من جوده بالوسائل المرعيه وما كان أحسن الى الحق إصغاءه وأسرع للباطل إلغاءه ولكل ذي فضل منه حظ ولكل ذي حفظ منه حفظ ولكل محروم منه رزق ولكل مرزوق الى حمده سبق ولكل فهم عنده سوق ولكل سهم عنده فوق ولكل أدب لديه داب ولكل عائب عدم من جوده اعتاب ولكل مكرمه عنده باب ولكل دعوة عاف من اسعافه جواب ولكل مستجد اجداء ولكل مستهد اهداء ولكل سائل نائل ولكل ساحل وابل ولكل ظام ري ولكل حائم ورد هني فما أسمح مزنه وما أصح وزنه وما أسمح يده وما أوضح جدده وما أعلى جده وما أجد علاه وما أجدى كفه وما أكفى جداه وما أكثر حياءه وأغزر حياه وأرج رياه وأبلج محياه

وممن توفي في هذه السنة من الملوك سلطان الروم قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان وكانت وفاته يوم الخميس منتصف شعبان

كان له عشرة من البنين فولى كلا منهم اقليما وقصد به لما تآمر ذلك الجانب تقويما فقوى كل منهم في ثغره واستقل بأمره ودب في طبعه حب الاستيلاء والاستبداد ومدّ عينه الى ما في يد صاحبه من البلاد وكان أكبر بنيه قطب الدين ملكشاه قد استحكمت قواه واستطال هواه وهو حينئذ متولي سيواس فأطاع في التملك على أبيه ملكه الوسواس وسعى الى ان أبعد من عند والده اختيار الدين حسن بن غفراس وصور له انه يريد ان يستولي على الملك وينفرد بانتهاج المسلك وانتظام السلك وساعده صاحب أرزنكان وأمن اختيار الدين الى المذكور واختاره واستأذن السلطان ان يقصد دياره ويقيم عنده الى ان يصلح أمره مع أولاده ويأذن له في العود الى بلاده فاستصحبه صاحب أرزنكان وأوقع عليه في الطريق التركمان فقتلوه شر قتله ومثلوا به وبولده أقبح مثله فلما عرف ملكشاه ان وجه والده خلا وانه عن حسن بن غفراس سلا ساق اليه وأخنى عليه ودخل قونية دار مملكته واستبد بحوز حوزته وقوى بعزته وعز بقوته وقال لوالده انا بين يديك أشفق عليك وانفذ أوامرك واوفر ما ترك وقتل أمراء كانوا لأبيه وألزم خدمته من لا يشتهيه فبقي معه كالمعتقل بظن حالبا وهو في العطل واستكتبه انه ولي عهده والقائم بالسلطنة معه ومن بعده وتصرف في خزائنه وملك أقسرا وفرع وفرى وقرع وقرا وقطع وبرى وقد مضى حديث ملك الالمان في ذلك الاوان وكيف وصل وعبر الى الشام وكيف قوى به في وهن الاسلام واستصحب معه والده الى قيسارية لقصد أخيه نور الدين سلطانشاه وحصره وأظهر انه بأمر والده وانه شاد ظهره وخرج عسكر البلد وصف ووقف وكف ورأى قليج ارسلان ان ولده عنه مشغول وان عقد حراسته له محلول فخرج من الصف مفارقا للولد وساق ودخل الى البلد فأضافه الولد الآخر واكرمه وبره واحترمه وانفصل ملكشاه الى قونية وملك تلك الامكنة وقد استبد بالسلطنة وبقي قليج ارسلان يتردد في بلاده وفي ضيافة أولاده ينتقل من بلد الى بلد ومن ولد الى ولد وكلهم يضجر منه ويعرض عنه حتى

حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برغلو فقوّاه وآزره وضافره وظاهره
وجمع وحشد له وأخذ له ما حشد له وجاء به الى قونيه فدخلها وحلى به عطلها
وخرج ليأخذ أقصرا فتعذرت وغنمت عليه وتعسرت واستوعب الاوجيه
وجمع العسكر به فمرض بجانبه وقد توفى الى قونيه فى محفه ونزل عشى قدامها
وتظهر انه من المرض المثقل فى خفه حتى دخل المدينه وقلعتها واحتازها واحتاز
مملكتها واستدعى الاعيان فاستحلفهم واستمالهم وتألفهم ثم أظهر لهم وفاة
أبيه وانه وارث ملكه ومتوليه وقوى على قطب الدين ملكشاه أخيه

وتوفى فى هذه السنة القاضى شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن
الفراش كان من أهل الفضل والرياسة والنبل وهو قاضى العسكر الحاكم الحكم
والكريم المكرم والسلطان يعول عليه فى المهام وفى الامور العظام ويؤهله
للرسائل وأخذ المواثيق والعهود وتولى الولايات والعقود ولما أخذ شهرزور
سلمها اليه وعول فيها عليه وما برح بها حتى أنعم بها على صاحب اربل مظفر الدين
فعاد القاضى شمس الدين فأرسله السلطان الى قليج ارسلان وأولاده ليصلح بينهم
ويعيد أمرهم الى سداده فتردد بينهم سنه ولم تزل مساعيه مستنجحة مستحسنه
وعاد ووصل الى ملطيه وقد استكمل من عمره الله العطيه وتوفى بها فى شهر ربيع
الآخر من السنه وانتقل الى الله بأعماله الحسنه

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بدمشق فى داره وممالك
الآفاق فى انتظاره والايام مشرقة بطالع أنواره والليالى مترقبة صباحها
لاسفاره ورسل الامصار مجتمعون على بابه منتظرون لجوابه والوافدون قاطفو
جنى جنابه والضيوف فى فيوض انعامه عائمون وبفروض حقوقه قائمون
والفقراء فى رياض صدقاته راتعون وفى كلاءته راعون وادعون ودار العدل
بالفضل داره واسرار المنى بالمنائح ساره والسلطان يجلس فى كل يوم وليلة
لاسداء الجود وابداء السعود وبث المكارم وكشف المظالم وتنفيذ المراسم
وامضاء العزائم وتشييد الدعائم وتقرير العظائم والاهتمام بمصالح الاسلام
ومناجح الانام والاغتمام للمسلمين بما يتم فى بلادهم من الخطوب وبثم من

الكروب ومجالسة العلماء ومساجلة الفضلاء وموالاة الاولياء ومصافاة الاصفياء واعداء الملهوف واسداء المعروف ومل ملازمة البلد وخرج عن حكم الجلد وبرز الى الصيد شرقي دمشق براد خمسة عشر يوما واوسع من لم يوافقه على الخروج لوما واستصحب معه أخاه العادل وأبعدوا في البريه وظهروا عن ضمير ضمير الى الجهة الشرقيه وطابت له الفرص ووافق مراده القنص ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ووجه بشره قد سفر ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقي وسعادته في الترقي ولما لقي الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته من الحج ما عناه وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها وخصبها ومحلها وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها وعن المجاورين والفقراء ودوابها وادراراتها وسر بسلامة الحاج ووضوح ذلك المنهاج ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام فتلقاه بالاكرام وأنزله في كنف الاهتمام

﴿ ذكر وفاة السلطان رحمه الله بدمشق ﴾

جلس ليلة السبت سادس عشر صفر في مجلس عادته ومجلى سعادته ونحن عنده في أتم اغتباط وأتم نشاط حتى مضى من الليل ثلثه وهو يحدثنا ونحن نحدثه ثم صلى به وبنا امامه وحان قيامه وانفصلنا باحسانه مغتبطين وبامتنانه مرتبطين واصبحنا يوم السبت وجلسنا في الايوان ننتظر خروجه لوضع الخوان فخرج بعض الخدام وأمر الملك الافضل ان يجلس موضعه على الطعام فجاء وتصدر وتربع في دسته وجلس بسمته وسمته وتطيرنا من تلك الحال وتفاءلنا بعد ذلك الفال ودخلنا اليه ليلة الاحد للعياده ومرضه في الزياده وتوفي بكرة الاربعاء السابع والعشرين ونقله الله في دسته العالي الى أعلى عليين ومات بموته رجاء الرجال واظلم بغروب شمسه فضاء الافضال وغاضت الايادي وفاضت الاعادي وانقطعت الارزاق وأدلهمت الآفاق وخاب الراجون وغاب اللاجون وخاف الآمن وخاب الآمل وقنط السائل وشمط النائل وطردت الضيوف ونكر المعروف ودفن بالقلعة في داره وخبع الزمان بانواره وعدمت الايام صباحها والآمال نجاحها ودفن معه الكرم وغلب بعد وجوده وجوده العدم العدم وبقيت تلك الايام لا أفرق بين الدجى والضحى ولا أجد قلبي من سقم الهم وسكره

صح ولا صحا وحالت حالي وزال ادلالي وزاد بلبالي وبطل حتى واتسع خرقي وتنازل جاهي وتنازق أشباهي وأعضلت ادواء الدواهي وبقيت المعارف متنكره والمطالع مكفهره والعيون شاخصه والاظلال قالصه والايدي يابسه والوجوه عابسه وعادت أبكار خواطري عانسه ونجوم قرائحي وشواردها الآنسة خانسة كانسه وبقي باب كل مرتجى مرتجا ومنهج كل معروف منهجا وظن الغني عني واخلف في ظن الاخلاق بي ظني حتى تولى الملك الافضل بدمشق مقام أبيه وقام بالامر بعزم تأنيه وحزم تأبيه وعز تأبيه فعرف افتقاره الى معرفتي وفقري والى عطل الملك ومحله من غزارة حلب دري ونضارة حلى دري فكتبت له وحليت من الملك عطله وثبت الكتب وشعثها وجليت الرتب ووسعتها وهززت البراعه وأغزرت البراعه وهجرت الجماعه ولزمت القناعه

﴿ ذكر الملوك من أولاد السلطان وذويه بعده ﴾

خلف السلطان صلاح الدين رحمه الله سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة صغيره وأبقى لهما آثرا أثيرة ومحاسن كثيره ولم يخلف في خزائنه سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما فانه كان باخراج ما يدخل من الاموال في المكرمات والغرامات مغرما وكان يجود بالمال قبل الحصول ويقطعه عن خزائنه بالحوالات عن الوصول فاذا عرف بوصول حمل وقع عليه باضعافه وخص الآحاد من ذوي الغناء في الجهاد بآلافه ولا جبه أحدا بالرد اذا سأله بل يلطف له كأنه استمهله فانه يقول ما عندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطي وان كان يبطي وانه يصيبه بالنوال ولا يخطي وكان ولي عهده بالشام الملك الافضل نور الدين علي وانه كاسمه سام على ونور فضله كنعمته جلي وهو الذي حضر وفاته وفاز عليه فابقال حضر وفاته وقام بسنة العزاء وفرض الاقتداء بأبيه في ابلاء الآلاء وادناء الاولياء وخلع على الاماثل والامراء والافاضل والعلماء وكان بالباب رسل ووفود وملوك ورجال لهم في مسالك الرجاء سلوك نخابوا وغابوا وذهبوا وما آبوا

﴿ ذكر من تولى ممالكه بعده من أهله ﴾

تولى ولده الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان مصر وجميع أعمالها وابقاها على اعتدالها ونقاها من شوائب اختلالها وأعلاها واحيى سنتي الجود والباس وثبت

القواعد من حسن السياسة على الاساس وأطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة وضاعف ما كان يطلق برسم العفاة وجاد وأجاد وأبدى الكرم وأعاد وبسط وقبض وأبرم ونقض وحل وعقد وبر وافتقد ووضع ورفع ومنح ومنع وأبصر وسمع وضر ونفع وقطع وأقطع وأصل وفرع ووعد وأنجز وأوعز بغنى من أعوز وبرز وأبرز وجاهد وجهر وعرض الكتائب وفرض المواهب وأجرى الصدقات وتصدق بالجرايات وأدر وأدار وأجاز وأجار وأغنى وأسعد وأدنى وأبعد وقدم أمر بيت الله المقدس واعتمد فيه اعتماد الاشوس الاسوس وبجل له بعشرة آلاف دينار مصرية لتصرف فى وجوه ضروريه ثم أمده بالجمل وأفاض عليه من الفضل وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته وقوى يده برعايته ووالى حمل الغلات من مصر الى القدس وأبدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالانس وجلس فى دار العدل ففصل ووصل وأحسن وعدل وقضى وحكم وأمضى وأحكم وأحضر نواب ديوانه فى ايوانه واستعرض منهم قوانين سلطانه واستقرى الضياع والاقطاع وعمم الاصطفاء والاصطناع وحل اقطاع من أقام بالشام وألزم جند مصر بالخدمة والمقام وما أبقى الاملاك بدى من الضياع وصان حقوقى من الضياع وأمر بتخليده وأجد جدى بتجديده فجاء فى كتابه الكريم بكل كرم مكتوب ومحبوبه من الرفد محبوب ورعى فى عهد الوالد وأضاف الطارف عندى من العرف الى التالد هذا وأنا غائب وبرانى راتب واسواه كاتب ونائب وما أحوجنى فى النوال الى السؤال وأغنانى استرساله فى اغنائى عن الارسال ولم تفتقر مقاصدى ووسائلى الى تسيير القصائد والرسائل وما أغرب بدار فواضله للحلول بدار الافاضل ثم أشفق من غدر الفرنج فى فسخ الهدنه فأتى من تجهيز العساكر الى البيت المقدس بكل ما فى المكنه ثم سمع بحركة المواصلة ومن بايعهم وتابعهم وشايعهم قد نخر جوانى أعيانهم مائتين ولعقد اعيانهم نا كثين فخيم ببركة الجب واستشار أمراءه أهل الرأى واللب وجهز جيشا جائشا وبعثا لعثار الدولة باعثا فى كل مقدم مقدام وهمام همام وضيغم ضرغام وقرم فمقام فوصلوا الى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم وهزمهم

أعطاف الاستكانة له بعد هزمهم فرأى أن الحمد أعود والعود أحمد وسيأتي ذكر ذلك في مكانه عند ذكر الملك العادل وما رفع له من شانه

(ذكر دمشق وما يجري معها ومن تولاها)

وتولى الملك الافضل نور الدين أبو الحسن علي ولد السلطان دمشق والساحل وما يجري مع ذلك من البلاد ونفذت في البلاد أوامره ونقدت في الرجال ذخائره ورتب الامور أجمل ترتيب وهذب الشؤن أكمل تهذيب وجلا السرير السلطاني بنوره وأسفر صباح الاقبال باقبال سفوره وهدى وهدأ وملأ بالبشر المتبلج والنشر المتأرج الملأ وهذب وأذهب ورغب وأرهب ورتب وربت وأصلى وأصلت وأثر وارث ولم الشعث وأبهى وأبهج وأجد المنهج المنهج وروج وبجح ومن ومنح وأرمى وأرمض وبذو بذخ ووعد وأوعد وجدد الجدد وأذاع بحميته سر حمايته وأعاذ ووجد الملاذ من وجد منه الملاذ وأمر وأمر ونصر ونظر وعز وأعز وحاز وحز وساس وراس وملك الباس والناس وأشاع البر وأعاش وأشبع الجياع وروى العطاش واستخلص ذوي الاختصاص واختص أهل الاخلاص ونهض واستنهض وعرض واستعرض وربط عزمه لرباط وأحاط علمه وحاط وحفظ أولى الحفائظ ولاحظ العرف وعرف انه لاحظ لغير اللاحظ وصنع واصطنع وأبدى وأبدع ومد الظل وأسبغ وسوى الفضل وسوغ وأهمى العوارف وأمهى الرواعف وحقق الحقوق ورتق الفتوق وضم الملك ونظم السلك وجلس في دار العدل وأتى بالحكم الفصل وحزم وجزم وعزم والتزم وزاد وزان وأغاث وأعان وأبر أرباب الهوى وأمر من أرباب التقوى القوى وحمى النابه ومحا المكاره وفاض بغزارة العطايا واستفاض بطهارة السجايا وآوى اليه اخوته وضم جماعته وجهز اخاه الملك الظافر مظفر الدين خضرا وأصحبه عسكرا مجرا وأنهضه لانجاد عمه الملك العادل فأنار في فضاء الفضائل وسار بجحفله الى الجحفل الحافل الشمر والتزمع وهزم الجموع وقارع القروم وكان الهازم والعدو المهزوم

وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك وما يجري معها في المملكة الافضلية داخله وأمداد طاعات الولاة والاولياء بها متواصله وصاحب حمص والرحبة

الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ابن ابن عم السلطان وهو أثير الشان أثيل المكان فوصل الى دمشق مطيعا ولم يرصدقه ونشر صداقته مذيعا مشيعا فأحلى له الملك الافضل جنى شهيا وأحله جنابا وسيعا وعقد له حبا الحب وحباه بكل ما سفر عن سفو رمودة القلب ووفور مواد القرب

وكذلك وصل صاحب بعلبك الملك الامجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب طائعا ولامر الافضل تابعا فأدناه واجتباه وأحبه وحباه وأسناه أسماه وآواه وآساه فتأكدت بينهم القرابة المنتجه وتشبكت اللحمة والمنتجه وتمهدت الآصرة الممتزجه وتفتحت أبواب الالفة المرتجه وتوافقوا على التوافق وتصادقوا على التصادق وتعاضدوا على الاخذ بالتساعد وتعاقدوا على ترك التقاعد

(ذكر حلب وما يجرى معها)

وتولى حلب وأعمالها وحصونها ومعاقلها وكرائم البلاد وعقائلها الملك الظاهر غياث الدين أبو الفتح غازى وهو برجاحته وسماحته للطود والجود الموازن الموازى وتلك مملكة أقطارها واسعه وأمصارها شاسعه فحواها وحماها وعماء العدل رواها وقواها وأعز رجال الرجاء وهز أعطاف العطاء ورحب لوراده ورواده رحابه وصب بحيا الاحياء صحابه وأبرت مبراته وأثرت مأثراته وهمع وصح غيثه وغياثه ورعى رعيته فشبعت ورويت ظماؤه وغرائه وزخرت أمواجه وزهرت بثواقب المناقب أبراجه وصابت سماء سماحه وطابت صبا صباحه وعزت بسيرته كتب التواريخ وعزى قلمه وسيفه الى عطارد والمريخ وسعدت وفوده ووفدت سعوده وأثر من أمره النفاذ وكثر بظله الملاذ وأدنى الابرار وأقصى الاشرار وخص الاعزة الخواص بالاعزاز وأوعز بما يعود به الى نضارة الغنى العود الذى ذوى لذوى الاعواز وتمهد لسلطانه الاساس واطرد لاحسانه القياس ووجد من عثر من ايديه الانتعاش وعشا الى جدواه المجتدى وعاش وفرض الفرص ورفض الرخص وأدى الفروض وقضى القروض واستدنى من المناجح شاحطها واستدرك من المصالح فارطها ومهد خلق التحفظ وسلك طريق التيقظ وفرق وجمع وخرق ورقع

وغلب وبلغ ودمر أهل الكفر والنفاق ودمغ وشفى واشتفى وكفى واكتفى وراع وراق وفات وفاق وطلب وأدرك وأخذ وترك وفاض بالفضل وراض بالعدل وقدم الحزم وصمم العزم وأحيى السنن وأولى المنن ولها بالجد عن اللهو وانتهى بالعدو الى البأس المر وبالولى الى النائل الحلو وأمر ونهى وأوهن معاقد ذوى المكايد وأوهى ووفى للوفى وصفى للصفى وأقر البيرة وأعمالها وما يجرى معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود ولم يزل مقبولا أمره غير مردود ودخل فى أمره صاحب حماه وأعزه وحماه وهو ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين واتسع الملك واتسق السلك وكاتب الجوانب وراسل وفارق من رأى وواصل وطال باعه وأطاع أشياعه وهمت همته بالزياده وسمت لسمت السياده

(ذكر الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب أخى السلطان وما جرى له بعد وفاة أخيه)

كان الملك العادل مع السلطان فى الصيد قبل وفاته وكان موافقه ومرافقه فى مقتنصاته فلما عاد السلطان الى دمشق ودعه ومضى الى حصنه بالكرك للاستراحه غير مطلع على سر الغيب فى الاقضية المتاحه فنابه النائب ولم يحضر وقت احتضاره الاخ الغائب فلما عرف وصل الى دمشق بعد أيام ولم يقم لتنفيس كرب الحادث ولم يحدث نفسه بمقام ولم يرم ثلاثا ولم يرم لباثا ورحل طالبا لبلاده بالجزيره حذرا عليها من أهل الجزيره وكان السلطان جعل له كل ما فى شرقى الفرات من البلاد والولايات ومضى كالومض بارق وتخوف أن يطرق بلاده طارق فلما وصل الى الفرات وجد مما خافه دلائل الفترات فأقام بقلعة جعبر ولم يحشد ولم يستحضر العسكر رغبة فى السلم والسلامه ومحبة لمدته المستدامه وسير الى الولايات الولاه ووصى برعاياه الرعاه واستناب فى ميافارقين وحانى وسميساط وحران والرها وشحنها بالشحن واستقام أمرها وحسب أن الاعداء اذا سمعوا بسمعه جمعوا الجمعه وتدافعوا الدفعه وسكن وسكت وتبين وتثبت وعلم العدا أنه فى خف فخفوا وعرضوا وصفوا وما كفاهم ما هم فيه فهموا وما كفوا وساقوا اتراب الطمع وأسفوا فجرت حركتهم هلكتهم وأذهب الله عند مجيئهم بركتهم

(ذكر أهل الشمات وما قدر الله لجمعهم من الشتات)

كان الامير بكتمر صاحب خلاط قد هجر الاحتياط ووصل النشاط وضرب البشائر لرصلاح الدين وظهر في النوب الخمس بشعار السلاطين وتلقب بالملك الناصر وحدث أمله بجر العساكر وراسل صاحبي الموصل وسنجار وطير اليهم كتب الاستنفار وضم اليه من ماردين وطار وطاش وارتاش واتناش وخلط من خلاط الاوشاب والاوباش فبيناهو في أتم غرور وأتم سرور وأحب حبور وأشد سفور وأرقد عين وأركد عين وأغفل قلب وأذهل لب وأطول أمل في أقصر أمد وأكثر مدد في أقل مدد وقد خرج من الحمام ولم يدر أنه داخل الى مغتسل الحمام استشهد على أيدي الاسماعيليه ولعل الله غفر له ونقله بشهادته الى جنته العليه وذلك بخلاط يوم الاثنين رابع عشر جمادى الاولى من هذه السنه وكان أيامه كانت أحلاما رؤيت في السنة وأول بادئ بالخروج متولي ماردين فانه مرد وحشد المدد ونزل على حصن الموزر بالعزم المزور والجد المزور وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين كان أهله عليه ماردين فلما صالحهم استبقاه واستثناه وأضافه الى نائبه بالرها وأعطاه ثم تحرك عز الدين أتابك مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وخرج في الجحفل الحفل وأضافه أخوه عماد الدين زنكي بنصيبين وخرجوا الندا الملقاء مجيبين وقدموا الرسل الى الملك العادل سيف الدين وقالوا نخرج من بلادنا وندخل في مرادنا فكتب الى بني أخيه يستنجدهم ويستنفرهم ويستصرخهم ويستنصرهم فانجدوه بالامداد وامدوه بالانجاد فجاؤه من كل فج وفوه فوجا بعد فوج وكان انجاد حلب أقرب ولدر الاسعاف أحلب ولما عرف الملك الافضل اغتنم واهتم وجمع عسكره وضم وخص وعم وكتب الى صاحبي حمص وبعلبك واستدعى عسكرهما الترك فسار أخوه الملك الظافر مظفر الدين خضر وروض عسكره بورق الحديد الاخضر نضر والملك العادل لقدومه منتظر وأما المواصلة فانهم ما أسرعوا بل أبطؤا وما أصابوا بل أخطؤا وسمعوا ان الامداد العادليه الوافيه متوافيه وان فئته كافة كافيه مكافيه فتجبنوا وتجنبوا وكانوا اقد وصلوا الى رأس عين فاقاموا وسكنوا والملك العادل مخيم بظاهر حران في

جموعه وجنوده واعلامه وبنوده ومساعديه وسعوده وعزمه على اللقاء مصمم وقلبه بحب الظفر متيم وجده غالب وحده سالب وجده لظباء النصر جالب واطيب الذكر جالب وسيف سيف الدين باتر واتر ولحظ الشمس من غبار خيله السائر فاتر وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه ورجال اليزك تتناجى وتتناجه وكان من قضاء الله المحتوم وسر قدره المكتوم تفليل غروب القوم وتقليلهم وحار تأملهم وخاب تأميلهم وجفل رئالهم ورتع رعيلهم وذلك بما قدره الله من مرض أتابك صاحب الموصل ولم يطق الاقامة بالمنزل وأشفى على الخطر وأشرف صفو حياته على الكدر فعاد الى الموصل فى محفة ورجا أن يتبدل ما ألم به من ثقل ألم بخفه وقهقر عماد الدين راجعا ولمن وثق به من أشياعه فاجعا وتضرع صاحب ماردين وتذرع وتشفع بالامراء والاكابر وخضع حتى وقع عنه الرضا وصفح له عما مضى وأجرى على القاعدة السلطانية معه وكان قد ضاق به الفضاء الرحب لولا العفو عنه وما وسعه ورأى عماد الدين أن القوم خانوا واستكانوا وما رعوا له العهد كما كانوا فاضطر الى الانكفاء وكف عن اللقاء فخلا الجو وجلا الضو وعلا النو وأتى الملك العادل الخبر بوصول ابن أخيه الملك الظافر الى الفرات فى عسكر دمشق أهل الثبات فكاتبه بمنازلة سروج وهى من أعمال عماد الدين وأمده بابن تقى الدين وابن المقدم عز الدين ليث العرين فنزلوا على سروج يوم السبت ثامن رجب وفتحوها يوم الاحد تاسعه واستولوا على البلد وأماكنه ومواضعه ورحل الملك العادل منتصف رجب الى الرقة وتسلمها فى العشرين منه وكانت اليد البيضاء فيها للملك الظافر على ما ذكرته ثم رحل وملك بلد الخابور جميعه وعاد كل من عصاه من مقطعيه مطيعه ومال الى نصيبين ونزل بظاهرها وشرع فى ضم ذخائرها فجاءت الرسل العمادية فى طلب الصلح واسفر ليل الحرب بسنا السلم عن الصبح ورحل ونزل دارا وكان صاحبه دار مع القوم وما دارى فبسط عذره وقبض ذعره وأتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلاده من بعده الى نور الدين رسلان شاه ولده وجرى بينه وبينهم صلح وكان له فى كل سفرة تجارة وربح وكتب الينا أن أهل خلاط كاتبوه وعلى تأخره عنهم عاتبوه وان كل صاحب حصن قد ضبط

موضعه وانتظر مطلعه فانه تولاهم بعد بكتمر المعروف بالهزاردينارى فلم يرضوا بابالته لخلاط ولم يروه كفوا لتلك الهدى ثم أشرف العادل على خلاط فوجد أهلها قد كملوا الاحتياط ورأى ان البرد يشتد وأمد الحصر يمتد فعاد الى حران والرها وأعرض عن مخالطة خلاط وتأخر الى الربيع أمرها

(فصل في المعنى أنشأته الى الديوان العزيز في آخر رجب عن الملك الافضل)

لاشك في احاطة العلم الاشرف بحال الذين حالوا عن الانصاف ومردوا ومروا أخلاف الخلاف وعادوا عن خلق التلاقي الى الاتلاف وبدوا بالانتظام في سلك الغدر شمل الائتلاف ونكثوا بعد أيمانهم حتى قيل كفروا بعد ايمانهم وباؤا في بغيهم بغيهم وأبدوا قوتهم في وهيهم وزعموا انهم اذا عزموا نالوا فرصه ووجدوا اذا جدوا في العزيمة رخصه وجاؤا الى البلاد التي للخدم من انعام أمير المؤمنين صلوات الله عليه ليتملكوها واستسهلوا سبل الضلالة بعد الهدى فسلكوها واغتروا باعتزازهم واعتزوا باغترارهم واصيبوا اذ لم يصيبوا ببصائرهم وأبصارهم ودخلوا في دائرة السوء وخرجوا من ديارهم واجتمع صاحب الموصل وأخوه صاحب سنجار وصاحب ماردين وحشدوا وحشدوا وما الظن بشر الحاسدين الحاشدين ووعدهم الشيطان وأحزابه فصدقوا كذب الواعدين وكان العم الملك العادل سيف الدين قد توجه الى تلك البلاد لابقاء أمرها على السداد وانقيادهم بالمواثيق محتفلا بالوفاق الحافل الاقاويق وهو في خواصه وذوي اخلاصه لم ينتظم عسكره ولم ينضم اليه معشره ولم يصف لدفع الشوائب وردع النوائب مورده ومصدره فلما عرف نكرهم وعلم في مكرهم مكرهم توافت اليه الجموع وحنت على قلبه الضلوع وحنت الى أصله الفروع وتوافد اليه بنو أخيه في الجنود وتوافوا أنجدة ساعدت بالسعود وأمد الاخ الملك الظاهر من حلب بالامداد المتظاهره والانصار المتناصره وندب الخادم أخاه الظافر خضرا وأنهضه وسار معه عسكره الذي بدمشق عرضه وسمع الاخ الملك العزيز بخبر القوم وانهم من حول ورد الردى على الحوم فأخرج المضارب وأبرزها وأنفق في العساكر وجهزها وذكر عدة النجدة فأنجزها واهتبل فرصة الفريضة وانتهزها وأقبل على ذخيرة

الفضيلة فأحرزها وتحركت السواكن وثارت الكوامن وهاجت الأقطار وماجت البحار وشابت الاكدار وأصابت الأقدار وأظهر الله قبل الاجتماع معجز آياته في أهل الشمات وخص جمعهم بالشتات وحبلهم بالبتات وخص من تلك الثبات أجمعه الثبات وشغل كل منهم بوباله ووباله وحطه من يفاع اعتلائه الى حضيض اعتلاله وأعادهم على أعقابهم ناكصين وبعقابهم ناكسين وفي آرائهم وآرابهم ناقصين وأظهر الله في كل واحد من أعداد الأعداء آية للعادة خارقة وقدرة الاقدار الاولياء للسعادة خالقة وقتلهم وما قاتلوا وقابلهم وما قابلوا وغادر الغادرين عبرة للمعتبرين وعظة للمتفكرين وعلم صاحب ماردين أنه أخطأ وما أصاب فأبان عن ندمه وأناب وتعرض للعفو عنه وتضرع وتشفع الأمراء في أمره وتذرع فأبديت له صفحة الصفح وعادت له بعد عادية الخسر عادة الربح وأجري على القاعدة المستقرة له في عهد الوالد رحمه الله عليه فرضوا بما فرضوه من الطاعة وتابوا اليه وكان الأخ الملك الظافر خضر قد وصل الى الفرات حين حكم الله لجموع أولئك بالشتات فعبر الى سروج يوم السبت ثامن رجب وقلب العدو من الفتح الذي وجب وجب وفتحها يوم الاحد ضحوة وجاءت هذه المنحة من الله حظوة ورحل الملك العادل بالعساكر الى الرقة لاسترجاع وديعتها المستحقة وهذه ببركات استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة ويمن الائتمار بأوامرها وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها وما السعادة الالمن شملته سعودها وما الجد الالمن وصله جودها وما الكرامة الالمن كرمت عنده بالوفاء عهودها وما العصمة الالمن لزمت في جده النعماء عقودها

﴿ذكر سيف الاسلام باليمن﴾

واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن أيوب أخي السلطان وهو هناك سلطان عظيم الشان مستول على جميع البلدان مختص في مكانه بالامكان وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بأيام فلم يظفر بمرامه ووصل كتابه الى أخيه وهو غير عالم بتوفيه فلما استقر الملك الافضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الاسلام بنعمة وهم في كتابه بما كتب الله من همه والكتاب بانشائي عن الملك الافضل يشتمل على شرح ما ألم وخص به الرزء وعم

وهذا كتاب يشتمل على سيرته وكتبته جميعه وهو صدرت هذه المكاتبة معربة عن النبأ العظيم والخطب الجسيم والرزء العميم والحادث الاليم والكارث المقعد المقيم والنائب الباغت والمصاب الساحت والفجيعة الفاجيه والنكبة الناكبه والطارقة الطاريه والملمة المؤلمة والبلية الباريه والواقعة الرائعه والصدمة الصادعه والحدمة اللافحه والروعة القادحه والغمة التى غامت بها الايام وغم لها الانام واعتل منها الاسلام واختل النظام فقد عدمت المطالع ضياءها والمشارع صفاءها والثغور سدادها والامور سدادها والعيون قرتها والنفوس قرارها والقلوب ثباتها والجفون غرارها والايدى أيدها والوجوه سفورها والصدور انشراحها والاسرار سرورها فقد فقدت الدنيا بهجتها وضات العلياء محجتها واهتدى الضلال الى الهدى وأقوى نادى الندى وأقفرت مغانى الغنى واكفهرت مجالى السنى وأمرت مجانى المنى وخفيت مناهج المناجح وعطلت مناهل المانح وعميت مذاهب المواهب وأظلمت مطالع المطالب وارتجت أبواب الفتوح ودجت أضواء الوضوح ودرست معالم المعالى وطمست زواهر الليالى واضطربت الدهماء واضطرمت الدهياء وبطلت مواسم الحق وأبهمت مناظم الخلق وانقطعت مسالك الجهاد وتضعضعت ممالك البلاد وأخلفت عدات الاعداء وانكشفت أنوار آمال الاولياء وذلك بما أجراه الله من قضائه المحتوم وأظهره من سر قدره المكتوم بمصاب مولانا الملك الناصر روح الله روحه وروض فى جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه فقد عظم الخطب وجل وحل عرى الجلد حين حل وثلم غرب الصبر وفل وأجرى غرب الدموع وأذكى كرب الضلوع وبت حبل اللاجين وشت شمل الراجين وأعلمنا أن الدنيا الدنية حبالها رثاث وحباؤها غثاث وعقودها انكاث وسهولها أوعاث وقصورها أجداث وسرورها غرور ومواهبها أحداث وسكونها قلق وأمنها فرق وصحتها سقم وآملها ألم وغبطتها ندم ووجودها عدم وبقاؤها فناء ونعيمها بلاء وراحتها عناء وملكها هلك وسترها هتك وأخذها ترك وسلمها حرب وصلحها فتك ووفاؤها غدر ووفاقها مكر وعرفها نكر ووصلها هجر وخيرها شر ونفعها ضر وجبرها كسر ومتاعها قليل وباعها فى التطاول

طويل ومالعثارها مقيل ولا فى ظلالها مقيل ولا ارب فيها الاريب ولا اللباب
فيها اللبيب فان ظلها قالص وفضلها ناقص وعمرها قصير وغنيها فقير وربها
جرع وزبها خدع وحليها عطل وسعيها زلل واجداؤها اجداب واعطاؤها
اعطاب واصباحها اظلام وارغابها ارغام وسماحتها بخل ومجادتها خطل
وعقدها مفسوخ وعهدها منسوخ وربحها خسار وجرحها جبار ويسارها
اعسار وخصبها امحال وحبها محال وعماراتها شعث وشيمتها عيث وعبث وتراثها
تراث ولا لمسكنها أساس ولا لساكنها أثاث ولا كيدها فى كيدها ايد ولا لمكرها
فى حد مكرها حدد والسعيد من استعد فى معاشه للمعاد واستكثر مدة مقامه فى
الدنيا السفر الآخرة من الازواد ومن نظر اليها بعين القلى وعرف انها دار البلاء
والبلى وتقوى فيها بالتقوى وجد فى الاعراض عن جدواها للفوز يوم العرض
بالجدوى ولقد كان السلطان السعيد قدس الله روحه بحقيقتها عارفا ولطريقتها
عازفا ولزخرفها عائفا ومن ملكها آنفا وعن مالها متعففا فاشتغل عن الدنيا
بالدين وخصه الله بتأييده فى علم اليقين واقتدى بسنة النبى صلوات الله عليه فما
زاغ بصره وما طغى ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى ووقف
حياته على احياء معالم الهدى والاعلان بشعار التقى واعلاء منار الجهاد واشاعة
سنن العدل والاحسان فى البلاد والعباد وافاضة سجال الفضل والافضال حتى
كفل جوده بفيض الارزاق ووفى بنجح الآمال واخلص لله عمله ولا ملك ملكا
ولا عول مالا الا فى سبيل الله أنفقه وبذله وكان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم
من كان لله كان الله له فلا جرم اذل الله له الملوك الاعزه ووهب لاعطافه الدولة
للتباهى بملكه الهزه وملكه الاقاليم والامصار وأجرى باقداره الاقدار فازال
عن مشارع الشريعة الاكدار وعطل البدعة بمصر واليمن والشام وقمع أعداء
الاسلام ومد الله فى عمره حتى بلغ المراد وفتح البلاد ووفى فى حق الجهاد الجد
والاجتهاد وقدر على ما أعجز عنه الملوك ونهج فى نصرة الدين نهجا أعوز من قبله
فيه السلوك وأخرج الفرنج عن الساحل وابادها وملك عليها ديارها وبلادها
وأوهى على الكفرة معاقدها معاقلها وطال بحقه على باطلها واقصى عن المسجد
الاقصى مذنبه وأزال عنه أيدى غاصبيه وأصرخ الصخرة المطهرة وطهرها

من الارجاس وأبعدها اجناس الانجاس وقهر الكفر وخذله ونصر الايمان وأخذله وأحيى للكرم كل سنه حسنه واستمرت محاسن أيامه سنة بعد سنه وتعدلت بعدله الجوانح وتذللت ببأسه الجوامح ودانت ودنت له الممالك القاصيه وأذعنت اذعنت لحكمه الامانى العاصيه وملكت القلوب والقبول مهابته ومحبته وعمت الخواص والعوام عارفته وعاطفته ونفذت فى الشرق والغرب مراسمه وقامت بالحمد والشكر مواسمه ووفت بأمل الدانى والقاصى والطائع والعاصى مكارمه وأسعده الله وأمهله حتى حقق فى ذويه أمله وولى فى كل اقليم من يعمل لله فى العدل والاحسان عمله ثم توفاه حميد الاثر كريم الورد والصدر ظافر الرجاء رابح الظفر صالح العمل ناجح الامل طاهر الفطره ظاهر النصره كاسيا من الفخار عاريا من العار مرتديا بثوب الثواب مرتويا من صوب الصواب مبتهجا بنضرة النعيم متأرجا بعرف نسيم التسنيم وما كان أبهج الايام بأيامنه والاعصار بعزائمه والامصار بمحاسنه والاسلام بسلطانه والآفاق بسنا احسانه وما كان أسعدنا بجدوده وأجدنا بسعوده وأغنانا بعدله وجوده فقد فقد الصباح فلا سنى ودفن السماح فلا جدى ولا جنى وغاض البحر فلا غنى وهوى الطود فلا ثبات وذوى الروض فلا نبات ووهى الركن فلا سند وانتهى المين فلا اجاد وغلب الكمد فلا جلد وعز العزاء فلا عز ولا قوة ولا عضد انا لله وانا اليه راجعون ولامره تابعون ولحكمه طائعون لاراد لارادته ولا صاد لمشيئته ولا صادف لمصادف قضائه ولا صارف لصرف بلائه ولقد كادت الانوار تغرب والانواء تعزب والمنابع تغور والصنائع تبور والاحوال تحول والاهوال تهول وأضواء المعارف لا تضئ وأفياء العواطف لا تفئ وزهر السماء لا تشرق وأزهار الروض لا تونق ومعاقد الاسلام تهى ومبانى الايام تنتهى لولا أن الله تدارك الارماق بألطافه وتلافى الآمال باسعافه وجلا وجه النعمى من خلال البؤس وأهدى البشر بعد العبوس وأنزل السكينة عند الزلزال على النفوس وأجرى الدولة على أحسن العوائد وأرشد المقاصد وأثبت القواعد من استمرارها على الالتئام واستقرارها فى النظام واستدرارها بأفاويق الوفاق واهلال بدورها غب المحاق وطلوع شموسها من الآفاق وارتفاع فروعها

في سماء السمو وامتداد أصولها في منابت النمو وانفتاح احداقها النواظر عن نور الابصار وانفتاق حدائقها النواضر عن نوار الازهار حتى اجتمعت الكلمة المتفرقة واتحدت وانتظمت الالفة المتبددة وتأكدت وسكنت القلوب الراجفة وأمنت وسكنت الالسنة المرجفة وخرست وأنارت الخواطر المظلمة وأفاقت الظنون الراجحة والافكار المتقسمة وزاد الرونق وزال الرنق وانجلى الغسق وتجلى الفلق واستقامت الامور واستنامت الى حفظها الثغور ووصلت الكتب العزيزية والظاهرية من مصر وحلب بكل ما أنجح الارب ووصل السبب ومرى در النصر وحلب وبكل ما أظهر القوة وقوى الظهر وشد الازر وأمر الامر وسر السر ونصر الحق وحقق النصر من الموافقة والموافاه والموالاة القاضية من الجد المتجدد بالموالاه والمتابعة والمشايعة في كل أمر يبرم وكل حكم يحكم وكل عزم في قمع العدا يصمم وكل عقد في نصر الهدى يلزم ويتمم ووصل المولى الملك العادل فتولى أمر المملوك بكل ما وافق ايثاره وأشاع على عادة الواحد رحمه الله تعالى شعاره ورفع مناره وأخلى من كل شاغل باله ورفه أسراره وأراح أفكاره ومالى الجماعة الامن خطب الجمعة وخطب في الجمع وأعرض عن الهوى للحق المتبع فالكلمة متحدة وان كانت الانفس متعدده وما أخلقت هذه الدولة بل استمرت على تجدد لايام متجدده وانما أشفقت في حال الصدمة الاولى وبدء الرزية الطولى على بيت الله المقدس ومن غدر الفرنج بقصدها فان الغدر شيمة لهم في الانفس فوقى الله شرهم ودفع مكرهم وأوهى أمرهم وهزل من قلوبهم الرعب ولم يؤثروا على الصلح الحرب بل طلبوا بقاء السلامة بابقاء السلم وخطبوا اجراءهم في الوفاء بعقد الهدنة على الرسم وبركات نية المرحوم شملت ووصاياه نفذت وكملت وتوجه الملك العادل الى بلاده الجزرية شرقي الفرات لاستلاح تلك الولايات واخراس شقاشق الهادرين بالارجاف من أهل الشمات ليؤذن بهيبة الاسد جمع النقاد بالشتات وليعيد الى الانس شارد الولي الراشد ويرد بالبأس مكايد الحاسد الحاشد والحمد لله الذي أجد الامن وقد عرت المخافه وأزل الرآفة وقد فجأت الآفه وأبقى الاسلام بعزه والكفر بذله وثبت قواعد الملك الناصري بجمع شمل أهله وأحيى رسم سنتي احسانه وعدله وشيمتي افضاله وفضله

وفي دوام اقبال المجلس السامي دوام اقبالهم ونظام أحوالهم وسبوغ ظلالهم وبلوغ آمالهم

(ذكر ما افترضه الملك الافضل من خدمة دار الخلافة المعظمة
وانفاذ رسوله بعدة والده مع هدايا وتحف سنايا)

لما استقر الملك الافضل بدمشق في مقام والده وشفع طارف ملكه بتالده وأضاف موروث الفضل الى مكتسبه وأكرم نسبه بكرم حسبه بدأ بالاهم الافرض والاتم الامحض فقدم الى الديوان العزيز النبوي نجابين بالكتب وأنهى الحال فيما أم من الخطب ثم ندب ضياء الدين القاسم بن الشهرزوري في الرساله الى منزل الرسالة وموقف الجلاله وأصحبه عدة والده في الغزاء أوان لقاء العداء وسيفه ودرعه وحصانه وأضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والجبل العراب ما استنفد وسعه وامكانه فاتهى أمير الرسول الى أواخر جمادى الآخره حتى حصل كل ما أراده من الهدايا الفاخره وحتى كاتب مصر وحلب وأعلم بمسير رسوله حتى لا يظن انه انفرد برسوله وقصد مدارة اخوته وانضل بفضل نخوته وذلك بعد ان جدد نقش الدينار والدرهم بسمي أمير المؤمنين وولي العهد عدة الدين وأمرني بانشاء الكتب وتحريرها وتقريب المقاصد فيها وتقريرها

(فصل من الكتاب الى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء)

اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء وقلبه معمور بالصفاء ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء ولسانه ناطق بشكر النعماء وجنانه ثابت من المهابة والمحبة على الخوف والرجاء وطرفه مغض من الحياء ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء وهمته في العبودية فارعة ذروة العلاء وهو للارض مقبل وللفرض متقبل وبالطاعة مائل وللاستطاعة باذل وللجهد والاخلاص عارض ضارع ولخرنخره من النصحة والمناصحة صادق صادع وهو عن ما قدمه من المواتو أسلفه من الخدمات وذخره ذخر الاقوات لهذه الاوقات واتخذه عصمة من النائبات وعوذة من الطارقات وعدة عند الملمات وعمدة لدى الخطوب الكارثات ومصرفا لصروف الحادثات ومؤلفا للشمل عند شمول الشتات وعروة الاعتصار

بما فى أزمن الازمات وسلوة من الاسى وآسى الجراح المصيبات ولا خفاء بما أخاف
وفاض له من بحر الصبر وضافه وأغاض نطاقه وعاق أوان رجاء جنى النجاح
وقطافه لولا أن الله تداركه بفضله وأولاه ألطافه فانه دهمه ما دهمه وبغاه ما فجعه
وبغته من الزمان ما صدعنه العيش وصدعه ونابه ما رابه وجرعه مصابه صابه
ووافاه من وفاة والده رحمه الله ما كدر صفو الحياه ومحا عن صفحة صبحه آية الاياه
وألم بألم الامل وأحال الحلى الى العطل وحلأ عن النهل والعلل وأذهب بهجة
الايام وأشمت الكفر بالاسلام وسر الشرك منه ما ساء التوحيد وقرب من اشفاق
القلوب واشفاء الكروب البعيد وعطل الجهاد وأراح الحديد وشب حقود العداة
على انها ما شبت الا لتخمد وشام حدود العتاة على انها ما شيمت الا لتغمد وهذا
الحادث أرجف المرجفون بحديثه وآثار واكوامن الثار وحركوا سواكن
الاوتار بتأثيره وتأريثه وأخرج أهل النفاق رؤسهم من كل نفق وعاد ثبات ثباتهم
الى نفار وقلق ومن كان متمسكا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى مستلئما
من عدد أيامها ومدد انعامها بالدرع الاقوى الاوقى فانه لا يحتفل بحفول أخلاف
أهل الخلاف ولا يتخلخل طود جاه الراسى وحصاه الراسخ لعواصف ذوى
الاجحاف وقد أحاطت العلوم الشريفة مجدها الله بأن الوالد السعيد الشديد
السديد المبير للشرك المبيد لم يزل أيام حياته والى ساعة وفاته مستقيما على
جدد الجد مستديما فى صون فريضة الجهاد الى بذل الجهد مستنفدا فى كل
ما يحوز به المراضى الشريفة وسعه مستفرغا طاقته فى الشغل الدينى الذى يهدى
بصره وسمعه فكم قبض يد ابسطتها بالفتنة الفئة العاديه وكم فرض سنة أعلت
سناها للمعتدين وأحات جناها للمعتدين الدعوة الهاديه ولكم أخرس دعاة
الادعياء وحرس ولاية الاولياء وكانت بكتائبه وكتبه سيوفه وأقلامه للاقاليم
أقاليد ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطغيان فى الممالك عمالك الدار العزيزة
وعبيدها عباديد وأمطر بلاد الكفر من دماء أهلها شآبيب وأقام بها منار
الاسلام ومنابره منابا عن أعوادها أنابيب وأسعرها من كماة الوغى وحماة
الورى مساعير وأنجدها بضوامر ضوامن الظفر عضامير وهذه فتوحه تفوح
بنشر النصر وتضوع وعقوده تروق فى سلك الملك وتروع ومصر بل الامصار

نا تهاده في الجهاد شاهده والانجاد والاغوار في نظر عزمه راصده والبيت
المقدس من فتوحاته والملك العقيم من نتائج عزماته وتوفره على العبودية لمالك
رقه سيدنا أمير المؤمنين أوفر حسناته وكل ذلك في طاعته ومناصحته وبركاته
ومازال ظاهرا على العدا ناصر الهدى معليا معالم العلى محييا مواسم التقى
مبينا سنن الشرع وفروضه مدعيا باعباء الطاعة بقدر الطاقة نهوضه وهو
الذي ملك ملوك الشرك وغل اعناقها وأسر طواغيت الكفر وشد وثاقها
وقمع عبدة الصلبان وقصم أصلابها وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها ونظم
أسبابها وسد الثغور وسدد الامور وأذل للدار العزيزة كل عاق وأخذ لها
على يد كل ذي عتو واستمرت على الايام مساعيه في الخدمة ناجحه ومعانيه
على موازين الموازين راجحه وسيرته حسنه وحسناته سائره ومحاسنه ظاهرة
وسريرته طاهره وختم الله له بالسعاده وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعباده
وقضى وقد قضى من آرائه آرابه وقدم بين يديه أعماله الصالحة ووفاه حسابه وقبض
وعدله مبسوط وأمره محوطا ووزره محطوط وعمله بالصلاح منوط وأمله
بالنجاح مشروط وملكه بحفظ الله وكلاءته مضبوط والمذاهب مهذبة والمراتب
مرتبه والاسباب محكمة والاحكام مسببه والاحوال حاليه والاعمال راضيه
والمصالح مصونه والمناجح مضمونه والرعيه مرعيه والعوائد مرضيه
والقواعد متأثله والمقاصد متصله والثغور مسدوده والخطوب مصدوده
وأصول الدولة ثابته وفروع الدوحه نابته ومازال أمر ابعده غير مستقيم
ولا نهجا غير قويم ولا خلف لمن خلفه ما يحتاج الى تقريبه وتقريره ولا أبقى لمن
بقي له ما يفتقر الى ترتيبه وتدبيره وما خرج من الدنيا الا وهو في حكم طاعة الامامية
داخل وبعمرها لراجع الى دار المقامة راحل ولم يكن له وصية الا بالاستمرار على
جادتها والاستكثار من مادتها والاستسعاد بسعادتها والاستعداد لعبادتها
والاستجارة بظلالها والاستنارة بجلالها والاستعاذة بفضلها والاستزادة من
افضالها وما بنيت القواعد الا على أساس وصاياه ولا أمضيت العوائد الا على
قياس سجاياه ولا أبرم الاما عقده ولا احكم الاما أكده واقتفيت آثاره
واجتليت أنواره واتبع ايثاره واستمرت في ائتمار الاوامر الشريفة أوامره

ومن كان فى نصرة الدولة الامامية الناصرية فان الله ناصره ومايفتخر العبد الابما ورثه فى ولائهامن الفخار وبعثه من آلائها الغزار ونعشه برفعه من العثار وعرفه بعرفه المبر المبار ولايتسم بالملك الامن يتسامى بانه لها مملوك ولا يوصل الى السعادة الابدية الامسالك الى رضاها مسلوك ولئن مضى الوالد على طاعة امامه فالممالك أولاده وأخوه فى مقامه والامر فى كل مكان بالامن والسكون جار على نظامه والكفر مفلول الغرب مخذول الحزب مجبول على الرعب مغلول بقيد السلم عن الحرب فان الله أجرى المشركين مع كثرتهم على حكم القلة وخصهم لابقاء عزة الثغور الاسلامية بالذلة وقد استمرت الحال الى الآن على الهدنة وهم لا يؤمنون اذا أحسوا بالمكنة فان الغدر فى طباعهم مركوز والسوء فى غرائزهم مغروز والعبد آخذ بالحزم عائذ بتأييد الله فى العزم متيقظ لخوف غدرهم متحفظ من مكر مكرهم مستعد بكل امكان مستجد كل مايفتقر اليه من نجدة وقوة بكل مكان مستظهر بما أكد له من مظاهرة المواقف المقدسة فى أموره مستبشر وجه وجاهته منها بسفوره ظاهر بقربه من أيدها وأياديها قوى بظهوره مدل بماله من الموات الاكيده والسوابق الحميده والشوافع المقبوله والذرائع الموصوله موقن ان الرعاية تدركه وان العناية تملكه وان اختصاصه بفضيلة المائة القديمة يجدد له فضل الاختصاص وان فاتحة الخدمة منه والاخلاص تفتح له باب الاحماد والاستخلاص وما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول وانه يزداد بما يزدان به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحلية وقوة النصرة والحول وعول على القاضى ضياء الدين فى المثول بالخدمة الشريفة وانهاء حاله والانتهاء الى مناجح آماله والسفارة فيما يسفر عن صبح المراشد ونجح المقاصد ونصح العقائد وشرح الاحوال فى المصادر والموارد وان بلاغته وفية بالابلاغ مليئة باشباع القول فى اعتفاء الطول المملى بالاسباغ وقد قارضه فيما فوضه اليه واعتمد فى استنجازه واستنجاحه عليه لازالت أيادى الدار العزيزة دارة غزيرة سارة أولياءها وباحياء موات مواتها جديرة ان شاء الله تعالى

﴿ذكر بعض مناقب السلطان رحمه الله﴾

كان مشغوفا فى سبيل الله بالانفاق موقوفا عزمه فى الاعداء بادناء الآجال وفى

الاولياء باجراء الارزاق وما عقر فى سبيل الله فرس أو جرح الا وعوض مالكه بمثله وزاده من فضله وحسب ما وهبه من الخيل العراب والاكاديش الجياد للحاضرين معه فى صف الجهاد مدة ثلث سنين مذ نزل الفرنج على عكا فى رجب سنة خمس وثمانين الى يوم انفصالهم بالسلم فى شعبان سنة ثمان وثمانين فكان تقديره اثنى عشر ألف رأس من حصان وحجر واكديش طمر وذلك غير ما أطلقه من المال فى أثمان الخيل المصابة فى القتال ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب أو موعود به وصاحبه ملازم فى طلبه وما حضر اللقاء الا استعار فرسا فركبه وهجر جياده فاذا نزل جاء صاحبه فاستعاده فكلهم يركب خيله ويطلب خيره وهو يستعير جوادا ويستعرق فى الجهاد اجتهادا وكان لا يلبس الا ما يحل لبسه وتطيب به نفسه كالكتان والقطن والصوف وكسوته يخرجها فى اسداء المعروف وكانت محاضره مصونة من الحظر وخلواته مقدسة بالطهر ومجالسه منزهة من الهزء والهزل ومحافله حافلة آهلة باهل الفضل وما سمعت له قط كلمة تسقط ولا لفظة فظة تسخط يغلظ على الكافرين الفاجرين ويلين للمؤمنين المتقين ويؤثر سماع الحديث بالاسانيد وتكلم العلماء عنده فى العلم الشرعى المفيد وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة فى القضاء أعلم منهم بالاحكام الشرعيه والاسباب المرضية والادلة المرعية وكان من يجالسه لا يعلم انه جليس السلطان بل يعتقد انه جليس أخ من الاخوان وكان حليما مقيلا للعثرات متجاوزا عن الهفوات تقيا نقيا وفيا صفيا يغضى ولا يغضب ويبشر ولا يقطب مارد سائلا ولا صد نائلا ولا أخجل قائلا ولا خيب آملا

ومن جملة مناقبه انه تأخر عنه فى بعض سفراته الامير أيوب بن كنان مشتغلا بمهماته فلما وصل سأله عن سبب تخلفه وما الذى وقفه عن موقفه فذكر ان غرماءه لجوا وألحوا وضنوا باطلاقه وشحوا فاحضر غرماءه وتقبل بالدين وتكفل بالعين وأمرنى بان أحيلهم على مصر بخبزها وهى اثنا عشر ألف دينار مصرية وكسر فقدم نوابه رفقاء على الحمل لما عرف فواقيه من اقتناع صون المال وحب البذل للفضل

ولما كنا بالقدس فى سنة ثمان وثمانين كتب اليه سيف الدولة بن منقذ من مصر وهو

بها أمانيه وقد وضحت في الكفاية مذاهبه ان واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض
منها ألفي دينار ونصب وزعم وصل الى الباب وتحيل وتمحل وخيل وكذب فجاء
الى السلطان من أخبره أن الرجل على الباب وحاله أنه اليه يتقرب فقال قل له
ان ابن منقذ يطلبك فاجهد أن لا تقع في عينه فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا
قدم الرجل بقدمه الى حينه ومما أذكره له في أول سفري معه الى مصر في سنة
اثنتين وسبعين ووردت بها من فضله العذب المعين انه حوسب صاحب ديوانه عما
تولاه في زمانه فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه فما طلبها
ولا ذكرها وأراه كأنه ما عرفها على ان صاحب الديوان ما أنكرها وكان يرضى
من الاعمال بما يحمل عفوا صفوا ويحصل عذبا حلوا وكله يخرج في الجود
والجهاد ورعاية الوفاد والقصاد ثم لم يرض لصاحب ديوانه المذكور بالعطلة ولم
يرا انزواءه في بيت العزلة فولاه ديوان جيشه وأولاه ما دنت له به مجاني جاهه وعيشه
ولما كنا بظاهر حران في سنة احدى وثمانين عم بصدقته الفقراء والمساكين وكتب
الى نوابه في الولايات باخراج الصدقات وقال لي اكتب الى الصفي بدمشق أن
يتصدق بخمسة آلاف دينار صوريه فقلت له الذهب الذي عنده مصري قال
فيتصدق بخمسة آلاف مصريه واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون
حراما ويكتب في كتب الاجر آثاما فسمع ومنع وتاجر الله وربح وسمعت بعد
ذلك الصفي وكان في الخير مجلي كل مضمار يقول قد أحصيت فقهاء المدارس
بدمشق وكانوا ستمائة فأطلقت لهم ستمائة دينار ولما عزم على الرحيل من حران
أفاض بها الفضل وبث الاحسان وقال لي يوم الرحيل أنظر كم بقي بالباب من
الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلثمائة دينار اقسمها عليهم بالقلم وفضل على
أقدارهم في القسم وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة ولم تجده ميسرة فعينت لكل
اسم قسما وعينت بهم خلقا سنى ورسما فبلغ أربعمائة دينار ثم وقفت أفكر
وأردد النظر اليه فأكرر فسألني ما الذي عملت وهل قسمت المبلغ وكملت فقلت
جرى قلمي بقسمة أربعمائة دينار فهل أنقص من كل اسم ربعا فقال أجر
ما جرى به القلم وأحسن صنعا وكان رحمه الله اذا أطلق لعارف عارفه وقلت له هذه
ما يكفيه ردها مضاعفه وكان أصحاب المظالم وأرباب المطالب والراغبون في

الرغائب والذاهبون فى المذاهب يحضرون عندى ويعرفون فى انجاز أمرهم
والنجاح قصدهم بذل جهدى فاكتب لهم توقيعات بتوقيعاتهم وتنتهى فى الاملاء
بنهاية مامولاتهم فيصير بها وعضبها ويضع علامته فيها ويرتضيها واذا ألقى توقيعا
يخطىء فيه ولم يقف بتشره على مرمطاويه الفاها ألفيه من صحبتى ومباحثى
وكفى الملمات وكفاية المهمات بكفايتى وكان يأمرنى باجابة كتب الملوك
واصحاب الاطراف عن كتبهم فى حالتى سلمهم وحربهم وهى تشتمل على أسباب
متنوعه وآراب متفرقه بحسب الحوادث المتجددة والبواعث المتمهدة فاذا
قلت له ماذا أكتب وما الذى اخاطب فيقول أنت أعرف وبحسب ما تعلم من حالنا
تتصرف فاكتب من عندى بالاجابه وتوافق منه الاصابه فقد كنت مطلعا على
سره مضطلعا بأمره ما يخفى عنى مراده وأنا أتيقن لمن ولاؤه ووداده فآتى
بمداناة الاغراض ومداواة الامراض وموازنة الجواهر والاعراض والتمييز
بين أهل القبول وأهل الاعراض فكم أصلح قلمى بينه وبين من عاداه وراض
الجامح من سخطه وقاده الى مدى رضاه

وكان يغضب للكبائر ولا يغضى عن الصغائر ويرشد الى الهدى ويهدى الى الرشاد
ويسدد الامور ويأمر بالسداد فكان مماليكه وخواصه بل امراؤه وأجناده أعف
من الزهاد والعباد ورأى يوما لى دواه بالفضة محلاه فأنكر حل الحليه وادعى
حظر القنيه فقلت على سبيل المدافعه وطريق المناظرة والممانعه أوليس تحل
حلية السلاح واستحبابه فى الكفاح فدواة دواتى أنجع ومدد مددى أنفع
ويراع يراعتى القصير أطول وسلاح قلمى أحد وأحد وأقتل وأقتل وما اجتمعت
هذه العساكر الاسلاميه الا بقلمى ولا تفرقت جموع الكفر الا بكلمها من
جوامع كلمى فقال ما هذا بدليل ولا بعيد تحرمها الى تحليل حتى قلت له ان الشيخ
ابا محمد والد الامام أبى المعالى قد ذكر وجها فى جوازه ونحن نتبعه فلا وجه مع هذا
الوجه الحالى لمن يحظره ويمنعه ثم لم أكتب بعدها عنده الا من دواة الشبه
وتجنبت طرق الشبه وتركت الحلاة محلاه وعادت الشبهيه مجتباة مجتناة وكان
حافظا على الصلوات الخمس فى أوائل أوقاتها مواظبا على أداء مفروضاتها
ومسنوناتها فما رأيته صلى الا فى جماعه ولم يؤخر له صلاة من ساعة الى ساعه

وكان له امام راتب ملازم مواظب فان غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم
اذا عرفه متقيا متجنبا للاثم وكنت لملازمتى اياه يقدمنى اماما فى الصلوات
ومستشارا فى المشورات وكان يأخذ بالشرع ويعطى به وينفق من حل المال
وطيبه ويجود بالموجود ويعد بالمعدوم فى الحال رجاء الوجود فما تعدد فى [illegible]
ويستوعبها انجاز الوعود ولم يكن الى المنجم مصغيا ولم يزل لقوله ملغيا [illegible] عنده
مخالفا لمن جاء بعين المنجمين ولا قبول لمنطق المنطقيين فلا يفضل يوما على يوم
زمانا على زمان الا بتفضيل الشرع واستقصاء الدين فى كل قاص ودان ولا يتعي[illegible]
ولا يتطير ولا يعين وقتا ولا يتخير بل اذا عزم توكل على الله وأقبل على محكم [illegible]
وأعرض عن مظان الاشتباه فكم فل سفه ذى الفلسفه وذل بعزه ذو[illegible]
المعرفه ومازال ناصر التوحيد قاهرا جميع أهل البدع بالتبديد مستجليا
السنه مستجليا حتى الجنه شافعى المذهب أصولا وفروعا معتقداته معقولا
ومسموعا يدنى أهل التنزيه ويقصى أهل التشبيه ويديم استفادة فقه الفقيه
واستزادة نباهة النبيه ووجاهة الوجيه فالعالمون فى عدله والعالمون فى
فضله والبلاد فى أمنه والعباد فى منه والبرية فى رعيه والاسلام فى حماية
جنته والدين فى ادالة دولته وشرعة الشريعة صافية بصفائه ومادة المودة
وافية بوفائه وقامت بيده طريرة طريه من العار عريه وبيد البرية من الشائبات
والشائنات بريه وبالحرية حريه وسرور السر سريه فقد عزت وفضلت
وظهرت بعزيزها وأفضلها وظاهرها وفخرت بمفاخرها ورويت برواتهم آثا[illegible]
مآثرها وتبلجت الآفاق وتأرجت بحسن تباشيرها وطيب بشائرها وبرزت
الارض فى أزهارها والسماء فى زواهرها والحمد لله مجرى الاقدار ومصرف الاكدار
ومدبر الليل والنهار ومدبر الايراد والاصدار وسلم تسليما كثيرا آمين

تم بعون الله الفتح القسى فى الفتح القدسى بالمطبعة الخيريه
لمالكها ومديرها (السيد عمر حسين الخشاب)
بمصر المحميه سنة ١٣٢٢
هجريه